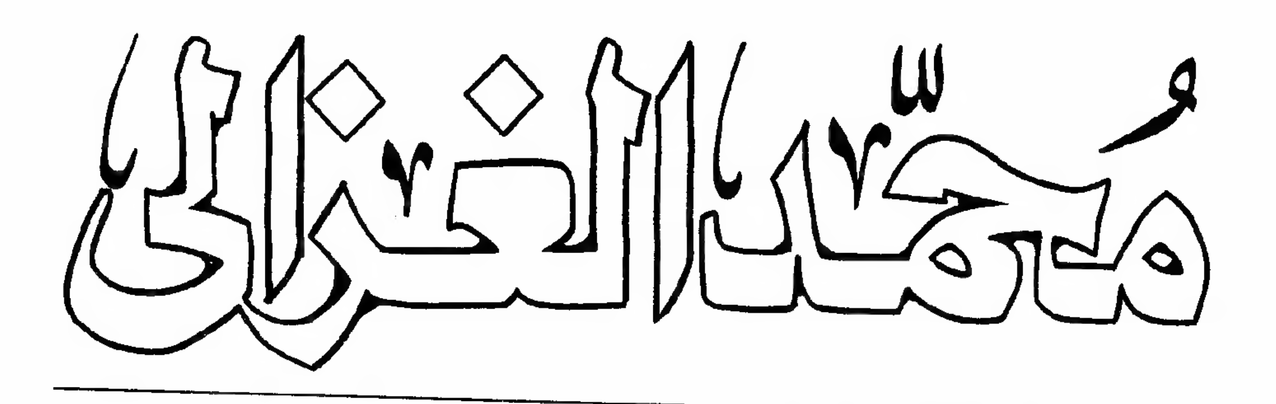
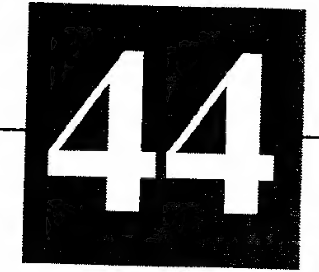


مائة سؤال عن الإسلام





العــنـــوان: مائة سؤال عن الإسلام.
المـؤلــــف: الشيخ/ محمد الغزالى .
إشــراف عـام: داليا محمـد إبراهيـم .
تاريخ النشـر: الطبعة الرابعة يوليو 2005م .
رقـم الإيـداع: 2003/19881
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2521-8

الإدارة العامة للنشـر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة – مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) – 8330289 (02) – فـــاكس: 8330296 (02)
البـريـد الإلكتـرونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مـركـز التـوزيع الرئيـسى: 18 ش كـامل صـدقى – الفـجـالة – القـاهــرة – ص . ب : 96 الفجـالــة – القــاهـــرة.
ت : 5909827 (02) – 5908895 (02) – فـــاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البـريـد الإلكتــرونى لإدارة البـيع: sales @nahdetmisr.com

مـركـز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريــق الحريــة (رشــدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبـد الســلام عـــارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشـركـة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقـع البيـع على الإنتـرنـت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

مقدمـــة

قلبت ببصرى فى عشرات الأسئلة المعروضة علىَّ ثم قلت لصاحبى* : إننى فى كتبى الكثيرة قد تعرضت لهذه الموضوعات ، وأحسبنى أجبت عنها إجابة شافية . .!

قال : لاتستطيع أن تحيل الناس على ما كتبت فى أسئلة محددة توجه إليك ، أعط خلاصة علمية موجزة سهلة فى الموضوع المطلوب منك ، حتى يرجع السائل وقد أضاء الحق لبه وقلبه!! وتريثت قليلاً ثم قلت لنفسى : **إن هذا العلم خزائن ، لعل الأسئلة تكون مفاتيحه! وما يدرينى؟ لعل الله يؤتينى الرشد ويلهمنى الصواب ، فأكشف ظلمة ، أو أمحو حيرة ، أو أطفئ فتنة ، أو أثبت حقّاً يعصف من حوله الباطل . . . وقررت أن أجيب بعد أن يعافينى الله من بعض العلل .**

ولما شرعت أكتب ، وجدت أنى قلما أكرر نفسى ، ففى هذا الكتاب حقائق جديدة ، أو أداء ـ أخضر وأيسر ، أو ترتيب لأدلة كانت مشوشة ، فيما يقرأ الناس من علوم الدين ، أو مزاوجة بين التراث القديم والعقل الحديث .

فإذا وقع بعد ذلك تكرار لفكر سبق فهو مغتفر إن شاء الله مع هذه الفوائد الجمة اللاحقة .

إن اللوم يتجه إلينا ـ نحن دعاة الإسلام ـ لأننا لا نعرف طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، والمنطق الذى يقنع أهله ، والشبهات التى جدت مع مدنيته!

وبعضنا قد يحيا متخلفًا عن عصره ألف سنة . يخاصم فرقًا بادت ، ويناقش قضايا نسيت ما يحب الناس أن يسمعوا عنها جداً ولا هزلاً . . والإسلام لايخدم بهذا الأسلوب .

وحين نظرت فى الأسئلة المطروحة على أدركت أنها وضعت بحكمة وسيقت إلى هدف ، وأن الإجابة الحسنة عنها تغنى الثقافة الإسلامية ، وتجلو غبارًا كثيرًا

---
*الأستاذ خالد محمد خالد .

عن حقائق الرسالة الخالدة . إن الإسلام دين عظيم حقّاً ، بيد أن الساسة الذين حكموا باسمه من بضعة قرون لم يرتفعوا إلى مستواه ، إلا من عصم الله . . وكان لذلك أثره فى مسيرة الدعوة ، وإيضاح معالمها . .! ومصابنا هنا يجب أن يجبره نشاط علمى دءوب مخلص شجاع ، يرد التهم ويقيم العوج وينفع العالمين برحمة الله المهداه ، ويصل الناس بربهم عن الطريق الوحيد المحترم ، طريق العقل المفتوح والمنطق السمح والجدال الحسن .

وإنها لفجيعة أن يسبق إلحاد أعرج ، ويتأخر هدى مستقيم لا لشىء إلا لأن حملة هذا الهدى كسالى ، ومفرطون!

أعترف بأنى لولا عون الله ما كنت لأخط حرفًا ، فقد حاصرتنى متاعب كثيرة ، وأملى أن أكون قد وفقت ، ونلت ما أطمح فيه من مغفرة الله ورضاه .

محمد الغزالى

١ . ما الإسلام؟ ولماذا سمي كذلك؟

الإسلام الخضوع لله ، وتسليم النفس والأمر إليه سبحانه أى إقامة العلاقة بين الإنسان وربه على مبدأ «السمع والطاعة»!

قد يشعر امرؤ بأنه لا سلطان لأحد فى الأرض والسماء عليه ، وأنه يفعل ما يهوى دون ارتباط بتوجيه ما . وقد يقبل هذا الشعور فى تحديد العلاقة بين إنسان وإنسان مثله ، أما بين الإنسان وربه الذى خلقه بقدرته ، ورباه بنعمته ، ورسم له طريقًا مستقيمًا وأمره أن يسير عليه . . فلا مكان لهذا التمرد والشموخ .

إذ الواجب أن يجعل الإنسان نفسه تابعًا لمراد الله ، أو الشخص الذى يتلقى التعليمات من أعلى ويرى ضرورة التزامها . . قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾(١) .

وماذا يمكن أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق؟ بين موجود سيقضى على ظهر الأرض بضع عشرات من السنين تقل أو تكثر ، ثم يرجع بعد ذلك إلى من أوجده؟

أتكون علاقة تجاهل أم معرفة؟ أتكون علاقة تمرد أم خضوع؟

إنه طبيعى جدًا أن يعرف الإنسان هذا الرب الكبير ، وأن يرتبط بأمره ونهيه وأن يتوجه وفق هديه ، وهذا هو معنى الإسلام وهو المعنى الذى قرره المرسلون .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾(٢) .

والمرء إذ يعلن خضوعه لله واحترامه لوصاياه ، وانقياده المطلق لتوجيهه سبحانه - يتجاوب مع الكون كله الساجد لربه ، الهاتف بمجده ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾(٣) .

ويخطئ من يظن الإسلام عنوانًا خاصا بالدين الذى جاء به «محمد» منذ خمسة عشر قرنًا ، إن الإسلام عنوان لجميع الرسالات التى هدت الناس من بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا .

---

(١) لقمان : ٢٢ .　(٢) آل عمران : ١٩ .　(٣) آل عمران : ٨٣ .

صحيح أن حقيقة الإسلام بلغت تمامها ، وأخذت صورتها الأخيرة فى رسالة محمد ﷺ ، بيد أن هذا العنوان أطلقه القرآن الكريم على ما بلغه أنبياء الله كلهم دون استثناء .

إن إسرائيل ـ وهو لقب التشريف ليعقوب ـ ليس إلا نبيا دعا إلى الإسلام وتشبث به ومات عليه وأوصى به أولاده ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾[1] .

والواقع أن الدولة التى تسمى اليوم بإسرائيل هى اسم بلا مسمى ، وعلم على وهم كبير ، لأن إسلامها لله صفر أو قريب من الصفر .

وكان عيسى يعلِّم أتباعه الانقياد لله وصدق عبوديته ، وتأمل فى هذه الآية ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾[2] .

ويشمل وصف الإسلام جميع الأنبياء الذين نفذوا الأحكام السماوية بدءاً من عهد التوراة إلى اليوم . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ . . .** ﴾[3] .

ولا يصح الإسلام إلا باكتمال حقيقتين مهمتين أولاهما حسن معرفة الله ، وتصور الألوهية بأمجادها كلها ، فلا يعد مسلما من أشرك بالله شيئاً ، أو نسب لله ولدًا ، أو ظن الذات العليا متلبسة بالعالم حالّة فى الكون الذى نعيش فيه . . لابد من العلم الصحيح بالله . . ويجىء من بعد ذلك الانقياد له وتنفيذ أوامره .

وفى القرآن الكريم فيض غامر من تنزيه الله ، والثناء عليه ، وإحصاء لأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وإبراز لمعالم العظمة الإلهية لا مثيل له فى كتاب قديم أو حديث سماوى أو أرضى .

---

(١) البقرة : ١٣٣ . (٢) المائدة : ١١١ . (٣) المائدة : ٤٤ .

فأنت تحس عند قراءة القرآن بالشهود الإلهى على كل شىء ، والهيمنة المطلقة ، ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾[1] .

وكيف لايسلم المرء نفسه لمن خلق كل شىء ودبر كل أمر ، وملك السمع والأبصار ، وقلب الليل والنهار ، وأرسل الرياح لواقح ، وفرج الكروب ، وأخرج الحيارى من الظلمات إلى النور ، وفى القرآن الكريم إنكار شديد وغضب هائل على من ينسب لله ابنا ، أو يجعل له بعباده شبهًا ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴾[2] .

وبعد إثبات هذه الحقيقة فى صحة المعرفة بالله تجىء الحقيقة الأخرى . . . وأساسها الانقياد التام لله ، والاصطباغ بطاعته .

ولا يجتمع إسلام لله وتمرد عليه ، أو خضوع له ورفض لأمره!!

فهل معنى ذلك أن المسلم لايتورط فى معصية؟ الحق أن المسلم إذا عرض له عصيان كان ذلك طارئًا غير محسوب ، أو عملا انزلق إليه صاحبه وهو كاره له أو غير مستبين لشره ، ومن ثم فهو يتخلص منه آسفًا ونادمًا وخجلان . .!!

وطبيعة النفس ، وظروف البيئة قد توقع المرء فى سيئة ما ، كالذى يقود سيارته آيبا إلى بيته فتغفو عينه إغفاءة تفقده السيطرة على مقود السيارة فيصاب هو أو يصيب غيره .

إن نور العقل قد ينكسف ، وطاقة العزيمة قد تنفد ، وعندئذ يقترف المرء مالا يليق ، ولا يخرج المرء بذلك عن الإسلام ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[3] ولذلك رفض النبى ﷺ استنزال اللعنة على شارب خمر أوهن الإدمان إرادته ومروءته . إن هذا الشارب يمثل نوعًا من العصيان أو حالة من الاضطراب غير ما يقع فى مجتمع آخر يزرع العنب ويعد المعاصر ، ويفتح الحانات وينظم توزيع الإثم ، ويفرض ضرائب على المتاجرة به . .

(١) الكهف : ٢٦ . (٢) يونس : ٦٨ ، ٦٩ . (٣) الأعراف : ٢٠١ .

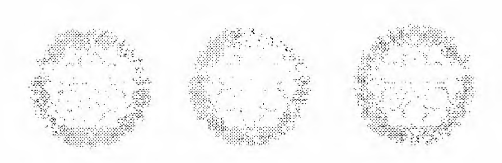
الفارق بعيد بين مستبيح لا يرى لله حقا ، ولا يحس فى عمله جرما ومعتل خارت قواه فسقط ، الأول مجرم لا مسلم والآخر مريض تلتمس له العافية ، ويحسب بين أهل الإسلام .

وقد استطاع نبى الإسلام تكوين أمة مسلمة لله ، تنهض للصلاة له من طلوع الفجر إلى غسق الليل ، وتتردد على المساجد فى رتابة ودقة يمكن أن تضبط عليهما الساعات .

كما أن هذه الأمة التزمت فى شئونها المدنية والعسكرية والثقافية والسياسية أن ترضى ربها ، وأن تتوجه وفق مراده ، بحرص وإخلاص .

قدوتها الأولى والأخيرة إنسان تجرد للحق وأصاخ من أقاصى فؤاده إلى أمر الله له ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[1] .

وكذلك وعى أتباعه هذا القسم المؤكد ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[2] . . . إن خضوع الإنسانية لبارئها الأعلى صدق وشرف ، وهذا هو الإسلام .



(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) النساء : ٦٥ .

٢. لماذا كان الإسلام خاتم الأديان؟

الإسلام هو العلاقة الوحيدة بين الناس وربهم منذ بدأت الخليقة ، وتكونت للبشر مجتمعات ، ونستطيع القول إن القرآن حوى جملة التعاليم التى بلغها الأنبياء الكبار ـ أعنى أولى العزم وحملة الرسالات المهمة ـ فلو كان موسى أو عيسى موجودين لاكتفيا بما قال القرآن فى ترسيخ العقائد وتأديب الأمم .

أما الشرائع الجزئية فإن التفاوت فيها ليست له قيمة كبيرة .

والإسلام الذى بلغه محمد وأخذ الناس به هو الصورة الأخيرة للوحى الأعلى ، وهو كذلك الصورة العامة التى تستغرق الأجناس كلها وتتناول الأجيال التى تسكن الأرض حتى قيام الساعة . . النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتة أى محدودة الزمان والمكان ، أما النبوة العامة الخالدة ـ فهى نبوة محمد وحده لايشركه فى ذلك نبى من السابقين .

وعلة ذلك أن الإسلام بعد ما زود الإنسان بالوصايا الأخيرة للوحى الإلهى وكل إلى عقله أن يتحرك ويشق طريقه ، ويستغل قدرته على الفهم والحكم وتعرف الصواب والمصلحة . . فانتهاء عصر الوحى هو ابتداء عصر العقل ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل فى كتابنا «فقه السيرة» .

إن نبى القرآن عليه الصلاة والسلام أرسى دعائم العقيدة والعبادة والخلق ، وساق نصوصا حاسمة تضبط سيرة المرء وتقاليد الجماعة ، وهذه أسس وتوجيهات لاتختلف باختلاف العصور ، ولايمكن اختراق أسوارها .

أما ما وراء ذلك من شئون ـ وما أكثره ـ فموكول إلى العقل الإنسانى يمحو فيه ويثبت . . فى ميدان العلوم والأنشطة الأرضية وشئون الحياة المدنية والأطوار الحضارية يقدر العقل على الحركة دون قيد يضعه الدين . وفى كل المجالات التى تتحدد فيها المبادئ وتتحرر الوسائل ، يستطيع العقل أن يتصرف دون عائق .

فالشورى مثلا مبدأ دينى لمنع الاستبداد السياسى ، ومنع عبادة الفرد ، وتمكين الأمة من فرض رقابتها على ما يعنيها . .

والعقل له أن يضع من الدساتير مايحقق هذه الغاية .

والعدل مبدأ دينى لمنع الافتيات والتظالم ، وللعقل أن يشرع من القوانين وينشئ من المحاكم مايحقق هذه الغاية إداريا واجتماعيا واقتصاديا .

والجهاد مبدأ دينى لحماية الإيمان وكبح الفتنة ، ووسائل الجهاد فى البر والبحر والجو لاحصر لها ، والإبداع العقلى فى هذه الميادين لا حدود له . . . بل إن شرائع العقوبات المروية تركت أغلب الجرائم للاجتهاد العقلى ، مثل الغش والغصب والتزوير والربا والخيانة والاختلاس وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف . . . إلخ .

وقد تنشأ أحوال يتعين على العقل أن يعالجها ويرقب آثارها ، لأنها لم تعهد من قبل فى عهود الأنبياء ، لا أقول مثل غزو الفضاء وحرب الأقمار الصناعية ، بل فى النشاط الإنسانى العادى على ظهر الأرض ، فقد جدت قضايا خطيرة جعلت الحكومات تفرض سلطانها على نحو لم يعرف فى تاريخ الحياة البشرية من قبل ، وما يتم هذا العلاج إلا بالعقل اليقظ ، مع استصحاب هذا العقل لوحى الإيمان وتقوى الله .

إن الله لا يعجزه أن يرسل نبيا آخر ، لكن هذا الإرسال سيكون عبثا إذا كان عمل النبى المرتقب قطرة من البحر الذى سبقه أو ترسما لخطاه أو تكرارًا لما قاله . . . ومن ثم اكتفت الأقدار بكتاب محمد وحكمته فى قيادة الإنسانية إلى آخر الدهر .

ولو أن ورثة الإسلام من أمراء وعلماء أدوا واجبهم بأمانة ما كان هناك داع لهذا السؤال :

لماذا كان الإسلام خاتم الأديان؟

فإن هذا التساؤل تولّد من الفراغ والقصور الملحوظين على الحياة الإسلامية العامة ، وبخاصة فى العصور الأخيرة .

من المقطوع به أن الأمة الإسلامية فقدت القدرة على قيادة نفسها بسبب فسادها الثقافى والسياسى فكيف تقود العالم؟ أو كيف تقدم نموذجا لصلاحية الإسلام الأبدية لقيادة العالم؟ .

إن أصحاب العقول يرفضون أن يشد العالم إلى وراء وأن توضع قيود على حراكه الفكرى والحضارى ولو كان الإسلام مسلكا رجعيا ، أو توقفا حضاريا لرفضناه دينا يرقى بأتباعه بل دين يرقى بالعالمين .

لكن فقهاء الإسلام الحقيقيين قالوا : حيث تكون العدالة والرحمة فثم شرع الله! حيث تكون الفضيلة والحرية والمصلحة فثم شرع الله !

وماذا ينشد الناس إلى آخر الدهر غير هاتيك الغايات؟

إن اختلاف الليل والنهار لن يقلب حقائق الأشياء . . فإذا كانت الوحدانية صفة الله فإن هذه الصفة لن تتغير ولن تزول مهما اطردت مواكب الزمان .

وإذا كانت تبعية الإنسان لربه حقا لا معدى عنه ، فإن تقدم الحضارة لن يعنى أبدا أن الإنسان استغنى عن الله والصلاة له والضراعة إليه .

وقل مثل ذلك فى ميدان الأخلاق ، والعلاقات الإنسانية كلها .

ويوم ظن أهل الكتاب أن الدين عنوان ومراسم وأوهام مقدسة قيل لهم : كلا ، الدين ارتباط بالله ، وإحسان للعمل ، ولن يضام أحد أخلص لله قلبه ، وأصلح له عمله ، واستقام على الطريق . .! وقالوا : ﴿ **لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[١] .

لماذا لا تكون هذه الحقائق ختام الدين كله؟ رب العالمين يقول للناس فى القارات المعمورة من أرضه ، اتجهوا إلىَّ مخلصين ، وأحسنوا كل عمل تكلفون به ، تظفروا بالأمن وتنجوا من الحزن وتكسبوا الدنيا والآخرة . .

ماذا بعد هذا الكلام؟ وماذا يقوله نبى آخر بعد محمد عليه الصلاة والسلام؟

على أن هناك شرائع تفصيلية ترتبط بهذا الأصل ارتباط الشجرة بجذعها ، ولا يقبل الإهمال لهذه الشرائع الفرعية!

غير أننا نلفت النظر إلى أمرين مهمين : الأول أن تفكير المسلمين لان أمام بدع وخرافات أدخلت على دين الله وهو منها برىء ، وبرزت هذه الأهواء الدخيلة فى أعمال المسلمين أكثر مما برزت معالم الدين الحق ، ومن مصلحة الإسلام لكى يبقى أن ينقى من هذا الغش . . .!

الثانى أن الترتيب المفروض بين شعب الإيمان سرت فيه الفوضى ، فتحولت أركان إلى نوافل ، ونوافل إلى أركان .

وامتدت خيمة الغيبيات لتشمل أمورًا عقلية لها منطقها الحر ، وتبعت أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الأجناس التى اعتنقت الإسلام .

والمعروف أن الحكم الشرعى هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، فلا حكم حيث لا خطاب .

إن الإسلام كان ولا يزال الدين الذى ارتضاه الله لعباده إلى اللقاء الأخير ، ومصلحة الإنسانية فى استمساكها بهذه العروة الوثقى .

(١) البقرة : ١١١ ـ ١١٢ .

٣. هل يستطيع الإنسان السوى الرشيد أن يعيش بلا إسلام؟

لو كان التدين غباوة لآثرت العيش بلا دين ، ولو كان حرجا على النفس أو قبولا للدنية ، أو سطوة عنصرية لآثرت العيش بلا دين! لكن الدين ليس كذلك ، بل هو مخاصمة لكل ذلك . إن الملاحدة خلطوا خلطًا قبيحا بين الحق الذى نزل من عند الله ، وبين الباطل الذى صنعه البعض من عند نفسه وزعم أنه دين .

ومن عرض باطلا ما على أنه دين فهو كاذب ، والكفر بما عرضه واجب .

والناس فى عصرنا هذا فرقاء متباينون ، منهم من ينكر الألوهية ويتصور العالم لا ربَّ له . ومنهم من يعترف اعترافا غامضًا بالألوهية ، ويحسب الأديان الكبرى متساوية المنهج والقيمة . ومنهم من يعتنق اليهودية أو النصرانية ، ولا يرغب عنهما أبدًا ، ومنهم الوثنى المغلق ومنهم المسلم الذى رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا .

وفى المسلمين غوغاء يحيون وفق ما ورثوا من سنن وبدع وعلم وجهل وهدى وهوى .

وفيهم دعاة إلى الحق الذى نفذه السلف الكبار ، ثم استوحش قليلا وكثيرا مع مسيرة التاريخ ، ثم أمسى غريبًا فى هذه الأيام .

ومشكلة الدعاة المسلمين تجىء من الصورة التى يظهر بها الإسلام فى العالم الإسلامى ، وتجعل المرء السوى فى بلاد أخرى ينفر منه .

فلو أن رجلا يعيش فى بلاد حرة ، يناقش فيها الحكومة دونما رهبة ، ويعترض رئيس الدولة ويعارضه دونما قلق ، مثلما كان يفعل المسلمون قديمًا مع أبى بكر وعمر ، لو أن هذا الإنسان قيل له : اعتنق عقيدة التوحيد فهى حق ، ولكن إذا قلت للحاكم : لا ، رميت فى السجن! أو ضرب عنقك !!

أتحسب هذا الإنسان يسلم؟ كلا وماذا يغريه بالدخول فى دين يقدر الحاكم فيه على تدمير مدينة ودفن ثلاثين ألفا تحت أنقاضها ، وبقى بعد ذلك مهيبا مصونا توجل وسائل الإعلام القريبة والبعيدة من تناوله .

إن هذا الإنسان يكفر ويكفر ، ولا يرضى بالدخول فى هذه الدائرة المزعجة . . .
ومن المسئول عن محنته؟ ساسة جبابرة لا دين لهم اشتغلوا فتانين عن الإسلام بأسلوبهم فى الحكم .

وهناك مشتغلون بالعلم الدينى يقدمون الإسلام على أنه حبس وتجهيل للمرأة ، ويجتهدون فى تقرير أحكام تظهر النساء وكأنهن جنس مهدر الحقوق ، محقور المنزلة مغموض العقل يستغرب وجوده فى ميادين العلم والعبادة والجهاد ، بل يستنكر عليه أن يقود سيارة .

لا جرم أن النساء فى شرق العالم وغربه تأبى اعتناق هذا الدين وترى الحكمة فى تجنبه . .!! ويؤازرهن فى ذلك ألوف الرجال الشرفاء .

إن فتنة الناس عن الإسلام بهذه الطريقة هى شىء محزن حقا ، وكثيرا ما أذكر قصة البدوى الذى قالوا : إنه عرض ناقته فى السوق بدرهم واشترط أن يباع مقودها معها بعشرة آلاف . . فكان الناس يقولون ما أرخصها لولا هذا المقود الملعون .

أجل وما أسهل اعتناق الإسلام لولا هؤلاء المحمولون عليه اللاصقون به .

نسأل بعدئذ : هل الشخص الملحد الكافر بالله ولقائه ووحيه يمكن أن يكون سوياً رشيدًا؟ ونجيب : إن مثل هذا المخلوق مصاب يقينا فى بصيرته وسيرته ، وإنكاره لربه أفحش من عقوق الولد لأبيه البر الرحيم .

وقد تكون له موهبة علمية ، لكن ذلك لا يرفع خسيسته ، وقد حكمت الولايات المتحدة بالإعدام على عالم بالذرة أفشى أسرار عمله للروس ، إنه عد من كبار المجرمين لأنه خان وطنه وقومه .

وما الوطن؟ قطعة من الأرض . وما القوم؟ قبيل من الناس . فكيف بمن خان رب الأرض والسماء ورب البشر كلهم؟ ألا يعد مجرما؟

إن عظمة موهبة ما لا تنفى الإصابة بعلل مهلكة ، فقد يكون المرء حاد البصر جداً ، ولكنه مصاب بسرطان يوشك أن يخترم عمره ويورده المهالك ، فما غناء بصره القوى مع علته الجسيمة؟

والشخص الذى يرفض معرفة الله والتقيد بدينه مهما نبغ فى أمر ما ، فهو معتل الضمير ، زائغ التفكير ، مخوف السلوك على الأقربين والأبعدين ، بل هو إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان .

وعبادته لهواه تجعله مشئومًا على نفسه ومن اقترب منه ، وقد يعاقبه الله فى العاجلة فيجعل ذكاءه ضده ، فيبحث عن حتفه بظلفه ويحفر قبره بيده .

وقد وصف الله سبحانه عبيد أهوائهم الكارهين للاستضاءة به ، والاستمداد منه فقال :﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾[1] .

ولقد رأيت فى أرجاء البلاد العربية أناسًا ينتمون إلى «العلمانية» ويستبعدون بعنف كل أثارة للإسلام فى ميدان التربية أو القانون أو الثقافة أو التوجيه .

وتفرست فى وجوه هؤلاء وأعمالهم ، فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية . فيهم مسلمون ـ كما يقال ـ يكرهون ما أنزل الله . وفيهم كتابيون ينضمون إلى كل جبهة تخاصم الإسلام لكى يكثروا السواد ويشبعوا الأحقاد ، ويتظاهرون ـ مع ذلك ـ بالحياد!!

ويستحيل وصف أحد من هؤلاء بأنه إنسان رشيد ، لأنه لو كان ذا نزعة قومية مجردة لعلم أن بنى إسرائيل تسلحوا بعقيدة مهاجمة ، وسياسة جعلت الدين يغتصب الأرض والعرض ، فكيف يقبل الدين مهاجما وترتضى سياسته وتحترم سطوته ؟ ويرفض الدين مدافعا ويعتبر إشراكه فى التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة .

ألأن الدين هنا هو الإسلام ، ولأن الدين هناك هو اليهودية؟!

لا سياسة فى الدين إذا كان إسلاما يدافع ، وتقام الدول من الهباء إذا كان الدين صهيونية تسطو وتوصف السياسة هنا بأنها حكمة وتقدم؟؟

على أنه ليس من الحصافة والرشد رفض نبوة محمد ، وكراهية هذا الإنسان العظيم والتحامل عليه ، إننا نضحك من إنسان يرى أن الأرض كوكب مثلث أو مربع ، أو أن موسى عليه السلام ولد فى الولايات المتحدة . فكيف لا نضحك من شخص يرى بوذا إلها ومحمدًا قاطع طريق؟

وكيف لا نضحك من شخص يرى الإسلام عبادة أصنام واستباحة أعراض ولا يعرفه دين توحيد وعفاف؟ إذا لم يكن هذا الشخص مغفلا ، فهو جاهل بلا ريب ،

---

(١) الفرقان : ٤٣ - ٤٤ .

والجاهل لا يوصف بأنه امرؤ سوى ورشيد ، قد يكون الجهل عذرًا يسقط المسئولية الأخلاقية عند مخالفة القانون ، ولكنه لن يكون منقبة تزين صاحبها . . إن هناك يهودًا يصدقون أن الله صارع أباهم إسرائيل وكاد ينهزم أمامه . ونصارى يصدقون أن الطفل يولد وهو حامل للعنة الخطيئة التى اقترفها آدم ، وإذا لم يعتقد أن عيسى صلب فداءً له باء هو الآخر باللعنة الأبدية!

فليعتقد من شاء ما شاء ، ولا يتطاول فوق مكانته ، ولا يتعرض بالتكذيب للإنسان الذى جاء ينقى رسالات السماء مما أهانها ، والذى جاء فى كتابه هذا التقريع لكل شارد : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾[1]؟

إن جرس هذه الآيات الموجزة ينبعث دقات رهيبة الرنين تثير الحذر ، وتوقظ الانتباه! أو هى ومضات متقطعة تلفت السائر فى الدرب المتشابه كيف يعرف هدفه ولا يثنيه عنه .

إن الجهل بالإسلام نقص شائن ، وما يستطيع أحد الاكتمال بدونه ، وكيف يتزكى امرؤ استغنى عن توفيق الله وهدايته ، وبشارته ونذارته ، لم تُرَطِّبْ قلبه لحظة خشوع ، ولم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين . . .؟؟

(١) النجم :٣٦ - ٤١ .

٤. كيف بُنِىَ الإسلام على خمس؟ وما هى؟ ولماذا خمس بالذات؟

شرحنا أن الإسلام هو العنوان المعروف للدين الذى جاء به خاتم الرسل محمد ﷺ ، وأن الأنبياء الأوائل بلغوا صورًا محدودة لهذا الإسلام تناسب مدارك الأمم الأولى وقدراتها فالدين فى الحقيقة واحد ، يشبه إنسانا فى فترات الصبا واليفاعة . . . ثم اكتمل هذا الإنسان وبلغ أشده ، اكتمل مبنىً ومعنىً ، ذلك هو الفرق بين الرسالة الإسلامية كما بلغها النبى الأخير ، وهذه الرسالة كما بلغها فى فجر الخليقة مرسلون محليون محدودون . . .

وبناء الرسالة على خمس يحتاج إلى إيضاح فإن شعب الإيمان ومعالم الانقياد إلى الله تقارب السبعين عنصرًا .

وهذه العناصر السبعون مبينة فى كتاب الله وسنة رسوله ، وهى تتناول الفرد والمجتمع والدولة ، وتستوعب قضايا خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة!

من أجل ذلك لم يقل الرسول ﷺ : الإسلام مؤلف من خمس أو يتكون من خمس ، وإنما ، قال : «بنى على خمس» .

فهو يشبه الخيمة التى يقيمها الجوالة فى رحلاتهم ، والخيمة تقوم على عمود أساسى فى وسطها ، وأربعة أعمدة تمد جوانبها وتثبت قماشها!

وأنت تعلم أن جسم الإنسان يتكون من أعضاء وعضلات وأربطة وأعصاب وعظام وحواس . . إلخ ومع ذلك فهناك عدة أجهزة رئيسية هى دعائم هذا الكيان الدقيق أحصاها علم الأحياء فى :(١) الجهاز العصبى (٢) الجهاز الدورى (٣) الجهاز الهضمى (٤) الجهاز التنفسى (٥) الجهاز التناسلى والتنويه بهذه الأجهزة ووظائفها لا يلغى بقية ما يتكون الجسد الإنسانى منه . . .

والخمس التى بُنى عليها الإسلام هى : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت . . . .

هذه دعائم البناء ودعائم البيت غير جدرانه وسقفه وأبوابه ونوافذه ومرافقه . . . إلخ .



وشهادة التوحيد ترجمة عن الإيمان القائم فى القلب ، والإيمان معرفة بلغت حد اليقين أو تصديق جازم لايحتمل الريبة ، وانقياد لله لا يقبل ذرة من تمرد .

عندما يشهد المرء أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فقد عالن الناس ورب الناس بأنه ارتضى هذا الدين ، ولزم منهجه ، وتبع قائده . . .

ولا تقبل هذه الشهادة من قائلها ما لم يكن لها رصيد قائم فى القلب ، مهيمن على باطن النفس ، ويعنى هذا أن يكون المسلم ذا ضـمـيـر يرفض الدنايا ، ويأبى مواقعتها ، ويحذر ربه ويتقى عقوبته ؛ لأنه يفقه قوله سبحانه :﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ** ﴾[1] ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾[2] ﴿ **إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾[3] ﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[4] .

كما يعنى هذا أن يظاهر المرء دينه وأتباعه وإن اشتد ساعد الخصوم ، وامتد أذاهم وعظم بأسهم ، وتلك حقيقة التوكل المعتمد على الإيمان بالله الكبير ، إنه ينفى العزيمة الحائرة والإرادة المنسحبة ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[5] ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[6] .

والإيمان مصدر ولاء لإخوان العقيدة وسخط على خصوم الحق ، فالمؤمنون يحبون لله ويبغضون لله ، ولا يكونون أذنابًا أبدًا ولا أشياعًا لأهل الفسوق والإلحاد : ﴿ **وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ** ﴾[7] إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله رمز لمعان نفسية بالغة الأثر فى توجيه المجتمع كله . .

ويجىء بعد الشهادة إقام الصلاة ، إنه ليس أغدر من إنسان يسمع ويرى بقدرة الله ، ويأكل ويشرب من خير الله ومع ذلك يضن على ربه بساعات قلائل يتذكره فيها .

إننا ننفق الكثير من أوقاتنا فى اللهو واللعب ، ونستكثر لحيظات نقف خلالها أمام الله متعبدين . . والمدنية الحديثة مسئولة عن السعار المادى الذى أذهل الناس عن كل شىء إلا نداء غرائزهم ، إن المرء ينطلق وراء رزقه انطلاق الوحش فى البرية لايهدأ حتى يظفر بفريسته ، ثم يعود فيلتهمها هو وأسرته ، ثم ينطلق لمثلها فى يوم جديد .

(١) البقرة : ٢٣٥ . (٢) آل عمران : ٢٨ . (٣) النحل : ٥١ . (٤) آل عمران : ١٧٥ .
(٥) المائدة : ٢٣ . (٦) آل عمران : ١٦٠ . (٧) المائدة : ٨١ .

وهكذا دواليك حتى ينتهى عمره وهو يلهث وراء مآربه وحدها لا يعرف له ربّاً ولا يؤدى له حقّاً! ما أتفه هذه الحياة ، وما أسوأ عقباها . .

أما المسلم فهو بين الحين والحين يصغى إلى داعى الله يهتف بصوت جهير الله أكبر الله أكبر ، فيلبى النداء ، ويكرر التكبير ويسعى للوقوف بين يدى ربه قانتًا خاشعًا .

والصلاة فى الحياة الإسلامية ليست عملاً فرديّاً يهتم به صاحبه وحسب ، بل هى سمة اجتماعية تسيطر على جمهور المؤمنين وتدفعهم إلى التلاقى فى محراب العبادة جماعات متكررة من الفجر إلى العشاء .

ومن هنا جاء التعبير بإقام الصلاة لا أداء الصلاة ، إذ المقصود إتيانها فى جماعة ، والتحشيد لها ، والخشوع فيها ، وإعلاء شعائرها . إعظامًا له ، وإبرازًا لحقه تبارك اسمه .

ونرجئ الكلام فى الزكاة والصيام والحج إلى مكان آخر ، ونتحدث الآن عن الأركان الخمسة جملة لماذا كانت خمسة .

ترى لو كانت أربعة أو ستة أكان السؤال ينتفى؟ لا . والسؤال الدائر يسقط من تلقاء نفسه ، مثل لماذا كان اسم فلان زيدًا ولم يكن عمرًا ، إنه سؤال يتسلسل إلى ما لا نهاية فلا معنى له . . ومع ذلك فهناك إجابة مقنعة فى هذه القضية قدمها الشيخ الكبير الدكتور عبدالله دراز تدور على هذه العبادات خاصة هى شارات الإسلام ومعالمه التى تميزه عن غيره ، وأن غيرها قد يقوم به يهود أو نصارى أو ماديون ، كمكارم الأخلاق مثلاً!! وقد تكون هناك عبادات إسلامية محضة لكنها دون هذه الأركان فى الدلالة والقيمة .

وننقل ما قاله الرجل الذكى رحمه الله . فبعد أن تحدث عن الإيمان وأنه عصب الحياة فى الدين ومصدر الطاقة الكامنة فى أعماله كلها تساءل عن الصلاة والزكاة والصيام والحج لماذا ذكرت دون شعب الإسلام الأخرى! فقال : لأنها أعظم المظاهر وأوضح العناوين على الإيمان بهذا الدين من حيث هو دين سماوى ـ لما فيها من الاستسلام لأمر الله لمجرد أنه أمره دون قصد إلى مصلحة عاجلة من المصالح العامة أو الخاصة ، أما ما عداها من الأعمال فليست لها هذه المنزلة فى الدلالة على الانتماء إلى الإسلام .

ذلك أن الفروع الدينية منها ما هو باطن لا اطلاع لنا عليه كالإخلاص والتوكل والرضا ، ومحبة الخير للغير وسائر ما يبحث عنه علم الأخلاق ، وهذا القسم لا يصلح شعارًا ولا علامة ظاهرة للمسلمين فضلاً عن أن يكون أساسًا لشتى العبادات والمعاملات . .

أما الأعمال الظاهرة فى الشريعة فأنواع ، منها ما يرجع إلى المصالح التى تقتضيها

الفطرة ، كوسائل الحفاظ على الشخص أو النوع من النظافة والستر وطلب الرزق وابتغاء النسل من طريق شريف ، وكالجهاد دفاعًا عن النفس أو العرض أو الحق كيف كان .

ومنها ما يرجع إلى المصالح التى تدركها العقول وتهدى إليها التجارب كقوانين المعاملات وآداب الاجتماع من الصدق والوفاء بالعهد والإقساط فى الحكم ، وبذل العون للمحتاجين والدعوة إلى الخير والضرب على أيدى المفسدين . .

وهذان النوعان لايعد الاستمساك بهما دليلاً على إسلام صاحبهما ، فقد يستمسك بهما من هو على دين باطل ومن لا دين له أصلاً ، استجابة منه لدواعى الفطرة والعقل دون نظر إلى توجيه سماوى . .

بقى قسم العبادات وأعنى بها الأمور التعبيرية التى لها رسوم وأوضاع دينية خاصة لاتهدى إليها الغرائز ولا العقول ، كالصلاة المحدودة بأوقاتها وأعدادها وهيئاتها ، وكالزكاة المحدودة بأنواعها وأنصبتها ومقاديرها ومواقيتها ، وكالصيام المحدود بزمانه وكيفيته وكالحج ، والأضاحى ، والكفارات ونظام التوارث ، والعقوبات المقدرة المعروفة بالحدود ، ونحو ذلك من الأمور التى لاحظَّ للاجتهاد فى وضعها ولا فى تبديلها وتغييرها مهما تغيرت الأحوال والعصور .

فهذه الأمور جديرة بأن تسمى رموزًا دينية ، وشعائر إسلامية ؛ لأنها لايتعاون فيها مع باعث الدين باعث آخر من غرائز النفس ولا هدايات العقول ، ولذلك لا يشارك المسلمين فيها أهل دين آخر بصورتها المرسومة فى الإسلام .

لكن منها ما ليس بواجب قطعى عينا كالضحايا ، ومنها ما لم يقصد وضعه ابتداء بل علق على وقوع شىء من المخالفة لتعاليم الدين كالحدود والكفارات . .

على أن الحدود ونظام المواريث ـ وإن كانا تعبدين ـ إلا أنهما من الأمور الموضوعة لإقامة مصالح الدنيا بالقصد الأول ، وقد يأخذ بهما من ليس على هذا الدين لما فيهما من المناسبة للعقول . . فلم يبق من فروع الدين ما يصلح أن يكون أساسًا لشعائر الدين سوى الأركان الأربعة المذكورة فى الحديث ـ مع الشهادتين ـ لأنها شعائر ظاهرة خاصة بهذا الدين وحده ، واجبة وجوبًا عينيّاً ، مقصودة للشارع قصدًا أوليّاً ، موضوعة لإقامة مصالح الدين أولاً وبالذات ، ومصالح الدنيا ثانيًا وبالعرض!

فلذلك كانت لها الصدارة على سائر الفروع ، حتى نظمت مع الأصل الذى هو مبدأ الإسلام ـ يعنى الشهادتين ـ فى سلك واحد وصارت القواعد خمسًا . .

وهذا الكلام للعلامة الشيخ دراز من خير ما قيل فى شرح بناء الإسلام على خمس .

٥. ما مكان التصوف فى الإسلام؟

إذا ذكر التصوف تراءت للعين صور شائهة لرجال يتبعون طرقًا شتى ، وتنتظم فى المناسبات الدينية مواكب لها بغام منكر ، تخدم السلطات الغاشمة ، وتحيى البدع والخرافات ، وقلما ارتفعت لها راية فى ميدان جهاد . .

والحق أن هؤلاء الغوغاء لا علاقة لهم بالتصوف ، ولا يعرفون منه قليلاً ولا كثيرًا .

التصوف ـ سواء كانت الكلمة عربية أو مترجمة ـ يعنى حقائق أخرى جديرة بالدرس والتمحيص . والتراث الصوفى يتضمن أحيانًا قضايا فى ذروة الشرف والسناء ، كما يتضمن أحيانًا أخرى شطحات لا وزن لها ، بل ينبغى اطراحها والنأى عنها .

وأول ما نحذر منه هو التصوف الفلسفى الذى نُقِل عن الهنود واليونان الأقدمين عقائد الحلول ووحدة الوجود ، ومشيًا وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الإسلام ، ولا يمكن ربطها بالوحيِ الصحيح كما أن هناك تصوفًا ضاهى الرهبانية البوذية والنصرانية ، وأعلن حربًا على الجسد لا عقل فيها ولا جدوى منها ، أو استدار للحياة الدنيا فلم ينشغل بها ولم يكدح فيها ، وكون أجيالاً من القاعدين والمنسحبين فى ميادين الحياة شقى بهم الإسلام دهرًا ، ولم ينجحوا لا فى كسب الدنيا ولا فى كسب الآخرة .

إننا نرفض هذا اللون من التصوف ، ونؤكد أن الإسلام يستنكره ، وأظن أن بداهات الفطرة والعلم والارتقاء الإنسانى تعترضه . .

ولكن هناك تصوفًا نبت فى أكناف الإيمان والإسلام والإحسان ، ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع أن يلون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفانى فى مرضاة الله ، والحس الدقيق بوجوده وشهوده ، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة ، وإن كانت أحوالهم نكدة فيما يرى الناس ، حتى يقول قائلهم : حبسى خلوة ، ونفيى سياحة ، وقتلى شهادة !!

هذا التصوف يحوّل المعرفة النظرية المجردة إلى عاطفة قلبية مشبوبة ، فالتكاليف تؤدى برضا واستحلاء ، لا بتعب ومعاناة ، والمعاصى تترك باستغناء واستعلاء ، كما قال يوسف عندما تعرض لإغراء الملكة وصويحباتها وفرش له طريق الغواية بالأزهار : ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾[1]!!

وانتقال العلم من تصور ذهنى جاف إلى شعور قلبى رقيق عطاء إلهى جليل القدر ، وقد أشار ـ إليه القرآن الكريم وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[2] . كما أشار إليه النبى ﷺ فى قوله : «**ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا**» ويقول علماء النفس : إن للشعور ثلاثة مظاهر هى : الإدراك والوجدان والنزوع .

ونقول نحن : من أراد الله به خيرًا جعل إدراكه يقوم على الصدق ، وجعل وجدانه يقوم على العمق ، وجعل نزوعه يقوم على الشوق . .

إننا عندما نرمق عظماء المؤمنين نجدهم أوتوا من عمق العاطفة بقدر ما أوتوا من صدق المعرفة ومن ثم يكون نزوعهم حارًّا ممتدًا .

وتدبر الآيات فى وصف موسى عليه السلام : ﴿ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾[3] .

وتدبر حرارة الحب ونزوع الشوق فيما روى من أن النبى ﷺ كان يعرض ثوبه لبواكير المطر ، ويقول : «**هذا مطر حديث عهد بربه..**» .

أفكذلك ترى جماهير المتدينين؟ أو هل يرتفع علماء الدين إلى هذا المستوى؟

فى قراءاتى وتجاربى رأيت أناسًا على حظ حسن من علوم الشريعة وأحكام الفقه ، بيد أن قلوبهم خاوية من الإحساس اللطيف ، والرغبة فى التسامى ، والحب

---

(١) يوسف : ٣٣ . (٢) الحجرات : ٧ ، ٨ . (٣) طه : ٨٤ .

للآخرين . . كما رأيت أناسًا فى مشاعرهم لطف ، وفى مسالكهم إيثار لكن يشينهم قصور علمى وفقه قليل فى شرائع الإسلام .

كلا الصنفين مسىء ومقصر! والواقع أن العالم الذى لا قلب له كالشاعر الذى لا وعى له ، بلاء على الإسلام وعائق عن الانتفاع به . .

فالدين عقل وعاطفة ، وعلم وأدب ، ونظر صائب ، وبصيرة نيرة .

ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ، ومتصوفون صفر الأيدى من قوانين الشريعة وضوابطها!

والراسخون فى العلم سالمون من هذه الآفات ، ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم والغزالى وابن الجوزى والرازى وغيرهم يرى رجالا على درجة رفيعة من جيشان المشاعر والاستبصار العقلى .

واسمع للإمام المدقق ابن القيم وهو يحدو النفوس إلى الدار الآخرة ، ويقول لكل سائر على الدرب :

فحى على جنات عدن فإنها   منازلك الأولى ، وفيها المخيم

أو إلى أبى حامد الغزالى الذى أشرف على تفكير أرسطو وأفلاطون ، واستبان عثراته وكشف ما اعوج منه ، ومع هذا الاستعلاء العقلى فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله حتى إذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حالته يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى!!

وعندى أن تفاوت هؤلاء الأعلام فى آرائهم يرجع إلى تفاوت العلل التى عالجوها ، وتشخيص الأسباب التى أدت إليها ، ذلك إلى جانب ما بين طبائع البشر من خلاف فى الأذواق والآفاق .

والقدر المقبول ، بل المطلوب ، من التصوف يكون فى الميادين الآتية :

أولا : فى دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه .

ويلاحظ أن النفس الإنسانية شديدة المكر واسعة الحيلة ، وأنها قد تحقق ما تهوى عن طريق ظاهره الطاعة ، وباطنه إشباع الهوى . .

ثانيًا : التمرس بمقام الإحسان ، وطول البقاء فى نطاق أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولا يتم ذلك بتـألق ذهنى فى خلوة بعـيـدة ، وإنما يتم مع التـقلب فى البـلاد والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة . . إلخ .

ثالثًا : تتبع آيات الله فى الأنفس والآفاق ، ومدارسة الحاضر والماضى ، ومحاولة الارتقاء إلى مستوى الكتاب الكريم والسيرة الشريفة ، فإن الأبواب كلها موصدة أمام من حُرِم التأسى بمحمد ﷺ ، فهو إمام الأتقياء وسيد المربين . .

وفى هذا المجـال أذكـر أننى أفـدت إفـادة عظيـمـة من ابن عطاء الله السكندرى ، وقد شرحت جملة من حكمه فى كتابى «الجانب العاطفى من الإسلام» .

وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب «الرافعى» بأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم فإنى ـ مع إكبارى للرافعى وأدبه ـ أرى أن كلمة سعد أصدق مـا تكون فى حكم ابن عطاء الله رحـمـه الله . وأعـرف أن أناسًـا سيـقـولون إننى خلطت بين تعاليم الإسـلام وشـمـائل الأتقياء من ناحية ، وتراث الصوفية وتعاليم رجالهم من ناحية أخرى .

ولو صـدق هؤلاء فـسيكون الخـلاف على أسـمـاء لا على مـسـمـيات ، ويكون سهلاً ، والمهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادى ، وتشرئب عواطفه إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض .

وأن يطالع أمجاد الألوهية فيما يرى ويسمع ، ويتجافى عن دار الغرور ، ويطمئن إلى دار الخلود!

٦. ما موقف أهل الكتاب في الإسلام؟

إذا تحدثت - أنا المسلم المحرج فى هذا العصر - عن أهل الكتاب ، شعرت بظلم ذوى القربى ومقدار حزنه فى النفوس . وشعرت بالدهشة للضغائن التى أكنها القوم ضد محمد وكتابه ورسالته ، وما كان ينبغى بتة أن يقابل الإسلام بكل هذه البغضاء ، ولا أن يلقى نبيه كل هذا النكير . . بدأ الحديث عن أهل الكتاب مقرونًا بحسن الظن ورجاء الخير من جانبهم ، وانتظار عونهم فى مواجهة عبدة الأصنام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فإذا كذب الوثنيون التوحيد ، وخاصموا صاحبه فإن اليهود والنصارى لن يفعلوا ذلك !

وشرحًا لهذا الموقف المرتقب يقول الله تعالى :﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)** ﴾[1]! .

وعندما يوغل المشركون فى عنادهم يعتز المسلمون بأن نفرا من أهل الكتاب أيدهم ، وصدق ما لديهم ، ودخل فى دينهم ، قال تعالى :﴿ **وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** ﴾[2] .

وربما تعصب بعض اليهود والنصارى ضد الإسلام ، وتحاملوا على نبيه ودعوته ، وتجهموا لما تلقاه الرسالة من رواج هنا أو هناك فما الموقف منهم؟

يقول الله تعالى : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾[3] .

لكن جمهرة أهل الكتاب - خصوصًا اليهود - رفضوا الاعتراف بالنبى الجديد ، ونافسوا المشركين فى إطفاء نوره ، واقتلاع جذوره ، ووضع العوائق فى طريقه حتى ينفض الناس عنه .

---

(١) الرعد : ٤٣ . (٢) القصص : ٥١ - ٥٣ . (٣) العنكبوت : ٤٦ .

كان من الممكن بمقياس العقل والمصلحة - ترك الإسلام يعرض نفسه على الناس ، وهو لايملك سلاحًا إلا الإقناع المجرد ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾[1] ومن لم يشأ فليدعنا وشأننا وندعه وشأنه .

وتدبر هذا التوجيه الإلهى ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾[2] .

فليرفض الإسلام من كرهه ، فلن نحاول إكراهه على شيء . إن النبى مبلغ وحسب . . لكن أهل الكتاب وقفوا فى جبهة واحدة مع الوثنيين يعترضون للدين الجديد ، ويرفضون مهادنته ولا يأذنون له بالمرور . .

فإذا انشرح بالإسلام صدر ضاقت لذلك صدورهم وتمنوا لصاحبه أن يرتد إيمانه الجديد إلى جاهليته القديمة ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . . . ﴾[3] .

والغريب أن أهل الكتاب بعد خمسة عشر قرنًا من مطلع الرسالة الخاتمة لايزالون كما هم ، لم يثوبوا إلى رشدهم . تهدد الفلسفات المادية وجودهم ، ويزحف الإلحاد الأحمر على حضارتهم ، وبدل أن يتعاونوا مع المسلمين على مقاومة الظلام المقبل ، يتجاهلون كل شيء إلا ضرورة القضاء على الإسلام وإبادة أهله . . .

سمعت واحدًا من أهل الكتاب يقول : من الصعب تصديق رجل مولع بالنساء ، تزوج تسعًا منهن ، من الصعب تصديق أنه نبى . . . . . !

قلت : ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى ببناته وهو مخمور . .!!

ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى بإحدى قريباته خداعًا أو اغتصابًا .

ومن السهل التصديق بنبوة رجل تعجبه امرأة مجاهد فى سبيل الله ، فيستقدمها ويضاجعها ويضع خطة لقتل زوجها حتى ينفرد بها . . .!!

---

(1) المزمل : ١٦ .

(2) الشورى : ٤٧ ، ٤٨ .

(3) البقرة : ١٠٩ .

هؤلاء فى مواريثك الدينية أنبياء عظام . . أما محمد الذى تزوج بعض الأرامل وعاهدهن على ترك الدنيا وزينتها ، وطلب منهن أن يقمن الليل معه متهجدات ، وما تزوج واحدة إلا لسبب اجتماعى ، وعرض عليهن جميعا مفارقته إن رغبن فى المتاع العاجل ، محمد بعد هذا كله ليس جديرا بالنبوة ، إن الزناة فى منطق العميان أولى بها منه !!!

وتوجد الآن عصابات من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين تقاتل الأمة الإسلامية ، وتقترف المناكر للإتيان على رسالة محمد ، وتشويه سمعته ، وإطلاق الإشاعات الكاذبة حوله . .

على أن هنا أناسًا من أهل الكتاب أوتوا سعة فى العلم ، ونزاهة فى الحكم ورغبة إلى الله ، آمنوا بموسى وعيسى ومحمد جميعًا ، ورفضوا أن يبهتوا عباد الله الصالحين ، ويناصبوهم العداء . وقد أشار القرآن الكريم إلى أولئك الصنف الطيب من اليهود والنصارى مُنوِّهًا بسيرتهم وعدالتهم ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾[1] كما قال تعالى : ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[2] .

ويمتاز هؤلاء ببحثهم عن اليقين ، وعشقهم للحق وازدرائهم للظنون السائدة مهما غلب سلطانها ، وقد التقيت بالدكتور «موريس بكاى» فى ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر وسمعته يتحدث بإعجاب واحترام شديدين عن أسلوب القرآن فى تناوله للحقائق العلمية والتاريخية ، وكيف عُصِم من الأخطاء التى تورطت فيها كتب مقدسة أخرى .

وقد سأله أحد الناس : لِمَ لم يعلن إسلامه؟ فأجاب : قلما أسير إلا متوضّئاً . .!

وقد أسلم بعض المستشرقين ممن غالبوا قيود التقاليد ، ونلحظ أنه إذا أسلم عشرة

(١) آل عمران : ١٩٦ .　　(٢) النساء : ١٦٢ .

آلاف نصراني فلن يسلم إلا يهودي واحد! إن النصارى أرق قلوبا وألين عريكة ﴿ . . . ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ . . . ﴾[1] .

وهناك أهل الكتاب خطوا إلى الأمام خطوة واحدة ، فقالوا : إن محمدًا رسول حقا ولكن إلى العرب وحدهم !

وقد ظهر هذا الفريق قديمًا وحديثًا ؛ لأنه تأمل في سيرة النبي وحبه العميق لله وتفانيه في نصرته وحرارته في دعوته ، واستعداده للقائه بأمداد لاتنقطع من العبادات والجهاد ، فاستيقن أن ذلك كله يستحيل أن يصدر عن كاذب ، فماذا يصنع؟ قال : إنه رسول للعرب حتما!! .

ونحن مع ترحيبنا بكل خطوة سلام من خصومنا نقول : إن هذا الموقف لا يكفي ولا يشفي ، فمحمد يحمل أشفية السماء إلى أهل الأرض أجمعين ، والتنكر لعموم الرسالة قريب من إنكار أصلها . .

والواقع أن المطالع للقرآن الكريم يجتذبه هذا الحماس الجارف في الحديث عن الله ووحدانيته وأسمائه الحسنى ، وإلحاح محمد ـ باسم الله ـ على الخلق كلهم أن يعودوا إلى ربهم الأحد﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2] أرأيت؟ إنه نذير مبين وحسب! من يرفض هذا الإخلاص الرائع ؟؟

وهناك أهل كتاب يحبسون في نطاق ما ورثوا لا يعرفون عن محمد شيئًا ، أو يعرفون ترهات من رجال الدين التائهين أو بعض السادة الموتورين .

وتبصير هؤلاء بالحقيقة كلها دَيْن في أعناق الدعاة المسلمين لم ينهضوا بسداده ، ترى متى ينهضون؟ وحساب هؤلاء إلى ربهم! والذي أراه أنهم مكلفون ـ في غياب الوحي عنهم ـ بمقدار ما أوتوا من ذكاء وقدرة على نقد الموروثات الرديئة واتخاذ موقف ما منها .

---

(١) المائدة : ٨٢ ، ٨٤ .
(٢) الذاريات : ٥٠ ، ٥١ .

ولا أظن هذا الموقف ينطبق على أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهرانى المسلمين! والذين جند الاستعمار العالمى نفرا منهم ارتكبوا المذابح واقترفوا المآسى وخانوا الجوار . . . .!

على أن الإسلام وضع شرائع فى معاملة أهل الكتاب والتلطف معهم يمكن أن نذكرها فى الفصل القادم عند الحديث عن الرسالات السابقة . . .

وهناك حديث يعطى معناه للوهلة الأولى حكما لم يقل به الفقهاء ، ومن ثم فإن قبوله مطلقًا أو رفضه مطلقا لا يجوز! والواجب استبانة معناه الحقيقى كما قرره الراسخون فى العلم!

والحديث من رواية البخارى : «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله» فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها . .**» مصدر الخطأ فى فهم «أقاتل الناس» فقد طارت أذهان إلى أن كلمة (الناس) تعنى البشر كلهم! وهذا غلط بإجماع العلماء فإنهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهود ونصارى . .!!

لماذا؟ لأن المهتدين من هؤلاء إذا ضربت الحرب بيننا وبينهم ، ونسوا منطق الإيمان والحلال والحرام فى تصديهم لنا ، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين ، بل إذا كسر الله شوكتهم ، بقوا على أديانهم ، وجردناهم من أسلحة العدوان ، وتولينا نحن الدفاع عنهم إذا هاجمهم أحد ، وعليهم ـ والحالة هذه ـ أن يسهموا فى نفقات الحرب .

وهذه ما أبانته سورة التوبة : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾[1] . فليست الغاية من القتال إذن أن يقولوا : لا إله إلا الله ، كما جاء فى الحديث!!

فإذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور . فهل يتناول الوثنيين كلهم؟! والجواب لا! ففى حديث آخر صحيح إلحاق للمجوس بأهل الكتاب : «وسع سنة أهل الكتاب» الحق أن الحديث فى مشركى العرب الذين ضنوا على الإسلام وأهله بحق الحياة ، ولم يحترموا معاهدة مبرمة ولا موقفًا مأخوذا ، وقد منح

(١) التوبة : ٢٩ .

هؤلاء أربعة أشهر يراجعون أنفسهم ويصححون موقفهم ، فإن أبوا إلا القضاء على الإسلام وجب القضاء عليهم ، وقد فصلت سورة براءة هذه القضية فى أوائلها : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾[1] .

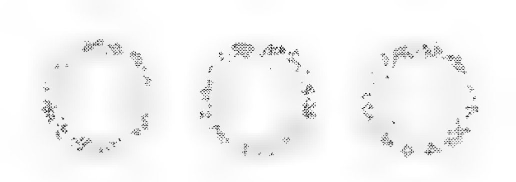
أما من نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده إلى آخر رمق فلا يلومون إلا أنفسهم .

وقد يتساءل البعض : لماذا جاءت كلمة الناس عامة فى الحديث : «أمرت أن أقاتل الناس» والجواب أن (الـ) كما يقول علماء اللغة للعهد ، تأمل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾[2] فكلمة الناس الأولى : تعنى بعض المنافقين ، والثانية : تعنى بعض الكفار . وهذا هو المعهود فى أذهان المخالطين وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[3] إن الناس هنا ليسوا البشر جميعًا ، إنهم العرب وحسب!

رأيت فريقًا من الناس يخدعه الظاهر القريب فى هذا الحديث فيتوهم أن الرسول يشن حربا شاملة على البشر ، ولايزال يحرجهم حتى ينطقوا بالشهادتين .

وهذا فهم ـ كما أسلفنا ـ لم يقل به فقيه ، ولا يستقيم مع مرويات أخرى فى غاية الصحة والوضوح ، ولم يؤثر عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون «الإمبراطوريات» الاستعمارية التى أظلم بها وجه الحياة قرونًا عدة .

ورأيت أناسًا آخرين يسارعون إلى تكذيب الحديث ، دون وعى ويتخذون منه ذريعة إلى مهاجمة شتى الأحاديث الصحيحة دون تمحيص لسند أو متن ، ودون تقيد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق ، وقد رأيت لأولئك القاصرين أفهامًا فى كتاب الله لابد من تفنيدها وإهالة التراب عليها .



(1) التوبة : ٤ . (2) آل عمران : ١٧٣ . (3) النصر : ٣ .

٧. هل الإيمان بالأنبياء الأولين والكتب السابقة ضرورى فى الإسلام، وما حكمة ذلك؟

وجود العالم لم يبدأ ببعثة محمد ، ولا بولادة عيسى ، إن قوافل البشرية تنساب فى دروب الحياة قبل ذلك بقرون طويلة .

ورب العباد لم يدع عباده حيارى خلال هذه القرون ، لقد اصطفى (موسى) من بين الناس وقال له : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾[1] ومن قبل موسى بأجيال اختار إبراهيم وألهمه أن يقول لقومه : ﴿ ... اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2] .

ومن قبل إبراهيم بعث نوحًا الذى مكث قرابة عشرة قرون يلح على قومه أن يعرفوا ربهم ويوحدوه ويستغفروه ويسألهم موبخا : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[3] .

إن المعانى التى رددها هؤلاء النبيون خالدة ، والحقائق التى شدوا الجماهير إليها يجب أن يبقى صداها ما بقيت الأرض والسماء .

والنبى الخاتم أكد أنه لا يبنى على فراغ ، وإنما على دعائم مهدها السابقون ، وأنه يذكر الأمم كلها بالأصول التى جهلتها أو تجاهلتها : الله الواحد ، اليوم الآخر ، الطاعة المطلقة لرب الأرض والسماء ، التزام صراطه المستقيم ، الاحتكام إليه فيما شرع ، التعاون على البر والتقوى ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة العدالة وتحقيق الخير .. إلخ .

---

(١) طه : ١٣ ، ١٤ . (٢) العنكبوت : ١٦ ، ١٧ . (٣) نوح : ١٣ ، ١٦ .

وفى هذا يقول الله للمسلمين : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...** ﴾[1] .

ونحن المسلمين نجزم بأن كل رشد آتاه الله رسله الأولين فقد أتى القرآن به ، ثم أربى عليه بعد ذلك ماتفتقر إليه الأجيال اللاحقة مما يسد كل ثغرة ، ويمحق كل شبهة ويرد همزات الشياطين .

إننى أنا المسلم أشعر بولائى لموسى وعيسى ومن قبلهما من أنبياء الله ، ومحبتى لأولئك المصطفين الأخيار نبعت من أن محمدًا عرفنى بهم ، وأعلن أخوته لهم وجهاده معهم فى طريق مشترك !

وفى السورة الأولى ـ بعد فاتحة الكتاب ـ تذكر أصول التقوى كما بينها القرآن الكريم فتشرح على هذا النحو ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...** ﴾[2] .

ومع هذا التلاقى البين بين الإسلام والأديان الأولى ، فإن تاريخ الحياة مع أتباع الأديان محزن موجع ، قال اليهود : ليست النصارى على شىء وبادلهم النصارى الحكم نفسه ، ثم قال الاثنان معًا : ليس المسلمون على شىء!! وقال الماديون جميعًا : ليست الأديان السماوية الثلاثة إلا خرافة ، وليس أتباعها على شىء !

ويظهر أن النفس الإنسانية تشدها إلى شهواتها خيوط قوية ، وقد يكره المرء أن يظهر عبد غرائزه فماذا يصنع؟

يستبدل بهذه الخيوط أوامر سماوية شريطة أن تحقق له ما يشتهى! فإذا هو ينتمى إلى أحد الأديان ظاهرًا ودينه الباطن عبادة نفسه ، وبلوغ هواه ، وقد يكون التدين الفاسد أضر بالحياة من الجهل بالدين كله!!

وعندما نطالع مسيرة الإنسانية من قديم تفجؤنا هذه المأساة ، ولنتدبر قوله

(١) الشورى : ١٣ .
(٢) البقرة : ٢ ، ٤ .

تعالى :﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾(1) الجملة الأخيرة أزاحت الستار عن أسباب الاختلاف ، والتعادى والتقاتل الذى وقع بين المتدينين إنه البغى . .!!

والإنسان يتحول إلى وحش خبيث عندما يغلف شهوته بالقيم الرفيعة ، ويزعم أنه يقاتل من أجلها والواقع أنه يقاتل من أجل شىء آخر . .!

لنترك هذه التهم فكل دين ابتلى بمستغلين أساءوا إلى الناس باسم رب الناس . ولنشرح تحديد الإسلام لعلاقته بمن سبق من رسل وبما سبق من كتب .

عندما شاء أهل الكتابين السابقين تحكير الهدى على ماعندهم وحدهم ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا . . . ﴾(2) قال الله لأتباع محمد ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(3) .

إن هناك وحدة دينية يدعو إليها النبى الخاتم تقوم على أصول عامة جامعة ، وصحيح أن هناك اختلافًا فى الفروع تنوعت من أجله الشرائع على مر العصور ، لكن الخلاف فى هذه الشرائع ليس ذا بال .

وعلى أية حال فإن شبكة القوانين التى رسمها القرآن ، وأوضحتها السنة هى الطريقة المثلى لضمان المصالح المنشودة إلى آخر الدهر .

ولم يقع التقاتل على هذه التشريعات الفرعية ، إنما وقع التقاتل على أركان العقيدة وأصول الإيمان ، وإن كان الشرود المبدئى قد جر إلى مخالفات أهدرت معالم الحلال والحرام ، وجرأت على اقتراف الربا والزنى والسكر وكثير من الآثام .

ونحن المسلمين المصدقين بنبوة موسى وعيسى ، وبما أنزل الله عليهما من كتب ، نرى أن اليهود والنصارى هجروا ما أنزل الله إليهم ، وتركوا الأيام تجر عليه ثوب النسيان .

---

(1) البقرة : ٢١٣ .
(2) ، (3) البقرة : ١٣٥ ، ١٣٦ .

ومن هنا أوحى إلى النبى الخاتم أن يستمسك بما أوتى ، وأن يلتزم الإنصاف فى معاملة أتباع أولئك النبين ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾[1] ونثبت هنا أدبًا جليل القدر ، التزمه القرآن الكريم وهو يحكى سير الأنبياء الأولين ، وما تعرضت له هذه السير ـ بعد ـ من تحريف يتصل بجوهر الإيمان ، فقد ذكر سفر التكوين أن الله تنزل من عليائه وتناول الطعام مع نبيه إبراهيم !!

وقد أبى القرآن مناقشة هذه القضية الغريبة ، واكتفى بذكر قصة ضيف إبراهيم المكرمين على حقيقتها دون تكذيب لأحد من الرواة . .!!

والمعروف أن الله أنزل التوراة على موسى قيل : كتبها له بيده ، وأمره أن يأخذ بنى إسرائيل بأحكامها .

والذى يقرأ التوراة اليوم يجد فيها مشهدًا مؤثرًا لوفاة موسى ، وكيف أنه عاش مائة وعشرين سنة فلم يتغضن له جلد ، ولم يكل له بصر ثم مات ، وناحت عليه نسوة إسرائيل كذا يومًا ، ودفن بعرصات «مؤآب» ولم يعرف قبره!!

وظاهر أن هـذا الكلام لمؤرخ كان يسجل حياة موسى بين قومه ، ولكن كلام المؤرخ تسلل بطريقة ما إلى التوراة نفسها ، التوراة التى نزلت على موسى! وأصبح جزءاً منها !!

ولم يشأ القرآن الكريم أن يكشف هذا الزيف ، مكتفيا بتقرير العقائد والأخبار الصحيحة ، على نحو ما ورد فى عدد الفتية أهل الكهف ، ما قيمة الجدال الطويل هنا وهناك؟ ﴿ **فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾[2] .

ومع ذلك الخلط فقد اعتبر الإسلام أن ما لدى القوم من مواريث يجعلهم أهل كتاب ، ويجعل مكانتهم أرفع من مكانة الملاحدة وعبدة الأصنام ، وأن ما بقى لديهم من تعاليم سماوية يتيح مخالطتهم ، والأكل من أطعمتهم ، والتزوج من نسائهم وحماية معابدهم وشعائرهم . . .

---

(١) الشورى : ١٥ . (٢) الكهف : ٢٢ .

﴿ يسألونك : ماذا أُحلّ لهم؟ ﴾ ويأتى الرد ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** . . . ﴾[1] .

والمقصود من هذا كله تذويب الجفوة ، وتمويت الفرقة والتعرف بما لدينا فى جو من السماحة والود . وأحسب أن هذه الحكمة من وراء السكوت المتعمد عن مناقشة مواضع التحريف الكثيرة فى مرويات القوم ، وإنها جزء من نطاق العفو الذى ورد فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾[2] .

وما أجمل أن يعرض موسى قضية اليوم الآخر فى خطاب الله له ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ** ﴾[3] والتوراة القائمة ليس فيها ذكر ليوم القيامة أو الجنة والنار . .

وما أجمل أن يعرض عيسى نفسه قضية التوحيد فيقول لقومه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾[4] .

هكذا عرض القرآن النبوات السابقة لتبقى تعاليمها مع النبوة الخاتمة هداية للإنسانية حتى يومها الأخير .

---

(١) المائدة : ٥ .
(٢) المائدة : ١٥ .
(٣) طه : ١٥ ، ١٦ .
(٤) آل عمران : ٥١ .

٨. ما مفهوم الإسلام عن الحياة والموت؟

نظرت عن كثب إلى الفندق الذى أنزل به ـ وكنت فى أحد أسفارى ـ ثم دار فى نفسى هذا السؤال :

ترى كم شخصًا سكن غرفتى قبل أن أسكن فيها ؟ وكم شخصًا سيحل مكانى بعدما أغادرها ؟ ما أوهى علاقتى بهذه الغرفة . .! وأحسست أن هذه الغرفة ، بل أحسست أن الفندق كله شبيه بهذه الدنيا نظهر بها بغتة ثم نختفى .

إن ناسا كثيرين قروا هنا ثم ولوا .

لقد رأى بعضهم بعضًا كما يرى النزلاء أنفسهم حينا فى صالة الفندق وكل مشغول بشأنه يعيش فى جوه الخاص فما تربطه بغيره إلا نظرة عابرة وبسمة عارضة!

هكذا التقى أبناء كل جيل بأترابهم ، ثم . . . ثم . . انتهوا .

وتذكرت الآية التى وصف الله بها هذه الحياة : ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ** . . . . ﴾[1] وشعرت بأن الدنيا تظفر من اهتمامنا بأكثر مما تستحق!!

هل هذه حقيقة الدنيا . . وترددت شيئاً ما فى الإجابة ثم تأت : على أية حال لاخلود لنا هنا ، إننا راحلون يومًا ، ولكننا نؤثر أن نتناسى ذلك اليوم!

لست أسجل هذه الخاطرة تهوينا لشأن الدنيا إن شأنها يجب أن يهوى عندما تحاول احتواءنا ، وعندما نفقد فيها عزيزًا فنكاد نهلك ، أو عندما نكسب فيها نفيسًا فنكاد نلقى مصير دودة القز التى تختنق داخل ماتنسج بريقها الناعم . . .

والمخدوعون فى الدنيا أعداد فوق الحصر ، إن قتالهم رهيب للحصول على مغانمها وتصارعهم دامى الجوانب للعب منها دون وعى !

وتحت الأقدام فى هذه الساحة الخسيسة أرحام مقطوعة ، وحرمات منتهكة ومروءات ضائعة ، وصداقات منسية ، ومستضعفون ديسوا ، وأشياء كثيرة محزنة .

---

(١) يونس : ٤٥ .

مـا أحـقـر الـدنيـا يوم تنال بهـذا الثـمـن ، ومـا أحـراها بهـذا الوصف الحكيم ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[1] .

لكن للحياة الدنيا جانبًا آخر لابد من بحثه ودراسته ، إننا نوجد فيها ونقضى فيها أمدًا لاندرى مبدأه ولا منتهاه ، والذى أوجدنا أخبرنا أننا لن نترك سدى ، وأنه لم يخلقنا عبثًا !!

إننا أمـام عـمل جـاد وامـتـحـان خطيـر . .! وإن عـلاقـتنا بالأشـيـاء والأشـخـاص محكومة بقوانين دقيقة ، وإننا خلقنا للبقاء لا للفناء ، وإن اليوم بذر وغدًا حصاد .

وإن المكان الممهد والزمان المحدد هما ساحة سباق هائل توشك نتائجه أن تعلن : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . ﴾[2] وإذا كانت الدنيا قنطرة لما وراءها فمن الحماقة محاولة الخلود فيها ، أو حصر الاهتمام فى مآربها وحسب !

إن ما يستصحب منها للغد المرتقب هو الحق ، والذى يعيش عبد بطنه دابة ، وقيمته ما يخرج منه! والذى يسبيه جنون المال والجاه ، ويقلقل كل شىء لإثبات ذاته رجل تائه!

كان أبو الطيب المتنبى يرى أن العظمة هى مجد السلطة ونيل الحكم .

وتـركك فى الدنيـا دويـا كأنـهـا ... تـداول سمع المرء أنملة العشـر !!

كـان يرى نفسه قـمة يجب أن تتوج بالأبهة والسناء ، ومـالم يتح لأحـد! أليس القائل :

وكل مـاخلـق اللـه ومـالم يخلـق ... محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى!!

وازن بين غرور هذا الإنسان الذاهل وبين قول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه . . **«من مدحك فإنما مدح مواهب الله عندك ، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك»** . .

كذلك يستكين المؤمن لله ، ويعرف نعمته ، ويقر بعبوديته ، ويمهد لنفسه عند عودته !

---

(١) الكهف : ٤٥ .

(٢) الملك : ١ ، ٢ .

إن أغلب الناس بهم من نزق أبى الطيب ، وشرودهم فى الحياة يرجع إلى ذلك ، وما أحوج الناس إلى فهم قوله تعالى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[1] الحياة الصحيحة فى الإسلام أن تعتبر الدنيا لك ولست لها ، إن الله لم يخلق الإنسان ليجوع ويعرى ويذل ويخزى كلا إن له حقوقه المصونة لا فى الضرورات فقط ولكن فى المتاع والزينة ! لكن على شرط أن يعرف المنعم ويشكره .

بيد أن أكثر الناس يلهيه التهام ما يطلب عن رؤية مرسله كالحيوان الذى يتبع حامل البرسيم أو الفول ، فإذا نفد ما بيده من طعام انصرف عنه ! فقد انتهى الرباط الذى يشده إليه . .!! لماذا يكون بعض الناس كهذه الأنعام ؟ لماذا ننسى من يطعم ويكسو . ولا نذكره إلا إذا ـ احتجنا ؟

إن الله أنبت الحدائق لتبهجنا ، وملكنا الأنعام تغدو وتروح إلى الحقول وقال لنا : ﴿ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[2] ، ورصع السماء بالدرارى اللامعات ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾[3] !

ورفض مسالك أهل القنوت الذين يحبون الحياة الخشنة فوق أرض تفور بالبركة والعطاء وقال : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[4] ؟

المعقول ـ بعد هذا الرزق المبسوط ـ أن ننتفع بهذا الفضل الأعلى ونقدر صاحبه حق قدره . .! والحياة الصحيحة فى نظر الإسلام أن تعرف ربك من خلال آفاقها . إن المهندس الماهر يضع بصماته على الآلة المحكمة التى يبدعها ، ورب العالمين ـ وله المثل الأعلى ـ أظهر صفاته العُلى فى خلقه هذا العالم الرائع .

وحياتنا نحن البشر فوق ظهر الأرض فرصة لا تتكرر لمعرفة الله ، وإنشاء علاقة صحيحة به تبارك اسمه ، وأنا لا أتفلسف حين أصف إعجابى بعظمة الله ، ولا أذهب بعيدًا! إننى أملأ صدرى بالهواء ثم أقول : سبحان من غلف كوكبنا بهذا الجو الذى تتنفس فيه ألوف مؤلفة من الناس والدواب والطيور إن هذا الهواء سواء هب ريحا عاصفة أم نسيما على لا شىء عجيب الخلق!

---

(١) النحل : ٥٣ ـ ٥٥ . (٢) النحل : ٦ . (٣) الحجر : ١٦ . (٤) الأعراف : ٣٢ .

وهذا الماء الذى يلف أرضنا ؟ إن العلماء قالوا : إنه يكون ٨٠٪ من سطح هذه الكرة الطائرة حول أمها الشمس ، ومع جريها الحثيث ما سقطت منه قطرة فى الفضاء ، وكان المفروض أن ينسكب فى كل ناحية! من يمسكه فى بحاره وأنهاره؟ ويجتذبه ليبقى فى قراره؟ إنه الله .

إن الملكوت الرحب الذى نسكن جانبًا ضئيلاً منه يشير إلى ربه ويسبح بحمده ، وعلينا أبناء الحياة الدنيا أن نتجاوب مع هذه الحقائق حتى إذا غادرناها إلى مابعدها كنا أهلا لجوار كريم !

أما إذا عشنا نأكل ونلهو وحسب فالمصير كالح . وقد نبهنا إلى هذه الحقيقة الصارمة ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾[1] ﴿ **ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا** ﴾[2] .

وحق على أهل الإيمان أن يتمكنوا فى الدنيا . ويقدروا عليها بسعة العلم وقوة العمل لأن الله لم يخلق عباده كى يعيشوا على هامش الحياة ، أو يضطرب فى أيديهم زمامها وهو القائل : ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[3] .

ولهذا التمكن ثمرتان : الأولى حسن ارتفاق الأرض ، واستغلال خيراتها فى رفاهة الإنسان ومتاعه إلى حين .

والثمرة الثانية : تطويع ما فى الأرض من قوى لدعم الحق ، وإقامة نظام محكم لجعل الأمور تمشى وفق ما شرع الله ، وهذا ما تنصح به الآية الكريمة : ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ** ﴾[4] .

إن الجهلة بالحياة ليسوا أناسًا صالحين! وكيف يكون صالحا من لم يقرأ عظمة الله فى صحاف كونه؟ وكيف يكون صالحًا من ملكه الله الأرض وقال له ولأمثاله : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا . . .** ﴾[5] فعاش ملكا للأرض تافها فوق ثراها وملكته هى بدل أن يملكها؟ وكيف يكون صالحًا من سمح للإلحاد أن يسبقه فى كل ميدان ويهزمه فى كل نزاع؟

---

(١) المزمل : ١٩ . (٢) النبأ : ٣٩ . (٣) الأعراف : ١٠ .
(٤) الحديد : ٢٥ . (٥) البقرة : ٢٩ .

٩. ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء؟

إنكار الدار الآخرة ليس بدعة هذا العصر ، فمن قديم كان هناك من يكذب الأنبياء ويتهمهم بالجنون لأنهم يؤكدون أن الموتى سوف يبعثون ويحاسبون ويثابون أو يعاقبون! كان أولئك المكذبون يقولون للأمم التى تسمع وعيد الرسل ﴿ **هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾(١) .

لكن عصرنا امتاز بأنه زعم للنزعات المادية أصلا علميّاً ، وأشاع بأن الدين بعيد عن المنطق العقلى!! ومن ثم شاع الإلحاد ، وعاش الكثيرون لدنياهم وحدها ، وقلما تذكر الآخرة فى مؤتمر جاد أو ينظر إليها على أنها حقيقة مقررة ، والذى أراه أن الإيمان بالآخرة فرع الإيمان بالله عزوجل ، فمن آمن بوجوده لم يستبعد قط قدرته على إيجاد العالم بعد إفنائه ، وإقامة ساحة عامة لحساب دقيق يلقى فيه كل امرئ جزاءه ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾(٢) . إن الفلاح يستطيع أن يزرع الأرض مرة ثانية بعدما حصدها ، والمهندس يستطيع إعادة بيت تهدم ، فما الذى يعجز خالق هذا العالم على إنشائه مرة أخرى بعد أن يبلغ أجله الذى حدده له؟!

﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .** ﴾(٣) !!

لو كان هذا الكلام من خالق الكون ـ وعدًا مجردًا ، ما تأخرت فى تصديقه! فكيف وأنا أرى فى كل لحظة من دنيا الناس خلقًا جديدًا يبرز فيه الإبداع الأعلى

---

(١) المؤمنون : ٣٦ ، ٣٧ .   (٢) آل عمران : ٣٠ .   (٣) الإسراء : ٤٩ - ٥١ .

أجلى ما يكون؟ فى كل ساعة من ليل أو نهار تقذف الأرحام بعشرات ومئات من الأجنة السوية الخلق ، الدوارة الأجهزة ، المتجاوبة مع عناصر البيئة التى ترتقبها ، فهى تسمع وترى وتعى وتمضى فى طريقها قدما إلى استكمال وجودها المقدور . . . .

هل صنع الأبوان شيئًا فى هذا التخلق الباهر؟ أعنى من صنع الحيوان المنوى وأودع فيه خصائص الوراثة المادية والأدبية؟ ومن صنع بويضة الأم ومد إليها صفات الآباء والأجداد؟ ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴾ [١] .

إن إنشاء الحياة فى عالم الإنسان والحيوان والنبات يتكرر كل يوم فلماذا نستبعد بعثا يتم مثله بين أسماعنا وأبصارنا؟ إن ذلك سر تقريع القرآن للذاهلين عندما يقول : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [٢] .

إن انتشار الجهالة لايعطيها وجاهة! وإذا كان منكرو البعث كثيرين ، فليسوا إلا قطعانا من الغافلين أو المستغفلين !! .

وعلى كل عاقل أن يستمع إلى هذا النداء : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا** ﴾ [٣] .

إن العدالة لاتتحقق فى هذه الدنيا ، فهناك سفلة تبوءوا القمم ، وعباقرة توسدوا التراب ، وقتلى أزهق المجرمون أرواحهم وعادوا يضحكون أو يسكرون .

إن اثنين وسبعين ألفا من عرب فلسطين ومسلمى لبنان قتلوا فى الحرب الأخيرة ، فلنفرض أن الله أدال للعرب وارتدت لهم الكرة بعد سنين طويلة أو قصيرة ، سيكون الجزارون قد ماتوا ، وقد يعفى عن أبنائهم أو أحفادهم ـ كما فعل صلاح الدين ـ وقد يقتص ممن لم يقترف جرمًا !! .

إن القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف ، ولها ضحايا يضيعون فى حركتها الدائبة بقول الشاعر :

وقالوا يعود الماء فى النهر بعد ما	**ذوى نبت جنبيه وجفت مشارعه**
فقلت إلى أن يرجع النهر جاريا	**ويعشب جنباه تموت ضفادعه !**

---

(١) الواقعة : ٥٨ ، ٥٩ .   (٢) الواقعة : ٦٢ .   (٣) الإنشقاق : ٦ - ١٢ .

من أجل ذلك كانت الآخرة حافلة بالانقلابات المثيرة، رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة رب مالك هنا يكون مملوكًا هناك، سيهبط ناس من الأوج إلى القاع، ويرتفع آخرون من القاع إلى الأوج ﴿ **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ** ﴾[1] .

إن الآخرة حق لأنها تصحيح لأوضاع، ورد لاعتبار، وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيره إلى حين - هذا الحين جزء من نظام الدنيا، ومن امتحاناتها الصعبة، ولابد من مراعاته، ولذلك جاء فى الحديث القدسى، فى إجابة دعوة المظلوم «**وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين**» وجاء فى انتصار المؤمنين على الكافرين ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾[2] .

لقد تكرر هذا الحين وانتظامه مرتين فى سياق متقارب، لأن الله لايعجل بعجلتنا، ولأن سنن الله الكونية فوق تفكيرنا المحدود، ولكن وزن الذرة من الخير أو الشر لايضيع أو ينسى . . وحديث الإسلام عن القيامة والحساب تناول مرحلتين : الأولى مرحلة الدمار الذى ينزل بهذا العالم، والانهيار الفلكى الذى يمحو نظامه ويطفى نجومه! وقد جاء فى السنة : «**من سره أن يرى القيامة رأى عين فليقرأ** ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ** ﴾[3] ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ** ﴾[4] ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴾[5]» .

ويظهر أن الهول الذى يصحب هذه الاضطرابات الشاملة يغمر الأفئدة بالفزع والرهبة فترى الناس سكارى وما هم بسكارى . . .

ومجىء الساعة يكون بغتة، والناس ماضون فى أعمالهم العادية، الآكل يرفع لقمته إلى فمه، والبنَّاء يشيد البيت الذى يبنيه، والتاجر يناول البائع السلعة التى يطلبها، وهذا وذاك فى جدالهم - حول شئونهم، ومستغرقون فيما يعنيهم! يقول تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[6] .

---

(١) الواقعة : ١ - ٣ . (٢) الصافات : ١٧٤ - ١٧٨ . (٣) التكوير : ١ ، ٢ .
(٤) الانفطار : ١ ، ٢ . (٥) الانشقاق : ١ ، ٢ . (٦) يس : ٤٨ - ٥٠ .

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة الحساب الذى يشمل الأولين والآخرين ، ويحشد أبناء آدم منذ بدءوا حتى انتهوا ، ويستعرض أعمالهم منذ عقلوا حتى ماتوا!!

قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم فى يوم؟ قال : كما يرزقهم على كثرتهم .

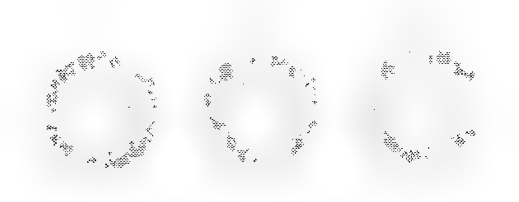
والذى نحسبه نحن أن الزمان سوف ينعدم كما ينعدم الوزن عند رواد الفضاء ، وهل الخلود إلا انعدام الزمان؟ وأن رب العالمين سيجعل الخلق فى حال من الإحساس العام بكل ما أسلفوه فى الدنيا ، وكأن أشرطة مسجلة تمر بأذهانهم ملآى بكل ما كان منهم وحكم الله فيه!

ثم يستعد كل إنسان للانطلاق إلى مصيره العدل ﴿ **ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** ﴾[1] .

والجزاء مادى وروحانى معًا ، إنه للإنسان الذى عبد بجسمه وعقله ، أو فجر بجسمه وعقله! ولا يستطيع أى دارس للقرآن الكريم أن يفسر آياته فى وصف الجنة والنار بأنها من قبيل المجاز ، وليس هناك بتة ما يدعو لهذا التعسف فى التفسير .

والنظر إلى مادية الإنسان بأنها معرة ، ولذاته الحسية بأنها هبوط هو تأثر بفلسفات خيالية لا وزن لها .

نعم إن مع هذه اللذات ما هو أسنى وأزكى ، معها الرضوان الأعلى والاستغراق فى شهود أمجاد الألوهية﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** ﴾[2] جعلنا الله من هؤلاء المكرمين .



---

(١) هود : ١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) المطففين : ٢٢ - ٢٤ .

١٠. ما البرزخ؟ وما دلالته فى الإسلام...؟

المعروف عند جمهور المؤمنين أن الإنسان مخلوق من عنصرين متباينين .

جسمه من هذه الأرض خلق ونما ، وروحه من نفخة من الله سبحانه وتعالى ، فهو ليس حيوانا وليس ملاكا ، وفى كيانه تتجاور المتناقضات ، من غرائز مادية ، وسبحات عقلية وعاطفية!

وعندما يموت يرجع إلى الأرض ما نشأ منها وتغذى على نتاجها ، يرجع هذا الجسد ليبلى ، ويفنى منه ما شاء الله ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ** ﴾[١] .

أما الروح فله مستقر آخر ، لاندرى بدقة مكانه ، لاندرى كذلك ما علاقته بالجسد الذى كان فيه ، هل انقطعت صلته به انقطاعًا تامًّا؟ هل ـ عند البعث ـ يعود إليه هو أم يعود إلى جسد شبيه به؟ هذه أسئلة لانبت فى الإجابة عنها ! إنما الذى نبت فيه أن الشخصية الإنسانية لاتفنى بالموت! وإنها رحلت من عالم إلى عالم آخر ، وإنها بقيت كاملة الحس تامة الوعى ، وإنها إذا فقدت الأذن والعين فلم تفقد السمع والبصر ، بل قد تكون أسمع وأبصر مما كانت على ظهر الأرض . . . إننا قد نكون مهرة فى المنطق المادى ، أما المنطق الروحى فعلمنا محدود بل صفر . . .!!!

وقد أخبرنا الله أن الشهداء الذين قتلوا فى معارك الجهاد ومزعت أجسادهم ، موتى فى نظرنا نحن فقط لأنهم غابوا عنا ، أما فى حقيقة الأمر فهم أحياء .

وقد أسند إليهم خمس صفات تستحق التأمل .

هم **أولاً** أحياء لا هلكى! **وثانياً** فى جوار كريم لأنهم عند رب العالمين ، **وثالثاً** فى منزل خصب حافل بالخير يدر عليهم الأرزاق ، **ورابعاً** هم فرحون بما نالوا ، مغمورون بالعطاء الأعلى ، **وخامساً** مطمئنون على أقاربهم وأصدقائهم الذين يخلفوهم فى الدنيا ، إنهم على حق وإلى خير ، وقربها سوف يجتمع الشمل ويلحق أحياء الأرض بأحياء السماء !

---

(١) طه : ٥٥ .

هذا ماتذكره الآية الكريمة :﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١] .

صحيح أننا لا نشعر بهذا كله ولا بعضه! وقد صرحت سورة أخرى بذلك ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾[٢] .

إن عدم شعورنا لأن أجهزة الاستقبال السمعى والبصرى عندنا محدودة القدرة ، وغيرنا من الكائنات يرانا ولا نراه ، وكما قال العلماء : عدم العلم ليس علما بالعدم إنه كما يسافر أحدنا من بلد إلى بلد يسافر الموتى من مكان إلى مكان ، حيث تبدأ الحياة الآخرة ، ويبدأ الحساب الرهيب تمهيدًا للمحاكمة الكبرى يوم النشور . . .

وهذه المرحلة المتوسطة هى البرزخ كما ذكرت الآيات ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٣] ويشبه ما يلقاه الفجار فى البرزخ ما يفعله رجال الشرطة بالمجرمين عندما يقعون فى قبضتهم . . هناك تحقيق ابتدائى سريع ، ثم يرمى المتهمون فى السجن ريثما يقدمون للقضاء فى محكمة كبرى . . .

ويشبه مايلقاه الأبرار ما يصنعه رجال العلم عندما يستقبلون مؤلفا تقررت مكافأته ، أو عبقريًا منح جائزة سنية ، إنه يجاء به مكرما ويستريح فى إحدى الغرف الأنيقة ريثما يأخذ ما تقرر له . . .

والذين يفعلون الخير أو الشر ليسوا سواء فى مراتبهم ، فمن الأشرار من يتفتح له شواظ من نار يشوى وجهه حتى يوم اللقاء! ومن الأخيار من يتذوق النعيم من أول يوم كما جاء فى وصف الشهداء أن أرواحهم معلقة فى قناديل تحت العرش ترد أنهار الجنة وتطعم من ثمارها . . .!

المهم أن الموت رحلة من حياة أرضية محسوسة لنا إلى حياة غيبية نسمع بخبرها . . وحسب ، وقد كان الأصحاب الكرام يعرفون ذلك معرفة يقين ، فلما حضرت «بلال» الوفاة صاحت امرأته :

---

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ . (٢) البقرة : ١٥٤ . (٣) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ .

وآكرباه . .!! وصاح المحتضر المشرف على الموت : **بل وآطرباه ، غدًا ألاقى الأحبة ، محمدًا وحزبه!** والواقع أن الموت نقله إلى عالم مستقر مطرد النمو ، إن أودية الموت ، من بدء الخليقة تستقبل الأجيال المدبرة ، الأجداد ثم الآباء ثم الأولاد ثم الأحفاد ، وهكذا من قديم ، فعالم الموتى يتسع باستمرار والنتائج تتكشف فيه ، ومعادن الناس تعرف . . .

لكل أناس مقبر بفنائهم ... فهم ينقصون والقبور تزيد

وليس القصد من زيادة القبور أن مبانيها تزيد ، وإنما القصد أن اللاحقين يتبعون السابقين ! مددًا بعد مدد وهؤلاء وأولئك فى انتظار القيامة الكبرى حتى يجىء أوانها . .

وتبدأ حياة البرزخ بلونيها من ساعة مفارقة الروح للجسد ، وتدبر قوله تعالى : **﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾**[1] .

واليوم ـ لا الغد ـ يبدأ العقاب على ما مضى من افتراء وكبرياء .

إن الإنسان طرق الدنيا عاريًا ، ولقد تقلب فيها ثم ها هو ذا ، يتركها كما جاءها ، لامال ولا جاه ولا عزوة ولا سلطان **﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . . . ﴾**[2] .

ويظهر بقدر أنه ما يكون المرء طاغية فى حياته الأولى ، يكون ترصد الزبانية له وارتقابهم لمقدمه كيما يؤدب على غلوه وفساده ، فتكون مراحل البرزخ الأولى لطمات تتناوله من كل جهة ، وإهانات تلفه بالخزى والعار ، وذلك كله أيام القبر الأولى ، أعنى أيام البرزخ ، وليس يحتاج الأمر إلى مساءلة فما محلها إذا كان المجرم قد لحقته الوفاة وهو يقاتل الحق ويخاصم حملته من المرسلين والصالحين ترى ذلك فى قصة الفراعنة : **﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ**

---

(١) ، (٢) الأنعام : ٩٣ ، ٩٤ .

فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[1] وتراه كذلك فى كبراء قريش الذين أدركتهم مناياهم وهم يقاتلون النبى ﷺ فى معركة بدر قال تعالى :﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾**[2] .

وقد رميت جثث المشركين البغاة فى بئر ، ووقف النبى بعد دفنهم يقول بصوت جهير : **هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟** وهو يناديهم بأسمائهم! فقال له أصحابه : **أتنادى قومًا جيفوا؟** قال : **ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لايجيبون!**

إننا لانشعر بما يلقاه الراحلون عنا ، بل لا نشعر بشىء من عالم الغيب وهو عالم مديد رهيب!

ولن تتأخر نفس أبدا عن أخذ طريقها إلى البرزخ! وملاقاة الجزاء المعد لها ، مهما كان حب الأقربين والأصدقاء والأتباع! وتدبر قوله تعالى يصف حالة المحتضر وعجز من حوله :﴿ **فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[3] .

لا أريد تفسير الآيات ، ولا ذكر من عجزنا عن إبصاره وهو أقرب إلى الميت منا نحن الملتصقين به الحانين عليه!! اللهم إن البشر كلهم أصفار أمام سلطان الموت ، وأمام ما يقترن الموت به من مبادئ الحساب .

إن الموت فضح الحياة ، ومع ذلك فحبنا للحياة يعمى ويصم! وذهولنا عن الجزاء المرتقب أدهى وأمر! ذلك ، وقد ورد فى الآثار أن الموتى لايرجعون إلينا ، بذلك سبق القول من الله ، وبذلك أجيب شهداء أحد .

ومن ثم فالزعم بأن الأرواح تستحضر فى مجالس خاصة وتقص ماتلقى على الحضور يكاد يكون رجمًا بالغيب وقد تتبعت بعض ما نسب إلى هذه الأرواح الحاضرة من كلام فوجدته تخليطًا وقد يكون من عبث الجن واستهزائهم بالبشر!!

---

(١) غافر : ٤٦ . (٢) الأنفال : ٥٠ ، ٥١ . (٣) الواقعة : ٨٣ - ٨٧ .

١١. ما طبيعة الجزاء الأخروى؟ وهل هو روحى أم مادى؟

هل خلق الإنسان من روح وجسد شىء يعاب؟

كذلك يرى بعض الناس! بل كذلك قال أعداء الأنبياء لهم وهم يرفضون رسالاتهم وينكرون حديثهم عن الله، مقترحين أن يكون الرسول ملكا ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾[(١)]!!

وكما استنكروا أن يكون المرسلون بشرًا يأكلون، استنكروا عليهم الزواج، والنسل ظانين أن الرغبة الجنسية تشين الإنسان الكبير، وعليه إذا أراد الكمال أن يكبتها.

وقد رد القرآن هذه المزاعم، وبين جل شأنه أن المصطفين الأخيار من عباده كانوا رجالاً ناضجى الغرائز ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[(٢)].

ومع ذلك فإن بقايا من منطق الجاهلية القديمة لاتزال عالقة بأذهان الكثيرين ممن يحسبون السمو البشرى لا يتم إلا بإعلان حرب مجنونة على البدن توهى قواه وتدوخ غرائزه.

بل سرى ذلك الفكر إلى بعض المذاهب الدينية، وانبنى عليه، إن التقوى فى هذه الحياة تعنى الرهبانية وأن السمو فى الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين! وعليه بعد ذلك فلابد أن يكون النعيم الموعود روحانياً محضًا وكذلك العذاب المرصد للأشقياء!!

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة، ولما كان لبابه احترام الحقيقة المجردة، فإنه رفض كل هاتيك المقدمات والنتائج، وأسس تكاليفه وأجزيته الدينية على اعتبار الإنسان كائنا متميزا يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية فى شخصيته، بها جميعا يسمو أو يهبط وبها جميعًا يثاب أو يعاقب.

أو كما يقول الأستاذ العقاد: «ليس ما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنسانى إلى ما دون طبيعته، ولكن مما يؤمن به أن ارتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف، وقوامه الحرية والتبعة فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة

(١) الفرقان: ٧.

(٢) الرعد: ٣٨.

الخليقة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه الأمانة هى التى رفعته مقامًا فوق الملائكة ، أو هبطت به إلى زمرة الشياطين» .

ليس الهبوط أن يشتهى الإنسان طعامًا أو امرأة . إنما الهبوط أن يأكل المرء من سحت ، أو يتصل بمن لا تحل له .

فإذا طعم من حلال ، أو اتصل بأنثى لتكون زوجة يسكن إليها ، ويتم بها ويمتد وجوده معها فلا شىء فى ذلك أبدا .

لقد أخطأ كثير من المنتسبين إلى الدين فى احتقارهم للبدن ، وفهمهم أن التسامى لايحصل إلا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الأخروية لا وجود للبدن فيها ، وأن النعيم أو الجحيم معنويان ، وحسب!!

وقد سرى هذا الخطأ ـ كلا أو جزءاً ـ إلى بعض متصوفة المسلمين ، فاعتنقوه ، وحسبوه دلالة ارتقاء ، وتجرد ، فظلموا بهذا المسلك دينهم ، وأوقعوا خللا سيئا فى موازين الجزاء كما أقامها الكتاب العزيز .

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة فى الجور على الطبيعة البشرية وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة ، وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلبا لجنته ، أو تدع عصيانه خوفا من ناره حتى توهم الناس أن الأمل فى الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين!!

وهذا الضرب من التفكير لايمكن وصفه بأنه تفكير إسلامى ، إنه ضرب من الشرود والغرور تبدو تفاهته عندما نحتكم إلى العقل والنقل على سواء .

ولنبدأ بالنقل . . . يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء ، فيذكر لنا أن رجلا مؤمنا بحث عن صاحب له كان ظاهر الإلحاد والفسوق ، فوجده قد استقر فى سواء الجحيم! فحمد الله إن لم يتأثر به : ﴿ **قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** ﴾[١] .

(١) الصافات : ٥٦ ـ ٦١ .

النجاة من النار أمل ضخم لمثله يعمل العاملون ، فكيف يجىء أحد من الناس ، رجلا أو امرأة ليقول : بل هو أمل تافه؟

ويقول الله جل جلاله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[1] .

فى الرحيق المختوم يسقاه قوم تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، فى هذا الجزاء الجزيل ينبغى أن يتنافس المتنافسون! فكيف يجىء إنسان رجلاً كان أو امرأة ليقول : لا أعبد الله طلبًا لشىء من ذلك .

إن هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الإنسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يسيئون تصور النعيم الأعلى ، أو العقاب السرمدى .

إن الجنة دار لنوعين من المتع أحدهما مادى والآخر معنوى ، فالمادى تكريم للإنسان يفيض من التجلى الإلهى يشعره بالرضوان ويرفعه بالرؤية .

وبديهى أن المتاع الثانى أكبر من الأول ، كما قال جل شأنه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2] .

ولكن هل هناك فواصل - فى هذا الكيان البشرى - بين الإحساسين أو أن الإنسان بأجهزته المادية والمعنوية يذوق الخير والشر جميعا؟

إن اللذة والألم قوانين إنسانية صارمة فلم الطعن فيها؟

ولو فرضنا أن الجنة محل الكرامة الإلهية ، لكفاها ذلك ، ولاحترمناها من أجل هذه النسبة! ولا يأبى الكرامة إلا لئيم ، فكيف - وهى إلى جانب ما وصفناه - تلبية لحاجة طبيعية يحسها كل إنسان ، حاجة ذلك البدن الذى يضيره الحرمان ، ويضنيه القل والذل ، حاجة ذلك البدن الذى يكره الجوع والعطش والعرى والهوان .

---

(١) المطففين : ١٨ - ٢٦ .

(٢) التوبة : ٧٢ .

أمن أجل فكرة خيالية نجيء إلى مئات الآيات الصريحة الواضحة ، فنحاول صرفها عن ظاهرها والتمحل فى تأويلها وإفساد الآثار التربوية المقترنة بها .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

ماذا يبقى من آيات القرآن بنجاة من التأويل والإبطال إذا تمت هذه المحاولة .

إن الله وجه إلى نبيه هذا الأمر ووصف أنبياءه الكرام بأنهم ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا ورهبًا وكَانُوا لنا خَاشِعِينَ ﴾[2] .

ووضع أمام أبصار البشر كلهم هذا الترهيب ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[3] .

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرئ يرفض عبادة الرغبة والرهبة ويزعم أنه لايخاف من النار ولا يحب الجنة ، وأنه ـ إن عبد ـ فإنما يعبد ابتغاء وجه الله !!

ما هذا اللغو؟ وهل الوجوه الناضرة بنظرها إلى الله تظفر بذلك فى قعر جهنم ، أم تظفر بذلك فى حدائق الجنة؟

قال لى أحد المتصوفين : إن من الخساسة أن تعبد الله منتظرًا أجرًا . فقلت : من العبودية أن تستبشر بفضل الله ، وأن توجل من عقوبته ، وأن تعرف قدرك وتلزم حدك! أين تريد أن تضع نفسك؟

إن الله قال عن نبيه إبراهيم : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[4] .

فهل أنت فوق الأنبياء استغناء عن الأجر الإلهى؟

وقال عن عباده المؤمنين الموفقين : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[5] .

ووصف عاقبة الصادقين المضحين بأنفسهم فى سبيل ربهم فقال :﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾[6] فهل أنت فى مكانة أخرى غير ما أعد الله للشهداء والصالحين ، مكانة الزاهد فى أجر أو الرافض له؟ ما هذا الغرور؟

---

(1) الأنعام : ١٥ . (2) الأنبياء : ٩٠ . (3) آل عمران : ١٨٥ .

(4) العنكبوت ٢٧ . (5) الأحزاب ٤٤ . (6) الحديد : ١٩ .

لقد وصف الله أولى الألباب بأنهم : ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾(١) .

فهل يرفض أن يكون من أولى الألباب إلا البُلْه؟

ولقد أهاب الله بخلقه أن يسارعوا إلى جنة ﴿ **عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾(٢) فهل يكره أن ينتظم فى عداد المتقين إلا الحمقى؟

إننى أطلب من إخواننا الذين يكتبون فى التصوف أن يدمنوا النظر فى كتاب الله ، وأن يستوحوا مايستجيدون من معان وغايات ، وبذلك وحده ينصفون أنفسهم وطريقهم ، أما ترويج فكرة لرجل أو امرأة تبتعد عن هذا الضوء الكريم فأمر لايستساغ ، ومن حقنا أن نرفضه .

لقد سمعت أشعارًا تنسب إلى رابعة العدوية ، بل حكى الرواة عنها ـ والعهدة عليهم ـ إنها لما سمعت التذكير بفواكه الجنة وخيراتها ، قالت : لسنا أطفالا ، فنغرى بهذه الأشياء ، وسواء صح ما نسب إلى هذه السيدة أو بطل ، فنحن كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى فاطمة بنت قيس ـ وهى صحابية أفضل من رابعة ـ «لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت»!

إن الجنة وعد الله لعباده فنعما هى ، وشكرا لمن أعدها للمتقين ، وهنيئا لمن يصير إليها ، يمرح فى بحبوحتها ويسعد بربه الذى طالما صلى وصام من أجله!!

إنه فى هذه الجنة يشهد من كان يعبده بالغيب ، ويتلقى فضله فى قلبه وعلى بدنه ، لذات مادية معنوية متشابكة لا انفصام بينها ، ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴾(٣) .

ونحن نلفت نظر المفسرين ألا ينخدعوا بما شاع فى الديانات الأولى من أوهام أو بما نسب إليها من أفهام فإننا ورثنا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . .

---

(١) آل عمران : ١٩١ . (٢) آل عمران : ١٣٣ . (٣) الإنسان : ٢٠ ـ ٢٢ .

١٢ . ماذا عن القضاء والقدر؟ وكيف نوفق بين الآيات التى تدل على أن الإنسان مختار، والأخرى التى تدل على أنه مجبر؟

يقول الله تعالى مبينًا عن حكمته فى خلق العالم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1] أى إن هناك اختبارًا كبيرًا مفروضًا على الناس يتحقق بعده ـ مصيرهم !

ما هذا المصير؟ يقول جل شأنه فى آية أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[2] هناك مسىء ينتظره العقاب ومحسن ينتظره الثواب!

وتلك عدالة لا مطعن فيها! بيد أن بعض الناس يقول : هذا الامتحان مزور ، وهذه النتائج مغشوشة والذى حدث أن الله هيأ للجنة أناسًا وأجرى الأمور كما شاء وستر مشيئته وراء فصول هذه التمثيلية الهازلة !!!

الله يقول : إنه أرسل للبشر رسلا يدلونهم على الصراط المستقيم ، وقبل أولئك المرسلين منحهم عقولا يحسنون بها التفكير ويستطيعون بها الاختيار ، وقال لهم : إنى أقطع بهذا كله أعذاركم . . . أن تقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[3] .

أو تقولوا : ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[4] .

لن يقبل من أحد كلام بعد هذا البيان! ومع ذلك يجىء أناس معتوهون يقولون : لاشىء إلا الله لا عمل إلا الله ، أصابعه وراء كل شىء ، وبقى أن يقولوا : ما فى الجبة إلا الله ، لا موجود غيره ، نحن وهُم ما نصنعه وهْم!!

وأعرف أن وراء هذا التماوت وإنكار الإرادة البشرية والقدرية البشرية من يزعم

---

(١) هود : ٧ . (٢) النجم : ٣١ . (٣) الأعراف : ١٧٢ . (٤) الأعراف : ١٧٣ .

التقوى ويدعى التصوف ، ولقد ظل أولئك يتماوتون حتى ماتوا أدبيّاً ، وتحولوا إلى دواب يمتطيها المستعمرون ، ويذللونها لمآربهم!

بحثت عن السبب فى هذا الكذب ، فوجدته أحيانًا رغبة البعض فى أن ينحرف ثم يرمى بالتبعة على القدر القاهر !

ووجدته أحيانًا أخرى سوء الفهم لآيات القرآن الكريم ، وجنون الجدل الذى مس بعض العلماء ثم نضح على جماهير الغوغاء .

وربما نشأ هذا التعلل المردود عن الخلط بين مواطن الاختيار الحق ومواطن الجبر القاهر ، فإن الإنسان يحيا بين جبر واختيار فى كيانه الداخلى وفى حركاته الخارجية!

إن قلوبنا تدق دون استئذان وتمضى فى أداء وظيفتها دون تدخل من إرادتنا ، أفكذلك ألسنتنا حين نتكلم؟

وقد يكون بعضنا أبيض الجلد والآخر أسوده! أيسأل عن هذا التلوين كما يسأل الإنسان عندما يحسد ذا نعمة أو يزدرى ذا عاهة؟

وندع هذه النماذج للقدر الظاهر والاختيار الحر ، ونسوق أمثلة مما تشترك فيه الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية ، فإن هذا الاشتراك هو غالبا المهرب الذى يلجأ إليه الجبريون ويسيئون فيه تفسير النصوص .

إننا نستغل الكهرباء فى بيوتنا للإنارة والإذاعة والتبريد والتسخين ، فتصور ساكنا جاءه المحصل يطلب منه ثمن ما أفاد من كهرباء ، فقال له : إن التيار مر فى الأسلاك من عندكم ، والمصباح عندى لايمكن أن يضىء من ذاته ولو بقى دهرًا! يقول له المحصل : ماذاتقصد؟ يقول : لا أدفع ثمن شىء أنتم السبب الأول فيه! يقول المحصل : إنك تحرك المفاتيح فتسمع الإذاعة ، وتنير المنازل . . . إلخ يقول له الساكن : لولا التيار الذى أرسلتموه ما تم شىء . . . هكذا يقول بعض الناس لله : لولا إرادتك ما كان شىء ، فلماذا أحاسب؟

وتصور فلاحًا ـ كما قلت فى كتاب لى ـ زرع حشيشا أو أفيونا ، أو أى نبت مخدر ، ثم وقف أمام القضاء يدافع عن نفسه يقول : كيف أحاسب على مازرع الله؟ صحيح أنى وضعت بذرة تافهة ، لكن من الذى نماها وحملها ثمرها؟ إنه القائل : ﴿ **أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** ﴾[1]؟

كثير من الناس يعالج قضاياه الدينية بهذا المنطق!

(١) الواقعة : ٦٤ .

نحن نعلم أن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المسجد أو إلى الخمَّارة بقى قلبه يدق بقدر الله ، وبقى جهازه العصبى يصدر أوامره إلى الأقدام لتتحرك بقدر الله ، وبقيت الأرض دون خسف ولا زلزال باسم الله! فهل معنى ذلك أن الله هو الذى دفع هذا إلى المسجد دفعًا ودفع ذلك إلى الخمَّارة دفعًا .

كلا كلا! إن للإنسان إرادة حرة ، بها كلف ، وبها صح اختياره ، وبها تم جزاؤه . وكون الله أعانه على ما أراد لنفسه ، أو أنضج له ما بذر فى أرضه ، أو أمده بالتيار الكهربى الذى أنار بيته لاينفى مسئوليته التامة عما فعل!!

الإرادة ميزة محققة مؤكدة فى الكيان الإنسانى ، بها حمل أمانة التكليف ، وبها تميز عن الجماد الأصم والحيوان الأعجم ، وبها يعلو أو يهوى ويشكر أو يكفر!

وعندما يتجه المرء ـ بمحض اختياره ـ إلى الإحسان والإساءة فإن تيار الإرادة المبعوث فى أرجاء الوجود طيع بين أصابعه ، إن شاء أضاء فمشى فى النور ، أو أطفأ فخبط فى الظلام .

وآيات القرآن تؤكد هذه الحقائق ، ويجب أن نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا ويصدقه ويكمله!

إذا قال تعالى :﴿ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ . .** ﴾[1] فلنسأل أنفسنا : من الذين يشاء الله إضلالهم؟ ولنسمع الإجابة من القرآن نفسه ﴿ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾[2] ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾[3] ﴿ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ** ﴾[4] .

ليس الأمر إذن لىّ عنان رجل صالح كى يتعرض لعذاب الله ، لأن الله شاء إضلاله وتعذيبه ، كلا ، وحاشا للبر الرحيم ، العدل الكريم أن يفعل ذلك .

هذا امرؤ اتجه إلى الشر فدفعته الأقدار فى طريقه الذى اختاره ، وهل يجنى العنب من بذر الشوك؟

وكلما أوغل الشرير فى الطريق زاد سمك الغشاوة المضروبة على بصيرته ، فيظلم القلب وتعجز أهل الأرض عن إنارته ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[5] وهكذا يصنع الله بالمجادلين فى آياته ، المستكبرين على الحق ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾[6] .

---

(١) المدثر : ٣١ . (٢) إبراهيم : ٢٧ . (٣) الزمر : ٣ .
(٤) غافر : ٣٤ . (٥) المطففين : ١٤ . (٦) غافر : ٣٥ .

الأساس أن هذا الذى شاء الله إضلاله ، أضل نفسه أولا ، فأتم الله له مراده كما قال : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾[1] وكما قال فى موضع آخر ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ . . .** ﴾[2] .

ومن السفاهة الظن بأن الله أزاغ طالب هدى . أو أضل من اتبع سبيل المؤمنين!

وكما يشاء الله إضلال هؤلاء يهدى إلى الحق من ابتغاه ونشده : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾[3] وقال تبارك اسمه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ** ﴾[4] وقال : ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾[5] وقال : ﴿ **وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾[6] .

إن المشيئة الإلهية ليست رمزًا للفوضى ، وعندما يقول الله :﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ** ﴾[7] فالأمر كما شرحنا وكما شرحته آيات أخرى مثل﴿ **قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا** ﴾[8] أى يزيده حيرة وعمى فيستحيل أن يعينه أو ينقذه أحد! ﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾[9] فيستحيل أن يضرهم أو يتسرد بهم أحد بعد هذا العون الأعلى! حيث يكون التكليف الإلهى تكون الإرادة الحرة ، وتكون المسئولية الخلقية والجنائية فى الدنيا والآخرة!

فإذا انعدمت الإرادة لسبب ما فلا مسئولية البتة ، وكيف يكلف الإنسان بما لايطيق والله سبحانه يقول : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[10] .

قال لى أحدهم : كيف يكون للإنسان اختيار وإرادة الله نافذة فى خلقه جميعا؟

قلت : إن الله فاوت بين خلقه ، فهناك فارق بين الجدار والحمار والإنسان! الجدار لايحس والحمار لا يعقل ، والإنسان يحس ويعقل ، وله ميزة فى تكوينه تجعل له معاملة أخرى غير معاملة الجدار والحمار!!

---

(١) الصف : ٥ . (٢) النساء : ١١٥ . (٣) محمد : ١٧ .
(٤) يونس : ٩ . (٥) التغابن : ١١ . (٦) الرعد : ٢٧ ، ٢٨ .
(٧) الزمر : ٣٦ ، ٣٧ . (٨) مريم : ٧٥ . (٩) مريم : ٧٦ . (١٠) البقرة : ٢٨٦ .

إن معاملتى لسائق السيارة غير معاملتى للسيارة نفسها ، الفارق واسع بين القائد والمقود والراكب والمركوب!! والمساواة بينهما فى التكليف حمق .

وذكر لى آخر قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[1] .

وقال : أليست هذه الآية نصا فى سبق الهداية الإلهية والإضلال الإلهى؟ قلت له : أنت واهم تدبر ختام الآية الكريمة تجد مفتاح المعنى الذى غاب عنك ﴿ **يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ .

إن الرجس الذى خنق صدورهم نشأ عن عدم إيمانهم ، فلما رفضوا الإيمان وغصت به حلوقهم جوزوا بهذا الضيق والحرج ، أما الذين رضوا بالحق واستراحوا إليه فقد استحقوا الهداية العليا وكوفئوا بشرح الصدر .

ذلك ، والاختيار بين النهجين يصحب المرء فى كل يوم ، بل فى كل لحظة وهذا هو السر فى أننا نطلب من الله الهدى فى صلواتنا اليومية نحو عشرين مرة بالليل والنهار .

إن ظروفا هائلة تحيط بنا لاتعرف إرادتنا ولا قدراتنا ما تصنع بإزائها ، وما أشبه الإنسان بزورق هش الصنع ، يعوم فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه سحاب هنا يتشبث الإنسان بالتوفيق الإلهى ويسأل ربه النجاة .

ومن العقل أن نميز بين الأقدار التى تحيط بنا وتتحكم فينا ، والأعمال التى طولبنا بها ونسأل غدًا عنها!

وأرى أن إنكار الاختيار البشرى فرار من وظائف العبودية ، واتهام لصفات الربوبية ، وهذه جريمة . ما الذى نحاوله بهذا المسلك؟ يقول الله سبحانه : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾[2] ثم يقول : ﴿ **وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا** ﴾[3] ثم يقول عن الجزاء الأخير ﴿ **هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ** ﴾[4] فأين الظلم أو الجبر فى هذا الصنيع؟

(١) الأنعام : ١٢٥ . (٢) يونس : ٢٦ . (٣) يونس : ٢٧ . (٤) يونس : ٣٠ .

١٢. ما دور المسجد فى الإسلام؟

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ...﴾[1] أحيانا أتصور أن الرفع هنا ليس للدعائم والجدران إنما هو للساحات الطهور التى تخصصت للركع السجود ، فبعد أن كانت أرضا عادية يغشاها أى إنسان أضحت أرضًا لا يدخلها إلا متوضئ ، وبعد أن كانت لأى غرض عادى أضحت همزة وصل بين الناس ورب الناس ، ومهادًا للمعراج الروحى الذى ينقل البشر من مآربهم القريبة إلى مناجاة الله وتسبيحه وتمجيده!

أليس هذا ارتقاء معنويا للأرض نفسها؟ أحسست ذلك وأنا أطالع ما جاء فى السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ دخل ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة فقال : «**يا أبا أمامة، مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت الصلاة؟» قال: هموم لزمتنى وديون يا رسول الله! فقال له: «ألا أعلمك كلمات! إذا قلتهن أذهب الله عنك همك، وقضى دينك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله.**

قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال...» فقلت ذلك فأذهب الله عنى غمى وقضى دينى.

هذا رجل أحرجته الأيام ، وبدل أن يذهب إلى بيت واحد من الأغنياء يستجديه ، ويرقب الفرج عنده على نحو ماقيل :

يسقط الطير حيث ينتشر الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء!

ذهب إلى بيت الله يرجو جداه ، وينتظر نداه! فلم يخب سعيه ، ولم يطل همه . . .!

لقد نفعته كلمات تعلمها من صاحب الرسالة غيرت نفسه وحياته . . .

وإذا كان الرسول قد استغرب وجود الرجل فى المسجد فى غير وقت صلاة فإنه عزم على المسلمين كافة أن يثوبوا إلى المسجد وقت الصلاة وقال : «**إن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة**».

---

(١) النور : ٣٦ .

وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحطت عنه خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه، تقول «اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة».

والواجب أن تتوطد صلة المؤمن بالمسجد ، وأن يكثر التردد عليه صباحا ومساء ، بل ينبغى أن يتعلق به قلبه وأن يزداد له حبه .

قال عبدالله بن مسعود : **لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض! إن كان المريض ليمشى بين الرجلين حتى يأتى الصلاة! وقال:**

إن رسول الله علمنا سنن الهدى، وإن سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه، قال عبدالله: وما منكم من أحد إلا وله مسجد فى بيته، ولو صليتم فى بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم...

وجمهور الفقهاء يرى الجماعة فى المسجد سنة مؤكدة ، ولا ريب أن التجمع نزعة أصيلة جادة فى تعاليم الإسلام ، وأن الجماعة من شعائره العظمى .

والإسلام يحارب بذلك المتدين المنهزم الفار من الحياة العاجز عن مواجهتها ، كما يحارب بعض المتدينين الذين يحسبون أنفسهم أزكى وأتقى ، وأن مخالطة الناس تنقصهم! فهم يؤثرون العزلة ويتهمون الغير ، ويغطون كبرا فى صدورهم ما هم ببالغيه .

ولعل أولئك الذين عناهم ابن عباس لما **سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة؟ فقال: هذا من أهل النار..!!**

إن رسالة المسجد فى الإسلام حشد المؤمنين فى صعيد واحد ، ليتعارفوا ويتحابوا ، ويتعاونوا على البر والتقوى ويتدارسوا مايعنيهم من شئون!!

وهذا التلاقى المنشود ليس حشر أجساد ، إنما هو اندماج الفرد فى المجتمع على أساس من الحب وطلب مرضاة الله ، وعلى كل مسلم أن يرتفع إلى هذا المستوى ، وأن يقتل نوازع الأنانية إذا حدثته بالعزلة لأمر ما فقد جاء فى الحديث : «**ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن** أى لا يحقد أو يخون:- **إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعاءهم محيط من ورائهم**» أى إن بركة الله على الجماعة تشمل الكل وإن كان بينهم من هو دونهم كما جاء فى حديث آخر : «**يد الله مع الجماعة ومن شَذَّ شَذَّ فى النار**» .

ومن رسالة المسجد خلق نظام الصف ، وتعويد المسلمين عليه ، والغريب أن أمتنا أبعد الأمم عن احترام نظام الصف والخضوع له . . . مع ما ورد فى تنظيم الصفوف بالمساجد من توكيد وتشديد .

وتأمل فى هذا الحديث عن أبى مسعود : «**كان رسول الله يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم**» .

وفى رواية : «**أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل ولينوا بأيدى إخوانكم ولا تذروا فرجات الشيطان، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطعه قطعه الله**»!!

لقد قرأت فى حرب فارس أن صفا من المجاهدين كان يعبر نهرا ، فسقط كوز أحد المجاهدين فتريث الصف كله حتى عثر الجندى على ما سقط منه!! إنهم يتحركون بروح الجماعة ، ولا يتصرفون كأنهم عقد انفرطت حباته!

وكم يشعر المسلم بالأسى وهو يرى أمته فى زحام الحياة تتحرك بروح القطيع ، لايهتم المرء إلا بنفسه ومصلحته!! هذا الشعور الهابط يقتل العشرات فى مناسك الحج ، لأن نظام الصف ، والإحساس بالغير مفقود عندنا ، فالمسجد لا يؤدى رسالته!!

ومن رسالة المسجد رفع المستوى الثقافى للأمة ، وذلك عن طريقين : الأول تدبر مايتلى من القرآن فى الصلوات الجهرية وخطب الجمعة ، والقرآن كتاب يتحدث فى العقائد والعبادات والأخلاق والقوانين والشئون المحلية والدولية ويصف الكون ويسرد التواريخ مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء .

وقد كان ذلك المصدر الأول للمعرفة عند السلف ، إذ أن سليقتهم اللغوية مكنتهم من الاستمداد المباشر من آيات الله ، والحق أن الذين أنصتوا للرسول الكريم وهو يتلو كتابه بلغوا شأوًا لايضارع من السمو الفكرى والتربوى ، فليس عجبا أن ينطلقوا مشاعل هدى فى أرجاء الأرض وينقلوها من الظلمات إلى النور .

أما الطريق الثانى لتثقيف الأمة فهو الدروس التى انتظمت فى ساحات المساجد ، تتناول جميع العلوم بل إن الشعر كان يلقى فى المسجد ، وكان الصحابة يستمعون إلى حسان بن ثابت وهو ينشد قصائده السياسية!

ومعروف أن المدارس الفقهية الكبرى كانت فى المساجد وأن الأئمة العظام كانوا يلقون تلامذتهم فيها ، والفقه الإسلامى يحتوى على كل ما يهم البشرية من المهد إلى اللحد .

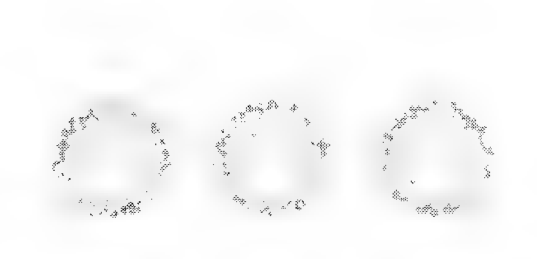
ولما كنت مديرا للمساجد وضعت لأيام الأسبوع الستة غير الجمعة ستة دروس فى التفسير والحديث والفقه والتاريخ والعقيدة والأخلاق ، أما يوم الجمعة فحسبه الخطبة ، وأعددت لذلك كراسات تحضير تراجع بعناية . . .

بل وضعت لتعمير سيناء خطة تقوم على إنشاء مستوطنات ، أساسها ثلاثة رجال : إمام مسجد ، ومهندس زراعة ، وضابط جيش ، وتركت اختيار الأماكن للمتخصصين . . .

وكان رأيى أن تبنى المساجد فى المدن والقرى على أساس مسجد واحد كبير لكل ثلاثة آلاف من السكان . . .

إن المسجد كان القلعة الروحية التى ينطلق منها المجاهدون لمقاومة كل غزو ، وقد قاوم الجامع الأزهر الفرنسيين منذ قرنين حتى احتلوه بخيلهم ، وقاوم الإنجليز أوائل هذا القرن ، وكان يستقبل الأحرار من أقباط مصر الذين يحاربون الاستعمار ، ويؤازرون إخوانهم المسلمين . . وقد روى التاريخ كيف أن امرأة من المصليات سمعت الخطيب يتحدث عن الجهاد ـ أيام الحروب الصليبية ـ فقصت شعرها ، وأرسلت الضفائر إلى الإمام مقترحة أن تكون قيد جواد لأحد المجاهدين مما جعل المسجد يضج بالحماس ، وأغرى الرجال بالتفانى . .

هل انهزمت أوربا فى حملاتها الأولى إلا بهذه المشاعر ، وهل تراجع الاستعمار الجديد إلا بالروح نفسها؟



١٤ ـ لماذا كانت الصلوات خمسا فى اليوم؟ وما هو شكل الصلاة المقبولة؟!

كما يحتاج الجسم الناشط إلى وجبات غنية تمده بالحرارة ، وتجدد ما بلى من خلاياه ، وتحفظ عليه عافيته ، تحتاج النفس الإنسانية إلى وجبات أخرى تعينها علي التحليق ، وتمنعها من الإسفاف ، وتستنقذها من أمواج الفتنة والذهول ، وشتى الأهواء والأقذاء !

إن الإنسان ـ بجواذب من طبعه ـ يحب أن يذكر نفسه وينسى ربه ، يحب أن يضمن مصلحته وحدها ولا عليه أن يضيع الآخرين ، يحب أن يأخذ ولا يعطى ، وإذا أخذ فالشكر ثقيل عليه ، وإن شكر فكلمات خفيفة . . . ثم لا حق بعد لأحد!!

وقد فرض الله الصلاة على الناس طهرا من هذه الدنيا ، وتربية على جميع الفضائل التى تصح بها إنسانيتهم ، وتكمل بها عبوديتهم ، وتتم بها رسالتهم فى هذه الحياة ، وهل خلقوا إلا لعبادته سبحانه؟

وكون الصلوات عددًا معينًا ككون السعرات الحرارية التى يفتقر إليها الجسم عددًا معينًا! لاتتحقق الثمرات المطلوبة إلا بهذا المقدار ، ويقع الخلل المادى والأدبى بمقدار هنا وهناك!

وتنظر إلى حقيقة الصلاة التى شرعها الله للناس ، يقول الفقهاء عن هذه الصلاة : **إنها أقوال وأفعال مبدوءة بتكبير الله تبارك اسمه ، ومختومة بالسلام على عباد الله جميعا . . .**

قالوا : أما الأفعال فقد استوعبت صور التحية التى كان يتقدم بها الناس إلى رؤسائهم وعظمائهم بعد تجريدها من المقاصد الرديئة! الوقوف الخاشع! القعود المؤدب! الركوع والسجود اللذان هما نهاية الاستكانة والاستسلام . .!

فأفعال الصلاة أن نقوم لله قانتين ، وأن نركع ونسجد له معظمين ، وأن نقعد مخبتين قائلين له : إن هذه التحيات التى أديناها ، وكل عمل صالح نقوم به فى حياتنا هو لك وحدك ياربنا الكبير!!

أليس ربنا أهلا لهذه التحيات اللطيفة نقدمها له ـ سبحانه ـ صباحًا ومساء؟

بلى! وهو أهل التقوى وأهل المغفرة . . لذلك يقول الله لكل مسلم : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾[1] .

وربما أحس المرء بكلفة فى أداء هذا الواجب! واستثقل تكراره ألم نقل الإنسان قليل الشكر؟ لابأس عود نفسك ﴿ **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[2] .

وتكتنف أفعال الصلاة أو تتخللها أقوال كثيرة والمطلوب أن يكون المصلى حاضر الوعى حين يتكلم ، فإذا بدأ صلاته قائلا : الله أكبر ، فمعنى ذلك أنه فى موقف جدير يجمعه مع الله فلينتبه!

ويسمى الفقهاء هذه التكبيرة تكبيرة الإحرام ، كأن الإنسان حرم على نفسه الانشغال بشىء آخر لأنه شرع فى مناجاة الله ، والالتفات إليه وحده . .

والأقوال التى يرددها المصلى كثيرة ، لعل أهمها تلاوة أم الكتاب ، وقراءة هذه السورة ليس اختبارا فى الحفظ! فإن كلماتها تمثل لقاء حيا بين الله وعبده ، العبد يتكلم والسيد يجيب!

فى الحديث القدسى : « **قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل...** » . .

فإذا قال العبد : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ قال الله عزوجل : **حمدنى عبدى!**

وإذا قال ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ قال الله : **أثنى علىّ عبدى..**

وإذا قال : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ قال : **مجّدنى عبدى..**

وإذا قال : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ قال : **هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل..**

---

(١) هود : ١١٤ .　　(٢) هود : ١١٥ .

وإذا قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ قال : **هذا العبدى، ولعبدى ما سأل أى أعطيته ما طلب..**

وتكرار هذه المعانى حق ، فإن نعم الله مترادفة توجب تكرار الشكر ، وذكر الله بصفاته العلا ، وأسمائه الحسنى ثناء صادق ومدح مستحب ، والشعور بيوم الدينونة وملكه القائم على كل نفس بما كسبت يكفكف الغرور بالدنيا . .

وتعهد المصلّى أن يعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحده هو رب التوحيد . فإذا وفى المصلى بعهده ، وسأل ربه من رفده منحه ما يطلب ، وأفضل ما يطلب الإنسان هدى يقيه الانحراف ، ورضا يقيه الطرد ، ونعمة تقرّ بها عينه ، وسدادا يقيه الحيرة . . .! الظفر بذلك سعادة الدنيا والأخرى . .!

ومع فاتحة الكتاب يقرأ المرء ما يشاء من الكتاب نفسه . وفى هذه الزيادة معرفة أكثر بالوحى الأعلى ، وما فيه من تبصرة بشئون الحياة كلها . .

ثم يركع المصلى مسبحا ربه العظيم ، فكم من سكان الأرض يشرك به أو يجحد وجوده ، أو يجهل ماينبغى له من نعوت الكمال ، أما المسلم فهو يخالف أولئك جميعا وينزه ربه عما لا يليق به من نقائص . وهو موقن بأن تنزيهه هذا قد صعد إلى الله الجدير به ولذلك يرتفع من ركوعه قائلا : **سمع الله لمن حمده.. أى استجاب الله لمن أثنى عليه وحمده.**

وكان رسول الله ﷺ يرفع من ركوعه أحيانا ويقول : «**اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما من شىء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد. وكلنا لك عبد. لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»!!

ومعنى الجملة الأخيرة أن المرء لاينفعه عند الله ما نال فى الدنيا من حظوظ الرفعة والنعمة ، فليس فى ذلك دليل على الرضوان إلا على ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ** ﴾[1] .

ثم يهوى المصلى ساجدا يسبح اسم ربه الأعلى ، ومع كل ركوع سجودان! والإنسان يكون فى أزكى الأحوال وأشرفها عندما يضع جبهته على الأرض بين يدى ربه ، فليدع بما شاء .

---

(١) الرعد : ٢٦ .

وكان النبى أحيانا يقول فى سجوده : «**سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين**» أو «**سبحان ذى الملكوت والجبروت والعظمة**» وهذه الحركات كلها يكتنفها التكبير بدءاً أو ختامًا . .

وفى القعود الأول أو الأخير يذكر المرء لربه أن كل ما سبق من أفعال وأقوال تحيات لوجهه الكريم ، فهو يقول : التحيات لله ، والصلوات الطيبات ، ثم يلقى السلام على صاحب الرسالة العظمى لقاء ما علم وربى وأرشد ، وكأن هذا السلام إشارة إلى أنه الأسوة الحسنة ، فى إقام الصلاة ، وسائر الشرائع التى جاء بها! ثم يرسل سلاما آخر على نفسه وعلى عباد الله الصالحين . .!

ما أحلى هذه الكلمات كلها ، وما أشرف الصلاة التى يكلف المسلم بأدائها . .

والمهم أمران : أحدهما عقلى والآخر قلبى! **أما العقلى** فيجب أن يعلم ما يقول ، ويعرف ما يناجى ربه به فقد جاء فى السنة **أن المرء لا يكتب له من صلاته إلا ما عقل منها!** أما أن يكون سكران بخمرة الدنيا وشواغلها ، ثم يقف تائها لايدرى ما يتكلم به فهذا هبوط وضياع ﴿ **لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾[1] .

أما القلبى فإن الصلاة تورث الخشوع والأدب والخشية ، وهى معراج روحى يرقى بصاحبه إلى الملأ الأعلى ، إنها ـ إن أقيمت كما شرع الله ـ توبة كاملة تمحو الخطايا محوا ، وتطهر النفس قال عليه الصلاة والسلام : «**أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون أيبقى ذلك من درنه شيئا؟» قالوا: لا يبقى ذلك من درنه. قذاه. شيئاً! قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا**».

والأساس أنها تعصم من الخطايا ، وتحول دون مواقعتها كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾[2] .

بيد أن البشر ضعاف وقد تهى إرادتهم أمام إغراء مّا ، ويزلهم الشيطان فهل ييأسون من تسام ومتاب وعود إلى الله؟ كلا ، فليفزعوا إلى الصلاة فهى تنقى أرواحهم وتشد عزائمهم إلى الصراط المستقيم ، المسلم لايذهب إلى كاهن يأخذ بيده ، فليس الكاهن خيرا منه ، ولو فرضنا أنه خير فما ينفع إلا نفسه ولا مفزع إلا إلى الله . . .

---

(١) النساء : ٤٣ .	(٢) العنكبوت : ٤٥ .

١٥. ماذا يرمز إليه الوضوء؟ ولماذا لاتصح الصلاة إلا به..؟!

نظرت إلى بعض الأشجار القريبة منا وكان غبار الجو قد كساها ، وجعل أوراقها داكنة ، فلم تثر انتباها وخلفتها دون توقف . . وشاء الله أن تمطر السماء بعد قليل ، وكان مطرًا غزيرًا ، ومررت بالأشجار نفسها فكان منظرها عجبا كانت خضرتها تزهو ، والأوراق تحت أشعة الشمس تلمع! فقلت : ما أحسن النظافة ، أبرزت الخلقة الطبيعية فى جمالها الأصيل ، وبعثت النفوس على الإعجاب . .

كذلك جسم الإنسان ، إن النظافة تجلوه وتزكيه ، والجسم الإنسانى أحوج من غيره إلى التطهير الدائم ، لأن متاعبه لاتجىء من الغبار وحده ، وإنما تجىء من إفرازات الجلد والأعضاء ونفايات الأجهزة التى لاتهدأ حركتها ، ولم أر نظامًا للتنقية والتطرية أدق من التشريع الإسلامى فى احترام الجسم وإزالة القذى عنه ، واستئصال مايشينه واستبقاء مايزينه . . .

والوضوء من شعائر الإسلام المطردة فى الحياة الإسلامية ، وهو من الوضاءة أى الحسن الباهر ، ومعنى ذلك أنه فوق النظافة أنه تخلية وتحلية ، والنظافة قد تعنى إزالة الأوساخ وحسب!

كلمة الغسل فى اللغة لاتعنى إسالة الماء فقط ، يقال : غسلت السماء الأرض إذا كان المطر بالغ الشدة ، وإذا فرض الإسلام غسل أعضاء معينة فهو يريد تدليكها بما يطهرها ولا يترك أثرًا منفرًا فوقها .

وقد أوجب الإسلام الوضوء كما فرض جملة من الأغسال التى تشمل الجسد كله! ونستطيع جعل الوضوء رمزا لفلسفة الإسلام فى تكريم الجسم الإنسانى وإعزازه إذ إن هناك عقائد تعلن حربا على هذا الجسم ، وترى الارتقاء فى إهماله وإنحافه والجور عليه ، وذلك فى زعمها لترقية الروح .

والواقع أن الإنسان معنى ومبنى وقلب وقالب ، وعزل المادة عن الروح صعب .

والمفروض أن يكون المعنى الشريف فى مبنى نظيف ، وأن يكون القلب الطيب فى إهاب نفيس . .!

روى مسلم عن عمر بن عبسة رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : كيف الوضوء؟ قال : «**أما الوضوء فإنك إذا توضأت فغسلت كفيك، فأنقيتهما، وغسلت وجهك، ويديك إلى المرفقين، ومسحت رأسك، وغسلت رجليك إلى الكعبين، خرجت من خطاياك كيوم ولدتك أمك**»!

قال أبو أمامة : **ياعمر بن عبسة، انظر ماتقول؟ أكل هذا يعطى فى مجلس واحد؟**

قال عمر : **أما والله لقد كبرت سنى، ودنا أجلى، ومابى من فقر فأكذب على رسول الله** ﷺ ، **ولقد سمعته أذناى ووعاه قلبى من رسول الله.**

والواقع أن الجزاء المذكور ليس على مجرد الوضوء ، فإن الوضوء وسيلة إلى الصلاة ، وهذى وذاك مظهران لإيمان حسن ، ومسارعة إلى رضوان الله ، فالثواب الوارد منظور فيه إلى جملة هذه الخصال المترابطة ، وقد تأكد هذا المعنى من أحاديث كثيرة . .

والوضوء وحده لا يصلح إذا كان الجسم بحاجة إلى تطهير تام ، كما فى حالة الجنب والحائض والنفساء ، وقد أمر الإسلام بتتبع ما يلوث البدن حتى لايبقى أى أثر لنجس ، وكانوا قديمًا يستعينون ببعض الأعشاب والألياف لإدراك النظافة المطلوبة ، وفى عصرنا توصل العلماء إلى مواد كثيرة يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض!

إن المعلم كالطبيب ، كلاهما يريد الكمال للإنسان ، والطبيب فى كشوفه وعلاجاته يتناول الجسم كله لايستثنى منه شيئا ، وكذلك فعل الإسلام وهو ينقى البدن ويجمله ، أنه لم يتحرج من ذكر شىء مهم وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : «**الفطرة خمس: الختان، والاستحداد**-إزالة الشعر حول المواضع الحساسة- **وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط**» .

أى إن من المحافظة على الفطرة السليمة - وهى جوهر الدين - أن يتعهد المرء بدنه بهذه الآداب . .

ومن أطال شعر رأسه وجب عليه أن ينظفه ويسرحه ولا مانع من تعطيره ، ففى الحديث : «**من كان له شعر فليكرمه**»!!

ولابد من غسل الفم وتعهد الأسنان ومنع الفضلات من التخلف بين الثنايا ، إن الفم المتغير الرائحة بلاء على صاحبه ، ومصدر أذى لأصحابه ، وقد أسقط الإسلام

صلاة الجماعة عن الأبخر!! كما ندب لمن أكل ثوما أو بصلا أو فجلا أن يبتعد عن المجالس العامة ، وتعاليم الإسلام فى استعمال السواك كثيرة ، ويمكن الاستعانة بالمعاجين التى تنظف الفم ، وقد تغنى مكان السواك . .

والغريب أن الإسلام لم يكتف بالطهارات التى قررها ، بل ضم إلى ذلك التزين الذى يصلح الهيئة ، ويجلب الاحترام ، وقد روى أبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «**أومأت امرأة من وراء ستر، بيدها كتاب! إلى رسول الله ﷺ فقبض يده! وقال: ما أدرى، أيد رجل أم يد امرأة؟ فقالت: بل يد امرأة! فقال لو كنت امرأة لغيرت أظافرك.** يعنى بالحناء ـ أى لظهرت حمرة الخضاب على الأظافر!!

وعن عائشة أيضا أن هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله، بايعنى، قال: لا أبايعك حتى تغيرى كفيك كأنهما كفا سبع. أى وحش ـ!

والتجمل شىء غير التبرج ، التبرج إهاجة الغرائز الساكنة بصورة تميل بها نحو الإثم! أما التجمل فهو إبراز الجمال الطبيعى فى إطاره العادى المعتدل ، وجمال الأنوثة غير جمال الرجولة ، والإسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالآخر ، وليس معنى نهى المرأة عن التبرج أن تكون دميمة المظهر أو كريهة الرائحة ، كلا فلتكن حسنة الهيئة مع الاحتشام ، ولتكن طيبة الرائحة دون تعطر صارخ . .!

قلنا : إن الوضوء من الوضاءة ، أى الحسن والملاحة والإشراق! والحياة الإسلامية الأولى كانت آية فى النظافة والارتقاء ، فلما ساء معنى التدين وانحدر مستواه ظن البعض أن الهيئة الرثة من الدين وأن إهمال الجسم دليل على التقوى وطلب الآخرة! والحق أن الشكل الفوضوى دليل موضوع مشوش وأن من أهمل حق بدنه لا يؤتمن على كثير من الحقوق . .

أما نستحى ـ وقد أضاف الله الزينة إلى نفسه ـ أن ننأى عنها؟ ألم يجئ فى الكتاب العزيز :﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾[1] . .؟ إن الله يريد وضاءتنا فلم نريد نحن الدمامة والرثاثة؟!

إن الوضوء رمز إسلامى لكل أسباب النظافة والزينة ، على أن يكون وراء ذلك بداهة فكر نظيف ، وأدب رائق جميل ، فيكمل الإنسان جوهرًا ومظهرًا وحقيقة وصورة!

---

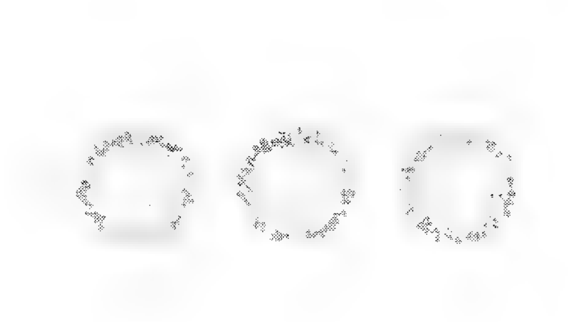
(١) الأعراف : ٣٢ .

والوضوء ليس شرطا لذكر الله سبحانه وتعالى ، فالمسلم يستطيع أن يذكر ربه فى أوقاته كلها جُنبًا أو طاهرا ، بل يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم ـ فيما أرى ـ وتستطيع الحائض ذلك . والمؤمن لاينجس أبدا والجنابة عارض لبدنه يمكن الخلاص منه على عجل . .

أما الصلوات المكتوبة كلها ، فيستحيل الدخول فيها دون طهر ، والوضوء كاف لمن قام به حدث أصغر ، أما الحدث الأكبر فلابد من الغسل . .

وإنما اشترط ذلك حتى لايتجوَّز المؤمن فى شئون النظافة ، ويتركها لأى عذر ينويه ، فما أسرع الناس إلى الترخص فيما لم يلزموا به حتما ، وإذا كانت الصلاة من أركان الإسلام الخمسة ، فإن النظافة تعد من الأركان لأنها تمهيد لامناص منه للصلاة ، ثم جاء تعبير القرآن بعد ذلك أعم وألطف إذ أمر باتخاذ الزينة عند الوقوف بين يدى الله :﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . . ﴾[1] .

والنظافة خلق قبل أن تكون عادة تتبع الغنى أو الفقر ، ومن كان شديد الحس بطهارة جسمه لن يعدم أية وسيلة تجعله تقيا وسيما ، وكم من فقير نظيف ، وغنى ممجوج . . .!



(١) الأعراف : ٣١ .

١٦. ما حكمة الحج، ولماذا كان الطواف حول الكعبة وهى بناء من حجر؟!

سمعت أحد الدعاة يقول : إن الله كلفنا بما نعقل فأطعنا ، فأراد أن يبلونا بأفعال الحج ليرى : أنطيعه فيما لا نعقل أم نعصيه؟ قلت له : هذا كلام ردىء ، وأفعال الحج ترتبط بحكم لاينكرها العقل ، وقد شرحتها فى موضع آخر ولا بأس من إعادتها هنا .

إن الأمم تغالى بكثير من ذكرياتها ، وتقرن به مشاعر نفسية واجتماعية بعيدة المدى ، وقد رُبط النصارى بقبر المسيح وطريق الآلام ، كما يقولون ، وربط اليهود أنفسهم بحائط المبكى ، وأسسوا عليه حقوقًا ما أنزل الله بها من سلطان! فلماذا يستغرب من المسلمين أن يرتبطوا بأماكنهم المقدسة ، ارتباطا ـ يبدو ـ عندما يدرس ـ أقرب إلى الرشد ، وأبعد عن الوهم؟ . .

الكعبة هى البيت الحرام الذى بنى لتقام فيه وعنده الصلوات لله وحده ، وقد قيل لإبراهيم وهو يؤسسه ﴿ **لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾[1] .

وهذا المسجد الحرام ـ أعنى الكعبة ـ هو أول مسجد بنى فى الدنيا لتوحيد الله ، ونبذ الشركاء ، وتمحيص العبادة لرب العالمين .

أليست لهذه الأولية حقوق؟ بلى . وطليعة هذه الحقوق ألا يشاد مسجد فى العالم إلا اتجه إليه وشاركه غايته فى التوحيد الخالص! وكذلك من هذه الحقوق المقررة أن ينبعث كل قادر ليزور هذا المسجد الذى أصبح قبلته حيا وميتًا .!

هذه المعانى هى التى ذكرها القرآن الكريم فى أثناء الحديث عن هذه الكعبة :

---

(١) الحج : ٢٦ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾(1) ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(2) ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(3) . . .

من أجل ذلك تنبعث الوفود من المشارق والمغارب لترى البيت الذى تصلى إليه ، ولتطوف حوله طواف تقدير واحترام!

ماذا يقول الحجيج وهم يطوفون بهذا البيت ؟ يقولون : «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»! **يقولون: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»..**

إنهم لا يعبدون البيت وإنما يعبدون رب البيت ، والطواف كما أجمع العلماء ـ صلاة لابد لها من طهارة البدن ولابد فيها من خلوص القلب لله .

ومن زعم أن الكعبة كلها أو بعضها يضر أو ينفع فهو خارج من الإسلام .

ومن حق رب البيت أن يضع طريقًا لزيارة بيته ، فإذا جعلها طوافًا من سبعة أشواط فليس فى الأمر ما يستغرب ، ففى طول الدنيا وعرضها توضع طرائق شتى للاستقبالات والاستعراضات!!

وحكمة أخرى لا تقل جلالا عن سابقتها ، تفسر الطواف حول البيت العتيق ، إن الأمة الإسلامية التى تبلغ ألف مليون من البشر ، بدأت دعوات حارة على ألسنة الرسولين الكريمين اللذين توليا بناء هذا البيت! دعوة ملؤها الاستسلام لله ، والرغبة فى مد عبادته من الآباء إلى الأبناء إلى الأحفاد إلى قيام الساعة﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ..﴾(4) كما أن هذين الرسولين الكريمين دعوا الله أن يجعل فى هذه الأمة نبياً يعلم ويربى ويتلو آيات الوحى الصادق ، فكانت بعثة النبى الخاتم بعد قرون طوال !

أهناك ذكريات تاريخية أعز من هذه الذكريات؟ فإذا لم يحج المسلمون البيت الذى بدأ عنده تاريخهم ، فأين يحجون؟ وإذا لم يقصدوا البيت الذى كان نبيهم دعوة مخبوءة فى ضمير عند بنائه استجابها الله وباركها ، فأين يقصدون؟

---

(1) آل عمران : ٩٦ . (2) آل عمران : ٩٧ . (3) البقرة : ١٤٤ . (4) البقرة : ١٢٨ .

إن الكعبة بناء من حجر ، مايغليها أن تكون بناء من ذهب ولا يرخصها أن تكون من خشب ، المهم هو المعنى الذى يحفها . .!

رجل واحد هو فى طاقته أمة! أحب الله من أعماق قلبه ، وألقى فى النار لحرصه على توحيده ، وخاصم الملوك والجماهير لإعلاء هذه الحقيقة ، وتنقل بين أرجاء رحبة من الأرض يدعو ويجادل ، طوحت به سياحاته إلى هذا المكان النائى ليشيد على أنقاض الوثنية حصنا للتوحيد ، ويسأل ربه وهو يبنى أن يجعل من عقبه أمة تحمى الحق وترفع رايته ، أكان للناس عجبًا أن تهرع هذه الأمة بعدما تمخض عنها الغيب لتزور المسجد الذى وضع أبوها ، وتهتف من حوله بشعار التوحيد؟

إن الأب الراحل دعا الأجيال لتزور بيت الله ، وتوثق حبالها بالعقيدة التى أنشأته ، ووقع فى قلوب الألوف المؤلفة صدى هذا النداء ، فأتت من كل فج تقول :

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك!

فهل تتهم هذه الوفود الموحدة بأنها وثنية؟ أليست هذه السفاهة بعينها . . .؟

إن بعض الناس لا يدرى المعانى العظيمة التى تحف مناسك الحج ، وقد يكون الحجاج أنفسهم من هذا القبيل!

نظرت إلى «المسعى» وهو يموج بحشود كثيفة تطوف بين الصفا والمروة ، وساءلت نفسى : إن هذا السعى بين الجبلين الصغيرين شرع لترسيخ عقيدة التوكل على الله ، وإن وهت الأسباب المادية ، فهل الساعون يعون ذلك؟

من قرون خلت كانت هذه البقعة يسودها صمت الوحشة والانقطاع ، لا أنيس هنالك ولا عمران ، جاءها إبراهيم عليه السلام بامرأته وابنه الرضيع ، ثم قال : للأم الضعيفة : سأتركك هنا . .!

وتساءلت هاجر دهشة : تتركنا هنا أنا وإسماعيل . .؟ حيث لا زرع ولا ضرع ، ولا دار ولا ديار؟ قال : نعم . قالت : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . .

- إذن لا يضيعنا !! وانصرف الأب لايدرى ماذا سيقع له ولا ما سيقع لأسرته ، لقد نفذ ما أوحى إليه به وحسب!

ونفد الزاد والماء من هاجر ، وجاءت الساعة الحرجة ، وانطلقت الأم بين الربوتين الجاثمتين على صدر الوادى تبحث عن غوث للرضيع الذى يوشك أن يهلك .

وبعد أمد جاء الملك وفجر بئر زمزم ، وحامت الطير حول الماء الدافق ، وأحس الناس ما جدّ فأقبلوا على المكان يعمرونه!

إن ثقة هاجر فى الله أثمرت الخير ، ولم يخذلها الله بعدما آوت إليه . .

والتوكل على الله ـ مع ضعف الأسباب أو انعدامها ـ زاد يحتاج إليه المجاهدون ، والمضطهدون ، يعتمدون عليه فى اليوم الكالح كى يسلمهم إلى غد رابح .

وقد خسر المسلمون معارك كثيرة ، كانوا جديرين بكسبها لو استندوا إلى الله ، ولكنهم خاروا لضعف يقينهم ثم هنوا فى أرضهم!

هل يعى ذلك الساعون بين الصفا والمروة؟ وهل عرفوا عقبى التوكل عندما يمثلون الدور الذى قامت به أم إسماعيل وهى تتحرك جيئة وذهابًا بين الربوتين؟

قال التاريخ : واعترض الشيطان إبراهيم لما ترك أسرته بالوادى المقفر ، يقول له : كيف تنفذ أمرًا فيه هلاك أهلك ، لأن الله أمرك؟! فقذفه إبراهيم بحصيات التقطها من التراب ، فكانت تلك سنة رمى الجمار فيما بعد !

إن مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم وماضيهم وحاضرهم .

ويكفى أنها تجمعهم من أطراف الأرض شعثًا غبرًا لا تفريق بين ملك وسوقة ، ولا بين جنس وجنس ، ليقفوا فى ساحة عرفة فى مظاهرة هائلة ، الهتاف فيها لله وحده ، والرجاء فى ذاته والتكبير لاسمه ، والضراعة بين يديه ، فقر العبودية ظاهر! وغنى الربوبية باهر! ومن قبل الشروق إلى مابعد الغروب لا ذكر إلا لله ولا طلب إلا منه سبحانه . .

إن الحج من الناحية الروحية إذكاء مشاعر ، وتجديد عاطفة . ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجيهات الجامعة التى تكفل مصلحة المسلمين العليا .

ولكى ندرك ذلك ندرس كيف حج المسلمون فى السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة .

فى السنة التاسعة رجع الحجاج وقد تلقوا تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاهداتهم ، ومعاملتهم بالشدة بعدما فشل اللطف معهم . .

وفى السنة العاشرة وضعت تقاليد إنسانية وآداب عامة تضمنتها الخطبة الجليلة التى ألقاها الرسول ﷺ فى حجة الوداع . .

فهل يسمع المسلمون شيئًا ذا بال عندما يحجون فى هذه الأيام؟

١٧ . ما هى دار الحرب، وما هى دار الإسلام؟

يقصد بدار الإسلام جميع الأراضى التى يعمرها المؤمنون برسالة محمد ﷺ ، العاملون بكتابه وسنته ، المنفذون لشرائعه ، والمنضمون تحت لوائه . ويقصد بدار الحرب جميع الأراضى التى يقطنها الكافرون بهذه الرسالة ، المخاصمون لها ، المعترضون لدعوتها . .

قد تتسع هذه الدار فتشمل كل الأوطان التى غزانا منها الصليبيون القدامى ، أى أوربا كلها تقريبًا! وقد تتسع لتشمل كل الأقطار التى أغار منها التتار علينا ، فوصلوا من الصين إلى فلسطين! ، وقد تضم كتابيين ، ووثنيين ، وملاحدة!

وقد سميت هذه البقاع وأهلوها دار حرب من باب المعاملة بالمثل ـ كما يتبين ذلك قريبًا ـ فإن أرض الإسلام لم تكن لها حرمة عند أعدائه فلم تصان أرض أولئك الأعداء . .؟

على أنى أشعر بالألم لهذه الجفوة القاسية وآسى لإنسانية انقسمت على هذا النحو الدامى ، وتاريخ مُلئ بالإحن والحروب!

لم تكن هناك جسور تصل بين الدارين ، ولا عهود تؤمن الأتباع من هنا ومن هناك ، بل كانت هناك تيارات من الجدل والمهاترة تشعل الأحقاد ، وتورثها للأحفاد ، وليس بين الفريقين إلا ما يقوله الشاعر :

الله يعلم أنا لا نحبكم ... ولا نلومكمو ألا تحبونا

كل له نية فى بغض صاحبه ... بنعمة الله نقليكم وتقلونا!!

من المسئول عن ذلك؟ قبل أن أذكر ماعندى أذكر ماقاله أقطاب القانون الدولى عند الأوربيين ، وهى أقوال نقلتها عن كتاب «المجتمعات الدولية الإقليمية» المقرر فى معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية .

والمؤلف رجل محايد لم يره أحد يوما فى ميدان الدعوة الإسلامية هو الدكتور محمد حافظ غانم وزير التعليم العالى الأسبق . .

كتب تحت عنوان «العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها»

فقال : «منذ نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية! وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التى يقررها هذا القانون»[1] .

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوربيون راغبين فى اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية فـ «جروسيوس» أبو القانون الدولى قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية! ومع أنه يرى القانون الطبيعى مجيزًا لعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحى إلا أنه نادى بتكتل الأمراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة .

و«جينتليس» هاجم «فرانسوا الأول» ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان القانونى - الخليفة العثمانى - سنة ١٥٣٥ م مع أن هذه المعاهدة أقامت سلامًا بين الدولتين وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التى كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا فى دار الإسلام! ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية .

وذلك على أساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاونًا بين ملك مسيحى وبين غير المؤمنين!

أقول : وهو تعاون - فى نظر رجل القانون الدولى - لا يجوز بل يجب أن يبقى التناكر والتعادى بين الفريقين ، وأن تهيأ الفرص لسفك المزيد من الدماء! بم نعلق؟ ﴿ **قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** ﴾[2] . .

يقول المؤلف : بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم فى أوربا ، على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين - أى ضد المسلمين - وظهرت عدة مشروعات من هذا النوع .

ويستطرد المؤلف - بعد شرح هذه المشروعات - فيقول : إن الدولة الأوربية فى تعاملها مع الشعوب الإسلامية كانت تنظر إليها كجماعات همجية غير جديرة بالتمتع بقواعد الحرب! ولقد اعتبر الاستيلاء على أراضى المسلمين عملاً فاضلاً يدعو إلى الفخر . .!!

---

(١) جميع العبارات المنقولة هنا مؤصلة بمراجعها العلمية والأجنبية وقد أثبتها كلها فى كتابى «كفاح دين» .
(٢) سبأ : ٢٥ ، ٢٦ .

ثم يقول المؤلف : ونخلص مما تقدم إلى أنه حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أية دولة إسلامية أخرى تتمتع بحقوق القانون الدولى .

هكذا كانت النظرة إلينا حتى بدايات العصر الحديث! والواقع أن رجال الحرب والسياسة والقانون ، كانوا قبل الحروب الصليبية وبعدها ينظرون إلينا ببغضاء عميقة ، وقد ورثوا عن آبائهم كفرًا برسالة محمد ورغبة جامحة فى تشويهها والقضاء عليها!

محمد مدع لا صلة له بالنبوة! وأتباعه مخدوعون لا يقبل منهم إيمان ، وليس لهذا الدين ولا لمن دخل فيه حق مادى أو أدبى ينبغى أن يراعى! إنهم خارجون على القانون فمن اغتالهم أو اجتاحهم لم يرتكب إثمًا!

ماذا يفعل المسلمون إذا رأوا هذا الحيف ، وهم موقنون بأن الله واحد ، وأن رسله كلهم ـ ومعهم محمد ـ حق؟

إذا اعتبرت أرضهم دار حرب اعتبروا أرض غيرهم دار سلام؟ هذى بلاهة!!

كان عباد الأصنام يشمئزون من عقيدة التوحيد! ويرفضون سماع شىء عنها : ﴿ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا** ﴾[1] .

ليكن ﴿ **لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[2] .

لا ، لن ندعك تدعو ولن ندع الآخرين يتبعونك ، والسيف هو الحاكم! ويصور القرآن الموقف فى هذه العبارة ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾[3] .

فإذا تجاوزنا الوثنيين إلى أهل الكتاب وجدنا الضغائن أشد ، والأنياب أحد . . إنهم لا يطيقون سماع كلمة عن الإسلام ﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا** ﴾[4] .

كلا الفريقين من يهود ونصارى يريد أن ننسلخ عن ديننا ونتبعه!

إننا ياقوم أعرف بموسى وعيسى ، وأرعى لتراثهما الصحيح ، وأسرع إلى مرضاة الله الذى أرسلهما ، وأرسل بعدهما محمدًا . .

---

(١) الإسراء : ٤٦ .
(٢) يونس : ٤١ .
(٣) البقرة : ٢١٧ .
(٤) البقرة : ١٣٥ .

لا لن نصفو لكم ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .. ﴾[1] .

ويبذل أهل الكتاب جهود المستميت لسحق الدين الجديد ، وتعويق المصدقين له ، وصرفهم ولو إلى الإلحاد أو الوثنية!!

وإنك لترى تقريع الأسى والغضب فى تعليق القرآن على هذا الموقف الوضيع ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

ماذا يصنع المسلمون بإزاء هذه العداوات المحيطة؟ إن الذى يطلب منهم الاستكانة لها لا ذرة لديه من عقل . .

وها قد طلع العصر الحديث ، عصر عصبة الأمم ، ثم هيئة الأمم ، ومجلس الأمن ، وقيل إن للإنسان حقوقًا ، وللشعوب كرامات! فهل اختفت المواريث القذرة فى تاريخ العالم وتخلصت البشرية من طبائع الظلم والغبن؟

إن قضية فلسطين نموذج لشر ضروب التعصب ، فقد طرد شعب مسلم من داره ، وحلت محله إسرائيل ، وقالت الدولة الراقية ؛ لقد خلقت إسرائيل لتبقى . . .

وستتبع فلسطين أقطار أخرى مادامت جزءاً من أرض الإسلام لأنها فى نظر الاستعمار القديم والحديث دار حرب !!

إننا لا نحب هذا التقسيم ، ولكن غيرنا ألجأنا إليه وإذا تركه تركناه . .



(١) البقرة : ١٢٠ .
(٢) آل عمران : ٩٨ - ٩٩ .

١٨ . ما حقيقة الحرب والسلم فى الإسلام ... ؟

ألف «ابن تيمية» رسالة صغيرة عن القتال فى الإسلام بدأها بهذا السؤال : هل مقاتلة الكفار بسبب عدوانهم أم لمجرد كفرهم؟ ثم أجاب[١] : فى ذلك قولان مشهوران للعلماء :

الأول : قول الجمهور كمالك وأحمد بن حنبل وأبى حنيفة وغيرهم ، فهؤلاء يرون أن الكفار يقاتلون لاعتدائهم لا لضلالهم!

والثانى : قول الشافعى وربما علل به بعض أصحاب أحمد ، وأساس هذا القول أن الكفار يحاربون لسوء عقيدتهم وجحدهم لله ولحقوقه!

قال ابن تيمية : وقول الجمهور هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار فإن الله سبحانه قال : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾[٢] .

فقوله : ﴿ **الذين يقاتلونكم** ﴾ تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا ، فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال . ثم ﴿ **ولاتعتدوا** ﴾ والعدوان مجاوزة الحد فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان ، ويدل عليه أيضًا قول بعد هذا : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ فدل على أنه لاتجوز الزيادة .

(١) تصرفنا فى العبارات بما يقرب المعانى إلى القارئ .

(٢) البقرة : ١٩٠ ـ ١٩٤ .

ثم قال : ﴿ **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة** ﴾ الفتنة تحويل المسلم عن دينه قسرًا كما كان المشركون يفعلون بالمستضعفين ، ومقاتلتهم حتى تنكسر قواهم ويعجزوا عن الفتنة ، ولم يقل سبحانه قاتلوهم حتى يسلموا!

﴿ **ويكون الدين لله** ﴾ وهذا يحصل إذا ظهرت كلمة الإسلام وكان حكم الله ورسوله غالبًا . .

ذاك ما جاء فى الكتاب الكريم ، أما ما جاء فى السنة فقد صح أن النبى ﷺ مر فى بعض غزواته على امرأة مقتولة ـ فكأنه كره ذلك ـ وقال : «**ما كانت هذه لتقاتل!**» فعلمنا أن العلة فى تحريم قتلها أنها لم تكن تقاتل .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يوصى بعدم التعرض لمن ليس من شأنه القتال ، روى أبو داود أن النبى ﷺ كان يوصى الجيش الذاهب إلى المعركة : «**انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**».

وقد ادعت طائفة أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن تيمية : وهذا رأى ضعيف ، ودعوى النسخ تحتاج إلى دليل وليس فى القرآن مايناقض ـ الآيات التى ذكرناها ـ بل فيه ما يوافقها فمن أين يجىء النسخ؟ الصحيح أنها محكمة وأن من ليس معدّاً نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ الفناة ، والزمنى والمكافيف والمجانين ، فإن هؤلاء لا يقاتلون وهذا حكم باق غير منسوخ ، وهذا قول جمهور العلماء .

ونمضى نحن فى مناقشة القائلين بشىء من التفصيل يزيد الحق وضوحًا . .

من أعجب ما قرأت أن قوله تعالى :﴿ **قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** ﴾ منسوخ بالآية التالية مباشرة ﴿ **اقتلوهم حيث ثقفتموهم** ﴾!!

وهذا ضرب من اللغو كان يجوز إثباته ، لأن القائل قطع جملة من ﴿ **وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ** ﴾ وضرب بها السياق كله على نحو لا يسوغ فى دماغ عاقل ، ولذلك نتجاوز هذا الرأى . .

الدليل الذى يعتمد عليه القائلون بالنسخ مايسمى بآية السيف يعنون مثلاً قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ﴾[1] .

---

(١) التوبة : ٥ .

وفى هذا الكلام تلبيس خطير يجب أن ينكشف لكل ذى عينين فإن كلمة المشركين هنا فسرت فى الآيات السابقة والآيات اللاحقة بأنهم قوم تفاحش عدوانهم حتى بلغ حداً لايطاق ، وأنهم جماعة من الفتاك القادرين تعرفهم عندما تقرأ الآية التى استثنت من تصان دماؤهم من المشركين ، وهى قوله سبحانه : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا** ﴾[1] .

يعنى أن المشركين المطاردين هم قوم نقصونا حقوقنا وظاهروا أعداءنا ، واحتقروا عهودنا .

ولكى نزداد بهم معرفة نقرأ وصفهم فى الآيات الآتية : ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ** ﴾[2] .

هؤلاء المعتدون هم الذين أعلنت الحرب عليهم فى صدر سورة براءة ، وأعطوا أربعة أشهر مهلة ليروا مايصنعون بأنفسهم! فهل هذا الحكم يطابق أم يخالف آية ﴿ **قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ .

إن القول بالنسخ لا قتال إلا للمعتدين لا مساغ له أبدًا ، ولا يدل على فقه فى القرآن الكريم .

قال لى بعض الأخوة : على رسلك ، إن الإطار الذى تريد وضع الجهاد الإسلامى داخله قد محته آيات الجهاد المطلق ، الجهاد الذى يخاصم الضلال حيث كان ، ويريد غسل الأرض منه ، فلا داعى لهذه القيود التى تذكر . .!!

قلت : أين هذه الآيات؟ ألم تقرأ قوله تعالى يغرى طلاب الآخرة بالجهاد : ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾[3] إن هذه الآية تحث على خوض الحروب انتصر المرء فيها أو انهزم ومادام يريد إعلاء كلمة الله فله أجره!

---

(١) التوبة : ٤ . (٢) التوبة : ٨ ـ ١٠ . (٣) النساء : ٧٤ .

قلت : لعلك لو قرأت الآية التى تليها مباشرة لعلمت أن هذه الحرب لم تكن عدوانًا بل ردًّا للعدوان وكسرًا للطغيان!

أليس يقول الله سبحانه فى حفز الهمم لخوض هذه الحرب : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ (1) .

إن هذا القتال من أشرف مادار على سطح الأرض بالنسبة إلى جمهور المسلمين ، فكيف يوصف بأنه قتال لم يرتبط بقيد معين؟

فصمت قليلاً ثم قال : خذ آية أخرى قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ..** ﴾(2) .

قلت : هذه آية تصف مايجب عند التحام الرجال فى المعركة ، ولا تتحدث عن سبب القتال ، ومع ذلك فلو سلمنا بوجهة نظرك فإن أول السورة التى ذكرت فيها الآية يحدد من هو العدو الذى نحاربه!

أول هذه السورة :﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾(3) والصد عن سبيل الله يعنى تعويق الدعوة عن المضى فى مسارها ، وإيذاء المؤمنين الذين تنشرح صدورهم بها ، وهذا عدوان حقيقى!!

قال : خذ آية أخرى والآيات كثيرة : ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾(4) قلت : هذه الآية بين عشرات من الآيات التى نزلت فى غزوة تبوك تستنفر المؤمنين كى يقاتلوا الروم ، ويحدوا من طغيان النصرانية شمال جزيرة العرب ، ومعروف أن الرومان قتلوا بعض

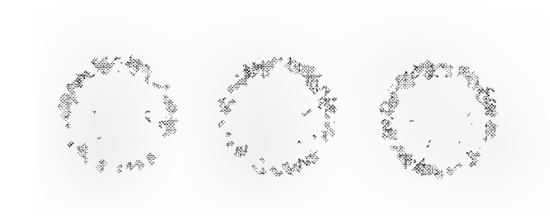
---

(1) النساء : ٧٥ .
(2) محمد : ٤ .
(3) محمد : ١ .
(4) التوبة : ٤١ .

من أسلم فى مدينة «معان» ونشروا الرعب فى بقاع واسعة كان عملاؤهم يحكمونها . .

وقد حاول المسلمون أن يوقفوا هذا التحدى ، وأرسلوا جيشًا إلى «مؤتة» هزمه الرومان ، وقتل القواد الثلاثة الذين حاولوا الصمود به ، ولم يجد المسلمون بدًّا من الانسحاب ، فعادوا إلى المدينة وقلوبهم كسيرة .

وازداد الطين بلة ، فإن تيار الدعوة ركد تحت تأثير السطوة الرومانية المحذورة ولم ير النبى مناصًا من إعداد أكبر جيش فى تاريخ الدعوة لينازل الإمبراطورية العجوز ويلزمها حدودها! إن الحرب كانت واجبًا حتمًا ، ولم تكن غارة عمياء ، وسوف نزيد الأمر وضوحًا فيما بعد .



١٩ـ لماذا حمل الرسول السيف؟ ولم يكتف بالإقناع؟

فى هذا السؤال إيماءة مرفوضة إلى أن الرسول حارب ليحمل الخصوم على قبول الدعوة! وهذه تهمة لا أصل لها من عقل أو نقل! ماذا يدعيه المدعون بعد أمر الله لرسوله :﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾[١] وقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾[٢] .

إن الإسلام بنى خطته فى الحياة على استحالة زوال الأديان كلها ، واكتفى بأن يبقى مذكرًا بالحق ، منكرًا للهوى ، وترى ذلك فى قوله سبحانه :﴿ **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [٣] .

حسبنا نحن المسلمين أن نقرر الحق ، وأن نحيا على هداه ، وأن نمهد طريقه لمن أحب سلوكه ، ولنا بلا ريب أن نرد المهاجمين ، وأن نحمى المستضعفين ، وأن نسكت المفترين إذا تمادوا فى أذاهم!

ولننظر فى الكتاب الذى أرسله النبى ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، ولنتأمل ما جاء فيه «**بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾[٤]»!

بم ختم هذا الكتاب؟ إن رفضتم الإسلام فاعلموا أننا مسلمون باقون على إسلامنا ، لاتهديد ولا سباب! وإنما جاء التأثيم فى موقف هرقل ـ إذا بقى على دينه ـ من «الأريسيين» . .

---

(١) الكهف : ٢٩ .
(٢) الإنسان : ٢٩ .
(٣) البقرة : ١٤٥ .
(٤) آل عمران : ٦٤ .

ونحن نرى مع بعض المحققين أن الأريسيين هم أتباع آريوس البطريق الذى قاد حركة الموحدين فى التاريخ الكنسى ، ورفض بقوة جعل عيسى إلهًا أو ابنا لله . .

وهذا القس الموحد لقى مع أتباعه اضطهاداً شديدًا ، وتضافرت قوى الدولة الرومانية على مطاردته ومصادرة دعوته ، وورثت الحكومات الأخرى هذا الترويع حتى انقرضت كنيسته أو كادت . .!

ونستبعد أن يكون المراد بكلمة الأريسيين الفلاحين ، ومأساة الموحدين فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية ثم فى أرجاء أوربا معروفة ، ومن حق نبى الإسلام أن يندد بها ، ويذكر هرقل بموقفه منها . .

إننى ـ بعد إذ هديت إلى ذلك الفهم ـ عرفت أن الأستاذين معروف الدواليبى وأبا الحسن الندوى سبقانى إليه ، وذلك ما يقويه ويؤكده . . .

وربما كان الرومانيون يحسبون الإسلام امتداداً لبدعة آريوس ـ كما يصفونها ـ وأيّاً ما كان الأمر فقد حاولوا البطش بالإسلام ودعاته ، وشرعوا يقتلون من دخل فيه!

ولولا السيف الإسلامى الصلب ، ولولا الرجال أولو البأس الذين حملوه ، ولولا نبى الملحمة الذى انتصب دون دينه وعرينه ، لذهب الإسلام فى خبر كان ، وربما ضن عليه الاستعماريون بدموع التماسيح بعد ما يزول!!

إن المؤرخين الأوربيين غضاب لأن الإسلام قاتل الرومان! فهل سأل أحدهم نفسه : ما الذى جاء بالرومان إلى الشام وآسيا الصغرى ، وما الذى جاء بهم إلى مصر والشمال الإفريقى؟

أكان الإقناع طريقًا إلى إخراج أولئك المستعمرين من أرض احتلوها أكثر من خمسة قرون؟ هل أفلح الإقناع فى إنهاء استعمار البيض لجنوب إفريقية؟

إن الحرب وحدها بكل مغارمها ومتاعبها هى الطريق الفذ لمحو الاستعمار الطويل!

إن الإسلام أغنى الأديان بالأدلة وأحرصها على استثارة الأفكار ومناشدة الضمائر ، وكان يمكن أن يلام لو أنه آثر إعمال السيف على إعمال العقل ، أو قابل اللطف بالعنف أما أن يعرض حجته فيلقى الهزء والهوان ، ثم يحاول المتمرسون بالدهاء والجبروت أن يواروه الثرى ، فدون ذلك ركوب الأهوال .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم .

يقول ابن تيمية فى رسالته عن القتال : كانت سيرته ﷺ أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله! وهذه كتب الحديث والتفسير والفقه والمغازى تنطق بذلك ، بل هو متواتر فى سيرته ، فلم يبدأ أحدًا من الكفار بقتال . . . ولو أن الله أمره بقتل أعدائه لبدأهم بالحروب ـ ولكنه لم يفعل ـ .

ثم قال : أما النصارى فلم يقاتل أحدًا منهم حتى السنة السابعة من الهجرة ـ يعنى إلى عشرين سنة من بدء الرسالة ـ فلما أرسل بعد صلح الحديبية يدعو جميع الملوك إلى الإسلام ، وكتب إلى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشى ، وملوك العرب بالشرق والشام دخل فى الإسلام من النصارى من دخل ، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من أسلم من كبارهم بـ «معان» . .!!

قال ابن تيمية : فالنصارى هم الذين حاربوا الإسلام أولاً ، وقتلوا من أسلم منهم بغيًا وظلمًا!! ورسله عليه الصلاة والسلام كانوا يدعون إلى الإسلام ـ دعوة مجردة ـ فمن دخل فيه دخل طوعا لا كرها ، ما أكرهوا على الإسلام أحدًا ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل النبى جيش مؤتة الذى انسحب كما ذكرنا فى الفصل السابق بعد مصارع قواده الثلاثة ، ثم كانت غزوة تبوك التى قرر الرومان ألا يشتبكوا مع جيشها لحظة رأوها . .

إن القتال فرض على المسلمين فرضًا ، سواء كان مع الوثنيين أم مع الكتابيين ، واضطروا لخوضه دفاعًا عن أنفسهم وعقيدتهم وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾[١] .

أترى المطرود من وطنه لأنه مؤمن بربه يعد مهاجمًا إذا قاتل طارديه؟ إن الدهشة تملكتنى عندما رأيت كتابًا يصفون معركة بدر بأنها دليل على أن الحرب فى الإسلام هجومية! قريش كانت مظلومة وكان المسلمون هم الظلمة!

إنه المنطق نفسه الذى اتبع فى وصف المقاتلين الفلسطينيين الذين اغتصبت أرضهم ودورهم وألجئوا إلى العراء!! اعتبروا إرهابيين معتدين على اليهود الآمنين الطيبين!!

---

(١) الحج : ٣٩ ، ٤٠ .

وقد ربط القرآن الكريم بقاء المساجد والمعابد بقتال المؤمنين ورفضهم الاستكانة والاستسلام ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ** ﴾[1]!!

أيحسب عاقل أن هذه النتائج النبيلة نشأت عن حروب عدوانية؟ ترى لو أن الرومان نجحوا فى قهر المسلمين واجتياح بلادهم أكان يبقى مسجد يرتفع فوقه صوت مؤذن؟ ذلك سر الغضب فى نظم الآية الكريمة ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[2] .

والحرب مع الفرس بدأ شررها منذ مزق كسرى كتاب الرسول الذى يدعوه فيه إلى الإسلام ، لقد غضب هذا الكسرى غضبًا شديدًا وكلف واليه على جنوب الجزيرة أن يأتيه بمحمد هذا؟

وكان الفرس ينظرون إلى العرب بازدراء ، ويحتلون أرض العراق ، ومن ثم أنف كسرى أن يحاول عربى هدايته!! أفكان الفرس يأذنون لمسلم أن يجوس خلال ديارهم يدعو أحدًا إلى الله؟

السيف وحده هو الذى يحل تلك المشكلة ، وماذا صنع السيف ، قلم أظافر الطغاة ، وتركهم بعد تجريدهم من السلاح يفكرون فى هدوء! ويتدبرون ما يعرض عليهم بعقل! لا إكراه على دين !!

لا نعرف فى تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد ، ما غضب لنفسه قط ، ما غضب إلا لله وحده . . .

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم
جهل، وتضليل أحلام، وسفسطة
غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والجهل إن تلقه بالحلم ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالجهل ينحسم

(١) الحج : ٤٠ .
(٢) البقرة : ١١٤ .

٢٠. هل الجهاد مقصور على الدفاع أم يتجاوز ذلك لإكراه الناس بالقوة على الدخول فى الإسلام؟

هناك ثلاثة مواطن يجب فيها على المسلم أن يقاتل فى سبيل الله ، ويعد مسيئًا إذا تخلف عنها . .

الموطن الأول منع الفتنة ، فقد يتعرض المسلمون فى بعض البلاد لصنوف من الترويع والأذى تنزل بهم حتى يرتدّوا عن دينهم ، ولا يجوز ترك حملة العقيدة تحت وطأة هذا العذاب ، بل يجب كسر شوكة المعتدين وإسقاط سلطتهم حتى تتقرر حرية الضمير . ويؤمن من شاء دون خوف! قال تعالى :﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾[1] .

الموطن الثانى تأمين الدعوة ، فمن حق المسلمين أن يعرضوا ما عندهم على غيرهم عرضًا عاديًا لاتقترن به رغبة أو رهبة ، أى رشوة أو تخويف ، فإذا عطلت إذاعتهم أو صودرت كتبهم أو حبس دعاتهم جاز لهم أن يقاتلوا حتى يتقرر لهم هذا الحق ، أى جاز لهم أن يكسروا السياج الحديدى الذى تحتمى وراءه بعض الفلسفات والمذاهب الضالة .

الموطن الثالث عند الحفاظ على الدم والمال والعرض ، فلا يجوز لمسلم أن يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق المحليين أو الدوليين عليه أن يناضل لتبقى له ، ولا يحل له أن يقبل الدنية فى دينه أو دنياه ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾[2] .

ويمكن أن ينضاف إلى هذا الموطن جهاد المجرمين الذين يحيون فى الميدان العالمى على القرصنة والتفرقة العنصرية وإيقاع المظالم بالضعفاء أيا كانوا وأين كانوا . .

(١) الأنفال : ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) الشورى : ٣٩ ، ٤٠ .

أما القتال لنعرة جنسية أو لأطماع شخصية ، أو لفرض الإسلام نفسه على الناس بالسلاح فمرفوض ، قال تعالى :﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾[1] .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ ، والتعليم المجرد ، وترك الناس أحرارًا بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها!!

وقد كان الرسول ﷺ شديد الإلحاح على الناس ليفهموا ما جاء به ، ويهجروا عبادة الأصنام! وكان لشدة حنوه عليهم يطيل مطالبتهم باعتناق الحق وترك الباطل فقال الله له :﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾[2] .

والواقع أن الإكراه على الحق لا وجود له فى الرسالات السماوية كلها ، وتدبر ما جاء فى القرآن الكريم على لسان نوح : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** ﴾[3] .

وقد حدد القرآن الكريم عمل النبى ﷺ فى نشر الإسلام ، فكشف أنه ليس حاكمًا عسكريًا يفرض على الناس ما عنده أو موفدا من السماء لإرغام مستمعيه على قبول ما يقول .﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾[4] .

﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾[5] .

﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ** ﴾[6] .

نعم بعد بيان شاف لحقائق الإيمان بالله واليوم الآخر يقال للمستمعين : ﴿ **ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا** ﴾[7] .

﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾[8] .

---

(1) البقرة : ٢٥٦ . (2) يونس : ٩٩ . (3) هود : ٢٨ .
(4) الغاشية : ٢١ ، ٢٢ . (5) ق : ٤٥ . (6) الشورى : ٤٨ .
(7) النبأ : ٣٩ . (8) الأنعام : ١٠٤ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1] .

هذا نموذج من الآيات التى نزلت فى مكة ، قبل أن يشتبك المسلمون مع أعدائهم فى حروب دامية ، كان أولئك المشركون هم موقدى نارها وحاملى عارها ، فماذا حدث فى المدينة بعدما قامت الدولة الإسلامية؟ يقول تعالى : ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾[2] .

وفى موضع آخر : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴾[3] .

ويؤمر صاحب الرسالة الخاتمة بهذه الآية : ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴾[4] .

وقد قلنا : إن أسلوب الإسلام على الناس تحدد فى نحو مائة وعشرين آية .

قال ابن تيمية : بعد فتح مكة ترك الرسول ﷺ أهلها قائلاً لهم : **اذهبوا فأنتم الطلقاء** ، لم يكرههم على إسلام ، ولا يقدر أحد أن ينقل أنه أكره أحدًا على دخول الإسلام ، لا متحصنا ولا مقدورا عليه ، ولا فائدة فى إسلام مثل هذا . .

نقول : وهذا بداهة وقع نزولا على قوله تعالى : ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾[5] !!

ومن أغرب الأقوال زعم بعض أن هذه الآية منسوخة !!

قال ابن تيمية : وجمهور السلف والخلف على أن الآية لا مخصوصة ولا منسوخة ، وأنا لا نكره أحدًا على الإسلام ، وإنما نقاتل من حاربنا . .

وآفة ثقافتنا الإسلامية أنها تدون كل شىء ، ويتجاور فيها التافه والثمين!

فهذا القول الشاذ بأن آية ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ منسوخة كتب إلى جوار القول الذى تواتر على السلف والخلف! وأصبح كلامًا يقال! ثم أصبح رأيًا يذكر!

---

(1) ق : ٣٧ .
(2) آل عمران : ٢٠ .
(3) المائدة : ٩٢ .
(4) النور : ٥٤ .
(5) البقرة : ٢٥٦ .

وينضم إليه أن الرسول حارب فى بدر مهاجما!! وبذلك وهكذا يصبح الإسلام دين عدوان . . . ثم يجىء دور المبشرين الذين يصيحون : ألم نقل لكم إن الإسلام انتشر بالسيف؟

إن هذا المنطق اللصيق بالإسلام يعجب علماء البدو الذين يحبون الغارات ، ويرحبون بويلاتها ويقولون :

وأحيانا نكر على أخينا — إذا ما لم نجد إلا أخانا

وتسرهم الحياة على ما وصف دريد بن الصمة :

يغار علينا واترين فيشتفى — بنا إن أصبنا، أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا — فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وما أسوأها حياة أن نغير طلاب ثأر ، أو يغار علينا لمثل ذلك . .!!

وهذا المنطق الدموى قد يعجب السلاطين والقادة المرضى بجنون العظمة ، إنهم قد يحملون اسم الإسلام والحقيقة أنهم يعبدون أنفسهم ، ويسفكون فى سبيلها دماء المؤمنين والكافرين جميعًا . .

لماذا فتح السلطان سليم مصر؟ وأجرى الدماء فيها أنهارًا؟ ولماذا لم يستعن بالمسلمين العرب على نشر الثقافة الإسلامية فى بلاده وفى غيرها؟ ولماذا ترك مسلمى الأندلس يبيدون دون عون وتموت دولتهم أمام الزحف الصليبى؟

إننا نكرر القول بأن الإسلام يأبى الإكراه فى الدين ، وإن كل ما ينشد حياة تتلاقى فيها التيارات الفكرية من كل جهة ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . .

قال ابن القيم فى كتابه هداية الحيارى : ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ هذا نفى فى معنى النهى! أى لا تكرهوا أحدا على الدين ، نزلت هذه الآية فى رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا أو تنصروا قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أسلم آباؤهم وأرادوا إكراه أولادهم على الدين فنهاهم الله سبحانه عن ذلك ، حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول فى الإسلام!

قال : «والصحيح أن الآية على عمومها فى حق كل كافر» .

إن الإكراه سلاح كل فقير فى براهينه فاشل فى إقناعه ، أعوزه المنطق فأسعفته العصا!

وإنه لمن الجهل المخزى أن يتحدث فى الإسلام من لا يعرف إعجازه العقلى ، وقدرته الذاتية على الانتشار والانتصار . . .

٢١. هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة؟ وما واجب المسلمين اليوم تجاهها؟

ما من أيام الجهاد فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام النحسات التى يذوق فيها المسلمون هزائم فى كل ميدان ، ويفقدون فيها الأرض والعرض والدنيا والآخرة!!

غير أن الجهاد المطلوب من طراز آخر غير ما ألف الناس ، إنه جهاد الكلمة ، وجهاد البحث والدرس ، وجهاد المال والقانون . . . وأخيرًا الجهاد بالنفس حتى لانفقد عقائدنا وكل مقوماتنا المادية والأدبية . .

كان العدوان على أرض الإسلام قديمًا يتم بين دق الطبول وصيحات المتعصبين الوحشية ، والصراخ المجنون بضرورة القضاء على دين محمد !

أما فى العصر الحديث فجريمة القتل تتم بمسدس به كاتم للصوت ، ووسط كلمات معسولة تخفى وراءها الحقد الدفين . .

إن الاستعمار العالمى لم ينس يوما كراهيته العميقة للإسلام ، ورغبته الهائلة فى وأده!

وقبل أن أشرح خطته الجديدة أشير إلى خطة قديمة مستغربة :

إن الغرض من كشف العالم الجديد لم يكن لأسباب اقتصادية مجردة!! بل كان لأسباب دينية أهمها القضاء على الإسلام!! وأترك الكلام للمؤرخ العالمى «هربرت فيشر» «لا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة فى الحصول على التوابل والذهب إذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية ، ففى الفاتيكان كانت المشروعات التبشيرية تتناول العالم بأسره ، وكانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام ، لا لأنها تفضى إلى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها أيضًا ستفضى إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق!! كان المعروف أن نجاشى الحبشة مسيحى ، وكان المعتقد أن بالهند دولة مسيحية يحكمها عاهل يلقب بالخان الأكبر وكان يداعب أوربا الكاثوليكية أمل كبير فى أن

تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين مساعدة فعالة فى حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين ، تلك هى خطة الهند كما رسمها نقولا الخامس - بابا روما - منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٥٤ م فى مرسوم بابوى إلى ملك البرتغال ، وفى هذا الجو المفعم بالآمال الكبار أقلع كولومبس ليكشف الطريق إلى الهند غربًا»[١] .

نقول وليبدأ تنفيذ المخطط الاستعمارى كما رسمه البابا نقولا الخامس . .

لكن القدر لم يقد كولومبس إلى الهند كما كان يتصور ، لقد قاده إلى أمريكا !

وتأخر تنفيذ الخطة العتيدة ، إلى أن استولت أوربا على الشرق الإسلامى وغير الإسلامى فى القرن الرابع عشر للهجرة ، وشرع الحقد القديم يتنفس ، أنه يتنفس هذه المرة بخبث هائل ، ويعمل بدهاء وأناة داخل حجرات ناعمة ، تاركا خصومه ينبحون فى العراء !

وإذا احتاج الأمر إلى البطش أخمد أنفاس الجماهير فى صمت كذلك أو بأقل الضجيج!!

وقد شرحنا فى موضع آخر من كتبنا الأسلوب الذى اتخذ للقضاء على الإسلام أمته ودولته ولا بأس من الإشارة إليه هنا :

١ - بعد توهين دولة الخلافة وانتقاص أطرافها وجهت إليها ضربة قاتلة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى طوت رايتها ، وقضت على الوجود الرسمى للإسلام فى الميدان الدولى .

والخلافة بين المسلمين تمثل - كما قلنا - أبوة روحية وثقافية مهيبة ، وترمز إلى ولاء المسلمين لدينهم ، واستمساكهم بوحدتهم الكبرى وأخوتهم العامة .

وفى الوقت الذى محا الاستعمار فيه هذه القيادة التقليدية دعم القيادات التقليدية لشتى الأديان الأخرى . .!

٢ - أكثر الاستعمار من صناعة دول لها صبغة تريحه ، وليس لها كيان طبيعى ، ولما كان الدين الأول فى إفريقية هو الإسلام فقد أعاد رسم القارة المنكوبة جغرافيّاً وسياسيّاً فأنشأ أكثر من خمسين دولة راعى فى تكوين كل واحدة ضم كثرة

---

(١) من كتاب «أصول التاريخ الأوربى الحديث» ترجمة أساتذة التاريخ بجامعة عين شمس وقد لفتنى إلى هذه الفقرات الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية .

إسلامية إلى قلة خلقها التبشير ، وجعل الحكم فى هذه القلة! وأسبغ عليها رعايته وتأييده ، وترك الجمهور المسلم لا حول له ولا طول يفترسه الجهل والفقر والمرض . .!

٣ ـ عمل على تنمية القوميات الصغيرة والكبيرة ، واجتهد أن تحيا وفق مذاهب علمانية أو شيوعية وأوعز إلى ساستها ألا يجعلوا الإسلام دين الدولة ، وأن يحذفوا هذا النص من الدستور .

٤ ـ فى الأقطار التى يعز فيها ذلك ، يكون تمويت النزعة الإسلامية بإقصائها عن ميادين التعليم والتشريع ، وخلق إعلام مائع وأدب ماجن وقضايا تشغل الفراغ وتبدد الطاقات وتدوخ الجماهير .

٥ ـ فسح الطريق أمام الحركات الدينية المخرفة ، وتركها تنشط لجمع الأجيال التائهة على أفكار بالية وجدل عقيم والمتدينون البله عون عظيم ـ من حيث لايشعرون ـ للاستعمار العالمى ، وطريق مختصر للإزراء على الدين وأهله .

٦ ـ إلغاء التعليم الأصلى إن أمكن ، وتنصيب رؤساء تافهين على معاهده التقليدية يدورون حول أنفسهم ولا يغنون عن الإسلام شيئًا ، ويلحق بذلك إلحاق هزائم منكرة باللغة العربية فى كل ميدان .

٧ ـ إبقاء التخلف الحضارى والصناعى والثقافى وجعل المسلمين أمما مستهلكة لا منتجة ، بحيث إذا حدثت صحوة إسلامية ـ رغم كل حيطة ـ لم تجد وراءها ، ما يمدها بالقوة أو يهيئ لها التقدم والنجاح .

من أجل ذلك قلنا : إن الجهاد الإسلامى حق ، لكن الوسائل الصحيحة ليست فى العنف والنزق والحماس الطفولى ، بل فى خطوات مدروسة وغايات واضحة تلبى حاجات أمة كسيرة ودين مهزوم فى أغلب الجبهات!!

إن الجهاد أضحى فرض عين على كل مسلم ومسلمة فى وجه غارات دائبة لحوح تريد اقتلاع الإسلام عن جذوره ، وترفض كل الرفض أن يعيش أتباعه وفق تعاليمه .

وقد كنت أحسب أن الارتقاء الحضارى الحديث قد محا أحقاد الماضى ، ويسر للناس جميعًا أن يتعارفوا لا أن يتناكروا ، فلما وقعت مذابح لبنان الأخيرة رأيت كأن العداوة ولدت اليوم أو أمس فقط! ورأيت جثث الأطفال المشوهة المبعثرة هنا وهناك تشهد بأن القوم يقتلون فى هؤلاء الأطفال امتداد الإسلام للغد القريب أو البعيد!! إنها هى مذبحة بيت المقدس أواخر القرن الرابع الهجرى!

ومن المفيد أن يعرف من يجهل أن مذابح صابرا وشاتيلا كشفتها المصادفات البحتة ، وأن مذابح سبقتها بين الفلسطينيين واللبنانيين تمت فى صمت كئيب ، وخرس من شاهدها من الصحفيين الأجانب لأنهم وجدوا أنفسهم فرادى مروعين .

وقد أحصت منظمة التحرير عدد القتلى باثنين وسبعين ألفا منذ الهجوم الذى أغضت عنه المنظمات الدولية واكتفت فى استنكاره ببيان شاحب خافت . . .

إن من حقنا أن ندفع عن ديننا وعن أرضنا ، وإنها لسفالة أن يطلب منا طالب أن نرتد عن إيماننا وأن نترك لغيرنا بلادنا . . .

لماذا يباح لليهودى أن ينتمى إلى توراته ، وأن يهتدى بنصوصها على تحديد الأرض التى يريدها من كياننا ولا يباح للمسلم أن ينتمى إلى قرآنه وهو يرد هذا الاعتداء؟

لماذا يكون الإيمان ـ من خلال تعاليم القرآن ـ رجعية ممقوتة ، ويكون الإلحاد من خلال تعاليم الماركسية تقدمًا محترمًا ؟

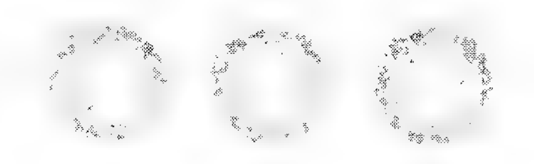
لماذا يكون سجن يهودى فى روسيا جريمة يضطرب لها الضمير العالمى ويكون قتل الألوف المؤلفة منا شيئًا عاديًا ؟

إن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يظفر الإسلام بحق الحياة لنفسه وأتباعه دون ضغائن وعوائق ، ولسنا نوجب الجهاد لاضطهاد أقلية أو قسر الغير على عقيدة يأباها . .!

بيد أن حق الحياة للإسلام وأمته مطلب منكور بغيض لدى الكثيرين ، والاستعمار العالمى بشعبه كلها يمتد فى فراغ ، وسط أمم استهلكها اتباع الشهوات ، وحب الدنيا وكراهية الموت!! وتوجد حرب دامية الآن بين مسلمى أفغانستان والاتحاد السوفييتى ، وأعرف من المجاهدين رجالا يقاومون ببسالة ما يراد بهم ، لكن ماذا يفعلون أمام أنواع من المبيدات الكيماوية ، والآلات الجهنمية فى البر و الجو؟

إننا ندفع ضريبة تخلفنا العام! والجهاد المثمر ينبغى أن يتجه إلى أسباب هذا التخلف العلمية والخلقية الموروثة والمجلوبة .

وبذلك ننجح فى صد الطغاة ودحر العدوان . . .



٢٢. ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطًا؟

قالوا من قديم : إن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وسواء اطّرد هذا القول أم لم يطّرد فإن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط ، والناس يعانون كثيرًا من الغلو الشديد والإهمال البارد .

وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القوى للمال ، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الأخرى ، وأن المسيحيين يرون التقوى فى الرهبانية والزهد واحتقار المال ، حتى قيل فى كتبهم : لأن يلج الجمل فى سم الخياط أقرب من أن يدخل الغنى ملكوت السموات!! .

وجاء الإسلام فرفض المسلكين ، وعدَّ المال وسيلة لما بعده وقال النبى ﷺ : «**إن هذا المال خضر حلو! ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حق كمن يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة**».

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين فى تعاليم اليهود ، كأن التقوى عقوبة مرصدة لكل ذنب ، وكأن مرضاة الله لاتتم إلا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة ، فجاء عيسى عليه السلام يتحدث عن القلوب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة إلى عفو الله .

وقالوا : إنه ترك امرأة اقتيدت متهمة بالإثم ، وقال لليهود : من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليرجمها . .!

وجاء الإسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس! ويسَّر التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عنه! وأقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذى المجتمع بالإصرار عليه!!

أى إنه رفض الطاعة المستكبرة ، ورحم المعصية النادمة وطلب الإصلاح المتواضع الرقيق! يقول على بن أبى طالب : الفقيه كل الفقيه من لم يقنِّط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكره!

والحق أن عيسى عليه السلام لم يستهن بجريمة الزنى ، ولكنه كما روى الإمام مالك عنه يقول : لا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية . .

والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينًا والمنحرفة يسارًا .

سئل ابن مسعود رضى الله عنه : ما الصراط المستقيم؟ ، فقال : تركنا محمد فى أدناه ، وطرفه فى الجنة ، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد يعنى طرقا شتى - وثم رجال يدعون من مرَّ بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت بهم إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** . . . ﴾[1] .

والغلو فى الدين قد ينتج عن خطأ فى الفكر أو عوج فى الطبع ، وغالبًا ما يزيغ عن الحق وينتهى بالانسلاخ عن الدين الصحيح لذلك يقول الله تعالى لنبيه : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾[2] .

هناك من يبالغ فى التعبد فينحرف يمينا بالابتداع والحماس الكاذب ، وهناك من ينحرف يسارًا بالإهمال المنتهى بالجحود والتمرد . . يقول الشيخ محمد عبدالله دراز : «**كأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق فى الدين ، وباليسار إلى طرف التفريط والتقصير ، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل ، وعن الوسط الذى لا يميل إلى أحد الجانبين . ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات التى أشارت إليها أحاديث افتراق الأمة على بضع وستين شعبة أو البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التى أشارت إليها أحاديث فتح الدنيا وبسطها لهذه الأمة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم . . . إلخ ، لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين**» .

إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة فى شئون الدين والدنيا جميعًا ، ففى مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضنى ، ويؤثر الاعتدال المستمر قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الأنعام : ١٥٣ . (٢) المائدة : ٧٧ .

«إن لكل شيء شرة. حماسا ونشاطا. ولكل شرة فترة. برودا وعجزا. فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه» .

وفى شئون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير ، ويحب الإنفاق المعقول وقد وصف الله عباد الرحمن فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾[1] .

فى مجال العلم الدينى رأيت ناسا متبحرين فى المنقول والمعقول بهم فقه واسع ، ومحفوظات كثيرة ، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ ، تولى أحدهم القضاء ، وقدمت إليه امرأة متهمة بالزنى ، فما زال يستدرجها ويمكر بها حتى اعترفت له ، وحكم برجمها ؛ لأنها متزوجة!!

قلت : هذا منهج يهودى ، فإن رسول الله ﷺ كان يرشد المتهم ليفر من العقاب ويتراجع عن قراره . . ويتحايل عليه لينصرف آمنًا . . أما هذا القاضى فإنه احتال على المذنب ليقتله! ليس هذا أسلوب الإسلام ، والعلة أن جانبًا آخر من الثقافة الإسلامية لم يصلح قلب الرجل فبقى معتلا ، ولو ألف «علم القلوب» وذاق الجانب العاطفى من الإسلام لستر وغفر يستره الله ويغفر له!!

والحزن أن هناك انفصالا فى علومنا الدينية بين الفقه والتصوف ، مما جعل المتصوفين يجنحون أحيانا إلى الجنون ، وجعل الفقهاء أحيانا يمثلون القانون العاتى الأصم . .

والوسطية فضيلة تبرز فى توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ، ففى العلاقة بين الرجال والنساء مثلاً أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد!

البيت هو المحضن الذى تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده ، وليس البيت سجنا كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا ، وليس ملتقى عابرا للأبوين والأولاد كما تألف ذلك أوربا حيث الأسر شكل لا موضوع له .

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة ، فهى تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع ، وقد تشارك الجيش فى بعض الخدمات الطبية ، وقد تقاتل إنْ اقتضى الأمر الدفاع ، وينبغى أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية .

---
(١) الفرقان : ٦٧ .

وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه . . . في الوقت الذى أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافا شائنا فى الذوبان خارج البيت ، وضد رسالتها الأولى .

لو التزمنا وسطية الإسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للأمة وأزكى للجنسين معًا .

وفى الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية ، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام ، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين . .

وبذلك ضمن إنتاجا غزيرًا لأن الحوافز قائمة ، وحفظ الجماعة من التفكك لأن التواصى بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سدها ، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة . . .

والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها ، فإن الله سائلهم عن الهدايات التى بلغتهم : هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس؟

وما من أمة إلا وهى موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا** ﴾[1]؟

نعم ومحمد شهيد على المسلمين أنه أخذهم بتلك التعاليم الجليلة ، وسيدلى بهذه الشهادة أمام الله ، كما أن المسلمين سيُسألون : هل علموا كما تعلموا؟ إن الأمم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد!

وهم شهداء على الأمم لأنهم حملة الرسالة العامة ، ومبلغو «الوسطية» التى شرحناها آنفا وكما كان محمد أستاذًا لهم فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض!!

ذلك معنى قوله تعالى :﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾[2] .

والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرطت فى البلاغ والتعليم! بل فرطت فى العمل والتأسى بنبيها ، بل لقد أصبحت اليوم ذيلا لأحزاب الميمنة والميسرة فى الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم .

---

(١) النساء : ٤١ .　　(٢) البقرة : ١٤٣ .

٢٣. كيف يبنى الإسلام الأمة المسلمة؟

ألف الناس فى عصرنا أن يكون ولاء الإنسان الأول لوطنه وقومه! حسنًا : ما الوطن؟ قطعة من الأرض تربطنا بها حقوق وذكريات! لكن من صاحب هذه الأرض ومالكها؟ ﴿ **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[1]؟ ومن خلق الأقوام الذين يحيون فوقها وشد أسرهم ودبر أمرهم؟ ﴿ **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ. . .** ﴾[2] .

ألا تكون العلائق أوثق وأسبق بهذا الإله الخالق المالك؟

إن الإسلام حين يبنى الأمة يجعل الإيمان العميق هو الدعامة الأولى فى هذا البناء ، ويجعل الولاء لله والعمل له الوظيفة الأولى للإنسان الراشد السوى .

إن عواطف من الربانية الغامرة هى التى تحرك المسلم وتحدد له غايته ومنهاجه ، وهى عواطف تتنامى كلما سمع الأذان للصلوات الخمس ، وكلما حجزه إيمانه عن رغبة مجنونة أو دفعه إلى عطاء سخى ، أو وقفه ليشد أزر ضعيف ، أو أغراه بالصياح فى وجه منكر . . .!!

إن الربانية التى صنعها الدين أنفس معدنًا وأرجى ثوابًا من المواطنة التى صنعها الناس ، ومع ذلك فالمسلم أول المدافعين عن الوطن ؛ وأول المحامين عن العشيرة ، وأول القائمين بالحقوق المطلوبة من كل إنسان كريم ؛ لأنه يأبى الضيم ويرد العدوان .

وبديه أنه يكون ذلكم الإيمان هو الروح السارى فى كيان الأمة كلها ، والمنتظم للكبار والصغار والأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء . .

وبعد أن يرسى الإسلام أسس هذا اليقين يفرض مبدأ الأخوة ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[3] .

والأخوة ليست لفظًا أجوف ، إنها رحم دينية موصولة تعطى ثمارًا أشهى وأزكى مما تعطى الديمقراطية والاشتراكية فى الميادين السياسى والاقتصادى ، إنها خلق فردى ونظام اجتماعى ، وقد اعتمدت الدولة الإسلامية منذ نشأتها الأولى على

---

(١) المؤمنون : ٨٤ . (٢) يونس : ٦٦ . (٣) الحجرات : ١٠ .

هذه الأخوة فى مواجهة ظروف الحرب والسلام والإقامة والهجرة واقتسام المغارم والمغانم وتحمل الأعباء والواجبات . .

ومن ينبوع الأخوة ينبجس رافدان من روافد العزة والاستقرار هما مبدأ التناصر ومبدأ التحاب . .

أساس التناصر أن المسلم لا يدع أخاه أبدًا يحرج أو يذل ، ويمضى لشأنه تاركًا إياه يواجه وحده ما يقع له . . كلا ، يجب أن يلزمه ويثبته ويدفع عنه ، يحامى معه أو دونه . .

والواقع أن أشجع الشجعان لا يستغنى عن عنصر مادى يسعفه فى الشدائد ، إن المرء قد يغضب إذا أهين ، وقد يستعد للقتال إذا قطع عليه الطريق! ولكنه يغضب ويستعد ويهجم على المعتدى إذا كان معه سلاحه ، والمؤمن سلاح لأخيه ، وعضد له فى الشدائد ، والمؤمن بين إخوانه يتحرك بقواهم كلها ، لا بقوته وحده ، وهذا الشعور الجماعى من معالم الجماعة المسلمة . .

قال عليه الصلاة والسلام : «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه** . . .» وفى رواية : «**المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه، إن أحدكم مرآة أخيه!!** وقال: «**من ذبّ عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة**» .

على أن لهذه النصرة الواجبة صورًا مختلفة تقتضى التبصر والروية ، فليس الأمر عصبية عمياء ، كلا ، المهم إحقاق الحق وإبطال الباطل فعن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً! قيل: أنصره إذا كان مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره**» .

والاستعمار العالمى يجتهد فى قتل مبدأ التناصر ، وفك تضافر الأمة ، وقد أعانه على ذلك الاستبداد الداخلى ، أو قل : إن الاستعمار سخر الحكم الفردى لإشاعة الفتك والسفك ونشر العار والدمار حتى كادت بعض الشعوب الإسلامية تفقد ملكة الشجاعة وعاطفة التعاضد والتناصر ، فأصبح أحد لا يلوى على أحد !!

ولكى نحيا لابد من إحياء مبدأ التناصر بين المسلمين جميعًا . . .

أما المبدأ الثانى من آثار الأخوة الإسلامية فقوامه التحاب لوجه الله ، وجعل الانتماء إليه عاطفة شريفة تعلو كل الصداقة وترجع كل قرابة ولذلك جاء فى الحديث القدسى : «**يقول الله عز وجل يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى**» .

والواقع أن الحب فى الله يهون مشاق الحياة كما يهون الحذاء مراحل الطريق ومتاعب العمل ، وعندما يستوحش المرء من الناس ، بل من نفسه ، تجيء هذه العاطفة المباركة فتؤنس البعيد ، وتمنحه قوة على مواصلة العمل لله والجهاد فى سبيله .

وتقديرًا لهذه الحقيقة يقول الله سبحانه فى الحديث القدسى : «**وجبت محبتى للمتاحبين فى، وللمتجالسين فى وللمتزاورين فى، وللمتباذلين فى**» يعنى من ينفقون أموالهم بسخاء إجابة لهذه العاطفة حين تفرض النفقة! .

وليس حب المؤمن لإخوانه نافلة يتطوع بها إذا أراد ، كلا ، إنها أثر اليقين الناضج . ولا يسوغ أن يكون المؤمن ميت الإحساس يتحرك لما يعنيه ويبرد لما يعنى غيره ، إن هذا الانحصار الشخصى هدم للجماعة وإضاعة للأمة ، والمؤمن الحق يحب غيره كما يحب نفسه ، فى هذا يقول النبى ﷺ :«**والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**» .

وتحية الإسلام مفتاح التعارف أو نقطة البدء فى انخلاع المرء عن عزلته واهتمامه بإخوته ، وفرحه بما يفرحهم وحزنه لما يحزنهم!

ومن اللطائف قول رسول الله ﷺ «**إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره بأنه يحبه**»، وقوله: «**إذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو؟، فإنه أوصل للمودة**»!

وفى كل مجتمع بشرى أغنياء وفقراء ، حتى المجتمع الشيوعى فيه من يصبرون كرها على طعام واحد ، ومن يطاف عليهم بالصحاف المنوعة ، إن العلاقة بين هؤلاء وأولئك جديرة بالتأمل . . .

أيكون ذلك التفاوت مبعث حقد؟

عند المؤمنين بالدنيا وحدها لا ريب أنه يخلف فى النفوس آثارًا سيئة! أما المشغولون بآخرتهم ـ إلى جانب دنياهم ـ فهم لا يأبهون لذلك كثيرًا مادام عند كل امرئ ما يكفيه ويغنيه بل لقد وجدنا التنافس اتجه إلى ناحية أخرى ، فقد شكا الفقراء إلى رسول الله إنهم متخلفون عن الأغنياء فى مجال الإحسان! قد تجمعهم الصلاة والصيام ، ويتساوون فى الأجور ، لكن الأغنياء يعتقون ويتصدقون ويجاهدون بمالهم ويمكنهم التفوق الاقتصادى من أعمال صالحة كثيرة . . .

أرأيتم فيم فكر فيه القوم؟ أنهم لم يشكوا عيلة فى الدنيا ولا غبنا نزل بهم ، إنهم يفكرون فى الآخرة ، وتلك خاصة يمتاز بها مجتمع ربانى . . .

جاء فى السنة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم! قال : «**وما ذلك**»؟ قالوا : يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله ﷺ : «**ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ إلا من صنع مثل صنيعكم**»! قالوا : بلى يارسول الله! قال : «**تسبحون وتكبرون وتحمدون ثلاثا وثلاثين مرة دبرة كل صلاة**»! قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، يعنون أنه بقى لهم تفوقهم ـ فقال رسول الله ﷺ : «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»!

إن همة المؤمنين تنشد الرضوان الأعلى ومنازل الآخرة ، وهذه الصبغة الربانية صانت الأمة الإسلامية فى ميدانين مهمين :

الأول : فى تلقى العلوم الدينية وصيانتها وتعليمها للآخرين ابتغاء وجه الله .

والثانى : فى الجهاد المتفانى لرد أعداء الإسلام ، واستبقاء دولته قائمة مع إلحاح الغارات الصليبية والوثنية عليها . .

إن النجاح فى هذين الميدانين استبقى أصول الإسلام ومعالمه وغطّى عيوبًا كثيرة نشأت عن مفاسد الحكم ، وشهوات الحكام .

وأمر آخر يظهر فى ثبات البناء الإسلامى على تراخى الأزمنة ، إن الإسلام عدَّ العمل للحياة عبادة ، وعدَّ المال قيام الحياة وسياجها وكان الصحابة يقسمون أيامهم ، فيجعلون بعضها للبقاء مع النبى ﷺ يتعلمون ويقتدون ، والبعض الآخر للضرب فى الأرض يكدحون ويكسبون ، فإذا غابوا عهدوا إلى إخوانهم الحاضرين أن يحفظوا لهم ما يجد من وحى وسنة ، ليعرفوا بعد عودتهم ما هنالك ، ثم يردون الصنيع لإخوانهم إذا غابوا . . .

ومن ثم لم يقع قط أن كان المسلمون فى الشئون المدنية أخف كفة ، أو أسوأ حظاً ، والدين لايتم تحصينه إلا بدنيا قائمة ، وسناد مدنى متين . . .!!

٢٤. كيف يبنى الإسلام المسلم القوى فى مواجهة متغيرات العصر...؟

لا أظن الإنسان المعاصر يختلف عن الإنسان القديم الذى خاطبه أنبياء الله من عشرات القرون! ولا أظن إنسان هذا العصر مكلفًا بوظيفة أخرى غير الوظيفة التى كلف بها الإنس والجن من فجر التاريخ ، والتى أوضحها القرآن فى هذه الكلمات الوجيزة ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾(١) .

إنه هو الإنسان السوى القوام ، الخصب المواهب ، المفضل على مخلوقات أخرى تملأ البر والبحر ، الذى حمل وحده أمانة التكليف ، وقدر على الترفع والإسفاف والتقوى والفجور . .!

نعم ، هناك أمور جديدة فى هذا العصر ، فقد تقدم العلم ، واكتشف كثيرًا من أسرار الكون وقواه ، وارتقت الصناعة ، واخترعت آلات وأجهزة رفهت المعايش ، ويسرت للإنسان فى لحظات ما كان يعجز عن تحصيله فى سنوات . . كما افتن الإنسان فى صناعة آلات الفتك والدمار الشامل حتى لأمست الحروب تؤذن بانتهاء العمران البشرى . . وازدهرت العلوم الإنسانية وطمحت أن تقود العالم أجمع فى شئونه الأدبية والاقتصادية والسياسية . . . إلخ .

ماذا يصنع الإنسان المسلم وهو يواجه هذا الجديد كله . .؟ إننى لخبرتى الحسنة بالإسلام لا أشعر بقلق ما على إيمانى أو منهجى فى الحياة ، لكنى أشعر بأن الإسلام هو الدين الأوحد لمواجهة هذا العصر! أليس عصر العلم؟ بلى ، وكذلك دينى دين العلم الذى أهاب بالناس أن يبحثوا كل شىء ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾(٢) .

إن العلم مؤمن لا ملحد ، وهو يدعو إلى الإيمان لا إلى المروق! وما كفر العلم ـ فى

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) الأعراف : ١٨٥ .

الأعم الأغلب ـ إلا بما يجب الكفر به من كهانات وخرافات ومتناقضات! وأنا أؤيده فى ذلك كله . .!

إننى أرى بلادة الكفر ضربًا من الحيوانية! أو هى اقتراب منه! أليس يقول ربى : ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾[1] .

وقد تابعت استطلاع الآراء بين جماعات علمية فى أوربا وأمريكا فرأيت الكثرة الكبرى تؤمن بالله ، ووجدت قلة متوقفة حائرة ، ووجدت ندرة تافهة زائغة القلب لا عقيدة لها . . فالزعم بأن جمهور العلماء لا دين لهم كذب ، أو شائعة تنشر لغرض خسيس!!

إن روحى تعشق المعرفة كما يعشق الجسم وجبة شهية ، ومن محبة العلم يجىء هذا الدعاء ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾[2] ، وعلى المسلم إذا أحب مرضاة ربه أن يزداد تضلعا فى العلم ، واستكشافا لآفاقه .

وما يسمى بالعلم المادى ـ أعنى العلم الباحث فى ملكوت الله ـ أرجح موضوعًا وأطيب ثمرة من الفلسفات الشرود التى شاعت قديمًا وحديثًا ، ولم تكسب الإنسانية منها إلا الحيرة والجدل ، والغرور .

أما التقدم الصناعى الذى نعم الإنسان وأراحه فهو خير كثير ! ونعمة جديرة بالشكر الجزيل ، ألم تر أن الله تبارك اسمه كى يرغب آدم فى الطاعة ، أسكنه الجنة وقال له : ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾[3] أى لا تتكلف الكدح فى وهج الشمس ، فتتصبب عرقا ويحول لونك وراء لقمة العيش .

من قال : إن الإنسان يحب الوصب والنصب وركوب المشقات؟ إذا كان هناك ما يغنى عنها!

والمرء الآن ينتقل من بلد إلى بلد ، ومن قارة إلى قارة ، وهو جالس فى كرسى وثير يتناول ما يشاء من طعام وشراب ، تشق الطائرة به الجو فإذا هو بعد ساعات بين أحبته!

---

(١) الأنفال : ٢٢ .　(٢) طه : ١١٤ .　(٣) طه : ١١٨ ، ١١٩ .

ماذا كان يفعل أجدادنا عندما يغبرون أقدامهم ، وتتغير ملامحهم ويتعرضون للحتوف فى هذه الأسفار المعنتة؟

الحق أن هذا المتاع الميسر لنا ما ينقصه إلا شكر الله على ما هدى وأسدى!

وعلى المسلم أن يجيد هذه الصناعات المحدثة ، وأن يألف استخدامها واستصلاحها ، وأن يتفوق على جن سليمان الذين قال الله فيهم : ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾[1]!

نعم إنّ المهارة فى تلك الصناعات المدنية مهاد لابد منه لإجادة الصناعات العسكرية التى تحتاج إليها حروب البر والبحر والجو .

إننى أكره الحروب ، ولا أتمنى لقاء العدو ، ولكن ماذا أصنع إذا اجتاح الطغاة دينى وبلدى ، وأرادوا إثبات باطلهم ومحو حقى؟ ماذا أصنع إذا كان هناك من يحرق الثمار حتى لا يرخص سعرها ولا يرى أن يطعمها الجياع؟

ماذا أصنع إذا وجد من ملأ من خير الله فمه ، فإذا حدثته عن الله رد يده فى فمى لأخرس عن الكلام . .؟

لا حل إلا القتال ، ولا يقدر على القتال من يعجز عن صنع أدواته ، إن المهارة هنا دين ، والصبر جهاد! وكما يقول شوقى :

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء!

من ناحية أخرى يجب التنويه بالشأو البعيد الذى بلغته الحضارة فى التنظيمات السياسية والاقتصادية والإدارية التى تحرك الجماهير ، وتوجهها إلى أهداف مرسومة . . .

إن من وراء هذا النجاح تقدمًا عظيمًا فى دراسة العلوم الإنسانية كلها ، حتى كادت هذه العلوم تكون «الشريعة» التى تلتزمها أوربا فى أحوالها الخاصة والعامة . .

وهذه العلوم ليست إلا فروعَ الفلسفة القديمة بعد إدخال المنهج العلمى عليها ، أو بتعبير أصح على بعضها ؛ لأن هناك نظرات فى علوم التربية والاجتماع والاقتصاد بعيدة عن الدقة العلمية . .

---

(١) سبأ : ١٣ .

وأرى أن نستفيد نحن المسلمين من هذه الدراسات ومن تطبيقها فى ميادين الحياة . .

إن ضوابط الشورى هناك نجحت فى محق الحكم الفردى . وإعلاء سلطات الأمة ، لم لا نستفيد من ذلك؟

وحماية المال العام ـ من الساسة المهرة فى اختلاسه ، أو الموظفين المحبين للسحت ـ بلغت منتهى الدقة ، لماذا لا نقلد القوم فى تلك الوسائل الناجعة . .؟

لست أجهل أن لدينا من علماء الدين من يكره العلوم الإنسانية وما نشأ عنها . . لأنه يقصر نظرته على ما بها من أخطاء ، ولأنه يرى أن هذه العلوم تتحدث فى النفس الإنسانية والمجتمع البشرى ، وقد قال الدين كلمته فى هذه النواحى كلها . . .

ومعاذ الله أن نهمل كلمة الدين فى قضية نفسية أو اجتماعية! إننا نقتبس من جهود البشر ما يحقق الأهداف التى يتفق عليها العقل والنقل ، وإذا سبقنا غيرنا إلى عمل ما يحقق العدالة فنحن أولى به .!

هل امتنع نبينا عن حفر الخندق لأنه خطة فارسية ، أو حيلة لم يألفها العرب؟ كلا ، والحضارة الحديثة ـ برغم مقابحها الكثيرة ـ تجاوبت مع العقل والفطرة فى ساحات علمية ودستورية واسعة ، من حقى أن أترك شرها وأقبل خيرها .

وربما يدفعنى إلى هذا أن الدين أصيب بمتحدثين عنه يجهلون جوهره ، ويكترثون للمظهر الملصق به ، وليس غالبًا منه .

سمعت رجلا يقول بفخر إنه أقنع أحد الأمريكيين باعتناق الإسلام ، وإن الداخل فى ديننا بلغ من تقواه أنه اقتنع بلبس الجلباب الأبيض!!

قلت له فى أسى وسخرية : هل اقتنع بلبس العقال؟ قال : ما تعنى؟ قلت : ما دخل الملابس فى ديننا ، ولماذا لاتترك الرجل يرتدى زيه القديم ، ويعرف الناس من سمته وسيرته وشرف فكره وخلقه أنه مسلم؟

إن الإسلام لايؤخذ من فقهاء البدو ، ولا من عسكر الترك ولا من دراويش التصوف!

لماذا ننسى فرائض ديننا وفضائله الأولى ونعلق الناس بتقاليد جنس ما ، أو بخصائص عصر ما؟

عرفت «إنجليزيًا» أسلم وتصوف ، وانتمى إلى الطريقة النقشبندية! وأشهد أنه كان إنسانًا طيبًا ! بيد أنى يئست من أنه سينفع الإسلام بشىء طائل!

إن عدد المسلمين المهاجرين إلى إنجلترا يبلغ المليونين ، وهم ضعف اليهود الإنجليز ، ولكن أثر اليهود فى ميدان الثقافة والسياسة والاقتصاد بعيد المدى ، عميق الأثر ، يكادون يوجهون إنجلترا كلها . . أما المسلمون الذين يحمل أكثرهم جنسية إنجليزية ، فلا وزن لهم فى شىء!

إنهم ـ مثل غيرهم ـ لايحملون الإسلام النازل من السماء ، وإنما تستبد بأفكارهم وأحوالهم قضايا دخيلة وإضافات تافهة . .

إن الإسلام يصفى القلب من الأهواء ، والعقل من الأوهام . ويرص صفوف المؤمنين بعدئذ فى جهاد موصول لإعلاء كلمة الله .

أما مع فساد الفطرة واعوجاج الفكر ، فلا مكان لإسلام . . .



٢٥. لماذا كان الحل الإسلامى لمشاكلنا هو الأفضل والأمثل والأنجع؟

الشعور عام بأن الأمة الإسلامية تعانى فى العصر الأخير من علل معقدة ومعضلات اجتماعية كثيرة!

كانت حكومة الخلافة العثمانية تسمَّى «الرجل المريض» ثم ذهب الرجل المريض ، واقتسمت تركته حكومات أخرى! فهل شفى الحكم العليل وصحت الشعوب المريضة ، وأصبح الشرق الإسلامى موارا بحركات الإصلاح وثبات النهوض . .؟

لا أظن أن الحاضر ليس خيرًا من الماضى ، فالمسلمون جميعًا والعرب خاصة يترنحون أمام ضربات «إسرائيل» التى أقامت سطوتها على أنقاضهم المادية والأدبية .

ولا يزعم عاقل أن هذه الحالة تدل على عافية وسلامة أوضاع . .!

إن الرجل المريض عاد مرة أخرى فى أشخاص رجال يحكمون أممهم كرهًا! ويعالجون عللها بجهل! ويسكتون الناصحين بكبر! ويفلسفون الهزائم المخزية حتى يبقوا فى الحكم إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً . .!!

نظرت يوما فى برنامج رجل يدعى الإصلاح ، كان شيوعيّاً يستر نفسه بعناوين مزورة ، فقلت : تجربة فاشلة! وسألنى سائل : لماذا؟ فقلت : هل يمكن أن يزرع الشاى فى الشرق الأوسط؟ لا ، لا التربة تقبل البذر ، ولا الجو يعين على النمو ، إنه جهد ضائع! قال : إن الجيش معه ، والصحافة معه ، و . . . قلت : لو كان كل شىء معه فالتجربة فاشلة .

قد يملك الأجسام ولكنه لن يملك القلوب! قد تحفه طوائف من المرتزقة ، وهواة الكسب الحرام ، ولكنه عند الجد سيفقد كل شىء . .!!

إن هذه الأمة الإسلامية لا تصلح إلا بدينها وحده ، بعد استكمال العناصر الناقصة منه ـ وهى خطيرة ـ وبعد استبعاد الخرافات الملصقة به ـ وهى كذلك ـ !

إن أمتنا بطبيعتها سوف تستعصى على كل حل غير إسلامى ، وسوف تبذل المحاولات الدامية لإكراهها على تجرع أدوية لا تريدها ، وسوف تتبدد الطاقة ـ طاقة الشعب والدولة معا ـ بين الأخذ والرد !

وفى غضون هذا التناقض الداخلى يكسب الاستعمار العالمى معاركه ، ويفرض نفسه . .!

وهنا حقيقتان تحتاجان إلى الشرح : الأولى أن الإسلام صدى الفطرة الإنسانية ، وخلاصة ما قال النبيون كلهم لكبح جماح البشر وهداية العالم إلى ربه الواحد .

إن الإسلام لم يجئ لهدم موسى أو عيسى ، بل جاء لإحياء ما قالوه وضاع فى غمار الماضى ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[1] فإذا كان الإسلام رسالة لإصلاح العالم بوحى الله ، فكيف يعجز عن إصلاح الأمة التى حملته وبلغته؟

والحقيقة الثانية أن العرب ما دخلوا التاريخ إلا بهذا الدين ، وما عرفت لهم حضارة ، وتمت لهم قيادة ، وتحققت لهم سيادة إلا تحت راية الإسلام ، فكيف تكلف أمة بنسيان شخصيتها وحضارتها وتاريخها؟ إن هذا تكليف لها بالانتحار! وتلك هى المهمة القذرة التى ينفذها بعض الساسة المرتدين . .

إن العرب عاشوا بلا دين أيام آبائهم عاد وثمود ومدين ، فبماذا جوزوا؟ رجفت بهم الأرض ورجمتهم السماء حتى بادوا وتطهرت منهم الدنيا . .

ثم اختار الله محمدًا وقومه لإقامة حكم صالح مصلح . . أساسه القرآن العربى ، ومنهج محمد الهادى الملهم ، وقال الله سبحانه للإنسان الذى ناط به إصلاح الأرض : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ** ﴾[2] فكيف يكلف أحد أتباع محمد بترك ما لديهم

(١) فصلت : ٤٣ .
(٢) الرعد : ٣٧ .

من علم ، واتباع الأهواء الراشحة من شرق أو غرب تحمل الشر والشرر؟ . .

إن العرب لا يصلحون إلا بالإسلام وحده! هو الذى أذهب جاهليتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، والمرء قد يعرض له ذهول فيكبو ، ثم يفيق فيبصر الطريق كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾[1] وكذلك العرب قد يفقدون رشدهم حينا ويفسدهم الترف والبطر ، ثم تصحو ضمائرهم فيتوبون ، أو تظل قلوبهم قاسية حتى تنهال عليهم سياط الغزو الخارجى ، وتجوس الأعداء خلال ديارهم ، وعندئذ يكويهم الندم ويسارعون بالعودة إلى الله فيقبلهم ويرد لهم الكرة على أعدائهم . .

واليوم نريد أن ننفض تراب الهزيمة عنا وأن نستأنف مسيرتنا كما كنا . . . أعنى كما كان سلفنا الأوائل الكبار . .

لابد لذلك من عناصر معينة لايصنعها إلا الإسلام .

نريد العاملين الذين يرقبون الله فى الخلوات ، فلا يكسلون عن واجب ، ولا يخونون فى أمانة ، ولا تمتد أيديهم إلى رشوة ، ولا يبحثون عما لهم ويتجاهلون ما عليهم . .

نريد أساتذة وطلابا يسعدون بالمعرفة ، ويلتذون بالبحث ويحترمون الكتاب ، ويرون الدراسة عبادة ، والسهر فى التحصيل تهجدًا ، ونفع الأمة بأى نوع من العلوم قربة إلى الله . .

نريد زرّاعًا وصنّاعًا وتجّارًا ينمون اقتصاد أمتهم كما ينمون ثرواتهم ، ويدركون أن غنى الأمة يجعلها قادرة على صون شرفها وحفظ حقوقها ، وأن الجهاد المالى صنو الجهاد النفسى ، وأن الأمم التى تتسول الإعانات من الدول الكبرى لن تعلو لها رسالة ما دامت يدها السفلى . .

نريد ناسًا يحافظون على المال العام . ويشعرون بحق الله فيه ، وأن الأخذ منه دون وجه حق غلول ﴿ **وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾[2] .

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .

(٢) آل عمران : ١٦١ .

نريد حكامًا لايعبدون أنفسهم! يبرءون من جنون العظمة وشهوة السلطة، ويعرفون أن كل رئيس يجيء يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، فكه عدله أو أوبقه جوره كما جاء فى الحديث الشريف.

إن حكام المسلمين من زمان قريب آذوا الله ورسوله، واستهلكوا شعوبهم حتى فنيت أو كادت خصال الإباء والأنفة، لطول إذلالهم لمن أعز الله وأعزازهم لمن أذل الله !!

إن الإسلام وحده هو صانع هذه العناصر التى لا تتم لنا حياة إلا بها، والأمر كما قال الله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[1].

ربما استطاعت أمم أخرى أن تعيش قصيرًا أو طويلاً وفق فلسفات مادية أو خلقية لا صلة لها بالسماء! لكن أمتنا تحول مزاجها وكيانها إلى جهاز فريد لايدور فيه إلا مفتاح واحد هو الإسلام، وستذهب جميع المحاولات الأخرى سدى، لامحالة.

ثم مَنْ مِنْ أهل الملل والنِّحَل ترك دينه؟ لقد أقبل اليهود فى موكب تظله صحائف التوراة والتلمود، ويتقدمه صخب من مزامير آل داود، ورأى الناس بين القطبين الشمالى والجنوبى هذا الولاء الدينى العاصف فما أنكروا له صيحة، مع أنها صيحات جزارين، وديست مدننا وقرانا فما رثى لنا أحد !!

فهل كل ولاء مقبول إلا الولاء للإسلام؟ وهل كل حل حسن إلا الحل الإسلامى؟

لقد آن الأوان ليختفى إلى الأبد أولئك الساسة العرب الذين يكرهون الإسلام، ويطلبون من أمته أن تدير ظهرها لكتاب الله وسنة رسوله، الواقع أنهم ثرثروا أكثر مما يطاق، وطال بقاؤهم أكثر مما ينبغى..

على أن الحل الإسلامى المنشود يخشى عليه من التزوير فى أيام اعتقلت فيها الحقائق، وتجرأ المفتون الكذَبة على التزوير، وتصوير الإسلام دينا لايحترم الشورى مثلاً، أو لا يعترض استغلال النفوذ، أولا يكترث لهضم الجماهير..

إن الحل الإسلامى، لايحتاج إلى عبقرية فى تصوره وتصويره، لأنه سهل المأخذ

(١) الرعد: ١١.

من مصادر الإسلام المعصومة ، والواقع أن العوائق دون تحكيم الإسلام خلقية لا علمية ، وأن الحل الإسلامى يعرفه أهل الذكر ، ولكن إبعادهم مقصود مرسوم . . .

إن «المراكسة» فى الصين وروسيا ، شكوا من تحكم الفرد ، ومع أن نظمهم بطبيعتها استبدادية ، فقد قرروا أن تدور شئونهم فى وسط جماعى . يتم فيه تبادل الآراء والبحث عن الصواب . . وأسرة الدول الأوربية تأبى أن ينتسب إليها إلا الحكام «الديمقراطيون» .

ليس هناك إلا العالم العربى والإسلامى الذى يعيش وحده فى ضباب من الدعاوى والترهات ، إنه وحده دون أقطار الأرض كلها هو الذى يقول فيه حاكم : أنا صانع القرار . . وهو وحده الذى يسمع فيه أن الحاكم لا يُسأل عما يفعل!!

إن الإسلام غريب فى هذا الجو الأسن الكريه ، والحل الإسلامى لايؤخذ من أفواه الجهال والكذبة .

٢٦. ماذا صنع الإسلام لحفظ العقل والنفس والمال..؟

ألف الناس أن تكون العبادات أقرب إلى شئون الغيب عنها إلى دائرة المنطق، لكنى أرى غير هذا، فأنا أنادى إلى الصلاة لا بدقات طبل ولا بزمارات إنذار، وإنما صوت يشدنى من عقلى..!

وعندما أنصرف من صلاتى لا أجزى إلا بما عقلت منها!

والدين الذى اعتنقته قام على معجزة عقلية، تعرفنى أن الله واحد فى الأرض والسماء لأنه ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[1].

وفى القرآن مئات الآيات التى تتحدث عن العقل ووظائفه والأساليب الصحيحة لاستدلاله، وبعده عن الأوهام والظنون!

وقد أحصيت فى مقال لى ست عشرة آية تنوه بأولى الألباب، وترى أنهم هم الناس حقا! وهل الإنسان إلا عقله؟ ما أصدق قول المتنبى:

لولا العقولُ لكانَ أدنى ضيغمٍ ... أدنَى إلى شرفٍ منَ الإنسانِ

ومن أجل ذلك يرى الإسلام ضرورة صقل العقل وتوسيع آفاقه وزيادة إشراقه بأنواع العلوم والتجارب، إن الأعمار العقلية للناس تنقص أو تزيد وفق مايفيدون من تجربة ويتلقون من تعليم.

والحق أن الأمم تتقدم أو تتأخر بمقدار أنصبتها من العلم وقدرتها على تحويله إلى حضارة مثمرة.. والعقل الصحيح هو الذى يقرأ آيات الله فى الكون كما يقرؤها فى المصحف. أما التخلف العقلى فستارة تسدل على البصائر والعيون فلا تكشف سرا

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

ولا تدعم حقا ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾[1] .

إن الأمم المتخلفة عقليا كالأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يوضعون فى وصاية الكبار حتى ينضجوا! وربما كرهت الأمم المتخلفة هذه المنزلة المهينة! بيد أن سنن الله الكونية تفرض نفسها طوعا أو كرها . .

وقد رأيت عابدين فى أفكارهم ـ لا فى قاماتهم ـ قصر فشعرت بخيبة الأمل ، لأن هؤلاء العابدين كانوا بلاء على دينهم ، وربما ضروه من حيث أرادوا نفعه ، لأنهم كالدبة التى قتلت صاحبها . .!

يصقل العقل خلال مراحل الدراسة المتتابعة ، ويصقل العقل بالحفاظ على سلامة الحواس ، وعافية البدن ، ويحفظ بازدراء المسكرات والمخدرات والمفترات التى تنال من وعى المرء وكرامته ، ويحفظ قبل ذلك وبعده باستفهام الرشد واستمداد النور منه سبحانه!!

وقد وردت فى ذلك كله توجيهات من الكتاب والسنة يطول سردها . .

وننتقل من صون العقل إلى صون النفس . إن احترام الإنسانية كلها يبدو فى احترام فرد واحد قال تعالى :﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . . .** ﴾[2] . وجاء الإسلام فجعل النفس الإنسانية أقدس من الكعبة المشرفة ومن الأشهر الحرم قال عليه الصلاة والسلام : «.. **ألا وإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال اللهم فاشهد ـ ثلاثا ـ ويلكم، لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**..».

ونظر عبدالله بن عمر إلى الكعبة وقال : **ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك** ، حرمة دمه وماله وعرضه . .!

ومقتضى الإيمان ألا يكون المؤمن مصدر إفزاع أو ترويع لغيره ، ومن جوامع الكلم

---

(١) الحج : ٤٦ .	(٢) المائدة : ٣٢ .

لرسول الله ﷺ «**الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن**» يعنى كما تربط الأغلال يدى الرجل فلا يقدر على عمل شىء ، يقيد الإيمان يدى المؤمن فلا يعتدى على نفس ، المؤمن أشرف من أن يفتك بأحد . .!

وفى الحديث كذلك «**قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا**» «**لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لكبهم الله فى النار**».

ويرى الإسلام من المحافظة على الحياة أن يعتنى المرء بصحته ، ويستكمل أسباب عافيته ، ويهتم بحواسه . وأعضائه وسائر بدنه ، فإن البدن القدير على أداء الواجبات الناهض بشتى الأعباء من أجل النعم . .!

وقد كان من أدعية النبى ﷺ : «**اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعلها الوارث منا**» أى استبقها مادامت الأرواح فى الأجساد حتى إذا متنا خلفناها فى أبداننا فورثتنا ، بدل أن نرثها ونحن على ظهر الدنيا . .

ومن المحافظة على الحياة توقى الأمراض ، وتناول الأدوية وقد رفض عمر السفر إلى أرض موبوءة بالطاعون ! قيل له : تفر من قدر الله؟ قال : **أفر من قدر الله إلى قدر الله!**

وقد أصاب أمير المؤمنين السنة ، وأخذ كلمته أحد العارفين فولد منها هذه الحكمة «**الرجل كل الرجل من يغلب قدر الله بقدر الله**» .

إن الله يمهد للإنسان السبيل ، وعليه بعدئذ أن يقدم لا أن يحجم ، وهذا معنى قول الله فى ذى القرنين ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾[(١)] .

إن النفس شىء غال ، وقد كرمها الإسلام فلم يهنها ، وصانها فلم يضعها حتى تؤدى فى الحياة رسالتها .

ويجىء بعد النفس المال ، وهو قوام الحياة الشخصية والعامة ، فما من أحد يستغنى عن المال ليطعم ويلبس ويقوت عياله ، ويصون مروءته ، وما من أمة تستغنى عن المال لتحمى كيانها وتدبر مصالحها ، وتستبقى ذاتها .

---

(١) الكهف : ٨٤ ـ ٨٥ .

ولذلك أمرنا بتأثيله وتنميته ، ونهينا عن جعله بين أيدى السفهاء ، فلا يحسنوا التصرف فيه ولا الإفادة منه قال تعالى :﴿ **وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾[1] .

ونظرا لما للمال من آثار خاصة وعامة طلب الإسلام من صاحبه أن يرد عنه عدوان الغاصبين! ولو بذل دونه دمه!! روى النسائى عن مخارق بن سليم الشيبانى أحد الصحابة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، الرجل يأتينى ليأخذ مالى؟ قال : **ذكره بالله!** قال : فإن لم يذكر! قال : **فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين!** قال : فإن لم يكن حولى أحد من المسلمين؟ قال : **فاستعن عليه بالسلطان!** قال : فإن نأى السلطان عنى؟ قال : **قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة ، أو تمنع مالك.** تحميه .

وقد روى مسلم فى صحيحه حديثا يؤكد هذا المعنى ، ويحكم بالشهادة لمن قتل دون ماله!!

وإنما ذكرنا ذلك ليعرف المسلمون قيمة المال ، وضرورة حفظه والذود عنه! ترى أيوصى الشارع بهذه الاستماتة فى شىء تافه ؟ كلا كلا . . إنه لولا خطورة المال فى الحياة الخاصة والعامة مافرض القتال دونه .

ومعنى إيجاد المال وتحصينه إيجاد منابعه وتفجيرها ، وهل منابع المال إلا الضرب فى الأرض ، واستغلال ظاهرها ، واستخراج باطنها ، واستثارة البر والبحر ليجودا بخيرات الله المودعة فيهما؟

والحق أن المال سلاح رهيب ، والسلاح لايحمد أو يعاب لذاته! ولكن يحمد فى يد الشجاع المدافع عن حقوقه ، ويذم فى يد الظلوم المعتدى على غيره!! إنه وسيلة إلى الجنة أو إلى النار ، بطريقة استخدامه ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١)** ﴾[2] !!

---

(١) النساء : ٥ .

(٢) الليل : ٥ - ١١ .

وقد نظر بعض الجهال إلى المال فى أيدى الأشرار ، وكرهوه لأنهم يستعينون به على الفجور والفساد ، ثم شرعوا ينظمون قصائد طويلة فى هجاء المال ، وحسن التخلى عنه! حتى وهم العوام أن المال شر فى كل يد ، وأن البعد عنه غنيمة . .!!

ومعنى البعد عنه البعد عن مصادر كسبه ، وأسباب اقتنائه ، وشاع هذا الفكر الغوغائى بين الجماهير ، فإذا المسلمون من بضعة قرون لا يحسنون استخراج معدن من الأرض ، ولا إجادة صناعة من صناعات السلام أو الحرب!

وإذا هم يحسبون الصعلكة تقوى ، والافتقار فى الدنيا هو الاغتناء فى الآخرة ، وسجلوا فى بعض كتب السنة والتصوف أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر!!

ونشأ عن هذه الجهالات السائدة فى مصادر الثقافة الدينية انهيار شامل للعالم الإسلامى لأن مواهبه الدينية والمدنية تبلدت وفسدت ، حتى الأقطار التى رزقت سعة فى ثروتها تيسر لها ذلك من جهد الأجانب فى تحصيل خيراتها واستخراج كنوزها . .!!

إن العقل الإسلامى تحيط به غشاوات سميكة ، ولابد من تمزيق هذه الغشاوات إن أردنا الحياة ، ولابد من مطاردة الغوغاء الذين فرضوا أنفسهم على الثقافة الدينية ، وهم لايصلحون لا لدنيا ولا لدين .

٢٧ . ما دور الإسلام فى ترشيد الضمير الإنسانى...؟

نظرة الإسلام الأولى إلى القلب الإنسانى - أو الضمير كما يقول علماء الأخلاق - فإن سلامة هذا القلب من العلل ، وثبات وجهته إلى الخير ، تعنى الكثير من توفيق الله ورضوانه ، قال رسول الله ﷺ : «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى هاهنا. التقوى هاهنا. ويشير إلى صدره..**» .

نعم فالصدر المنشرح بالحق ، المستقر على النهج يؤتمن على الدقيق والجليل ، ويضع طابعه الطهور على كل شىء وتحفه بركات الله ، لأن صلته به قائمة دائمة . .

ونحب أن نسوق أمثلة تبين كيف يكون القلب سليما أو كيف يكون الضمير نقياً . .

المرء فى طفولته ويفاعته قد يحب الظهور ، ويسره سماع الثناء عليه ، وقد يبذل جهوداً شاقة فى هذه السبيل . . إن الرياء ليس مستغربا على الطبيعة البشرية ، فإرضاء الناس هدف حقيقى فى المراحل الأولى من العمر ، ثم يكبر المرء وتسمو نظرته ويتجه إلى الله ، إن المرائى لا يرى إلا الناس ، فهو يعمل لهم ، أما المخلص فهو يرى رب الناس ولذلك يعمل له .

ويتعهد الدين هذا التسامح ، فهو يوصى بتمحيض العمل لله ، لأن الإنسان إذا أشرك الناس مع الله فى طلب الرضا رفض الله عمله!

إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا له وحده ، ومن ثم ترى المؤمن حقا يجيد عمله ويؤدى واجبه ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء أثنى عليه رؤساؤه أم ضاقوا به ، إنه يحسن الصنيع على أية حال وفى أى وضع .

والإنسان بطبيعته يحب أن يكافأ على عمله ماديا أو أدبيا ، وربما ترك العمل إذا لم يجد له جزاء عاجلاً ، وقد يتراخى فيه أو لا يكترث بإجادته إذا كان الجزاء قليلاً أو مؤجلاً . . لكنه إذا صدق يقينه أحسن أداء واجبه! وادخر ثوابه عند ربه ، وعد مايقبضه فى اليوم الآخر أضمن وأبقى . .!

عمل الضمير هنا تثبيت المرء على الوفاء بما عليه ولو غمطه الناس ، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال للأنصار : **إنكم ستجدون أثرة بعدى!** قالوا : فما تأمرنا؟ قال : **أدوا الذى عليكم، وسلوا الله الذى لكم!!**

الواجب يؤدى على وجهه الكامل ، وحسابى على الله والأمر له . .!!

إن الانبعاث إلى العطاء يجب أن يكون بدوافع ذاتية ، غايتها استرضاء الله وإنْ جحد الخلق ﴿ **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾[١] .

قال المؤرخون : لاحظ صلاح الدين وهو يقاتل الصليبيين أن النار اشتعلت مرتين فى معسكرات الأعداء مخلفة وراءها الدمار والقلق! وبينما هو يرقب جهة العدو لاحظ أن النار بدأت تشتعل ، ورمق الفاعل ـ بعد مابدأ الحريق ـ يتحيز إلى جند المسلمين ، فأمر فجىء به ، فلما مثل بين يديه قال له : ما اسمك؟ قال الرجل : يعلمه الله! قال له صلاح الدين مطمئنا : إنى أريد مكافأتك! قال الرجل : لو أردت المال ماجئت هنا ، وانصرف لشأنه!!

هذا جندى باسل حضر الوغى ليقاتل فى سبيل ربه ، واكتفى وهو يناضل العدو بنظر الله إليه ، فلما استدعاه السلطان كره أن ينال على جراءته ثمنا . . حسبه ماعند الله!!

والحق أن انتصار المسلمين ، وفتح بيت المقدس ، وكسر حدة الغارة الحاقدة ، وجمع فلول الأمة الممزقة كان من ورائه عدد من ذوى الضمائر الموصولة بالله الراغبة إليه ، قامت بعملها فى صمت وعزلة وعفة . .!

لعل السلطان نفسه كان يضىء الطريق لهذه القلوب الطيبة حين قرر أن يشارك فى حمل الأحجار على عاتقه بكرة وأصيلا ، ولو شاء لأصدر الأوامر وراقب المنفذين ، إنه أبى إلا أن يسد الثغرات ويشيد الحصون بنفسه مع جيشه!!

ونتدبر عبارة القرآن فى وصف هذه الضمائر البارئة من العلل قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾[٢] . . سليم من أوضار الغش

(١) الليل : ١٨ ـ ٢١ .

(٢) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

وجنون العظمة ولفت الأنظار! إن الشخص الذى لا يعمل أو لايجيد عمله إلا ابتغاء ثناء يسمعه ، أو مال يأخذه لن يعمل شيئًا طائلا إذا انقطع الثمن ، وابتعد الناس!

ومعنى هذا أن الخير عنده غرض عابر لا باعث أصيل ، إن قلبه فى الحقيقة ناضب من حب الخير والاندفاع الذاتى إليه ، إنه قلب غير سليم .

وربما خامرت القلب تطلعات دنيا إلى مال أو جاه ، بيد أن الإيمان يطاردها ويبقى الضمير متشبثًا بربه مؤثرًا له وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾[١] .

إنه ليس غريبًا على النفس أن تحب المال والجاه ، بيد أن هذه المحبة يجب أن تنهزم أمام وجه الله وارتقاب جداه!

ولو نقبنا عن أسباب الزلازل التى تهز كيان الأمم لوجدناها تلك الضمائر الميتة ، تلك القلوب التى تيبست ، فهى لاترشح بنبل ولا تهش لفضيلة ولاتشمئز من قبيح .

وقد ذكرت السنة الشريفة أمثلة للضمير الحى عندما يتغلب على المغريات ويهزم الوساوس ويسبح بقوة ضد التيار وينجو!!

فعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : «**ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله** .

فأما الثلاثة الذين يحبهم: فرجل أتى قوما فسألهم بالله، ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم، فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم، فأعطاه سرًا، لايعلم بعطيته إلا الله والذى أعطاه .

وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا فقام رجل يتملقنى ويتلو آياتى...

ورجل كان فى سرية فلقى العدو، فانهزموا، فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له.

وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله فالشيخ الزانى، والفقير المختال، والغنى الظلوم...»

وظاهر أن الثلاثة الآخرين ماتت قلوبهم ، فاستمرءوا الرذائل مع ضعف الأسباب التى تدفع إليها .

---

(١) ق : ٣٣ ، ٣٤ .

ومن صور الضمائر الحية ، ماذكرته أحاديث أخرى ، عن الرجل يقدر على الفاحشة ، ولكنه يدوس مغرياتها ، ويستبقى نفسه طاهرا ، وصلته بالله زاكية .

وصورة هذا الرجل الذى استأجر عاملا عنده ، فأدى واجبه ثم عرض له ما صرفه قبل أن يأخذ أجره وبعد سنين طوال رجع العامل يطلب حقه الذى تركه من زمن بعيد!

كان رب المال ، قد أدار الأجرة فى عمله فنمت حتى أمست ثروة! فلما جاء العامل أعطاه الأصل والنماء ، والعامل مدهوش!

إن الإيمان يضع ضوابط صلبة للسلوك ، ويجعل من القلب ديدبانًا صاحيًا يحرس الحقوق والواجبات ، فلا حيف ولا فوضى . .!

وبعض الأنظمة تجعل من سلطان الدولة شبحًا رهيبًا يحمل الناس حملا على العمل ، والإتقان! فهل تم ذلك؟ لا ، لأنه ليس فى مقدور نظام ما أن يضع شرطيًا مع كل عامل فى الأرض أو فى المصنع لينشط ، ومع كل مقاول حتى لايغش ، ومع كل طبيب حتى لايتهاون ، ومع كل تاجر حتى لايحتكر ، ومع كل رئيس حتى لايستبد ويطغى .

وإذا خان الشرطى فهل نجيء له بشرطى آخر؟ قد يقال : إن رفع المستوى الثقافى وتبصير الكبار والصغار بما ينبغى وما لا ينبغى يمكن أن يمنع هذه المحذورات .

والواقع أن الجرائم الكبرى لم يقترفها إلا مجرمون على حظ كبير من المعرفة ، وأن النضج العقلى لا يستلزم الطيبة والإخلاص والشرف ، وكم من أذكياء أساءوا إلى أنفسهم وأممهم . .! ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾[1] .

إن القلب النقى ، الغيور على الحق الحريص على الشرف ، القاهر للأثرة ، المحب للناس لايصنعه إلا إيمان وثيق ، وتعلق بالله وحده .

والواقع أن حديث القرآن عن الله سبحانه وتعالى وعن تاريخ الماضين الطويل ، وعن البعث والحساب والثواب والعقاب ، وما شرعه الله سبحانه من عبادات كثيرة ، إن ذلك كله عناصر لضمان سلامة القلب ، واتجاهه الثابت إلى الحق والخير .

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

٢٨. ما موقف الإسلام من العنصرية السائدة في بعض الحضارات؟

ظهر خلال هذا القرن الزعيم الألمانى «هتلر» يزعم أن الدم الآرى أرقى من غيره ، وأن الشعب الألمانى بطبيعته يرجح غيره من الشعوب السامية - يعنى اليهود والعرب وأشباههم - وتحول هذا الزعم إلى عقيدة تساند مشاعر الكبرياء ونزعة السيادة عند الألمان ومن على مستواهم .

وهذا كلام خرافى لا وزن له! وإن كان راسبا لا فى نفوس الألمان وحدهم ، بل فى نفوس الأوربيين وأفراد الجيش الأبيض عمومًا !

إن بنى آدم من ناحية الخلقة يستوون فى أنهم نفخة من روح الله الأعلى حلت فى إهاب من تراب هذه الأرض ، فالبشر كلهم ينميهم أصل واحد ، ويجمعهم نسب مشترك . قال تعالى يشرح تلك الحقائق : ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[1] .

لا فروق بين جلد أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر ، إن هذه الألوان المختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف فى ألوان الأزهار والورد ، ولا دلالة على عراقة أو تفاهة .

بيد أن كثيرًا من الناس يسرهم أن يختلقوا من عند أنفسهم هذه الفروق ، وأن يقيموا حولها عصبيات ، وأن يجعلوا لها وزنا خاصاً فى التقديم والتأخير ، والقبول والرفض!

وقد رأيت البعض يتشبث بهذه الأوهام لأنها رجحت كفته دون جهد! ومنحته

(١) السجدة : ٧ - ٩ .

شرفًا جعله ـ دون حركة ـ يسبق الناشطين! إنه لشيء ظريف أن يحسب المرء سيدا لأنه تكون في بطن معين ، ونشأ الناس من ماء مهين ، أما هو فمن ماء شريف .

إنه ـ مع احترامنا لقوانين الوراثة ـ نقرر أن الوراثة لاتنشئ عظمة ولا تكسب نجاحًا ، فهناك أنبياء من أصلاب كافرة ، وهناك فجار من أصلاب أنبياء ، وقد كان أبو الطيب شاعرًا مفلقا من أب لا يعرف شعرًا ولا نثرًا ، وكان أبو العلاء فيلسوفا متشائمًا من أب لا يدرى شيئًا من الفلسفة . .

ثم إن روافد الوراثة غامضة المنبع والكنه في أبناء الجيل الواحد ، فكيف إذا تكاثرت الأجيال؟ ونحن نعرف النكتة المروية عن امرأة جميلة أحبت عبقريا دميما وعرضت عليه الزواج لينجبا ابنا يرث جمالها وذكاءه! فقال لها الرجل : أخشى أن يرث غباوتك ودمامتي!!

إن القول بأن جنسا ما ذكي بأصل الخلقة ، وجنسا آخر غبي بأصل الخلقة قول فيه ادعاء ظاهر ، إن ظروف البيئة هي التي تصنع الأعاجيب ، وهي التي تنمي المواهب أو تقتلها ، بل هي التي تحيى الفطرة أو تميتها .

والجنس الأبيض الذي يعمر غرب أوربا وشمالها ، والذي يفرض وصايته على العالم كله ، كان أياما طوالا يشتهر بالغباوة والانحطاط ، وقد نقلنا في كتابنا «مع الله» كلام المستشرق «فيلب حتى» عن تأخر الأوربيين الحضاري وتفوق عرب الأندلس عليهم « . . . في الوقت الذي كانت فيه جامعة «أكسفورد» ترى الاستحمام عادة وثنية ، كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام في مؤسسات فاخرة . . .» ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة الشمال ـ هكذا كان آباؤنا يسمون سكان أوربا ـ وفكرتهم عنهم ما ورد في كلام عالم «طليطلة» صاعد القاضي المتوفى سنة ١٠٧٠ م فقد كتب عنهم : أن إفراط بعد الشمس عن مسامة رءوسهم برد هواءهم وكشف وجوههم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة! فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم وانعدمت دقة الأفهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة!!

أرأيت هذا الوصف ؟ إنه لأهل أوربا الذين يقودون العالم الآن ، وليس للهنود أو الزنوج أو العرب . . أو بقية العالم الثالث!!

والعالم اليوم ينظر إلى هزائم العرب أمام اليهود ، ويبتسم ساخرًا . .! وقد كان آباء أولئك المهزومين يحتقرون الجبن اليهودى ويبرءون منه ، ويقولون لنبيهم فى أول قتال له مع الوثنية : لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون!

بل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، إن خضت بنا هذا البحر خضناه معك ، مايتخلف منا أحد!!

إن الإسلام بين أن الأفراد والأجناس يصنعون يومهم وغدهم بأنفسهم ، وهم فى سباق مفتوح يتقدم فيه من شاء ويتأخر فيه من شاء لا مدخل للون أو عرق ، ﴿ **إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** ﴾[١] فقد يسبق الأسود فى الدنيا والآخرة ، أو يقع العكس! وقد ترجح كفة رجل من سواد الناس ، وتطيش كفة آخر من أبناء الرسل ، أو العكس ﴿ **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾[٢] .

وجاء فى السنة أن النبى ﷺ نبه قومه : لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم وقال : «**من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه**» وهذا مصداق الآية الشريفة ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾[٤] .

ومع كثرة ما نبه الإسلام إلى مبدأ ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾[٥] لوحظ أن العرب يغالون مغالاة منكرة بالأنساب والحِرَف ، ويجعلونها محور تقدير جائر وعصبيات عمياء .

الزراعة مهنة تافهة ، وكلمة فلاح لامرئ نازل المرتبة ، وقد كان الفرزدق يهجو جريرا بأن أباه حداد ! أما هو فإن الذى سمك السماء بنى له بيتا دعائمه أعز وأرفع! بم ؟ بغير شىء!

---

(١) المدثر : ٣٥ ـ ٣٧ .
(٢) الأعراف : ٨ ، ٩ .
(٣) المؤمنون : ١٠١ .
(٤) الأحقاف : ١٩ .
(٥) الحجرات : ١٣ .

وفرضت تقاليد البدو نفسها على المجتمع العربى ، بل على جانب من الفقه الإسلامى ، فإذا عدد كبير من رجال الفقه يرون أن الهاشمية لا يكافئها عربى عادى ، وأن العربية لا يكافئها أعجمى ، وحكم القضاء الشرعى بتطليق فتاة من أسرة شريفة النسب تزوجت بالشيخ على يوسف محرر صحيفة «المؤيد» المشهورة .

أما حديث الرسول ﷺ : «**إذا أتاكم من ترضون دينه ومروءته فزوجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**» فقد وضع على الرف!

وكما تسللت هذه التقاليد إلى ميدان الفقه تسللت إلى ميدان الحكم والسياسة ، فكانت عصبيات القبائل قديما وعصبيات الأسر حديثًا من وراء طلب الرياسة وبسط النفوذ .

وعندما يبحث سبب فساد المجتمع الإسلامى وانهيار الحضارة الإسلامية عمومًا ، فستكون هذه الجاهليات من أبرز العلل .

وإلى يوم الناس هذا لاتزال الكفاءة الشخصية تؤخر أمام مكانة العائلة وقيمة النسب! ذلك فى وقت يشيع فى أرجاء العالم تنافس لا حدود له فى البحث العلمى والإنتاج الغزير ، وتجويد السلع ، وكشف المجهول ، ومراقبة الخصوم ، وكسب الأصدقاء ، إنه تنافس ترتبط به مصائر أمم ومستقبل رسالات! ترى ما موقفنا؟

جاء فى السنة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ألا إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا، جعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان خير من فلان بن فلان! فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم، أين المتقون؟**»

وعن جابر خاطبنا رسول الله فى أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : «**يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد! ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟** قالوا بلى يارسول الله! **قال: فليبلغ الشاهد الغائب..**»!

وروى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : «**لينتهين أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدحرج النتن بأنفه! إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية.** أى كبرها. **وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى، الناس بنو آدم وآدم من تراب...!!**» .

٢٩. ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها، كالرسم والنحت والتصوير؟

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمى باهر ، وصل إليه الإنسان بعد قرون من البحث المضنى والتجارب الغالية! ولم يكن عجبا أن يستغل الإنسان كشوفه لأسرار الكون وقواه الخفية فى ترقية نفسه وترقية معايشه ، بل إن ذلك أقرب إلى الحكمة من استغلال هذه الكشوف فى تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار الجماعى على الناس!

وأحسب أن التقدم الصناعى العام وفر للجماهير متعا ما كان يحصل عليها الملوك الأقدمون! الأطعمة أنعم ، والأشربة صنوف ، والملابس تفضل الحرير نسجا ولونا ورقة ، وأدوات النقل أغنت عن الخيل والبغال والحمير ، والقيان التى كانت تغنى فى مقاصير الأمراء انتقل صوتها إلى الأكواخ ، ونام على لحنها العمال والفلاحون ، والمرء فى المشرق يكلم صاحبه فى المغرب بثمن ميسور ، وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى ، وملكوا غدا أنصبة أكثر . .!

ومع هذا كله فالأعصاب مشدودة ، والأطماع طاغية ، والبكاء على القليل المنشود يفسد السعادة بالكثير الموجود ، وتحاسد الأفراد والأقطار أشعل البغضاء هنا وهناك!

وقيل فى وصف العالم : إن عضلاته أكبر من فكره ، ولو أنصفوا لقالوا : إنه عالم يذكر نفسه ، وينسى ربه ، ويجحد حقه ، ويمارى فى لقائه ، ويظن أن هذه الدنيا كل شىء ، فلا امتداد لوجود آخر ، ولا حياة إلا هنا . .!!

وأنا رجل مسلم أحب الحياة وأبتهج بطيباتها! إن الله استضافنى فى كونه وأطعمنى خيره فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبذول ، ومن السفاهة كذلك أن أضن بشكر المنعم!

إن الله تبارك اسمه يعطى الفضل ولا يطلب إلا الاعتراف بالجميل ، فهل هذا ثمن فادح ؟

يبدو أن ناسا كثيرين يعز عليهم دفع هذا الثمن ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾(١) .

على ذلك الأساس أنظر إلى ماقدمته الحضارات قديمها وحديثها! إنه ـ كما علمنى الإسلام ـ لى وليس لغيرى ، أليس يقول الله : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾(٢) ؟

ومن ثم فالأصل فى الأشياء الإباحة ، ولا تحريم إلا بنص قاطع ، والواقع أن نفرًا من سوداويى المزاج أولعوا بالتحريم ، ومنهجهم فى الحكم على الأشياء يخالف منهج نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام الذى ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن آثما ، فإن كان آثما كان أبعد الناس عنه ، روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «**لاتشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم فى الصوامع والأديرة، رهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم**» .

وقد أشاعت المدنية الحديثة «الراديو والتليفزيون» وغيرهما من الأجهزة الناقلة للثقافة والملاهى على سواء ، ومعروف أن هذه الأجهزة أدوات غير مسئولة عما يصدر عنها ، وأن المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين ، ففى استطاعتهم أن يقدموا النافع ويحجبوا الضار . .!

لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الأجهزة لإشاعة اللغة السليمة وتذوق الآداب الرفيعة وحماية الأخلاق ، ودعم التقاليد الفاضلة ، بل كان من الممكن أن ندرب الألوف على إتقان حِرَف نحن محتاجون إليها ، وأن نرفع مستوى الأداء لأشغال كثيرة ، فإن البطالة السافرة والمقنعة تفتك لدينا بأعمار الناس .

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا وأوقفت مسيرتنا ، إن وسائل الإعلام لو أحسنا استغلالها تصنع الكثير ، ولكن ذلك لاتستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالة فى الحياة ، أما الأمة الذنب فقد سقط عنها التكليف لأن غيرها يشدها .

---

(١) سبأ : ١٣ .   (٢) البقرة : ٢٩ .

قد يفهم من ذلك أنى أحارب الغناء والموسيقى والترويح عن النفس . . لا ، ولكنى ألحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلا وتغنى كثيرًا ، والاستجمام حق المرهقين لا حق القاعدين !

أما الغناء فكلام ، حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه! وما نحارب إلا غناء هابط المعنى واللحن .

لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الإطلاق ، وقد احتج البعض بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا . . . ﴾[1] .

ولعمرى أن من يشترى جد الحديث أو لهوه للأسباب المذكورة فى الآية جدير بسوء العقاب ، أما من يريح أعصابه المكدودة بصوت حسن ولحن جميل فلا علاقة للآية به ، وكما يقول ابن حزم : لو اشترى مصحفا للإضلال فهو مجرم .

ويبدو أن اقتران الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش . وما يشاع عن البيئة الفنية من تحلل ، هو الذى جعل عددًا من العلماء يحرمه ، وإلى هذه الجملة من الرذائل يشير حديث البخارى إلى من يستحلون الحر والحرير والخمر والمعارف . .

بيد أنه ليس من الضرورى أن تجتمع هذه العناصر كلها عند سماع أغنية . وعلى أية حال فإذا كان الغناء مقرونا بتلك المحرمات فهو مرفوض ، أما إذا برئ منها فلا شىء فيه .

والموسيقى كالغناء وقد رأيت فى السنة أن النبى ﷺ مدح صوت أبى موسى الأشعرى ـ وكان حلوا ، وقد سمعه يتغنى بالقرآن ـ فقال له : «**لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»! ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك . .

وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون تحرج ، ولا أدرى من أين حرم البعض الموسيقى ، ونفر من سماعها؟

---

(١) لقمان : ٦ ، ٧ .

على أن الألحان تختلف فى تأثيرها وصداها النفسى ، فإذا كان هناك مجال لاعتراض فَعَلى الأصوات الخنثة والألحان الطرية المائعة .

ونعود إلى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والقليل من اللهو ، ولو رزقنا بفنانين ذوى شرف ومقدرة لأمكن تحويل الفنون إلى عوامل للبناء لا للهدم ، ولإثارة المشاعر النبيلة لا إهاجة الغرائز الدنيا .

أما الصور فيجب أن نفرق بين نوعين : المجسم الذى يصنعه المثالون الآن لأغراض شتى! والرسوم التى توضع على المسطحات من أوراق وأقمشة وغير ذلك .

والتصوير سواء كان شمسيا أو قلميا هو جزء من الطب والأمن والعلوم الكونية والحيوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة ، والأصل فيه الإباحة لحديث مسلم «**إلا رقما فى ثوب**» ولحديث رزين سئل ابن عباس عن أجرة كتابة المصحف ، فقال : «**لا بأس إنما هم مصورون ، وإنهم إنما يأكلون من عمل أيديهم**» .

ولم يقل أحد إن صورة الوجه فى المرآة محرمة ، ولا يقول أحد إن إثباتها بطريقة أو بأخرى تحول المباح إلى محرم .

ولا يحرم من هذا النوع إلا ما حمل طابعا دينيا لعقائد يرفضها الإسلام كصور بوذا ، أو إبراهما ، أو صلبان النصارى ، أو أى شعار دينى يخالف التوحيد .

كما يحرم أى تصوير يخل بالآداب ، ويحرك الغرائز إلى المعصية .

أما التماثيل المجسمة فإن النصوص الواردة تتظاهر على رفضها ، ما لم تكن ألاعيب للصبية أو عرائس هزلية ، كحلوى المناسبات المختلفة ، فإن أحدًا لا يفكر فى توقيرها أو عبادتها .

ولقد رأيت بعينى من يعبدون هذه الأصنام فى جنوب آسيا ، ورأيت فى مصر من يحيى بخشوع تمثالا لعبد الناصر!! وذلك أثناء نقله من مكان إلى مكان . .!!

وأعرف أن هناك من رجال الفتوى من يحرم التصوير كله سواء كان مجسما أو كان رسماً على ورق ، وأخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملابساتها سببًا فى ضياع الدين والدنيا معًا!

ولنضرب مثلا بالمرويات التى جاءت فى قضية البناء! روى الشيخان عن خباب ابن الأرت قال: **إنّ المسلم يؤجر فى كل شىء ينفعه إلا فى شىء يجعله فى هذا التراب!**

وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «**النفقة كلها فى سبيل الله، إلا البناء فلا خير فيه**»!

وأخرج داود عن أنس أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : «**أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا بدُّ منه**» .

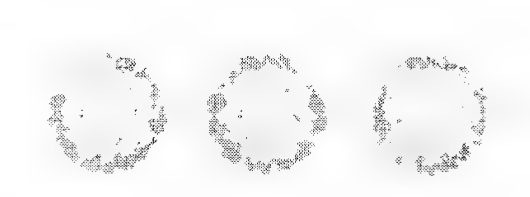
عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : مر بى رسول الله ﷺ وأنا أطين حائطا من خص ، فقال : ما هذا ياعبدالله؟ فقلت : حائط أصلحه! فقال : «**الأمر أيسر من ذلك**» وفى رواية: «**ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك**»! يعنى الموت أو الساعة!! والحديث رواه أبو داود وصححه الترمذى!!

هذه الآثار كلها لو أخذت على ظاهرها مابنيت مدينة ولا قرية! ولعاش الناس فى أكواخ لاتستر العورات إلا بجهد !

والواقع أنها واردة فى المكاثرة والمفاخرة والاستطالة على الناس! وبناء القصور جائز بلا ريبة!

فهل الذين يحرمون التصوير مطلقاً يحرمون بناء القصور؟

إنهم فى بعض البلاد لايزالون يرون الصورة فى التليفزيون محرمة ، وأقمار الأجانب تلتقط الصور لنا فى أيام السلام والحرب على سواء ، ونحن ندرى أولا ندرى .



٣٠.كيف أعلن الإسلام حقوق الإنسان...؟

خلق الله الإنسان ليكرم لا ليهان ، ولتسجد له الملائكة لا ليعيش مع الحيوان! ومع أن الإنسان يعانى على الأرض ما يعانى فهو مع بنى جنسه إذا صلحوا واستقاموا أفضل عند الله من ملائكة السماء ، وقد قال الله سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾(١) .

ولكن المتأمل فى تاريخ البشر يجد أن جماهير كثيفة طحنها الذل والضياع! ربما أهزلها الجوع والدواب تجد ما تأكله! وربما فقدت حقوقها المادية والأدبية وعاشت كسيرة أسيرة وغيرها من الطير والحشرات ينطلق دون قيد!

من الذى أنزل بالبشر هذه الكوارث؟ لم يفعل ذلك ملك ولا جن ، لم يفعل ذلك ماء ولا هواء!

إن الذى فعل ذلك بعض البشر ، ناس لديهم فضول سلطة أو ثروة ، استغلوا سلطانهم وغناهم فى إيذاء الآخرين والحيف عليهم .

ومضت قافلة البشرية من قديم تتعسف الطريق ، وتكابر الوحى ، وتعارض الإنصاف ، وتدفن الأخلاق ، وتفرض الأهواء . . وأخيرا استطاع نفر من أولى العزم وحماة الحقيقة أن يقلموا الأظافر الحادة ، وأن يروضوا الطبائع النهمة ، وأن يضعوا دساتير حسنة ترد المظالم وتحمى الضعاف ، وتصون الحقوق فى أسلوب مفصل أوحت به سلسلة التجارب الطويلة فى محاربة الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى والانحراف الخلقى .

وعندما ننظر إلى المواد التى تضمنتها هذه الدساتير تعرف بدقة ما هى الحقوق التى يطلبها الإنسان والتى لا يزال الكثيرون يشكون فقدها ! .

إن المادة الأولى فى الميثاق العالمى لحقوق الإنسان تنص على أن الناس يولدون أحرارا ، يتساوون فى الحقوق والواجبات ، وكون الناس يولدون أحرارا متساوين كلمة نطق بها عمر بن الخطاب ارتجالا لا إعدادًا ولا تكلفًا ، بل انطلاقا من الفطرة الإسلامية! .

(١) الإسراء : ٧٠ .

ولكن هذه الكلمة ظلت دهرًا نظرية خيالية!! فكم من أناس ولدوا ولهم حقوق ليست لغيرهم ، وكم من أناس ولدوا مثقلين بواجبات ليست على غيرهم ، وكم من وظائف تفاوتت الفرص فى شغلها ، واختير لها من ليس لها بأهل ، ولا تسل كيف؟ فإن ناسا قبلك تجرءوا على السؤال فلم يوقف لهم على أثر أو عاشوا ناكسى رءوسهم لفرط ما حل بهم ، إن القدرة التى يملكها البعض ولا يدرى كيف امتلكها ـ فعلت مآثم ومناكر لا حصر لها ، ومع أنه الله ـ وهو المقتدر الأعلى ـ لا يظلم أحدا فى الملكوت الذى تفرد بحكمه ، وقال : (**ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا**) ، مع ذلك فإن ملاك السلطة والثروة دأبوا على الظلم فى أقطار كثيرة ، وبعد لأى قدرت الجماهير على تقييدهم بالدساتير والمواثيق التى وضعت نصوصها على ضوء التجارب المستفادة والذكريات المرَّة . . . .!!

إن حقوق الإنسان ولدت فى ديننا مع النطق بكلمة التوحيد ، فعندما نؤمن بالله الذى لا يعبد غيره ولا يشرع غيره ولا يحكم غيره ، عندئذ تسقط الوثنيات كلها عقائدية كانت أو سياسية أو اجتماعية!!

نعم ، إن الإيمان بوحدانية الله وقيامه على خلقه وتدبيره لكل أمر ، والإحساس بأنه ـ وحده ـ الضار النافع الخافض الرافع المعطى المانع ، إن ذلك يمنح الإنسان حرية واسعة تجعله لا يبالى بطواغيت الأرض كلها ، لأنهم مهما فحش سلطانهم ليسوا إلا عبيدا لربه .

ونلحظ أن القرآن الكريم كرر قصة فرعون مع موسى بضع عشرة مرة ، ذلك لأن الفرعنة مرض نفسى شائع بين الحكام المستبدين ، وتأمل قول فرعون لقومه : ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾[1] وقوله للسحرة لما آمنوا بعد ما شهدوا معجزة موسى تلقف ما صنعوا :﴿ **آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ** ﴾[2] . . إن ذلك الفرعون السخيف يرى ألا رأى إلا رأيه! فهو وحده الذى يصنع القرار! ويرى أن من اعتنق رأيا قبل أن يستأذنه مخطئ متمرد!! إنه ملك الضمائر والسرائر ، والناس عبيد إحساناته . .!!

ولكى توقى الإنسانية هذه اللوثة : شددت الدساتير الحديثة فى أمر الشورى ، وإلزام أولى الأمر بها ، كما وضعت قيودًا حديدية على التصرف فى المال العام ومنع العبث فيه .

---

(١) غافر : ٢٩ . (٢) طه : ٧١ .

وكذلك وضعت قوانين صارمة لحق كل إنسان فى محاكمة عادلة ، فلا يحبس أو يعتقل أو يؤذى جورًا وطغيانا ، وإنما يبقى إنسانا مصونا حتى يصدر القضاء النزيه حكما عليه فيؤخذ به وحده!

إن الرسول رأى وحشيا الذى قتل عمه حمزة أحب الناس إليه فما استطاع أن يسىء إليه بكلمة بعدما أسلم .

ورأى عمر بن الخطاب رجلا كان قد قتل أخاه فى الجاهلية ثم أسلم ، فقال له عمر : والله لا أحبك! قال : أذلك يمنعنى حقى يا أمير المؤمنين؟ قال : لا . . قال : لا حرج إذن ، إنما يأسى على الحب النساء!!

الحق أن سنة الرسول ﷺ وتقاليد الخلافة الراشدة كانت نموذجا أعلى لاحترام الإنسان والمحافظة على حقوقه ، كان النبى يدعو مَنْ له مظلمة عنده أن يقتص منه ، ويأخذ حقه! وكان خلفاؤه كذلك ، وقد رفض عثمان أن يستنفر أهل المدينة ـ خصوصا قبيلته ـ للدفاع عنه ، حقنا لدماء من استباحوا دمه!

ولو كان فى الحكم رجل آخر لأهلك نصف الناس للدفاع عن شخصه!!

فى هذه البيئة الحرة تربى الرجال الذين هدموا القيصرية والكسروية ، واستمع التاريخ إلى رجل منهم يقول فى أرض فارس : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده! جئنا نخرج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام!

كانوا يدركون أن الوجه الآخر لكلمة التوحيد هو حقوق الإنسان ، الإنسان الذى لاينحنى إلا لربه وحده!

من هنا كانت البيئة الحرة المهاد الفذ لتكوين الأمة المسلمة العارفة بربها السيدة فى وطنها التى لايجار عليها ولا يستباح حماها ، وقد كره الإسلام الاستضعاف ، وعزم على المؤمن أن يكون حمى الأنف عزيز الجانب!

فإن ضاقت به أرض فليرحل إلى غيرها ، وليبق كما كتب الله له قويا أبيا **﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ . . . ﴾**[١] .

---

(١) الزمر : ١٠ .

على أن الرحيل لايسوغ أن يكون فرارا من مقاومة ممكنة ، جاء فى خطبة لأبى بكر الصديق « . . إنا سمعنا رسول الله يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب**» . أو أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب**» .

والواقع أن الظَّلمة من أجبن الناس ، ويوم يحس أحدهم أنه إذا لطم أحدًا ارتدت اللطمة إلى خده ، فكر ألف مرة قبل أن يعتدى . إنهم لا يزأرون إلا فى الخلاء ، ولا يمتدون إلا فى الفراغ والويل للشعوب الجبانة!!

للإنسان حقوق سياسية تجعله ينقد أى خطأ من السلطات كلها علياها ودنياها دون أن يلحقه أى ضرر ، وله أن يتولى أى منصب تؤهله له كفايته دون أن يقفه عائق ما . وأساس ذلك أنه ليس لأحد بعد رسول الله عصمة تعلو به على النقد ، وأن المناصب أمانات ينالها الجدير بها ، ويبعد عنها من لايستحقها .

وللإنسان حقوق مالية تفرضها له الإخوة العامة بين المسلمين ، وقد أشرنا من قبل إلى أن المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه . قال ابن حزم : ومن ترك أخاه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه! وذكر ابن الجوزى فى سيرة عمر بن الخطاب وقد أصابت الناس أزمة أن عمر قال : «لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عددهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالمطر فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم» .

وللناس حقوق ثقافية تجعل العلم بينهم مشاعا ، ميسور الأخذ ، يستنير به الذكر والأنثى ، والغنى والفقير ، فطلب العلم فريضة كما جاء فى السنة الشريفة ، وما تنضج ملكات الإنسان ، ويخصب تفكيره وشعوره ، إلا بأمداد لا تنتهى من المعرفة . .!

والمستغرب أن الإنسان المسلم من بضعة قرون يحيا بعيدًا عن دينه وينبت فى غير مغارسه ويحكم بغير شرائعه .

الشعوب هنا تختار حكامهم وتبعدهم إن سئمتهم! أما عندنا فالشعوب تفاجأ بحاكميها كما يفاجأ المريض بعلة لا يعرف كيف الخلاص منها!

وعندما وقعت مذابح لبنان تظاهرت الألوف غضبا فى كل عاصمة إلا فى العواصم الإسلامية ، لأن التظاهرات ممنوعة! من يدرى؟ إنّ الشجا يبعث الشجا ، فقد تتحول هذه التظاهرات ضد الحكام بفعل فاعل!! فالأفضل أن تمنع ، والرؤساء المحبوبون سيؤدون الواجب!

٣١. هل مسئولية المسلم تجاه المجتمع الإسلامى وحده أم تجاه المجتمع البشرى كله.. كيف؟

معرفتى بالإسلام تجعل ولائى للناس كلهم جزءاً من ولائى للدين الذى أحببته! فأنا لا أشعر بانشطار فى هذا الولاء الواحد .

وقد سمعت أحد الشيوخ فى أثناء الدروس يقول : نحن المسلمين أمة الإجابة ، وغيرنا من أهل الأرض أمة الدعوة! قلت : ما معنى هذا؟ قال : إنَّ محمدا ﷺ دعا العالمين إلى الله ، فنحن استمعنا إلى النداء وأسلمنا وجوهنا لله ، وحق فينا قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾[١] فنحن أمة الإجابة!!

أما غيرنا مدعو مثلنا ، ولما يجب بعد! لعل النداء لم يصل إليه ، أو لعله وصل إليه مشوها لا يحرك دواعى القبول ، وأيا ما كان الأمر فهو مدعو!

وعلى أن أبلغه ما يجهل ، وأن أثير فيه دواعى التصديق ، لقد عرفت الحق قبله ، فآمنت ، ولست أولى منه بذلك الخير ، وقد يكون خيرًا منى لو عرف ما أعرف ، والواجب يفرض على أن أكون صورة مرغبة لا صورة منفرة ، وإلا كنت مسئولا عن إضلاله ، أو حاملا أوزاره؟!

ومن المحزن أن عدداً من علماء المسلمين شغله الترف العقلى فخان أمانة الدعوة والبلاغ ، وأن عدداً من حكام المسلمين شغله المجد السياسى ، فما أحسن خدمة الحق ولا جذب الانتباه إليه! ونشأ عن ذلك أن العلاقة بين أمة الإجابة وأمة الدعوة كانت مليئة بالخصام ، بل كانت مخضبة بالدم!

قد تقول : أهذا كل ولائك للإنسانية؟ وأجيب للفور : لا . . لا تنس أنى حسن الظن بالفطرة الإنسانية نفسها ، لأنى مسلم أعلم أن الصفة الأولى لدينى أنه دين

(١) آل عمران : ١٩٣ .

الفطرة! إن الناس يولدون عليه ويتجاوبون مع تعاليمه إذا أدركوها . . ويوم تخف قبضة الموروثات الرديئة فإن الجماهير ستكون قريبة منى أو أكون أنا قريبًا منها .

ولو خلى المرء وفكره لاتجه إلى إله واحد ، ولشعر بدوافع ذاتية إلى هذا الرب الوحيد ، ولو خلى المرء وفكره لآثر الزواج على العهر ، والصحو على السكر ، والإخاء على الأثرة ، والنصيحة على الغش!

إننى حسن الظن بالفطرة البشرية ، واعتقادى أنها كالثمر الذى ينبت جميل الرواء شهى الطعم ، بيد أن النبات قد تعدو عليه أمراض تشوه لونه ومذاقه ، إن هذه الأمراض علل طارئة ، وقد تعارف الزراع على مقاومتها كى يحموا محاصيلهم ، لكن الأجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية ، ومن ثم قد تلتهمها الأوبئة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، فيشب الصغار مائلين زائفين!

وماذا يفعل أولئك الصغار إذا سمعوا منذ نعومة أظفارهم أنه لا إله ، والحياة مادة؟ أو سمعوا أن الآلهة شركة مقرها جبل أولمب أو صحراء الجزيرة أو فوق السحاب؟ إنهم يكبرون زائغين .

أترانى أدافع عن ذلك الانحراف؟ كلا ، وإنما أذكر الواقع المجرد ! والذى أعلمه أن الله زود الفطرة بخصائص تملك بها حق الاعتراض على الباطل الذى يعرض أو يفرض عليها ، وأن هذه الخصائص من القوة حيث يعد إهمالها تقصيرًا سيئا وأساسا لمساءلة عادلة يوم الحساب ، قال تعالى :﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[1] .

هذا الحوار ناضح بأن الخصائص الذاتية للفطرة الإنسانية قادرة على المقاومة والرفض ، يجب أن يرفض العقل الخرافة ، ويتشبث بالحقيقة ، يجب أن يرفض الضمير البشرى الإثم ويتشبث بالبر والطيبة .

(١) الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٤ .

وإذا حدث أن خفت صوت الفطرة ، جاءت نجدات من الخارج لمعاونته كى يؤدى وظيفته ، ويبقى الإنسان إنسانا ، يعرف ربه ويؤثر دربه!!

وإذا كان الوحى الإلهى غير كاف فى إيقاظ الفطرة وإعادة التائه إلى رشده ، أحاطت بالأفراد والجماعات آلام تكسر الغرور وترفق الحجب وتحمل البشرية على الخضوع لمولاها ومناشدته الرحمة ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ** ﴾[1] .

ومع ذلك فالفطرة وحدها لاتخطئ فى كل شىء! إنها تخطئ وتصيب ، وتجور وتستقيم! ودورنا نحن المسلمين أن ندعم الصواب ، وأن نوهن الخطأ ، وأن نذكر بما تنوسى من حق .

وفى ظلمات الجاهلية الأولى شعر نفر من ذوى القلوب النبيلة أن المستضعفين يجار عليهم فى الحرم ، وتغصب حقوقهم ، فتجمعوا وقرروا أن يغيثوا الملهوف ، ويبقوا إلى جانبه حتى يرضى ، ذلك هو حلف الفضول الذى تم فى دار عبدالله بن جدعان .

وبعد ظهور الإسلام ونزول الوحى ، ذكر النبى ﷺ هذا الحلف بإعزاز وولاء وقال : لو دعيت به فى الإسلام لأجبت! نعم إن الإسلام الذى جاء به هو الإنسانية فى صورتها الوسيمة ، ونحن ـ انبعاثا من هذا المعنى ـ نرى لزامًا علينا فى الميدان الدولى أن نحارب التفرقة العنصرية ، وأن نخاصم الاستكبار بالقوة ، وأن نقر عيننا بانتصار العدالة ، وأن نفرح بشيوع الرخاء بين عباد الله .

إننى أغبط الرجال الذين يعملون باسم «لجنة العفو الدولية» على اليقظة الخلقية والغيرة الإنسانية التى تجعلهم يرقبون الأحداث فى العالم ، فإذا وجدوا ظلما شهروا به ، ومزقوا الأستار عنه ، وألبوا الدنيا عليه .

أشعر كأن هؤلاء الناس ينفذون التعاليم التى تلقيتها من رسولى المنصف الرحيم القائل «**إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»!!

---

(١) الأعراف : ٩٤ .

إن الدين تحسين للحسن وتقبيح للقبيح حيث كان ، ومن أى الناس كان . وأذكر أننى لم أعلم بمصارع العلماء الصوماليين العشرة الذين رفضوا قوانين الأسرة الجديدة فى الصومال ، إلا من استنكار لجنة العفو الدولية لما وقع . . إن أغلب الإذاعات الإسلامية والعربية آثرت الصمت . .!!

قلت : هؤلاء الساكتون أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، أما الأجانب الغاضبون للظلم فهم أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر! إن هلاك الأجيال على ظهر الأرض يجيء من شيوع الخبث وسكات العارفين ، قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾[١] .

والانتماءات المزورة لا تخدع ذا لب ، كم من منتمين إلى الإسلام لو تفرست فى أعمالهم ما وجدت أثرًا لفطرة سليمة ، أو تقوى حقيقية ، وكم تجد مسالك هى الإسلام بعينه ولكن العنوان مفقود . .!

أعجبتنى نظم الشورى فى الغرب ، ورأيتها تطويرًا جيدًا لما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قديما . . فإذا أذناب لولاة الجور الذين أهانوا الإسلام وأمته يقولون فى صفاقة نادرة : هذا اقتباس أجنبى ، والشورى عندنا لاتقيد حاكما . . .!!

وتأملت فى أحوال القائلين فرأيت ناسا يخزى بهم الحق ، وتستخفى المروءة ، يسترون عوراتهم العقلية بركعات ميتة ، وتدين شائه ، فقلت فى نفسى : الأوربيون فى نظم الشورى قلدوا النبوة والخلافة الراشدة ، وهؤلاء العرب قلدوا الحجاج والمعتصم وبقية السلاطين . .!

ما أكثر ما ظلمت أمتنا بالمتقولين الجهلة . .

على أن الإنسانية فى غيبة الوحى تشعبت بها الطرق وتفرقت مذاهب شتى كما زاحمت الفطرة غرائز وأهواء جامحة ، والحضارة التى تسود العالم اليوم تشوبها

---

(١) هود : ١١٦ ، ١١٧ .

نقائص ونقائص كثيرة . . وربما اختلف الناس فى مفهوم العدل ، بل فى مفهوم الفضيلة والرذيلة ، وبين الجبهتين اللتين تحكمان العالم تفاوت واسع فى وجهات النظر .

وذلك كله يؤكد ضرورة الرجوع إلى وحى الله والاستهداء به فى متاهات الظنون ، ومتشعبات الهوى ، إنه لابد من دين لدنيا الناس .

ونحن المسلمين نملك الوحى الخاتم ، ومن حقنا وحدنا أن نتكلم باسم موسى وعيسى ومحمد جميعا ، فإن كتابنا جمع لباب الدين ، وتضمن جملة الحقائق التى يفتقر إليها البشر ، ليوفوا بحق الله أولا ، ثم ليتعايشوا متعاونين متراحمين فى هذه الحياة .

بيد أن الناس لن يسمعوا حرفا منا ما بقينا على تخلفنا الشائن ، وما بقينا جهلة بقيمة التراث الذى لدينا ، وما بقينا ـ على غنانا ـ نتسول من الشرق أو الغرب برامج إصلاح وضرورات حياة .

فلنستعد ثقتنا بأنفسنا ولنوثق إيماننا ، ولنتمسك بالخصائص التى زكت وارتقت بها أمتنا ، وهى ما قررته الآية الكريمة : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾[1] .

إننا لسنا جبهة ثالثة فى العالم ، إننا الجبهة الأولى فيه ، فلمَّا أزرينا بأنفسنا أزرى بنا الآخرون ، وطريق العودة ممهد لا مسدود!

(١) آل عمران : ١١٠ .

٣٢. ما تأثير القرآن فى الفكر الإنسانى..؟

يحسب كثيرون أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل ، أو أنه بحسب الإنسان أن يكون صافى الروح نبيل الخلق صادق المشاعر ليتم دينه ويكتمل يقينه ، مهما كان عقله بعد ذلك . .

وذلك خطأ! فإن الإسلام يريد أولا عقلاً سليمًا وفكرًا مستقيمًا ، فما قيمة امرئ مشوش الذهن سقيم التفكير؟

إن صحة النظر إلى الأمور ودقة الحكم على الأشياء تجىء أولاً ، ثم تجىء الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك . .

وعندما بدأت الدعوة إلى الإسلام أهاب القرآن بالناس أن ينفضوا عنهم ما ورثوا من خرافة ، وأن يعيدوا اليقظة إلى عقولهم المغيبة ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾[1] .

كان المتعصبون للتقاليد القائمة يقولون : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾[2] وكان النبى المكافح لإزالة هذه الغيبوبة العقلية يرفض هذا التقليد الأعمى ﴿ **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ** . . ﴾[3] .

لابد من موازنة عادلة ، ونتيجة صحيحة تحترمونها وتصيرون إليها! والحق أنى لم أقرأ كتابا منسوبا إلى السماء احتفى بالنظر العقلى وخط على ضوئه معالم الإيمان مثلما فعل القرآن الكريم . .

إنه يخاطب الإنسان هكذا ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ**

(١) سبأ : ٤٦ .
(٢) الزخرف : ٢٢ .
(٣) الزخرف : ٢٤ .

الأَرْضُ مُخْضَرَّةً... ﴾[1]؟ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾[2]؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً... ﴾[3] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ.. ﴾[4].

لعمرى ما وجد العقل من بدء الخلق إلى يوم الناس هذا كتابا يعترف به ويجلو بريقه ويمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل! كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال وأحلام الوجدان وهيام الشعر وتهاويل الفن حتى جاء القرآن الكريم، فإذا الدين علم يعتمد على الحقيقة، وقضايا تعتمد على البرهان، سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة، أو كما يعبرون فى عصرنا بالمادة وما وراء المادة...

وانضم العلماء بالدين إلى الملائكة المقربين فى الشهادة بوحدانية الله وعدالته كما جاء فى الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[5].

وبديه أن العلم هنا ليس العلم النظرى الجاف، لا، إنه علم صادق، مطابق للواقع، يمهد لما نسميه العاطفة العاقلة! ثم نتشبث به ونتعصب له، فلا نرخص قيمته ولا نتنازل عنه، إنها خيانة أن نتخفف من الحق عند ثقل الأعباء، أو نستدير له إذا أرهقنا الأعداء..!

وفى القرآن الكريم نماذج كثيرة للتعريف بالحق ولفت البصائر إليه، ولنختر هذا النموذج!

يقول الله سبحانه وتعالى معرفا نفسه لعباده: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[6]؟؟

---

(١) الحج: ٦٣. (٢) الحج: ٦٥. (٣) الفرقان: ٤٥.
(٤) النور: ٤٣. (٥) آل عمران: ١٨. (٦) المؤمنون: ٧٨ - ٨٠.

هذه إنارة للعقل لا يجوز أن يضل بعدها الطريق ، ومنهج القرآن فى الحديث عن الله جدير بالاحترام كله ، إنه يضع أصابع الإنسان على ما حوله ثم يقول له : فكر! أتظن الشمس عقدت اتفاقا مع الأرض لتعاقب الليل والنهار؟ أتظن كلتيهما حددت المدار الذى يخصها ، ووضعت عقوبة لمن يتجاوزه؟ إن هذه الأجرام السابحة فى الفضاء لا تعقل شيئا ، وإنما تديرها حكمة . . (أفلا تعقلون)؟

وبعد استعراض للكون تناول عرشه وفرشه جاء هذا التقرير الحاكم ﴿ **بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[(١)] .

هذه عقيدة التوحيد ، وتلك أسانيدها العقلية ، تتابعت فى سياق صريح قاطع يثبت لله كل كمال وينزهه عن كل نقص ، ويسند إليه المدائح التى تنبغى له ، وتليق بمجده!!

حسنا ، فهل وقف الأمر عند هذا التقرير المدعوم ببراهينه؟ لا لقد جاء بعده تيار عاطفى يدفع إلى البراءة من كل شرك وجهل ، ويخوف من عواقب هذا الانحدار ، جاء هذا التيار فى صورة استعاذة من صاحب الرسالة أن يلحقه رشاش من الغضب الماحق الذى سينزل بالشاردين المعاندين ، وغضب الجبار محذور ، ومن شمائل العبودية أن نتوقاه ، وننأى عن أسبابه ﴿ **قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ** ﴾[(٢)] .

والغريب أنه بعد تمزيق الحجب دون الحقيقة وبعد مواجهة البشر بما يحملهم عليها حملاً ، يقول الله لنبيه ﷺ : تمهل ، وتذرع بالحلم ، وقابل بإحسان من يسف ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ** ﴾[(٣)] .

هذا نموذج من عشرات تنبنى عليها السور فى القرآن النازل بمكة والنازل بالمدينة على سواء ، والغريب أن النموذج هنا من سورة مكية ، والمستشرقون يرون أن القرآن

---

(١) المؤمنون : ٩٠ - ٩٢ .　(٢) المؤمنون : ٩٣ - ٩٥ .　(٣) المؤمنون : ٩٦ ، ٩٧ .

المكى يعتمد على العاطفة أكثر مما يعتمد على الفكر . . فهل لديهم ما يوصف بأنه فكر أو عاطفة؟ إن ما لديهم فراغ!!

ولا يوجد كتاب بنى الإيمان على البرهان ، إلا هذا القرآن ، إن التفكير فريضة إسلامية كما يقول الأستاذ العقاد!

ومجال التفكير هو فى العالم المادى ، هنا يستطيع الإنسان أن يلاحظ ويستنتج ويتابع التجارب ويكرر الفروض ويصل آخر الأمر إلى ما يفيده فى دينه ودنياه ، وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم عندما قال : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** (١٩٠) **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾[1] .

أولو الألباب هنا يتفكرون فى خلق العالم! ويستنتجون من قوانينه المطردة ، ونظامه المتناسق أنه مخلوق لرب حكيم ، فلا عبث ولا فوضى . .

وفى أول السورة نفسها ورد ذكر أولى الألباب على نحو آخر ، إنهم لا يحاولون اكتناه الذات العليا ، ولا يخوضون فيما يصعب دركه من شئونها ، إننى شخصيا «أشعر» بأن الله ملك مستو على عرشه ، لا يَنِدُّ شىء عن سلطانه ، ولا يبعد أمر عن حكمه! لكن كيف ذلك؟ لا أدرى!

أنا لا أدرى علاقة روحى بجسدى ، فكيف أدرى استواء الله على عرشه!! الأفضل أن أتجاوز ذلك إلى غيره على نحو ما قيل :

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع!!

﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾[2] على أن هذا التسليم ليس جواز مرور للخرافة أو قبولا للمتناقضات! وكما قيل : ما يعز على العقل فهمه شىء وما يحكم العقل باستحالته شىء آخر . .!

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) آل عمران : ٧ .

وقد حارب القرآن الأوهام، وكم يعيش الناس صرعى أوهام! وحارب الظنون، وكم من ظنون توارثها البشر، وجعلوا منها عقائد مقدسة، وما كانت يوم وجدت إلا شعائعات لا أساس لها... ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾[1].

ومن هنا نهى الله سبحانه وتعالى أن نتبع ما لا نعلم وأن نتأثر بما لا أصل له، لقد وهب لنا الفكر والحواس لنستخدمها في تبين الحق، وسوف يسألنا عن طريقة استخدامنا لتلك المواهب ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾[2] ومن معالم الجماعة المسلمة أنها تحترم المنطق، وتسلم باليقينيات وتخضع لسطوة العلم! وقد مضى هذا المنهج إلى غايته وهو يحارب الشرك ويؤسس التوحيد، فترى الحملة على المشركين معللة بأنهم يتبعون ما لا دليل عليه! قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾[3] بل إن ذلك يراعى عند قصص الأولين، وذكر أسباب الخروج على الضالين المستبدين، فقد جاء على ألسنة الفتية أهل الكهف ﴿ **هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ...** ﴾[4] أي بدليل واضح مقبول!

الحق أن أثر القرآن الكريم في الفكر الإنساني عميق، إنه هو الذي أقام الإيمان على المنطق ورفع راية العقل!

---

(١) يونس: ٣٦.
(٢) الإسراء: ٣٦.
(٣) المؤمنون: ١١٧.
(٤) الكهف: ١٥.

٣٣.كيف، ولماذا، وقع النسخ فى القرآن...؟

للنسخ معنيان : أحدهما سائغ لا ريبة فيه ، وهو تخصيص عام أو تقييد مطلق ، أو إظهار حكم ما بطريق التدرج .

والثانى محو حكم سابق بآخر لاحق ، وهو عند التحقيق العلمى لا وجود له فى القرآن الكريم . .!!

ونسوق الأمثلة الشارحة لما ذكرنا ، المرأة إذا فقدت زوجها وجبت عليها عدة وفاة مقدارها أربعة أشهر وعشرة أيام ، كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾[1] . . . لكن هذا الحكم العام عرض له استثناء ضيق دائرته ، فإن المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملا فعدتها وضع الحمل ، ولو بعد يوم من الوفاة! قال تعالى : ﴿ **وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾[2] .

كلتا الآيتين لها موضعها الذى تعمل فيه ، وحكمها باق إلى قيام الساعة . .!

وحرم الإسلام أكل «الدم» وجاء ذلك فى الآية : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ . . .** ﴾[3] إلخ . ثم جاءت آية أخرى تكشف أن الدم المحرم هو السائل من الذبيحة ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا** ﴾[4] إلخ فعلم من ذلك أن الشارع يبيح أكل الكبد والطحال وكان العرب يعدونها من الدم ، فتقيد الدم المحرم بصفته المذكورة!

أما التدرج فى الكشف عن حقيقة حكم ما ، فإنه يبدأ تلويحا يفهمه الأذكياء ، ثم

(١) البقرة : ٢٣٤ .
(٢) الطلاق : ٤ .
(٣) المائدة : ٣ .
(٤) الأنعام : ١٤٥ .

تزداد الإبانة بما يكاد يوحى بالحكم ، ثم يجىء الحكم حاسما بالمعنى المراد ، وقد تم تحريم الربا والخمر بهذا الأسلوب المتأنى ، وليس فى القرآن نص بإباحة الخمر أو الربا!

وعندما يقول سبحانه : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ... ﴾[1] فذلك تمهيد لقوله فيما بعد ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ !![2] .

وعندما يقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[3] فذلك تمهيد لقوله فيما بعد ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾[4] .

إن هذا التدرج كان الطريقة المثلى لفطام الناس عن رذائل ألفوها وأدمنوها وتعصبوا لها ، وقد حاولت الولايات المتحدة تحريم الخمر بقانون صارم مرة واحدة ففشلت فشلا محزنًا ، بصورة أشنع!! وتبين أن الشارع الإسلامى أذكى وأحكم . .!!

ومنفعة الميسر أن ريحه كان يزمى للفقراء ، ومنفعة الخمر ما يشعر به الشارب من نشوة وغيبوبة ينسى فيها أحزانه . . . إلى حين ، أو ما يحسه من دفء كاذب!

وكفة الإضرار أرجح ، والقانون الشرعى «للأكثر حكم الكل ، وما قارب الشىء يعطى حكمه . .»!

وبعض المفسرين رأى أن الآيات الأخيرة فى الخمر والربا ناسخة لما نزل قبلها من آيات ، متوهما أن بينها تعارضا ، وهذا خطأ فلا تعارض ولا نسخ . . .

بيد أن حمى النسخ أصابت قوما من الفقهاء والمفسرين فجعلتهم يقولون كلاما غريبًا ، أذكر أنى كنت أقرأ شرح الخازن لسورة الأنعام بدءا من قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[5] فإذا الرجل يقول : الآية منسوخة ، وبعدها قال تعالى : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[6] فإذا هو يقول : الآية منسوخة!

---

(1) الروم : ٣٩ . (2) البقرة : ٢٧٥ . (3) البقرة : ٢١٩ .
(4) المائدة : ٩٠ . (5) الأنعام : ١٠٤ . (6) الأنعام : ١٠٦ .

ولا أدرى بدقة كم آية نسخها فى صفحة واحدة!!

وقد وصل بعضهم بالآيات المنسوخة إلى بضع مئات ، وهذا كلام منكر ، وقد رفضه الراسخون فى العلم ، والشبهة التى قامت فى ذهن الخازن ـ غفر الله له ـ أنه ظن آيات الجهاد تعارض الآيات التى ذكرها ، وهو ظن مستبعد! . .

بل إن البعض يرى قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[1] ناسخا لقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[2] كأنَّ بين الآيتين تناقضًا ، ولا تناقض إلا فى دماغه هو!!

لقد رأيت القائلين بالنسخ يتورطون فى مهازل ، وعلة هذا أنهم بعيدون عن التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ، سواء كان هذا التفسير يتبع قضية واحدة فى طول القرآن وعرضه ، أو كان استكشافا للوحدة التى تشمل أجزاء السورة ، والتى تجعل آياتها معالم لصورة بينة التقاسيم ، متعانقة المعانى والأهداف . .

وعلى أية حال ، فما من آية فى كتاب الله قيل بنسخها إلا كان هناك قول آخر بإحكامها ، حتى ما كان ظاهره النسخ مثل قوله تعالى : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾[3] قال كثيرون : كان الحكم الشرعى أن يثبت الواحد لعشرة من الأعداء ثم خفف بالثبات أمام اثنين!

وقال المحققون : الحكم الثابت والعزيمة الماضية أن يقف الواحد أمام عشرة مادام قادرًا صابرًا آملاً فى النصر أو راغبا فى الشهادة ، على أن له رخصة أخرى إن عجز ، وهى أن يقف أمام اثنين ولا يؤذن له بترك العدو أبدًا دون ذلك . . . قالوا : والرخصة هنا كقصر الصلاة فى السفر ، فالقصر فى السفر لا ينسخ الإتمام فى الإقامة . . .

وما دام لم يرد قول بنسخ إلا ورد معه قول بإحكام ، فلنستبعد إبطال الآيات ولنقرر أنه لا نسخ فى القرآن الكريم أبدًا ، إلا ما كان بمعنى تخصيص العام أو التدرج فى التشريع .

قد يقال : أليس يقول الله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . . ﴾[4] .

---

(1) التغابن : ١٦ .
(2) آل عمران : ١٠٢ .
(3) الأنفال : ٦٦ .
(4) البقرة : ١٠٦ .

لقد ذكر صاحب المنار الوجه الحق فى تفسير هذه الآية ، ونقلت رأيه مع تعليقات لى فى كتابى «نظرات فى القرآن الكريم» ، وخلاصته أن الآيات نوعان تكليفية وتكوينية .

والمقصود بالآيات التكوينية خوارق العادات التى يجريها الله لتأييد أنبيائه ودعم رسالتهم ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا** ﴾[1] وقوله : ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** ﴾[2] .

أما الآيات التكليفية ، فهى كلمات الله المتضمنة هداه لعباده ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا** ﴾[3] وقوله ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾[4] .

والنسخ يقع فى الأولى ولا يقع فى الأخرى ، فإن المعجزة التى تصلح لأمة ، لاتصلح لأخرى ، ولاشك أن المعجزة الأخرى ، التى أيد الله بها خاتم أنبيائه تغاير الخوارق الحسية التى أيد بها الأنبياء السابقين .

وقد طلب كفار قريش وغيرهم خوارق حسية محددة ، وجاء بعد قوله تعالى : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها . . ﴾ إلخ . مقترح عجيب من هؤلاء الكفرة ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ** ﴾[5]!

بل إن آية ﴿ما ننسخ من آية . . . ﴾ اتصل بها قوله تعالى :﴿ **أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ** ﴾[6]؟ وهو تساؤل يجعلنا نقطع بأن النسخ ليس فى آيات تكليفية أو أحكام شرعية ، وإنما هو فى حقيقة المعجزة التى تصحب رسالات المرسلين وتشد أزرهم أمام أعدائهم ، وقد كان مشركو العرب ضائقين بالمعجزة الإنسانية التى ميز الله بها محمدًا ﷺ ، يريدون معجزة تسير الجبال لا معجزة تصنع الرجال!

---

(١) الأنعام : ١٠٩ . (٢) الإسراء : ٥٩ . (٣) الجاثية : ٧ ، ٨ .
(٤) يوسف : ١ . (٥) البقرة : ١١٨ . (٦) البقرة : ١٠٨ .

ومن الشائعات التى انطلقت فى ميدان النسخ أن هناك قرآنا أنزل ثم سحب! والمعروف فى ديننا أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر الذى يفيد اليقين ، وأن خبر الواحد لا يثبت قرآنا أبدا ، فالزعم بأن قرآنًا كان ، ثم رفع كلام لا يلتفت إليه . .

والقرآن الكريم قد ينسخ أحكاما جاءت فى السنة الشريفة وذلك مثل نسخ استقبال بيت المقدس فى الصلاة باستقبال المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** . . ﴾(1) .

واستقبال بيت المقدس لم يكن بنص قرآنى ، وإنما كان بإلهام إلهى عن طريق السنة التى يهدى إليها قلب الرسول الكريم ، ولم يكن ذلك اجتهادًا شخصيا ، قال تعالى :﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾(2) .

ومن قبيل نسخ السنة بالقرآن الكريم ، منع تسليم النساء المؤمنات إلى قريش ، وقد كان عهد الحديبية ينص على رد كل من آمن إلى مكة ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ** ﴾(3) .



(1) البقرة : ١٤٤ . (2) البقرة : ١٤٣ . (3) الممتحنة : ١٠ .

٣٤. هل الاستدلال القرآنى فى قضية الألوهية على الوجود أم على التوحيد ؟

إن الطفل الذى يودع فى أحد الملاجئ قد يفكر فى أبيه عندما يكبر ، وقد يبحث عنه ، ولكن لا يجرى فى خاطره أبدا أنه جاء الدنيا من عدم ، أو ظهر على الأرض من غير أب !!

والبشرية فى أغلب العصور بحثت عن ربها وفكرت فيه وربما أخطأت الطريق إليه ، فقد تعبد اسما لا حقيقة له ، وقد تعبد حجرًا موهوم الضر والنفع ، وقد تعبد عجلا أو تقدس بقرة أو تؤله نهرا ، وقد يجىء من يرفض هذه الآلهة المزعومة كلها وينكر أن يكون للوجود سيد!!

إن قضية الألوهية فى التاريخ الإنسانى يكتنفها قدر من الغموض ، وجمهرة الأمم رنت إلى إله كبير ، ثم رمزت إليه أو تعرفت عليه عن طريق التماثيل ، أو الكائنات التى تنتمى إليه على نحو ما ، ويخيل إلى أن رفض عقيدة الألوهية من الأساس لم ينجم إلا بعد شيوع التدين الخرافى ، ورفض العقل السجود لحجر أو حيوان أو إنسان . .

وكان هذا الرفض المطلق يقع على ندرة ثم شاع فى عصرنا الحديث ، مع التقدم العلمى وانتشار تدين مغشوش ، وخيانة المسلمين لرسالتهم فما بلغوها ولا أنصفوها .

وحديث القرآن الكريم عن الألوهية يتسم بالوضوح الشديد ، فهو ينفى الشركاء بحدة وحسم ، وينفى أن يكون هناك أحد فوق مستوى العبودية لأن له بالله صلة خاصة ، لا ، هو إله واحد ، وكل ما عداه عبد له ﴿ **إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** ﴾[1] .

---

(١) مريم : ٩٣ - ٩٥ .

وخلال الحديث عن الوحدة ، وكشف الحجب عن أمجاد الإله الحق ، وأسمائه الحسنى ، وأوصافه العلى ، تتشعب الدلائل لتسحق كل تفكير قد يعرض عن استغناء العالم عن ربه ، وقيامه بنفسه .

أى إن شرح حقيقة التوحيد فى الأسلوب القرآنى يمحو آثار الإلحاد ، وينفى شبهات الملحدين ، وبذلك تتعانق أدلة الوجود الأعلى وأدلة التوحيد المطلق فى نسق فذ!

وهاك أمثلة من الكتاب العزيز ، يقول الله سبحانه عن المشركين : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴾[1] ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾[2]؟ إن وصف الله سبحانه الخالق يعنى أنه أوجد العالم من عدم ، فهو بارئه ومبدعه ومصوره ومبدئه ومعيده . . . إلخ ، ومعنى أن العالم مخلوق أنه برز من العدم إلى الوجود بقدرة قادر وحكمة حكيم وعلم عالم . . . إلخ ، إن الصفر لا يصنع شيئًا ، والعدم لا ينشئ وجودًا ، ومن ظن أن العالم كان معدومًا ثم عراه الوجود من غير شىء فهو أحمق .

والخلق من لا شىء ليس عملاً تافها يقدر عليه أى تافه ، ومن يتصور ذلك فهو مغفل! إن الخلق عمل هائل وإذا كان صنع مطبعة أو سيارة أو راديو يحتاج إلى متخصصين مهرة ـ وهذا عمل دون الخلق بمراحل ـ فكيف بالخلق نفسه؟ إننى لا أجنح إلى خيال بعيد ، ولكننى أسأل : إن العلماء مشدوهون أمام سعة الكون التى لم تعرف لها إلى اليوم نهايات ، أفلا يكون رب الكون أكبر من الكون نفسه؟ بلى ، والله أكبر!

الأمر هنا ليس نفيا للشركاء! فإن الشركاء تساقطوا من أول الطريق! والوثنيون لم يزعموا لأحجارهم شيئًا ، والمصابون بجنون العظمة كفرعون وأضرابه لم يزعموا أنهم خلقوا شيئًا ، ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾[3] .

ولا يسوغ لأحد أن ينتظر من القرآن الكريم أن يجعل من الوجود الأعلى قضية هى موضع الأخذ والرد والقبول والإنكار! الله أعلى وأجل! أقصى ما ينتظر أن يتناول أوهام الجهال بما يدمغها ، وأن يدوس التعطيل وهو يمحو الشرك!

---

(١) الزخرف : ٩ . (٢) الزخرف : ٨٧ . (٣) الزمر : ٦٢ .

وتدبر الآيات ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[(١)] ؟ ظاهر من السياق أنه لنفى الشركاء ، وأظهر منه أنه لنفى الإلحاد والتعطيل ، ذلك أن صور الموت والحياة تترادف تحت حواسنا ، ومن حقنا أن نسأل : مصانع من التى اختفت تحت التراب تبرز الحبوب والفواكه؟ ومع من اتفقت لتحول المياه الكدرة وفضلات المجارى إلى ورد وأزهار وطعوم جيدة وألوان بهيجة؟؟ مَن ربّ هذه وتلك؟ إنه الله!

وفى كل لحظة من ليل أو نهار تخرج من بطون الأمهات أطفال سوية المشاعر ، نابضة بالحياة ، صالحة للنماء ، مستعدة للاكتمال العقلى والعاطفى ، متهيئة لشتى التكاليف ، من جعلها كذلك هل الأب هو الذى اختار خصائص الوراثة فى الحيوان المنوى الذى أنزله؟ إنه لا يدرى كيف تكوّن ولا متى ولا من أين جاء؟ هل الأم اختارت بويضتها ، وساعة نزولها إنها ليست أقل جهلا من رجلها!! من المسئول عن هذا الإيجاد الذى لا يمكن إنكاره؟ إن رد الإيجاد إلى «الصفر» أو إلى «س» أو إلى «مبهم» سخف لا يطيقه إلا فكر ساقط سخيف! المسئول عن هذا القائل :﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[(٢)] .

وكل أنثى هنا تعميم يستوعب الإناث فى عالم الأحياء من طير ودابة وحشرة وزاحفة ، فى البر أو البحر ، بل من الإنس والجن! ولذلك جاء عقب هذه الكلية المحيطة المستوعبة قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾[(٣)] .

إن الفرار من الحقائق ليس ذكاء ولا شرفا ، وإذا كان بعض الملحدين يحسب نفسه مفكرًا ، فليعلم واقعه المر! إنه امرؤ معتل الفكر ، مصاب بداء عقلى منفر لا يقل عن الجذام! بل ربما كان المجذوم أشرف خلقا وأصح فكرًا . .

قلنا : إن منهج القرآن هو الجمع فى سياق واحد بين دلائل الوجود الأعلى وأدلة الوحدانية المطلقة ، ليس القرآن كتابًا فنيّاً يفرد فصلاً لهذه القضية ، وفصلا لتلك

---

(١) يونس : ٣١ ، ٣٢ . (٢) الرعد : ٨ . (٣) الرعد : ٩ .

القضية ، إنه يبنى العلائق بالله على نحو يربط الناس بخالقهم ، ملك الأسماع والأبصار والأفئدة مدبر الأمور كلها ، الذى لا راد لحكمه ، ولا مهرب من قضائه ، ولا منتهى لعلمه ، ولا مجير عليه .

ومن رحمة الله بخلقه أنه يفتح عيونهم على آياته ليعرفوه من خلال نظرهم فى هذا العالم الذى يعيشون فيه . .

يقول تعالى : ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾[1] .

الجملة الأولى فيها تأسيس لعقيدة التوحيد ، والجملة الثانية فيها نفى لحكاية الشركاء ، والآية كلها تمهيد للحديث عن مجالى الوجود الإلهى فى آفاق العالم ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾[2] .

فى هذه الآية تنبيه للعقلاء إلى أن كل شىء فى الكون يشير إلى سيده ، ويدل على الخالق الكبير ، وقد جاء الكلام على أسلوب السرد المجمل ، لكننا نرى التفصيل فى مواضع أخرى ، تدبر قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ** ﴾[3] بعد هذا التفصيل لنزول الغيث إلى مترقبيه بلهفة بالغة تسمع رب العالمين يقول للإنسان : ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . .** ﴾[4]؟ كأنه يقود المرء إلى النتيجة البديهية بعد تجربة معملية تمت بين سمعه وبصره! هذه آثار الرحمة ، وهذه آثار القدرة ، وهذه مظاهر العلم . وهذه . . . إلخ ، كل شىء يشهد لله ويوجه إليه .!!

---

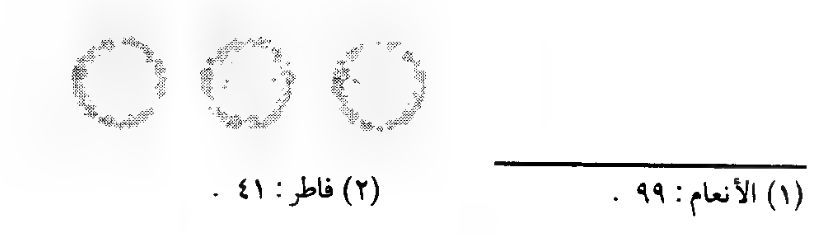
(١) البقرة : ١٦٣ . (٢) البقرة : ١٦٤ .
(٣) الروم : ٤٨ ، ٤٩ . (٤) الروم : ٥٠ .

وكما قال للإنسان انظر . . قال للناس : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

ومما يعين على فهم الأسلوب القرآنى أن نتذكر حقيقة فلسفية معروفة هى أن العالم ليس له من ذاته وجود! إن وجوده طارئ عليه من الخارج! أترى المصباح الكهربائى عندما تغمز «الزر» فيضىء؟ إنه لا يضىء أبدا من ذاته ، لابد من تيار خارجى يسرى فيه ليتوهج! إنه معد فقط للاستقبال ، وإشعاع ما يجيئه من جهة أخرى ، كذلك الكون ، إن وجوده ، ذاتا وصفات مفاض عليه من أعلى ، وإذا انقطع التيار الذى يمده تلاشى ، واستخفى فلا أثر له ، وهذا معنى قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[2] .

وعندما يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى آيات الله فى الأرض والسماء وما بينهما ، فهو يعطينا فكرة عن الإيجاد والإمداد معًا ، ولا بأس أن يضم إلى ذلك إشعارًا بأنه الله الواحد ، وأن ما عداه من آلهة مزعومة إفك مبين ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . ﴾[3] .

هكذا اشتمل القرآن على دلائل الوجود الأعلى فى ثنايا توحيد الله وتمجيده ، فالله أعظم وأعز من أن يكون إثبات وجوده أمرًا يفرد له عنوان ، وكأنه موضوع يفتقر إلى البرهان .



(١) الأنعام : ٩٩ . (٢) فاطر : ٤١ . (٣) غافر : ٦٤ ، ٦٥ .

٣٥. ما أهمية القصص فى القرآن، وهل لها أصل تاريخى، وما الحكمة فى تكرارها؟؟

لابد من دراسة الماضى والتفرس فى أحداثه ، فإن هذه الأحداث ليست ملكا لأصحابها ، وإنما هى ملك الإنسانية جميعًا ، يدرسها الخلف ليستفيدوا منها العبر ، ويستخلصوا منها النتائج ، ويضعوها نصب أعينهم وهم يخططون للحاضر والمستقبل على سواء . . .

وظاهر أن سير الأفراد والأمم يخضع لسنن دقيقة ، وأن ازدهار الحضارات وانطفاءها ، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم خبط عشواء! وإنما يقع وفق قوانين صارمة! بل إن القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطرادًا ، ومن ثم كان تجاهل هذه القوانين وخيم الآثار .

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم ، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغنى عنها ذو لب ، قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** ﴾[1] وقد لام سبحانه الغافلين عن هذا التاريخ وما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المفسدين ﴿ **أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ** ﴾[2]! وقال : ﴿ **تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ** ﴾[3] .

وتتشابه القوانين الاجتماعية والقوانين الكونية فى عمومها وانطباقها على شتى الأمكنة والأزمنة ، فقانون الأجسام الطافية مثلاً يشمل جميع الأنهار والبحار ، وانهيار الأمم لشيوع الفوضى والفساد يتناول شتى الأجناس والعصور ، وقد هدد الله العرب

(١) طه : ٩٩ . (٢) طه : ١٢٨ . (٣) الأعراف : ١٠١ .

بالمصير الكالح إذا بقوا على عنادهم ومكرهم ﴿ ...ولا يَحيقُ الْمَكْرُ السَّيّئُ إلاَّ بأهْله فهَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[1] .

وسنن الله الكونية لا تحابى أحدًا ، وكذلك سننه التاريخية والحضارية ، وهى منطبقة على المؤمنين والكافرين دون استثناء ، وقد وقعت محنة أُحُد لأن المسلمين لم يلتزموا النصر ، بيد أن الهزيمة الطارئة لن تغير مستقبل الضلال ، وإن واتته مؤقتًا ظروف مساعدة . قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[2] .

وقد تضمن القرآن الكريم عدة قوانين اجتماعية وعمرانية حاسمة ساقها فى تضاعيف القصص التى ذكرها أو فى خواتيمها مثل قوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3] وقوله :﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4] وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[5] . . . إلخ .

إن القصص القرآنى سرد واع موجه للتاريخ الإنسانى ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق! بل الغرض منه التربية والتوعية ، وتجديد المعانى بعد انتهاء أهلها لتكون عظة دائمة !!

وقد شاع أدب القصة فى عصرنا شيوعًا يستحق الدهشة ، وامتلأت الأيدى بروايات يقرؤها حاملوها ليقطعوا الوقت أو يلتذوا بحسن العرض! وجملة هذه الروايات من نسج الخيال ، وقد تكون ذات مغزى جيد ، وقد تكون إثارة وضيعة .

والبون شاسع بين هذه الأقاصيص ، وبين التاريخ الذى يجسده القرآن الكريم ويغزو به الألباب والبصائر ليمحو الغفلة ويرفع المستوى ويضىء السبل ، البون بعيد بعيد .

---

(١) فاطر : ٤٣ . (٢) آل عمران : ١٣٧ ـ ١٤٠ . (٣) القصص : ٨٣ .
(٤) يوسف : ٩٠ . (٥) الرعد : ١٧ .

عندما يقول الله لنبيه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] فهو يقول ذلك فى أعقاب سرد لواقع لا ريب فيه ، فقد ذكر فى هذه السورة قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى مع أممهم التى ظهرت فى عصور متعاقبة ، وانتظمتها أدواء التكذيب والمكابرة حتى أهلكتهم أمة بعد أخرى .

وهو يحكى ذلك إرهابًا للعرب المستكبرين وتسلية للنبى وتسرية له! ، وفى موضع آخر يقول له : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾[2] فأين موضع الخيال فى هذه الوقائع؟؟

وبعد أن قص الله سبحانه قصة يوسف ، وشرح أطوار حياته منذ اختطف إلى أن صار ملك مصر ، قال عنه وعن غيره من المرسلين : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾[3] فأين موضع الخيال هنا؟

إن اتهام القرآن بأنه يعرض خيالات فنية أو يمزج فى سياقه بين الواقع والخيال اتهام لا مساغ له ، وهو فى نظرنا بلاهة نشأت عن أتباع المستشرقين!

والمستشرقون يحسون ما فى كتبهم من غثاثة وعوج وبعد عن الحق ، ويريدون الإيهام بأن القرآن لا يزيد على غيره! وهذا كذب لا يروج عند عاقل . .!!

ومعلوم أن القصة واحدة قد تتكرر فى عدة سور ، غير أن هذا التكرار صورى ، فإن كل قصة تختلف عن الأخرى ، إما فى العناصر الجوهرية التى تتألف منها ، أو فى طريقة العرض الذى يناسب مقتضيات الأحوال . .!

فقصة موسى وبنى إسرائيل فى سورة «غافر» انفردت بالحوار الطويل للرجل المؤمن الذى يكتم إيمانه ، بل هو العنصر البارز فيها .

والقصة نفسها فى سورة «القصص» انفردت بتفصيل السبب فى خروج موسى إلى أرض مدين وزواجه هناك . .!

والقصة فى سورة الكهف انفردت بلقاء موسى مع الخضر هذا اللقاء المثير المستغرب! . .

---

(1) هود : ١٢٠ . (2) الأنعام : ٣٤ . (3) يوسف : ١١١ .

والقصة فى سورة طه انفردت بالحديث عن العصا التى كان موسى يهش بها على غنمه ثم تحولت إلى قوة هائلة فى يده كما انفردت بأدعية موسى وإجابة الله له . . . إلخ .

وقد استطال الحديث فى سورتى البقرة والأعراف عن قصة بنى إسرائيل ، ومع ذلك فإن المنهج غير المنهج ، والنتائج غير النتائج ، وما اتفقت فيه السورتان جاءت صياغته على نحو يلائم البيئة المتغايرة ، فالسورة الأولى مدنية والأخرى مكية . . .

وشرح النواحى الفنية والموضوعية فى هذه القصة وحدها يحتاج إلى كتاب عن «اليهود فى القرآن الكريم» مع ملاحظة أن القرآن ليس كتابا فنيا فى الجغرافيا أو التاريخ ، إنه يهتم بالجانب الإنسانى والاجتماعى وحسب!

والحوار المبثوث فى أرجاء كل قصة يساق بحكمة إلى غاية محددة! خذ مثلا قصة شعيب مع مدين فى سورة الأعراف ، لقد جاء فيها هذا الخطاب يناشد فيه شعيب قومه ألا يستبد بهم اللدد فى الخصومة ، وألا يحملهم النزق على ارتكاب ما لا يليق **﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾**[1] أى دعوا الأمر للزمن ، ولا تتعجلوا العواقب!

فماذا كان الجواب؟ **﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾**[2]!!

وظاهر أن هذا السياق من قبيل إياك أعنى واسمعى يا جارة ، وكأن النبى يقول للعرب المناوئين له : احذروا مثل هذا المسلك فى مصادرة الإيمان ومخاصمة أهله ، فعقباه صيحة من السماء تذركم فى دياركم هلكى كما حدث لقوم شعيب!! **﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾**[3] .

ويلفت نظرنا فى تكرار أى قصة أن القرآن الكريم يقلب النفس الإنسانية على شتى جوانبها ، ويعالجها طورًا بالهدوء وطورًا بالصرامة ، طورًا بالشد وطورًا بالرخاء ، والغرض أن تترك باطلها وتقبل على هدايات الله . .

(١) الأعراف : ٨٧ . (٢) الأعراف : ٨٨ . (٣) الأعراف : ٩١ ، ٩٢ .

انظر مثلاً إلى قصة هود مع عاد ، إنك ترى هودًا فى سورة الأعراف بدأ هادئًا طويل الأناة مع ناس أشبه بالثيران الهائجة ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[1]!!

فإذا تأملت فى القصة نفسها عندما تعرضها سورة هود وجدت النبى الحليم يبدأ منددًا بوثنية قومه وحاسما فى كشف كذبهم على الله ومنذرًا بسوء المال إن هم بقوا على جبروتهم ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾[2]!!

وتفسير هذا أن لقاء أى نبى مع قومه لا يقع مرة واحدة ، إنه لقاء يبقى عشرات السنين ، وما يدور بينهم وبينه من حديث لا يأخذ صورة واحدة ، بل يأخذ صورًا كثيرة!

وحتى لو وقع لقاء واحد ـ كما حدث لموسى مع السحرة ـ فإن كل ما دار من حوار لا يثبت فى عرض واحد ، بل توزع أجزاء الحوار على ما تقتضيه المناسبات المتفاوتة . . .

ومن ثم كان القصص القرآنى مجالا رحبا لمعالجة النفوس والجماعات من عللها المنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع ، فسبك القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بدء الوحى حتى قيام الساعة!

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة ، ليس المهم تحديد موقع ، أو حتى تحديد الشخص! فما يعنينا أن نعرف «هوية» ذى القرنين ، أو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى!! المهم تقديم الشفاء النفسانى والاجتماعى من خلال تاريخ صادق وقصص حق .

---

(١) الأعراف : ٦٥ ، ٦٦ .　　(٢) هود : ٥٠ ـ ٥٢ .

٣٦. ما تفسير الآيات التى قد تصف الله سبحانه وتعالى وصفا ماديا؟ مثل ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾

جلست يومًا أفكر : ما أنا بين الناس؟ قلت : واحد من ألوف مؤلفة تسكن هذه الأرض! سألت مرة ثانية : ما أنا بين من سكنوها منذ الأزل ومن يسكنونها آخر الدهر؟

فشعرت بأنى أتضاءل ، وأن وجودى يصغر!

سألت مرة ثالثة ما أنا بين شتى العوالم؟ إن أرضنا التى نحس ضخامتها ذرة محقورة بين أسراب لا تحصى من الكواكب الثابتة والدوارة ، وما يقدر العلماء أبدًا على معرفة حدود هذا الكون ، ولا أن يعرفوا ما يزخر به من أحياء . . !

وشعرت بأنى ازداد تضاؤلا . .! وقلت : يجب أن أعرف قدرى ، وألا أعدو حدى ، إن الغرور جريمة علمية قبل أن يكون جريمة خلقية . . .

وراقبت بعض الحشرات السارحة فى عالمها الخاص بها وقلت : أتدرى عن عالم الإنسان شيئًا؟ أتعرف ما يجول فى فكره؟ أتعرف ما يبحث من قضايا وما يقرأ من كتب؟؟ كلا كلا أَنَّى لها هذا؟؟

قلت : إن علمى بحقائق الألوهية كعلم هذه الحشرات بحقيقتى! ينبغى أن أعرف قدرى وألا أعدو حدى! إننى نقطة مغموصة فى مساحات رهيبة من الزمان والمكان ، كيف تحاول قطرة فى ترعة أن تستوعب البحار والمحيطات وتشرف على اللجج والأنواء؟؟

ورحت مع أبى القاسم القشيرى أناجى ربى بهذه الأبيات :

يا من تقاصر شكرى عن أياديه ... وكَلّ كل لسان عن معاليه

وجوده لم يزل فردًا.. بلا شبه ... علا عن الوقت ماضيه وآتيه

لا دهر يخلقه، لا قهر يلحقه ... لا كشف يظهره، لا سر يخفيه

لا عد يجمعه، لا ضد يمنعه ... لا حد يقطعه.. لا قطر يحويه

لا كون يحصره، لا عون ينصره ... وليس فى الوهم معلوم يضاهيه

جلاله أزلى لا زوال له ... وملكه دائم لا شىء يفنيه!!!

إن القرآن الكريم حسم طيش الخيال عندما قال فى التنزيه والتجريد ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1] ونحن من بعيد قد نشيم لمعان البرق ، وقد يمر بعقلنا طيف عن أمجاد الألوهية ، لا ندرى مأتاه ، ومع ذلك فإن هذه الخطرات العابرة لاتغنى شيئًا ، بل هى كما قال أبو الفتح البستى :

كل من يرتقى بوهم من جلال وقدرة وسناء

فالذى أبدع البرية أعلى منه، سبحانه مبدع الأشياء

إننى أعد الباحثين فى ذات الله مرضى! فنحن ـ على تفاهتنا ـ لا نعرف من نحن؟ فكيف نعرف الذات العليا؟

والأفهام البشرية فى ذات الله تفاوتت تفاوتا بعيدًا بين التجسيد والتجريد ، فكتاب العهد القديم صوروا الله يبكى ويندم ويمشى ويقعد ويأكل ويشرب ويضرب إلى جانب ما له من صفات رفيعة .

من أغرب الصور أنه جلس مستلقيا على قفاه متمددًا على الأرض واضعا قدمًا فوق أخرى! .

وفلاسفة اليونان المؤلهون ـ فى مقدمتهم أرسطو ـ صوروا الله منزها عن كل شيء ، حتى عن الصفات التى يعلم بها ويقدر بها ، فهو عالم بذاته قادر بذاته وبالغوا فى التجريد حتى كأن الله معنى لا ذات!!

فإذا تجاوزنا الأفهام البشرية إلى الوحى الأعلى ، واستمعنا إلى القرآن الكريم وجدنا أوصافا تقرب معنى الألوهية إلى الحس الإنسانى من غير تجسيد ، وتبلغ بها كمالا لا يتناهى من غير تجريد . .

المسلم يقرأ قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾[2] فيشعر بأن الله قريب منه ، مطلع على دخيلته ، ومع ذلك فهو يعلم أن الله مستو على عرشه محيط من وراء خلقه .

إنه يحس بالله دون أن يجسده ، وينزه الله دون أن يفقده . .

والإيمان الحقيقى أن تشعر بأن أصابع القدرة هى التى تحرك قلبك فيدق ، ومعدتك فتهضم!

ماذا قلت ؟ أصابع القدرة ! هل للقدرة أصابع ؟

---

(١) الشورى : ١١ . (٢) ق : ١٦ .

وهنا ندخل فى مبحث قديم ، قتله المتقدمون تقعرًا وجدلا . . وانقسموا فيه فرقا . . أما أنا فأمر به مر الكرام! وقد قلت فى كتابى «مشكلات . . .» أنا مع السلف من غير تجسيم ومع الخلف من غير تعطيل .

لقد كان طبيعيا أن تجىء فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة جمل يتهيب العقل الغوص فى معناها مثل : ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾[1] ، ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾[2] ، ﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾[3] .

وقد نبه القرآن ـ منذ أنزل ـ إلى أن هناك آيات ينبغى التسليم بها ؛ لأن حقيقتها فوق الفكر العادى ، ومن الزيغ إكثار اللجاجة حولها . . لكن العناد والفراغ خلقا طوائف لا شغل لها إلا هذا اللغو ، فكانت بلاء على الأمة ولا تزال!

إن اللغات على كثرتها من وضع البشر ، وقد ألفوها ليعبروا بها عما يريدون من معان ، وما يستخدمون من أدوات ، وشئون الألوهية فوق اللغات وفوق واضعيها ، فإذا أفهمنا الله بلغاتنا شيئا يتصل بذاته العليا فعلى أسلوب التنزيل والتقريب .

وإذا كان عبد الله بن عباس يقول : إنه ليس فى الدنيا من أوصاف الجنة إلا الأسماء ، يعنى أن الحقائق لم ترها عين ولم تسمعها أذن ، فكيف بالحديث عن رب العالم وخالق الجنة والنار؟

إن الرغبة فى فهم حقيقة العرش وحملته! أو كيف يجىء الله فى ظلل من الغمام ، وكيف يجىء والملائكة صفا صفا ، هذا كله نهم مردود ، ومجازفة الذاهب فيها مفقود ، ومن الخير أن يعرف العقل أين ينتج فيتحرك ، وإلا سكن!!

وقد كنا ونحن طلاب ندرس مذهبى السلف والخلف بهدوء ، وبغتة لاحظت فى أيامنا تحاقدًا بين ناس يتبعون السلف ، وناس يتبعون الخلف ، والأمة الإسلامية تكاد تسقط من الإعياء ومن ضربات الأعداء ، فعجبت لانفجار الخصومة فى هذا الوقت العصيب!

وقد رأيت أن أثبت كلاما للدكتور الشيخ محمد عبدالله دراز فى الموضوع لعله يخفف من هذا البلاء قال : «إن كلمة «اليد» فى قوله تعالى :﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾[4] أو كلمة «اليمين» فى قوله : ﴿ **وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾[5] فسرها

---

(١) البقرة :١١٥ . (٢) ص : ٧٥ . (٣) الطور : ٤٨ .
(٤) الفتح : ١٠ . (٥) الزمر : ٦٧ .

العلماء المتأخرون بأنها تعنى القدرة ، وهو استعمال مجازى مشهور يقال لا يد لى بكذا ، أى لا قدرة لى عليه ، أما السلف الصالح فقد اشتهر عنهم لا يؤولون هذه الظواهر بل يأخذونها على الحقيقة . والواقع أنهم لايمنعون أصل التأويل ، ولكنهم يسلكون فى تأويلها مسلكا علمياً متينًا يدل على علو كعبهم فى الفهم ، وأنا أحب أن أفسره لكم لأنه ينفعكم فى مواضع كثيرة» .

قال : «إنّه لما دلت الأدلة القاطعة على مخالفته تعالى للحوادث ، كان هذا قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى المعروف لنا ، فإذن هى مصروفة عن هذا الظاهر ، وكأنه يراد بها معنى مجازى ، لكننا لم تقم لنا قرينة معينة على تحديد هذا المعنى فى أغلب الآيات ، هل المراد به القدرة ، أم الإرادة ، أم صفة لا نعرفها؟ أم ليس هناك مجاز فى المفرد يشار به إلى صفة معينة وإنما هو كلام تمثيلى لتربية المهابة فى النفوس؟ كل ذلك سائغ فى النظر ، وليس ثم دليل يعين واحدا بخصوصه! لذلك وجب أن نقف حيث وقف بنا الدليل ، فلنثبت له تعالى ما أراده من كلامه على الوجه الذى أراده مع تنزيهه عن المعنى الذى نألفه من صفات المخلوقين!» .

قال : «ترون من هذا أن السلف يجوزون المعنى الذى ذهب إليه المتأخرون على أنه احتمال يحتمله الكلام ، ولكنهم لا يلتزمونه التزاما ؛ لأن القول بالالتزام قول بغير دليل ، من أجل ذلك سكتوا عن الخوض فى تحديد معانى هذه الظواهر ، واكتفوا بمعناها الإجمالى المصروف عن الظاهر . . . أما طريق الخلف ـ وهو الخوض فى تحديد التأويلات ـ فإنما ألجأهم إليه ـ والله أعلم ـ ظهور بدع المشبهة والمجسمة وغيرهم ، فأرادوا سد باب الإبهام ، ودفع الوساوس عن العوام ، لكيلا يخرجوا عن دائرة التنزيه ، ولا يحوموا حول التشبيه جزاهم الله خيرًا بما قصدوا ، وغفر لهم تحديد ما حددوا» .

قال : «وجملة القول أن طريق السلف هو الأليق بالعلماء ، وطريق الخلف أصلح للعوام وأنصاف العوام!!» .

وأرى أن كلام الشيخ الجليل فيه خير كثير ، إننى فى دروسى وعظاتى أتبع مذهب السلف ، وعندما أجادل أهل الكتاب والماديين أنتفع بمباحث الخلف!

وفى كل الأحوال أرفض تجريد الفلاسفة ، وتجسيم اليهود والنصارى ، ومن تأثر بهؤلاء وأولئك من ضعاف التفكير . .

٣٧. كيف تفسر ما ذكره القرآن من أن السموات سبع والأرضين سبع مع حقائق العلم التى ترى أن الأرض واحدة والسماء فضاء؟

ذكرت فى أكثر من كتاب أنه يستحيل أن يقع تناقض بين الدين والعلم ، فإن العلم الصحيح وصف دقيق لجزء من ملكوت الله ، والدين الحق توجيه آت من عند الله خالق هذا الملكوت ، فكيف يحدث بينهما تكاذب؟

ما أثار التساؤل يرجع إلى أن الناس سمت شيئًا ما دينًا وليس بدين ، أو سمت شيئًا ما علمًا وليس بعلم ! وقد يكون مثار التساؤل خطأ شخصيا من أحدً المتكلمين فى الدين أو أحد المتكلمِّين فى العلم ، وما أكثر أخطاء الفريقين!

قال لى أحد الناس : ثبت أنه لا حياة إلا فى أرضنا ، وأن الكواكب الأخرى ميتة لا حياة فيها! قلت : هذا التعميم خطأ ، يمكن أن يقال : لا حياة بشرية ، أو لا حياة نباتية ، أو لا حياة لكائنات تعتمد على النفس وتعجز عن الوجود فى درجات حرارة معينة !!

ومن قال : إن المخلوقات كلها على غرارنا؟ ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾[1] إنها جراءة أن يتحدث بعض الناس باسم العلم فينطق بالجهل ، ويبدو أن الأمر كما يقول العقاد : هناك مقلدون فى كراهية التقليد!

قال : تعنى أن هناك حياة فى الكواكب والنجوم؟ قلت : لا أمنع أن هناك حيوات أخرى ، وأستبعد أن تكون الأفلاك حجارة صمَّاء موحشة تسبح فى الفضاء ، ليس على أديمها إلا الخراب!!

إن علماء الفلك متفقون ـ تقريبًا ـ على أن أرضنا تشبه حبة رمل فى صحراء مترامية الأطراف! فهل هذه الحبة وحدها التى سعدت بالعقل ـ أو شقيت ـ وأما بقية الحبات فلا حراك ولا فكر ولا قيمة . . هذا بعيد!!

الذى أشعر به من كتابى أن هذه الأفلاك مشحونة بكائنات راشدة ، تسبح بحمد الله ، وترثى لسكان الأرض ، وتأسى لمآسيهم ومعاصيهم ، وتسأل الله لهم المغفرة ،

(١) الكهف : ٥١ .

قال تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾[1] قال تعنى أن السموات السبع هذه الأفلاك؟ قلت لا أجزم بشىء فى هذا ، ولا العلم يجزم هو الآخر بشىء عن حقيقة الفضاء ، وطبقاته الذاهبة مع الغيوب ، إن موضوع العلم هو المادة ، وما تولد منها ، فإذا اتصل الأمر بشىء وراء المادة توقف بحثه ، وبالتالى لا يذكر العلم شيئًا يوصف بأنه يناقض الدين . .

الذى أراه ، أو أحس به أننا نتحرك فى إطار معين ، إذا تجاوزناه إلى أعلى أو إلى أدنى لم نصل إلى نهاية ، فى عالم العدد نحن نتحرك داخل مجموعة من الأرقام ، فهل هناك نهاية للعد التصاعدى ، وهل هناك نهاية للعد التنازلى؟؟ لا حدود هنا أو هنا ، لا نهاية لمضاعفات الأرقام من فوق ، ولا لأجزائها من تحت!! وقد عشنا داخل ما أتيح لنا ، وتركنا الفكر فيما وراء ذلك!

إن اللانهاية يعرفها من لا أول له ولا آخر ، يعرفها الله وحده ، ونحن نلقى إليه السلم فيما نعجز عنه ونستريح!!

لا ريب أن العلم المادى تقدم فى عصرنا تقدما عظيما ، ووصل إلى كشوف باهرة ، وأريد أن أقرر أننى استفدت من هذا العلم فى دعم إيمانى ، وأنه زادنى إجلالا لربى!

إن ظلال الأشياء تمتد وتنكمش فى أثناء النهار تبعا لدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ، هكذا قرر العلماء ، معنى هذا أن ظلى أنا ، وظل دارى ، وظل عمود الهاتف أمامها ، هذه الظلال تتبع حركة طولها فى الفضاء مائة وخمسون مليون كيلومتر هى مسافة ما بين الأرض والشمس!

قلت : ما أعظم الترابط على بعد الشقة - بين الأرض وأمها ، وما أدل طول الظلال وقصرها على عظمة مثبتها وماحيها ! وتلوت الآية الكريمة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾[2] ثم تلوت ما بعدها ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[3]!!

إن الأسرة الشمسية التى تضم أرضنا تحتوى على نوع من الحياة فيه صلاحية معرفة الله ، والاستقامة على هداه ، ونحن البشر نقدر على ملاحظة آثار القدرة العليا فوق أرضنا المحدودة ، إن ظلال الأشجار المهتزة مع الريح ، تقصر حينا وتطول

(1) الشورى : ٥ .　　(٢ ، ٣) النحل : ٤٨ - ٥٠ .

حينا ، هى أثر إشعاع قادم من مسافة ١٥٠ مليون كيلومتر ضبطته بالشبر والإصبع حكمة دقيقة ، بديهى أن تكون هذه الأشياء كلها ساجدة لمن أقامها وأدامها . . فهى طوعا أو كرها تسير وفق مشيئته . .

هل يمكن أن تتلاقى هذه الكائنات وأن يعرف بعضها بعضا؟ من يدرى؟ قد يقع ذلك ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾[١] .

هناك أمر مستيقن أن بنى آدم مجموعون ليوم لا ريب فيه! وأن هناك جنّاً سوف يحاسبون مثلنا لأنهم داخل دائرة التكليف ، أما ما وراء ذلك فلا ندريه ولعله لا يعنينا . . المهم أن هناك سموات معمورة بخلائق أخرى . . وفى الحديث «أطت السماء وحق لها أن تئط ـ أى ضجت من ازدحامها ـ» .

إن السموات حق ، ولا نعرف كنهها ، والملائكة حق ، ولا نعرف كنهها . . ولم نكلف بذلك ، وليس فى العلم ما ينافى ذلك!! بل إن الملائكة ـ كما أفاد الدين ـ موجودة بين الناس ، وهى تؤدى وظائف منوطة بها فى الإحياء والإمامة والمراقبة والتسجيل والإلهام والتخذيل!!

العلم المادى لايدرى ذلك ، وليس فى حقائقه ما يناقضه ، وآفة بعض المنتمين الى هذا العلم أنهم يريدون بالمنطق المادى أن يفهموا ما وراء المادة ، وإلا أنكروه وتلك الحماقة لا يقرها العقلاء!

أما الكلام عن الأرض والأرضين فالسؤال يشير إلى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[٢] وقد تساءل المفسرون : هل المراد مثلهن فى العدد؟ أم مثلهن فى الإيجاد؟

والعلماء الكونيون يرون أن الأرض ولداتها من المجموعة الشمسية كانت سديما ثم انفصلت أجزاؤه على النحو المعروف الآن ، أى إن أصل الخلق واحد .

وأرجح هذا ، فإن الأرض لم تجئ فى القرآن الكريم إلا مفردة ، أما السماء فقد جمعت كثيرًا جداً . .

وقد يكون المقصود من تعدد الأرضين كثرة طبقات الأرض ، أو ما طرأ على وجه

---

(١) الشورى : ٢٩ .
(٢) الطلاق : ١٢ .

الأرض من تغيرات؟ والمعنى الأخير ساورنى وأنا أقرأ فى علم «الجيولوجيا» هذه العبارات «لعل أحدث فروع هذا العلم وأخطرها أثرًا «جيولوجية» الألواح المتحركة! وهى التى أسفرت عنها دراسة انتقال موجات الزلازل! فقد بينت إلى حد بعيد أن القشرة الأرضية التى يتراوح سمكها بين ٤٠ و ٦٠ ميلا ، والتى كنا نظنها ثابتة ، تتكون من مجموعة من الألواح أو الدروع تغطى مسطح الأرض ، بما فيه قاع المحيط ، وهى فى حركة دائمة بطيئة لا تتعدى نصف بوصة فى العام الواحد!

وهى إما متباعدة أو متقاربة أو متحاكة جنبا إلى جنب ، مما نتج عنه خلال الأحقاب الماضية ، إن مايعرف بالقطب كان صحراء ، وما كان جنوبًا صار شمالا ، وأن الوضع الحالى للقارات والمحيطات غير مستمر ! بل إن الصخور السطحية تغرق فى باطن الأرض على خط التقاء الألواح المتقاربة ، لتصهر مرة أخرى ـ مع شدة الضغط وارتفاع الحرارة ـ ثم تعود إلى سطح الأرض مع مقذوفات البراكين . .»[(١)] .

وما دمنا نتحدث عن العلاقة بين الدين والعلم فلنفرق بين نوعين من المعرفة الدينية ، هناك أحكام مقطوع بها فى الدين كالإيمان بالله الواحد ، والصلاة له ، وانتظار لقائه للحساب! فهذه أحكام يستحيل ـ كما قلنا آنفا ـ أن يوجد فى العلم ما يكذبها .

أما وجهات نظر الفقهاء فى قضية ما وتفاوت تفسيرهم لنص من النصوص ، فتلك أحكام ظنية يكتنفها الخطأ والصواب ، ولا يعتبر أحدها الرأى الرسمى للإسلام ، إنه رأى صاحبه ، وافق العلم المادى أم خالفه . . .

ومن هذا القبيل مرويات الآحاد التى لم تبلغ حد التواتر ، فهى ظنية الثبوت ، يعمل بها فى الفروع ولا تنبنى عليها عقائد . .

والأمر فى ميدان العلم كذلك ، فهناك مقررات علمية مستيقنة لم يوجد فى الإسلام قط ما يخالفها . . وهناك نظريات تشبه الاجتهاد الفقهى عندنا ، لا يمكن التعويل عليها أو التسليم المطلق بها ، وعسى أن ينقض البحث فيها اليوم ما أبرم بالأمس ، وأن يهدم الغد ما بناه اليوم .

هذه النظريات العائمة لا نترك من أجلها رأيا لفقيه ، ولا حديث آحاد! ولمَ؟ وافتراض الصواب والخطأ واحد فى الطرفين ؟

إننا سنستبقى ما لدينا على حاله حتى يقطع الشك باليقين!

ويؤسفنا أن الكهان فى ميدان العلم أكثر من الكهان فى ميدان الدين ، وأنهم يحاولون بجراءة ترويج نظريات مهتزة ، وإكسابها أمام القاصرين طابع اليقين . . .

---

(١) الجيولوجيا والإنسان للأستاذ درويش مصطفى الفار مدير متحف قطر .

٣٨. هل تم جمع القرآن بطريقة تدحض كل شك؟ وكيف تم جمعه؟

يوجد فارق ضخم بين تاريخ الإسلام - فى نشأته الأولى - وتاريخ الدينين السابقين عليه ، أعنى اليهودية والنصرانية . . إن الإسلام تحول على عجل إلى دولة قائمة لها سلطات وطيدة ، أما النصرانية فلم تقم لها دولة إلا خلال القرن الرابع لوجودها ، وإذا كانت اليهودية قد صار لها جيش ووجود سياسى على عهد مبكر . فإن كيانها قد تلاشى كل التلاشى بعد قليل ، وضاعت مقدساتها كلها .

إن هذا الفارق كبير بين الإسلام وغيره يفسر كيف بقى كتاب الإسلام مصونا! ، وكيف تعرضت كتب أخرى للعوادى الماحقة .

ظل النبى ﷺ يتلقى القرآن الكريم فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة ، كان كل حرف ينزل يعيه الحفظة فى قلوبهم ويسجله الكتبة فى صحفهم ، وكان هذا القرآن معروفًا للعدو والصديق! أما المؤمنون فهم يستمدون منه النور الذى يمشون به ، وأما الكافرون فقد شد انتباههم كتاب يهاجم آلهتهم وينقض مواريثهم ويثير دهشتهم! حاولوا أولاً التهوين من شأنه وقالوا : ﴿ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾[١] .

ثم تواصلوا بافتعال الضجيج لدى سماعه ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾[٢] ولعمرى إن هذه لهى الهزيمة النفسية الموجعة ، أن تخاف سماع كلام معين لأنه يغلبك!

ثم جاء التحدى البالغ لهم : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . . .** ﴾[٣] .

(١) الأنفال : ٣١ . (٢) فصلت : ٢٦ . (٣) الإسراء : ٨٨ .

إن التحدى يتوجه إلى قوم سمعوا القرآن وعرفوه عن خبرة ، وأدركوا أثر عجزهم عن مضاهاته!

المهم أن القرآن خلال فترة الضعف فى تاريخ الإسلام ، كان متميزًا معروفًا لا يلتبس بغيره ، ولا يلحقه نقص أو ازدياد .

وانتقل نبى القرآن إلى المدينة ، وهناك باشر سلطات رئيس الدولة من حكم بين الناس ، وعقد للمعاهدات ، وتوجيه للمصالح العامة ، وقيادة أو حث للجيوش هنا وهناك!

وظل القرآن ينزل عشر سنين أخرى ، الكتبة يسجلون بإشراف الرسول عليهم ، والحفظة يختزنون العلم فى صدورهم ، وما يكتب ويحفظ تعاد تلاوته فى الصلوات الخمس ، فى قيام الليل ، فى مجالس التلاوة ، فى خطب الجمعة ، الأفراد والجماعات مقبلة على قراءة الكتاب العزيز . .!

وكانت مكانة المرء تعظم بمقدار إقباله على القرآن ، وكان النبى يرعى هذه المكانة حتى عند دفن الشهداء ، فهو يقدم فى اللحد أكثرهم أخذا للقرآن!

حكومة قائمة ترى القرآن دستورها ومنارها ، فهى تحفظه وتحافظ عليه ، وترسل الوفود به إلى الآفاق ، من أين يتطرق الريب إلى كتاب هذه بيئته الأولى؟

أمة تعبد ربها بفقه كتابه وتجويد حروفه ، ودولة بكل أجهزتها تصون وتحمى ، ما عرفت الدنيا من بدء الخليقة مثل هذا الصون لكتاب من الكتب .

ومضت دولة النبوة ، ثم جاءت دولة الخلافة الراشدة ، ورجالها هم السابقون الأولون فى اعتناق الإسلام وحفظ آياته وكتابة مصاحفه!

وظلت هذه الدولة ثلاثين عامًا شرَّق فيها الإسلام وغرب ، وأثر عن جيوشها أنها كانت لا ينتهى لها هدير بالتلاوة آناء الليل وأطراف النهار!

ومضت دولة الخلافة ، وجاءت دول أخرى كثيرة فماذا حدث خلالها للقرآن؟

كان تواتره ، يمتد ليشمل أجيالا أخرى ، وكانت مصاحفه تملأ المساجد والعواصم والدور والقصور . . . وصدق الله العظيم ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[1] .

---

(١) الحجر : ٩ .

سأضرب مثلا لشرح ما أقصد ـ وإن كنت على وجل من ضربه واستحياء ـ لقد وضعت الولايات المتحدة لها دستورًا بعد حرب الاستقلال ، تضافر الأمريكيون حكومة وشعبا على دراسته وتنفيذه ، فهل يمكن القول بأن هذا الدستور حُرِّفَ وشُوِّهَ؟ وكذلك فعل الاتحاد السوفيتى! فهل يمكن القول بأن ما وضعه الثوار الحمر تغير وتبدل؟

إننى لا أشبه القرآن الكريم بهذه الوثائق ـ معاذ الله ـ فإن القرآن لم يجئ من مصدر واحد هو الكتابة ، بل المصدر الأول لتلقيه قبل أن يكتب هو الحفظ فى الصدور ، وقراءته عن ظهر قلب! وإنما لفت النظر إلى أن الدولة حين تقوم على دعامة ما فإنها سوف تحمى دعامتها ، وتفرضها على الزمن .

وتحول الإسلام فى عهد مؤسسه إلى دولة مكينة السلطان جعل الكتاب المعجز يحظى بالحياطة الشعبية والرسمية جميعًا ، وجعل كل حرف منه بين العيون!

أكذلك كانت الكتب السابقة؟ لا . . إننا نؤمن بالتوراة النازلة على موسى كما علمنا الله ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾[1] ونؤمن بالإنجيل النازل على عيسى كما علمنا الله ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ** ﴾[2] .

فماذا حدث للوحى السابق؟ أغار أعداء بنى إسرائيل عليهم وهدموا الهيكل ومزقوا صحائف التوراة ولم يبقوا لهم أثرا يتمسكون به . . . فلما تحرروا من أسرهم ، بعد أمد طويل ، تقدم لكتابة التوراة من ذاكرته من تقدم فإذا الصحائف الجديدة ملأى بالغرائب!

من بضع سنين تقدم للقضاء الإسرائيلى جندى يشكو الضابط الذى يرأسه بأنه اغتصب زوجته ، وتحدث محامى الضابط فقال : إن موكله مشهور بالإقدام والشجاعة ، ومثله ينبغى التجاوز عنه كما تجاوز الله عن داود الذى اغتصب امرأة «أوريا» ولم يكتفى بالزنى! بل أوصى بقتل الزوج المفجوع ، فقتل فى الميدان بحيلة مرسومة!!

---

(١) المائدة : ٤٤ .

(٢) المائدة : ٤٦ .

إن هذا الدفاع كان مفاجأة للناس ، لكنه لم يكن مفاجأة للقضاة ، فهم يعرفون القصة فى كتابهم ، ولا أذكر بم حكموا فى هذه القضية! وإنما غاظنى أن نبياً كريمًا يتهم بالزنى والقتل ، ويراد جعل مسلكه أسوة!

وداود رجل برىء ، والصحائف التى لوثت سمعته وسمعة غيره من المرسلين هى التى يجب أن تحاكم!! فما أكثر ما بها من افتراء على الله والمرسلين!!

أما الإنجيل الذى نؤمن بنزوله على عيسى فإنه لا يوقف له على أثر والقصة كما يراها أتباعه أن عيسى ومن معه اعتبروا خارجين على القانون ، فقتل الحاكم الرومانى عيسى بطلب من الشعب اليهودى وانتهت المأساة!

وقد ألف تلامذة عيسى ـ هكذا قالوا ـ سيرًا تضمنت ما يعلمون من عظاته ، وما يقال عن مصرعه!

وسميت هذه السير أناجيل! وكانت أول الأمر تبلغ العشرات ، ولكن تم اختيار أربعة منها هى التى أقرت قصة الصلب واعترفت بألوهية المسيح .

وقامت للمسيحية القائلة بربوبية عيسى وصلبه دولة رومانية فى القرن الرابع لميلاده .

ونحن المسلمين نعتقد أن التثليث لم يجئ به دين ولا نزل به وحى ، وأن الأنبياء من عهد آدم إلى محمد ، وفيهم عيسى نفسه دعوا إلى إله واحد هو سيد العالمين وربهم الفرد ، وما عداه عبد مخلوق له .

والواقع أن القرآن الكريم هو السجل الجامع للعقيدة التى بلغها المرسلون ، وتواصوا كابرًا عن كابر أخذ الناس بها وتنشئتهم عليها .

وقد حصنه القدر من التحريف والتغيير ، فتعدت القداسة الموضوع إلى الشكل ، والمعنى إلى الحروف ، فأصبح ضبط الألفاظ نفسها دينا ، وقراءتها عبادة ، وذلك حتى لايعترى الكتاب الخاتم ما اعترى الكتب من قبل !

كان النبى ﷺ ـ وهو رئيس الدولة ـ يجعل خطب الجمعة تلاوة لسور القرآن ، فى أغلب الأحيان ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون ، ومن الطرائف أن عمر خطب بسورة النحل يوما ، فلما بلغ آية السجدة نزل من المنبر فسجد وسجد الناس معه ،

ثم خطب فى الجمعة التى بعدها بالسورة نفسها دون أن ينزل ويسجد فلما سئل فى ذلك قال : أمرنا أن نسجد إذا نشاء! يعنى أن سجدة التلاوة ليست فريضة . .!

وهاجم المشركون يومًا رسول الله وهو يدعو إلى الله الواحد ، وتدخل أبو بكر يذودهم عنه وهو يقول : ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾[1] وهذا بعض آية من سورة غافر!

وصلى عمر الفجر بالناس يقرأ سورة يوسف ، فلما بلغ قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿ **يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾[2] سمع نشيجه بالبكاء .

لقد كان القرآن ، ومازال ، شغل الأمة الشاغل ، واهتمامها الدائم ، وهى تسمع نبيها يقول : «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» ويقول : «**لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق**» .

إن الناس يقرءون القرآن الآن ، كما نزل به أمين الوحى على خاتم الرسل ، لا تغيير فى حرف ولا فى شكل .

ومنذ أربعة عشر قرنا لم يتغير شىء من هذه الثلاثة ، الشمس هى الشمس ، والقمر هو القمر ، والقرآن هو القرآن!!

(١) غافر : ٢٨ .
(٢) يوسف : ٨٤ .

٣٩. ما الفارق بين القرآن، والحديث القدسى، والحديث النبوى؟

القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى ، المسجل بين دفتى المصحف الشريف ، وهو المعجزة التى أيد الله بها نبيه محمداً ﷺ ، وتحدى مكذبيه! وهو منقول بالتواتر ، ومتعبد بتلاوته ، ومعصوم إلى آخر الدهر من أى تحريف .

وكان العرب يودون لو جاءتهم خوارق حسية بدل تحديهم بكتاب يخاطب الألباب والأفئدة ، وجاء على ألسنتهم : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ .. ﴾[1] ، لا ، هذا القرآن تسير به الجبال وتقطع به الخرافات ، ويكلم به الأحياء!

وقد وقعت الخوارق التى يطلبون فما آمن منهم أحد لأن العناد أعماهم .

ولعل أفضل ما يوصف به القرآن ما جاء عن الحارث الأعور قال : مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث ، فدخلت علَى علىٍّ رضي الله عنه فأخبرته فقال : أو قد فعلوها؟ قلت : نعم . قال : أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : أما **إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟، قال: كتاب الله تعالى ..**

فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى. وهو حبل الله المتين. وهو الذِّكرُ الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة: ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾[2] من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

---

(١) الرعد : ٣١ . (٢) الجن : ١ ، ٢ .

والحديث يفيد أن دراسة القرآن تسبق دراسة السنة أو بتعبير آخر : لن يكون فقيها فى السنة قصير الباع فى فقه القرآن الكريم ، والكتاب والسنة معا دعامتا الدين .

أما الحديث القدسى فهو كلام الله تعالى ولكنه لا يحتوى الخصائص القرآنية ، فليس معجزًا فى عبارته ولا وقع به التحدى ، ثم إنه لا يتعبد بتلاوته ، فلا تصح به صلاة . . وأخيرًا لم يصل إلينا بطريق التواتر القطعى ، فالأحاديث القدسية قد يكون فيها الصحيح والحسن والضعيف ، بل قد يكون فيها الموضوع كحديث (عبدى أطعنى أجعلك ربانيا تقول للشىء كن فيكون) ، فإنه لا أصل له . .!

ويرى البعض أن الحديث القدسى من كلام رسول الله ﷺ ، عبر فيه الرسول عن مراد الله تعالى ، وكأن لسان الحال يقول كذا ، والجمهور على الرأى الأول ، وأنه يشبه الوحى النازل فى صحف إبراهيم وموسى ، أى كلام إلهى غير معجز ولم نكلف بتلاوة ألفاظه والتعبد بها كما تقرر ذلك للقرآن الكريم . .!

من نماذج الحديث القدسى الصحيح ما وراه مسلم عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال :

«ياعبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا..

ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم.

ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم!

ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم.

ياعبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم.

ياعبادى، إنكم لن تبلغوا ضُرّى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى!

ياعبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علَى أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً..

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل مانقص ذلك من ملكى شيئاً. ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا فى صعيد واحد

وسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك عندى إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أدخل فى البحر!

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه»..

ومن نماذج الحديث القدسى الحسن السند ما رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى :

«يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى!!

يا بن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى!!

يا بن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة!!»

فى هذا الحديث جرعة منعشة للإرادة التى غلبها اليأس من طول ما انهزمت فى الحرب السجال بين الخير والشر أو بين العصمة والسقوط ، والمراد أن تفيق لتستأنف سيرها إلى الله ، وتلزم الصراط المستقيم ، فالحديث هنا يشبه قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...** ﴾(١) .

وليس الحديث تهوينا من مغبة الانحراف كما يتصور الجهال .

وشىء آخر ، نلفت البصائر إليه أن آفة الكثيرين من العصاة هى عبادة النفس! أعنى أنهم يعبدون أنفسهم من دون الله ، أو يشركون أنفسهم مع الله ، ويقدمون هواهم على دينه .

ومن برئ من هذه الأثرة الغبية ، ووقف أمام الله ، أو لقيه هاضما نفسه ، بادى الفاقة إليه وحده ، فهو أهل لأن يحظى بمغفرته .

وذلك فى نظرى السر فى رفض الله سبحانه لأى شىء يعتبر شريكا له ، إن أى شىء يعكر حقيقة التوحيد ، مهما كان أمره ، بشرًا أو حجرًا أو مالا أو جاها هو صدع هائل فى الإيمان!!

---

(١) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ .

أما الحديث النبوى فهو ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو حُكم أو تقرير ، فإن الرسول الكريم إمام الأمة ، وأسوتها الحسنة ، وله عليها حق الطاعة ، كما بين الله ذلك فى كتابه ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1] ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[2] .

وبعض الناس لا يفقه معنى الرسالة ولا مكانة الرسول ﷺ ، ويحسب أن القرآن وحده كاف فى هداية الناس دون بيان من صاحبه ، ودون تطبيق عملى يوضح مراد الله من عباده ، وهذا خطأ بالغ ، فإن القرآن ليس نقطة عثرنا عليها فى فلاة ، ولا كتابًا نظريًا يستطيع كل امرئ أن يفسره على هواه ضاربًا عرض الحائط بتوجيهات من نزل عليه وكلف بتبليغه!! .

والحق أن تجاهل السنة النبوية جهل فاضح بقدر أعظم رجل فى تاريخ الإنسانية الطويل .

إن محمدًا ـ لو لم يكن رسولاً ـ لكان لنفاسة معدنه ، وطهر سريرته ، ومجادة نفسه ، أهلا لأن يسمع نصحه! فكيف وهو بالرسالة التى اختير لها ـ قد اتصل بالملأ الأعلى ، وأضحى معصومًا فى كل ما يصدر عنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾[3] .

إنه عندما يتكلم يُبلّغ عن الله! ويصدر عن فؤاد موصول بنور السموات والأرض ، وكما قال الله له :﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4] .

ونختار من الحكمة النبوية هذا الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «**ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم:**

رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل، يقول الله له يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك..!

---

(١) النور : ٥٦ . (٢) النساء : ٨٠ .

(٣) النجم : ٣ . (٤) الشورى : ٥٢ .

ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله تعالى: لقد أخذها بكذا وكذا فصدقه وأخذها وهو على غير ذلك..!

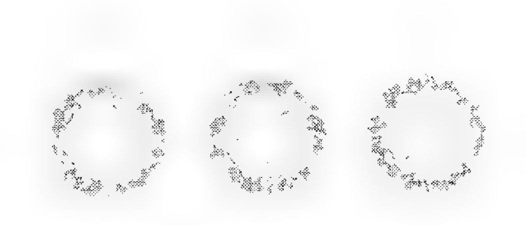
ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها ما يريد وفّى له! وإن لم يعطه لم يفِ له..!!

وجمهور المسلمين على أن طاعة الرسول من طاعة الله سبحانه ، وأن من قرر عصيان رسول الله ، ورفض ما أمر به أو نهى عنه ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه . .

والواقع أن من يترك حديثًا ما من المرويات التى بلغتنا ، لا يفعل ذلك تمردًا على صاحب الرسالة ، وإنما شكًّا منه فى صدق ما نسب إليه ، أو فى المعنى المراد منه . .!

بيد أن السنة الشريفة ليست كما يتصور البله ، كلاما جمع بطريق الجزاف أو سجل دون وعى!! لا ، إن جميع الضوابط التى يمكن حشدها لضمان الصدق والدقة قد اتخذها علماء المسلمين .

ثم إن السنة العملية ، وصلت إلينا بطريق التواتر ، الذى وصل به القرآن نفسه ، فلا مجال لإنكار صلاة أو زكاة من الصلوات المكتوبة ، أو الزكوات المحسوبة .



٤٠. ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم؟

لا يتعارض حديث مع كتاب الله أبدًا! وما يبدو حينا من تعارض هو من سوء الفهم لا من طبيعة الواقع ، وذلك مثل حديث «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**» وقوله تعالى : ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[1] .

الفهم الصحيح للموضوع كله ، أنه لابد من عمل ينال به المرء رضا ربه ، ويستحق رحمته ، فالجنة ليست للكسالى والأراذل ، بيد أن العمل المقبول هو المقرون بالتواضع لله ، وإنكار الذات ، والقلق من أن يرفض رب العالمين العمل المتقرب به لأن عيوبه لا تخفى عليه ، أو لأنه دون حقه ، أو لأى سبب آخر .

فمن تقدم بعمل وهو شامخ الأنف ، ليس فى حسابه إلا أنه قدم العمل المطلوب للجنة ، وعلى الله أن يسلم له المفاتيح ليدخلها بعدما امتلكها بعمله!! هذا المغرور لا يقبل منه شىء ، ولا مكان له فى الجنة .

أما من جاء خاشعًا خفيض الجناح ، شاعرًا بالانكسار لأنه لم يقدم ما الله أهل له! فإنه يدخل الجنة بعمله!

والدلائل على هذا المعنى كثيرة ، وما يعقلها إلا العالمون !

إن السنة بحر متلاطم الأمواج ، وما يستطيع فهمها على وجهها إلا فقيه يدرك ملابسات كل قول ، والمراد الحق منه ! فإن النبى عليه الصلاة والسلام ظل يكلم الناس ثلاثًا وعشرين سنة ، اختلفت فيها الأحوال ، وتباين الأفراد وتشعبت القضايا .

ووضع كل حديث بإزاء المقصود منه ، أو معرفة النطاق الذى يصح فيه ، هو عمل الفقهاء ، وهو عمل لا مناص منه وإلا حرفنا الكلم عن مواضعه!

والمحزن أن ناسا لافقه لهم تكلفوا مالا يحسنون من قراءة للسنة ، وإفتاء بها ، فأساءوا ولم يحسنوا ، وهم الآن حجر عثرة فى طريق الدعوة الإسلامية!

بعضهم فهم أن الإسلام يشن حرب العدوان ويأخذ الناس على غرة دون دعوة إلى دين!

---

(١) النحل : ٣٢ .

وبعضهم فهم أن مستقبل الأمة إلى ضياع لأنه لا يجيء يوم إلا والذى يليه شر منه!

وبعضهم فهم أن الغنى مضاد للتقوى ، وأن الفقر أخو اليقين وطريق الآخرة!

وبعضهم فهم أن القدر تحويل قسرى للمرء من طريق النجاة إلى طريق الهلاك أو العكس ، لأن العلم الإلهى سبق بذلك!!

وسبب هذا الخبط اشتغال الدهماء بالسنة ، دون أن يكون لديهم رصيد من الحكمة القرآنية! ودون أن يكون لديهم ذوق أدبى بأساليب الأدب العربى ، ودون أن يكون لديهم بصر بأغوار النفس الإنسانية ، وأحوال المجتمعات البشرية ، ودون دراسة عميقة للسيرة الشريفة ، وما حفل به ربع قرن من أحداث جسام وشئون وشجون! ودون تفريق بين ما هو عادى وما هو عبادى .

فالسنة عندهم الأكل على الأرض ، لا على مائدة ، وتنظيف الفم بالسواك لا بالفرشاة والاستنجاء بالأحجار لا بالأوراق ، وإرخاء ذيل العمامة على الأقفية ، وإيثار الأبيض من الملابس الفضفاضة ، وضرب النقاب على الوجه حتما ، وذاك بالنسبة إلى النساء!

والواقع أن العادات البدوية غدت سنة نبوية ، ولما كان العرب يؤخرون المرأة فى المكانة فقد مُنعت باسم الإسلام من التردد على المساجد ، ومن تلقى العلم فى المدارس ، ومن جهاد الكلمة ، أى جهاد الأمر والنهى! ومن أى مشاركة فى جهاد عسكرى . . . إلخ .

والعارفون بالسنة المطهرة يدركون بطلان هذه التقاليد ، ومنافاتها للكتاب والسنة ، ومع ذلك فإن الدهماء المتحدثين فى الإسلام يقاومون الحق بعصبية ، ويرمون غيرهم بالانطلاق مع المدنية الحديثة .

والذى أراه أن السنة ركن الإسلام بعد القرآن الكريم ، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها إلا الفقهاء ، ومن يعنيهم الأمر من الولاة والقضاة والدعاة ، والمتخصصين فى أى مجال يحتاج إلى الإلمام بهذه التفاصيل .

أما رجل الشارع أو الشخص العادى ، فإن أربعين حديثًا تكفيه وتغنيه .

وعلى أية حال ما يجوز لجاهل القرآن أن يحدث الناس أو يتصدر للفتوى فى شئونهم!

لقد رأيت أغيلمة تشتغل بالسنة ، انتهى أمرها بالهجرة إلى اليمن لعلها تبدأ من هناك نهضة إسلامية!! نهضة بعيدة عن فقه الحياة والاستمكان من الدنيا! لعل صالحى الجن سوف يمدونهم بالمتفجرات فى ميادين الحرب ، أو بالغذاء والكساء والدواء فى ميادين السلام . . . والجنون فنون!!

نحن نستمد معاقد الإيمان وأركان الإسلام وأعمدة الأخلاق والمعاملات من الكتاب والسنة معا ، والسنة العملية التى وردت بطريق القطع تفسير مستيقن للقرآن نفسه ، وعلى ضوء هذا نصلى الخمس ، ونحج البيت ، ونعرف الكيفيات لهذه الفروض من السنة العملية ، وهناك أحكام كثيرة فى الفروع أجمع عليها الفقهاء ، ولا يخرج على هذا الإجماع مؤمن ، أما ما كان موضع خلاف ، فالأمر فيه على الاتساع ، يعتنق أى مسلم ما شاء من وجهات النظر العلمية دون حرج .

قال الفقهاء : والسنة المشهورة تخصص عموم القرآن ، فالأولاد مثلا يرثون أباهم بنص الآية : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** . . ﴾[1] وقد جاءت السنة بأن القاتل لا يرث أباه الذى قتله . كما جاءت السنة بأن الكافر لا يرث أباه المؤمن . .

وقد تقيد السنة نصّاً جاء فى القرآن الكريم مطلقا ، فالآية تجعل الأم من الرضاع محرمة كالأم نفسها ، وكذلك الأخوات قال تعالى :﴿ . . .**وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ**﴾[2] وجاء فى السنة أن ذلك ليس على إطلاقه ، فلا تحرم رضعة ولا رضعتان ، ويرى عدد من الأئمة أن أقل من خمس رضعات لا يفيد التحريم !!

وبقى أبو حنيفة ومالك على القول بالتحريم المطلق!

والذى أميل إليه أن الأمومة لا تتكون من رضاع كثير ، فإذا ورد فى السنة أن الحد الأدنى لذلك خمس رضعات ، أو عشر كما يرى البعض فهو قيد جدير بالرعاية!

وقال تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾[3] ، ولكن السنة بينت أنه لا يقتص للفرع من الأصل ، فإذا قتل أب ابنه عوقب بغير القتل! ، والسبب أن هذا القتل شذوذ عن سنن الآباء الذين قد يفتدون أبناءهم بحياتهم ، ويحيون كادحين ليوفروا لهم السعادة!

لابد أن هذا القتل لا تصحبه نية الإجرام ، وأنه وقع تحت ضغط جنونى طارئ!

ويرى مالك أنه لا قصاص إلا إذا كشفت التحقيقات أن الأب رجل متوحش مجرد من مشاعر الحنو ، فكر ودبر لغرض خسيس! ويرى غيره إلغاء القصاص مطلقا إمضاء للسنة !

وهذا التخصيص أو التقييد هو تفسير ممن تلقى الوحى للمراد الإلهى ، ومن أحق من نبى القرآن بتفسيره! ولا يسمى معارضة للقرآن الكريم ، بل هو بيان وتوضيح .

---

(١) النساء : ١١ .   (٢) النساء : ٢٣ .   (٣) البقرة : ١٧٩ .

وتستقل السنة بإنشاء أحكام إلى جوار ما شرع فى القرآن ، وأى ضير فى هذا! قالوا : مثل المسح على الخفين بدل شريعة الغسل! ومثل تحريم الذهب والحرير على الرجال . . . إلخ .

والتحقيق أن تشريعات السنة كلها داخلة فى نطاق القرآن الكريم ، ودلالاته القريبة والبعيدة ، وعندى أن المسح على الخفين ليس من إنشاء السنة بل هو معنى القراءة الثابتة : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾[1] بكسر اللام عطفا على ما قبلها ، والتعبير مجازى كما يقول علماء البلاغة ، أطلق الحال وأراد المحل!!

أما تحريم الذهب والفضة فسداً لأبواب الترف! وأظن ماورد من تحريم استعمال الجرس فلحماية شعيرة الأذان ، وإلا فلا مانع من استعمال الجرس للإنذار أو فى الساعات المنبهة ، أو فى الهاتف أو فى أعناق الدواب مثلا .

ولفقهاء الحنفية كلام فى هذا الموضوع أورده هنا لأنى ميال إليه ، إنهم يرون أن الفرض والمحرم لابد فى إثباتهما من نص قاطع ، ومعنى هذا أن خبر الواحد لا ينهض على إثبات حرمة أو إثبات فرضية .

ويعنى هذا أن الأحكام الشرعية تزيد اثنين فوق ما قرره الأئمة الآخرون!

الأئمة يقولون : الواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمحرم بالعكس ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه ، والمندوب ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه ، والمكروه ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله ، والمباح ما استوى فيه طرفا الفعل والترك .

ويرى فقهاء الحنفية أن ما أمر به حديث آحاد لا يرتفع إلى درجة الفرض ، ويسمى لديهم واجبا يؤمر بفعله ويلام على تركه ، وما نهى عنه حديث آحاد لا يرتفع إلى درجة المحرم بل يؤمر بتركه ويلام على فعله ، ويأخذ حكم الكراهة التحريمية ، وهم يطلقون هذا الحكم على ما انفردت السنة بحظره كلبس الحرير والذهب للرجال مثلاً .

لا فريضة عندهم إلا بنص قطعى ، ولا تحريم إلا بنص قطعى ، وأخبار الآحاد عند الجمهور لا تفيد إلا الظن العلمى ، وشذ بعض الحنابلة فروى عن إمامه أنها تفيد القطع ، وهذا فهم مردود!

---

(١) المائدة :٦ .

٤١ـ هل الصورة التى رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية؟ وما معنى الحديث «خلق الله آدم على صورته»؟!

ظاهر أن الذى أوحى بهذا السؤال ما كتبه «داروين» عن أصل الأنواع ، وما أعلنه من رأى فى قضية النشوء والارتقاء .

ومع أن النظرية منقوضة من جوانب كثيرة ، ومع أن هناك من علماء الأحياء من رفضها جملة وتفصيلا ، فإن أعدادًا من الناس لاتزال تروج لها ، بل إن هذه النظرية لا تزال تدرس فى بلادنا وكأنها حقيقة علمية !

والسبب فى ذلك أن سدنة المذاهب وسماسرة الإلحاد الزاحف من الشرق والغرب يريدون إقناعنا بأننا من الأرض وحدها تخلقنا ، وأن الروح الذى نسمو به ونسود بقية الأحياء لم يجئ من الله! فهم لا يعترفون به!! إنه ظاهرة أرضية بحتة!

وأنا رجل مسلم ، أشعر بأن نسبى السماوى أزكى من نسبى الأرضى وأحق بالتقديم ، وأننى ابن آدم الذى خلقه الله من تراب الأرض ، ولو استبقاه على هذا الطور من الإيجاد ما كان له شأن يذكر !

إن آدم اكتسب مكانته وكرامته بعد أن نفخ الله فيه من روحه بهذه النفخة العلوية أضحى كائنا جديرًا بأن تسجد له الملائكة وتحيى فى وضعه الجديد الإبداع الإلهى وحسن التقويم وعبقرية العقل وسناء المواهب!! ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1]!

---

(١) الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

لولا هذه النفخة لكنت نوعًا من الأنواع التى تحدث «داروين» عنها ، ولكنت من أسرة متفاوتة الأفراد من زواحف وسباع ومن طيور وأنعام!!

إننى أومن بأن الله خلقنى ونفخ فىَّ من روحه ، وإذا كان أبى آدم صور من طين مباشرة ، فأنا من سلالته على طول المدى ، وقد قال الله فىَّ وفى أخوتى من أبناء آدم ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ** ﴾(١) .

والنفخة التى سرت فى أوصالى وجعلتنى خلقا آخر تستحق التأمل العميق ، إننى الآن واحد من خمسة آلاف مليون بشر ، هل نحن خمسة آلاف مليون نسخة من كتاب واحد! كلا ، إنه كما تختلف بصمات أصابعنا ، وملامح وجوهنا تختلف مواهبنا الفكرية ، ومشاعرنا النفسية .

لكل قلب همومه وأشواقه ، ولكل عقل مجرى تفكير وقدرة استنباط ، أى إن النفخة ها هنا!

فإذا كان ذلك فى عصر واحد فماذا عن نهر الحياة الدافق من بدء الخليقة؟ وماذا عن أجيال البشر الذين يتوارثون عمارة هذه الأرض ما شاء الله؟

إن الله العظيم الذى أشرف على كل جنين ، وتابع أطواره حتى اكتمل وزحم القرون بين أن هذه الحياة الإنسانية المذهلة شىء صغير بالنسبة إلى ما خلق من عوالم لا ندريها! أليس القائل : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾(٢) .

إن الشبه واحد بين أسماع الناس وأبصارهم أى بين مظاهر الحياة الإنسانية العادية ، ولعل ذلك ما جعل شوقى يقول :

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة
فى عامر ، وأشعة فى بلقع
فإذا طوى الله النهار تراجعت
شتى الأشعة والتقت فى المرجع

---

(١) السجدة : ٧ ـ ٩ .
(٢) غافر : ٥٧ .

إن الغروب الذى يطوى الأشعة فى رأى العين فيبدأ الليل ، كالموت الذى يسترد السر الإلهى فتنتهى الحياة .

لكن الشمس تغرب من ناحية لتطلع فى أخرى ، والنفس تموت بيننا ، أو تخفى بيننا لتستأنف وجودها فى عالم آخر !

وكان النبى ﷺ يشير إلى هذا المعنى عندما يقول فى كل صباح «**أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور**» وعندما يقول فى كل مساء «**أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير**» .

ومع البعث تبدأ الخصائص الإلهية فى كل نفخة تقدم حسابها الخاص بها ، وكل امرئ حسابه على قدر ما أعطى من مواهب وإمكانات ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾[1] ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾[2] .

وعلى أية حال فإنى قد أدرى أن جسمى يتكون من تراب هذه الأرض ، لكنى لن أصدق أبدًا أن الحب والبغض والرجاء واليأس والذكاء والغباء والذكر والنسيان معان نبتت مع العشب والكلأ ، وجاءتنى من تراب هذه الأرض!

ثم شىء آخر يجعلنى أحس بأبى آدم ، وبأنه حقيقة لا يليها تطاول العصور ، ذاك هو وحدة الشعور والفكر بينى وبينه ، إن الله أسكنه دارا حسنة وسط حديقة يانعة ، فيها ما يغنى ويكفى وقال له : ﴿ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾[3] بيد أن الإنسان يريد اكتشاف المجهول ولو كان تافها ، يريد الحصول على الممنوع وإن كان مؤذيا! فى الحلال الطيب سعة ، أو فى دائرة المباح مقنع! لكن آدم أبى إلا الجرى وراء الوهم .

وكانت له آمال باطلة يود لو تحققت ، إنه يحب الخلود ، ويحب أن يكون ملاكا!! يا أبانا ماتبغى! إن الله أسجد لك ملائكته فكيف تنزل دون مكانتك؟

وجعل إلى مشيئتك البقاء فى الجنة والتقلب فى رياضها فماذا تخاف؟

وعرف الشيطان مكان الضعف من نفس أبينا الطامع! فحلف له بالله أن أمانيه سوف تتحقق إن هو أكل من الشجرة المحرمة . . وكان صوت النهى قد بدأ يخفت ،

---

(١) الطلاق : ٧ .　　(٢) النجم : ٣٢ .　　(٣) البقرة : ٣٥ .

ومضى زمن على الحظر المفروض، كانت الأمانى الباطلة خلاله لا تزال على شدتها، ولم ييئس الشيطان من مهمته فظل يوسوس، ويغرر بالأب الذاهل، حتى دحرجه من مكانته، وأخرجه من جنته، تذكرت قول المتنبى :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكن قلباً بين جنبى ماله

مدى ينتهى بى فى مراد أحده

بغير أن يكسى شفوفاً تربه

فيختار أن يكسى دروعاً تهده

لقد مضى المتنبى مع طمعه فى الإمارة والجاه، وأثار الغبار وراء ركضه! مدح وهجا، وخاصم وسالم. واشتبك مع الأقيال والأنذال، وفى ليلة ليلاء لقى مصرعه على أيدى جماعة من الموتورين، فمرغت الحكمة والشعر فى الثرى! وأجهز الموت على تطلعات الرجل الذى لم يرضه شىء!

إننا أبناء أبينا غفر الله له، ما أشبهنا به وما أشبهه بنا!

لكن أغلى وأعلى، ما فى قصته لم يذكر بعد! لقد تذكر الناسى، أو صحا الذاهل، وعرف آدم أنه ضل الطريق، وأضاع قواه وراء وهم، وأغضب ولىَّ نعمته! فوقف مع امرأته يجأران بهذا الدعاء : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[1].

وهبطا إلى الأرض، وأرسل الله سبحانه من يتلو علينا خبرهما لنتعظ! إن قصة الإنسانية فى حياة آدم هى قصة الإنسانية فى حياة نبيه، خطيئة ومتاب... فما هى قصة الإنسانية عند الملاحدة! جراثيم وجدت من غير موجد، ظلت تتعارك ليبقى الأقوى، وظل الأقوياء يتعاركون حتى استطاع الإنسان الغلب على غيره من الدواب وأن يسودها، فبلغ الإنسان بجدارة قمة المملكة الحيوانية! وأمسى سيدا للفيلة والحمير والأرانب والسباع..!! لقد ساد إخوانه فى سياق شريف!

إن القصة بهذا السياق أكذوبة حقيرة..

(١) الإعراف :٢٣.

ومع أن «داروين» قال : إنه لا ينكر الألوهية! فإن كلامه مضطرب متهافت ، وهو منته آخر الأمر إلى قطع الصلة بين الإنسان ، وربِ الأرض والسماء .

أما حديث أن الله خلق آدم على صورته فقد قَبِلَه أغلب المحدثين وفسروا الصورة بالصفة! يعنون أن الله لما نفخ من روحه في الكيان المادى لآدم أصبح آدم بهذه النفخة حيا ، قادرًا ، مريدًا ، سميعًا ، بصيرًا ، متكلما . . . الخ .

وظاهر من تكوين آدم أن العقل الذى أضاء فى دماغه علمه الكثير مما يعمر الكون ، وبصَّرَهُ بما تعجز الملائكة عن إدراكه ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾[١] .

وقد انطلق بنو آدم فى الأرض بمواهبهم العليا وغرائزهم الدنيا ، وتعرضوا لامتحانات هائلة ، ولا يزالون فى ضوضاء المعركة وبأسائها ، إلى يوم الفصل!!

ومن العلماء من يقول : خلق آدم على صورته ، أى صورة آدم نفسها فلم يعرض لها تغيير عن الأصل ، ولن يعرض فى المستقبل ، أى لا تطور !

ورأيت لبعض الكتاب طعنا فى الحديث! يقول : إنّ أبا هريرة نقل هذه الجملة عن كعب الأحبار ، وهو يهودى الأصل ، والجملة موجودة فى سفر التكوين أول أسفار التوراة ، فانخدع بها أبو هريرة ورواها حديثًا !

والذى أراه أن وجود الجملة فى التوراة لا يعنى أنها موضع ريبة ، وأن المعنى الصحيح لها قائم ومقبول ، وليس للاتهام دليل .



(١) البقرة : ٣١ ، ٣٢ .

٤٢. هل يؤخذ القرآن بنصه ؟
أم على أساس الظروف التى نزلت فيها آياته ؟

يندر أن يكون المرء شريرًا من جميع نواحيه ، أندر من ذلك أن يكون ـ مع غلبة الشر عليه ـ شريرًا فى جميع الأوقات .

السمة الغالبة أن يخلط الإنسان عملاً صالحا وآخر سيئًا ، وأن تمر به فترات صحو تبدد غيومه بين الحين والحين .

والخوف من الإنسان الذى يصحو ويغيم ، ويكبو ويقوم ، أن يفلسف انحرافه الذى يعروه ليجعله مسلكا عاديًا أو أمرًا لا يجوز التنديد به والتوبيخ عليه ، وإن جاز لضرورة فلتكن الكلمات خفيفة الوقع ، وتوطئة للعتبى!

استمعت إلى اللص البدوى الذى يسوغ سرقته قائلاً :

ولا أسأل الجبس اللئيم بعيره وبعران ربى فى البلاد كثير!

وقلت : هذا رجل يكره أن يقبل البعير صدقة ، ويكره أن يأخذه عارية ، لأنه يكره أعطية اللئام ، لماذا تكون يده السفلى! فليذهب إلى الصحراء أو إلى البيوت وليسرق أى بعير! ولا جميل لأحد !!

إن السرقة فى منطقه استجابة لرغبة نفسية طبيعية !

قلت : لو حمل هذا الرجل إجازة علمية فى القانون ، فلن يعاقب سارقًا ، ولو حدث عن حد السرقة لأرعد وأزبد وهاج وماج وقال . . لا عودة إلى الوراء ، لا نريد وحشية !

ولو أن إنسانا عاش فى بيئة اعتادت السطو على الأعراض ، أو تسلل إليها الشذوذ ، فأصاب وأصيب منه ، واعتَدى واعتُدى عليه ، فإنه سينظر إلى الحياة من خلال جوانبها الأخرى التى لم يتدنس فيها ، ويحاول تضخيمها والتعويل عليها وحدها ، والنظر إلى المباذل التى تلوثه على أنها هَنَّات ينبغى التجاوز عنها وعدم الوقوف عندها .

وهذا ومثله لو ملكوا سلطة التشريع لجعلوا العلاقات الجنسية كلأً مباحًا ، فى حدود التراضى طبعًا ، كما هو الشأن فى القوانين الأوربية!

إننى أفهم أن يقع الخطأ ، لكنى لا أفهم أن يتحول إلى قانون !

وقد يستكبر إنسان! لكن ما معنى أن يعتذر عن إبليس؟ ويفلسف تطاوله على الله تبارك وتعالى!

وقد ينزلق امرؤ فى الوحل! المفروض أن ينهض ويصلح شأنه ويغسل درنه! أما أن يتغزل فى الطين ، ويرمى به وجوه السائرين ، فهذه دناءة غليظة!

يؤسفنى أن ناسا كثيرين بدل أن يصلحوا أنفسهم يريدون إفساد القانون ، وذلك هو السر وراء المحاولات المجنونة لتعطيل الشرائع السماوية ، وهى محاولات نجحت بين أهل الكتاب الذين سبقونا ، فأمسى الوحى حبرا على ورق .

ويراد فى كبوة الإسلام المعاصر أن يفعل المسلمون مثلما يفعل غيرهم ، فتوضع شرائع الإسلام على الرف ، أو يحكم على بعضها بالإعدام تمهيدًا لإنقاذ الحكم فيها كلها .

والأمر لا يحتاج إلى الحيلة ، فلنقل : إننا نتجاوز النص إلى روح النص ، أو لنقل إن الظروف التى نزل فيها النص قد طرأ عليها تغيير ، فليتغير النص تبعًا لذلك !!

ما أسهل تطويق الإسلام بهذه الطريقة! وجعله اسما لا حقيقة له ، أو جعله شكلا لا موضوع له !

وقد بدأ سماسرة الاستعمار تنفيذ الخطة ، فسمعنا من يقول : إن الضرائب تغنى عن الزكاة! ومن يقول : إن الصلاة والصيام يعطلان الإنتاج ، فلا حرج من التنازل عنهما! ومن يقول : إنما حرم لحم الخنزير لقذارة مراعيه قديمًا وقد زالت الآن هذه العلة! ومن يقول : إن العربدة فى الطريق هى سر تحريم الخمر ، فمن يتناول منها قليلا فى بيته فلا حرج . . . إلخ .

وهكذا ، تنهد أركان الدين وتضيع معالم الحلال والحرام باسم «روح النص» «وتغير الظروف» ، ويمنع انتفاع الناس بالإسلام ، بل يمنع دخولها فيه! وينفسح المجال بعد ذلك للإلحاد ، أو للأديان الخرافية !!ومعروف أن تعطيل شرائع الحدود والقصاص ، كان تمهيدًا للقضاء على العبادات والعقائد والتاريخ والتراث واللغة ، وسائر مقومات الأمة . . !

ونحن إذ نوصد الباب فى وجه الاستعمار الثقافى نفتح الباب على مصراعيه أمام أولى الألباب ، ليحسنوا فقه الإسلام وعرضه ، وتذكر بدءاً أننا لسنا من المتعصبين للفقه الظاهرى ، بل على العكس نحن مع الجمهور على أن القياس من

أدلة الشريعة ، ومع أغلب الفقهاء فى رعاية المصلحة المرسلة ، واحترام جملة القواعد التى تحكم الفكر التشريعى عندنا .

والحق أن علم أصول الفقه علم جليل القدر ، وهو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق أدل على خصائصنا من الفلسفة الإسلامية .

لكن علم الأصول مجمد فى كتبه ، والمسيرة فى القرون المتأخرة تكاد تكون متخلية عنه! والعالم الإسلامى تحكمه بعض الآراء الاجتهادية التى لقيت حظوة عند فريق من الناس ، ثم قامت عليها تقاليد راسخة ، ثم اعتبرت هذه التقاليد هى الإسلام بعينه ، واعتبر تركها خروجا على الدين ، وربما وصف تاركوها بالارتداد!!

إذا كان ذلك ما دعا إلى الكلام عن النص وروح النص ، والظروف وتغاير الظروف ، فللموضوع وجه آخر ، وإن لم يحسن أصحابه الكلام فيه ، أو تصوير شكاتهم كما يجب !

أعرف مجتمعات حبست فيها ألوف الفتيات لأن الكفء لم يتقدم! من الكفء المرتقب؟ أستاذ فى العلوم؟ محام قدير ؟ أديب رائع ؟ تاجر ناجح ؟ شاب تزينه التقوى وخدمة المثل ؟ لا ، لا كفاءة وراء هذه الخلال كلها ! المهم النسب الفارع ، والمكانة المدعومة بالمال الكثير ! .

وقضية الكفاءة يسندها فقه معين! ، لكن هناك فقها إسلاميا آخر يقول إن الزنجى المسلم كفء لبنت الخليفة الهاشمى ، لا ، هذا فقه مهمل! لماذا لا يكون الإهمال نصيب الاجتهاد الأول؟ هذا ما حدث !

فهل الدين من حيث هو عقيدة وشريعة - يزدرى بسبب هذا الذى حدث ؟

إنه لا شكاة من نص معين ، لا شكاة من أمر أو نهى عن محرم ، الشكاة من فهم ضيق لأحد النصوص أو من واجب لم يرد به أمر ، أو من تحريم لايسنده نهى!!

وعلاج هذا الخلل ميسور ، بل هو عمل المجددين والمصلحين والدعاة الفاقهين .

قال لى أحد الناس : إن إعطاء الأنثى نصف نصيب الذكر موضع ضيق من المثقفين فى الغرب! وهم يرون المساواة بين الجنسين ، وإهمال هذا النص!

قلت : إن هذا النص جزء من خطة اجتماعية كبرى تجعل نفقة الفتاة مسئولية الأسرة لا مسئوليتها الشخصية ، وقد ساوى الغرب بين الذكر والأنثى فى طلب الرزق ، وخرجت الفتاة للكدح من سن السادسة عشرة ، فماذا حدث؟

إن الغربيين يجب أن يخجلوا من الأدران الجنسية التى تلف بلادهم وتلطخها بالعار لتكليف المرأة بالتكسب منذ صباها الباكر ، والزعم بأن الجنسين سواء فى الغنم والغرم .

وأنا لا أزال حائرًا فى تعليل هذا الرضا العام ، بانتهاك الأعراض ، وإشباع الرغبات ، وتقديم الأجساد فى المراقص والحدائق!

وعلى أية حال ، الرجل ملزم بالإنفاق على زوجته إن كان زوجًا ، وعلى ابنته إن كان أبا ، ولا تكلف الفتاة بالتعرض للارتزاق كى تعيش ، فإنها ستفقد نفسها فى مآزق كثيرة !

ولها يقينا أن تعمل وتكسب فى أوضاع متخيرة مضبوطة ، لها وليس عليها! ومع ذلك فما ناله الرجل من زيادة فى ميراثه سيرجع لها بصورة أو بأخرى .

وسوف يجنى الغرب نتائج فسوقه! ولولا أتباع الرسالة الخاتمة فقدوا القدرة على التصدى لقيادة الإنسانية ، لما بقى الغرب فى مكانته تلك ، مع بغيه وبغائه!! إنه باق لعدم وجود البديل وحسب !

القرآن الكريم قد أحكم الله آياته ، ويسَّرَ فهمها وذكراها ، وما تشابه من آيات القرآن فلا علاقة له بالأحكام العملية ، والمسالك الفردية والاجتماعية . .!

وليست هناك آية قط يمكن الحكم عليها بوقف التنفيذ ، أو تعطيل عملها ، تصريحًا أو تلميحًا .

وإذا كنا نعيب على بعض الماجنين تبرمهم بأحكام الحدود والقصاص ، فهناك عيب أشد على نفر من المنتمين إلى الدين ، أنهم أطاعوا ما استسهلوا ، وتركوا ما استوعروا .

إنهم صلوا لأن الصلاة عمل لا يجر وراءه المتاعب . . أما قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا** . . ﴾[1] فأمر فوق طاقة الجبناء الحريصين على منافعهم ومناصبهم ، هنا يمكن اللجوء إلى تأويل النصوص وتغاير الظروف ، وجعل العجز عقلاً ، والجبن حكمة . . .!

والبعد عن الصراط المستقيم يستوى أن يكون الانحراف فيه ذات اليمين أو ذات اليسار .

(١) المائدة : ٨ .

٤٣. ما حاجة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر؟ وما أثر إنكاره على السلوك الإنسانى؟

إذا طال الكلام عن الدار الآخرة فلا يأمن أحد! فإن توارث الذهول عنها أمات الشعور بها ، حتى قال الحسن البصرى عن الموت ـ وهو أول مراحلها ـ **ما رأيت حقا أشبه بباطل من الموت..!**

وكل حقيقة يجب أن نعترف بها خصوصًا عندما تتصل هذه الحقيقة بمستقبلنا ، وعندما يكون الشاطئ عميقا ، ثم تترك غرا لا يحسن السباحة ينزل فيه ، فإنك قاتله !!

قد نستغنى عن بعض الحقائق وإن كان الجهل بها عيبا ، مادامت لا تمسنا ، أما إذا ارتبط كياننا المادى والأدبى بشىء ثم غفلنا عنه فهنا الطامة . .!!

إننى أتخيل فجيعة الجاحد عندما يحس فجأة أنه مكتمل الحواس أمام غيب تحول إلى شهادة! أمام أمر كان يهزأ منه فإذا هو جدار يصدع دماغه! لقد وقف وجها لوجه أمام ما كان ينكره بقوة ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾[1] .

ليت ! وهل ينفع شىء ليت ؟ إنه أضاع ماضيه فى الحياة الأولى سدى ، وها هو ذا يحصد مازرع ! ما فكر قط فى هذا اليوم ولا أعد له عدة ، ومع التأوه والندامة يقول : ياليتنى قدمت لحياتى ، وهيهات .

وهناك شخص آخر ، كان فى دنيا الناس يذكر الله ويغالب النسيان ، ويستعد لمواجهة عاصفة فهو يترك فراشه منطلقا إلى المسجد ، يغمض عينيه عن المفاتن المبذولة ، يستعف عن المحرمات وإن كثرت حولها المغريات .

---

(١) الفجر : ٢٢ ـ ٢٤ .

إنه ـ يوم الحساب ـ يتلقى نبأ نجاحه فيصيح جذلان . مسمعا كل إنسان ﴿ **هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾[1] .

إنها فرصة العمر ، بل فرصة الخلود! شتان بين مصير ومصير !

وأثر الإيمان باليوم الآخر عميق فى التربية النفسية والاجتماعية ، إنه يتحمل حينا ليظفر بالراحة بعد حين! كما قيل لأعرابى : تصوم فى هذا اليوم الحار؟ قال : **أصومه ليوم أحر منه !**

وتعليل النفس بالآمال عون على الرضا بالمتاعب ، وحبسها على ما تكره لتنال ما تحب! وكما قال الشاعر :

منى إن تكن حقا تكن أسعد المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدًا!!

وهذا الاستثناء بالنسبة إلى الآخرة مرفوض ، فإن الدار الآخرة أحق وأثبت من الدار الأولى ، على نحو ما ذكر العارفون : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، ومن هنا صح وصفها بما يدل على زيادة الحس فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[2] . والحيوان كالفيضان مصدر على سعة المعنى .

وقد كثرت فى القرآن الكريم المواطن التى تذكر فيها الآخرة لتصحيح السلوك فى هذه الدنيا أو تزكيته وترقيته ، فعندما ضاقت زوجات النبى ﷺ بمعيشته الخشنة قيل لهن : الأمر على غير ما ألفتن قديمًا ، لقد جئتن من بيوت حافلة بالسعة والمتاع إلى بيت لا سرف فيه ولا ترف !

إنه بيت الكفاح والخشونة ! بيت التلاوة والتهجد ! لابد لرب هذا البيت أن يكون قدوة للمضطهدين والمحاصرين ، ومن صودرت ثرواتهم وفقدوا طمأنينتهم لنصرة الإسلام !

من طلب متعة الحياة فلا مكان له هنا ، ومن رنا إلى الآخرة وسعى لها سعيها

(١) الحاقة : ١٩ ـ ٢٤ .　　　(٢) العنكبوت : ٦٤ .

فليبق موطنا نفسه على حياة ناشفة! ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] .

وجمهور الناس قد يحس غصه وهو يرى المرتشين والمفسدين أو الملحدين المجرمين يمرحون فى طول البلاد وعرضها ، عليهم شارة النعمة وأمارة القوة .

وقد يكون ذلك مبعث فتنة لأهل التقى والعفاف ، لكن الله سبحانه يمحو ذلك محوا عندما يقول : ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾[2] .

ومن مشاهد القيامة مشهد يتكرر فى القرآن كثيرًا ليحارب ظاهرة مؤذية تسود الأمة العربية والإسلامية من زمان غير قريب حكام الجور الذين يتهافت حولهم الأتباع ليؤازروهم على ظلمهم ، ويشاركوهم فى منافعهم الحرام .

إن التبعة فى الفساد والإفساد مقسمة على الفريقين قسمة عادلة ، لأن هؤلاء يوحون وأولئك ينفذون ، الرءوس والأذناب شركاء فى اقتراف الجرائم ، وفتنة المستضعفين وإثارة الفتن ، ومن هنا جمعهم مصير واحد .

وتدبر قوله تعالى يصف هذا المصير ، ويذكر ما يقع فيه من حوار! ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾[3] إن الكبراء عندما يرون الأذناب يلحقون بهم فى دار الجحيم تسوؤهم اللقيا ، ويصيحون مستنكرين مرآهم! لطالما هشوا لهم فى الدنيا وسارعوا إلى لقائهم ، أما اليوم فإن الفريقين يتبادلان السخط ، والتشاؤم وعدم الترحيب . .!!

---

(١) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ . (٢) آل عمران : ١٩٦ ـ ١٩٨ . (٣) ص : ٥٥ ـ ٦١ .

ويتذكر الفريقان أنهم كانوا يتفقون على إهانة المؤمنين ، ونعتهم بأقبح النعوت ، ويتظاهرون على اضطهادهم وأذاهم! ، أين هم الآن؟ .

وقالوا : ﴿ **وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ** ﴾[١] .

تسجيل هذا المنظر الذى سيقع حتما ، والتعجيل بعرضه الآن ، فيه طمأنة لجمهور المؤمنين الذى أرهقه الاستضعاف والاستهزاء! أما الكافرون فإنهم لا يعونه ولا يصدقونه !

ومنظر آخر جدير بالتأمل ، يقوم بعض أهل الجنة بسياحة قصيرة يستكشفون فيها مصاير من كانوا يعرفونهم قديمًا من أهل الضلال والكفران ! ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ** ﴾[٢]؟

هذا القرين يظن المؤمنين رجعيين يصدقون الخرافات ، ويتبعون الترهات ، فهو يقول لصاحبه : أتصدق أننا بعد فنائنا نبعث ونجزى؟

ويشرف الرجل المؤمن على قرينه القديم ليراه وسط أهوال ﴿ **قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** ﴾[٣] !

وعبارة إن كدت لتردين ، تشعر المؤمنين فى يوم الناس هذا بضرورة الثبات على الحق ، لأن التهوين فيه طريق السقوط والضياع ، كما تشعرهم بقية الكلام بفضل الله عليهم ، إذ شرح صدورهم لهذا واستدامهم عليه !

وفى دنيانا الحاضرة ، ينفر المنافقون من أهل الإخلاص واليقين ، ويهجرون مجالسهم ، ويبعدون عنهم إذا جمعتهم المصادفات فى طريق ، ذلك لأن قلوبهم مع الكفر وأحزابه ، ما يأنسون إلا بهم . . . بيد أن الحال تتغير تغيرًا عميقًا فى الدار الآخرة ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ**

---

(١) ص : ٦٢ ـ ٦٤ .   (٢) الصافات : ٥١ ـ ٥٣ .   (٣) الصافات : ٥٤ ـ ٥٧ .

ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[1] !

إن القرآن الكريم يربى الناس بيوم الحساب حين يذكره وحين يكرره ، ويعالج عللهم بما يسوق من صوره !

إنه يذكره لإصلاح الدنيا لا لهدمها ، ولتعليق الهمم بالأبقى والأجدى لا بالسراب الخادع .

أما الماديون الذين يزحمون الآن مشارق الأرض ومغاربها ، فما يعرفون إلا هذا الشراب ، وما يعولون إلا على أيامهم فوقه وما يرمقون السماء بنظرة رجاء ، وما يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان .

مررت يوما بأحد شوارع القاهرة ، فرأيت عربة قد نفق الحمار الذى يجرها ، وتجاوزت صاحبها الحزين على ضحيته ، ونظرت إلى الدابة الميتة عند أقدامه وقلت فى نفسى : انتهى أمرها ، إن كثيرًا من القادة والساسة لا يرقون بحياتهم فوق هذا المستوى الحيوانى ، يظنون أمرهم انتهى عندما ينفقون كهذه الدابة ، ألا ما أحقر الكفر ، وأسوأ تصوره للوجود !

---

(١) الحديد : ١٣ .

٤٤. ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير، على ضوء ما يحدث فى الدول المتقدمة التى تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط ؟؟

لا نستطيع إنكار المدى الكبير الذى بلغته الحضارة الحديثة فى اكتشاف أسرار الكون! إنها حضارة ذكية العقل واسعة المعرفة ، وقد طوعت ما بلغته إلى تقدم صناعى باهر طفر بالإنسانية طفرة رحيبة ورهيبة ، فى جميع المجالات المدنية والعسكرية . . .

ولكن هناك إحساسًا عامًا بأن هذا التقدم المادى لم يواكبه تقدم روحى ، وأن إنسان العصر الحديث لا يختلف كثيرًا عن إنسان العصر الأول فى غرائزه وشهواته!

وإذا كانت ثمة فروق ففى الوسائل لا فى البواعث والغايات ، بل لقد قيل فى إنسان العصر الحاضر : إن عضلاته أكبر من عقله .

والواقع أن الإنسان يتضاعف شره عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق ، وطالما رددنا أن الإسلام عقل يرفض الخرافة ، وقلب يكره الرذيلة!

إن الكمال الحقيقى امتداد ونضج فى جميع الملكات الإنسانية ، وهذا التوازن أساس لابد منه لقيام مجتمع رشيد . وحضارة يانعة الثمار ، مديدة الظلال ، فهل الحضارة الحديثة ـ بعد تلك المقررات ـ جديرة بالخلود؟ أو هى أرجح من غيرها فى موازنة منصفة؟ الحق ، لا . .!

فالرجل الأبيض ، قائد هذه الحضارة ورائدها ، إنسان طافح الأنانية ، يشده إلى منافعه ألف رباط ، وقبل أن نشرح شرهه المسعور ، واستعلاءه على غيره ، نذكر أحد مظاهر الحضارة الإسلامية القديمة !

فالعرب الفاتحون قدموا الإسلام للأعاجم ، ونقلوهم به من الظلمة إلى النور ، وبعد ردح من الزمان كان هؤلاء يصلون وراء الأتقياء من شتى الأجناس ، ويتلقون عنهم العلوم الدينية ، دون غضاضة أو كبرياء . .

فالبخارى هو المحدث الأول ، وأبو حنيفة الفقيه الأول ، والحسن البصرى المربى الأول ، وسيبويه اللغوى الأول . . . إلخ ولم يشعر المصريون بأى ضيق من أن يقودهم «قطز» فى معركته الهائلة ضد التتار بعين جالوت ، وما خامرهم حرج فى أن يقودهم صلاح الدين ضد الصليبيين فى حطين .

إن الإسلام محا النعرات الجنسية فى أغلب الميادين ، وربط الناس بمثلهم العالية وحدها !

أما الجنس الأبيض ، وطلائعه الغازية والمكتشفة ، فقد كانوا يعبدون أنفسهم ، ويقدسون مصالحهم ولا تحكمهم إلا شرعة الغاب!

اكتشف الإنجليز أستراليا فماذا فعلوا بسكانها؟ شرعوا يطاردونهم من مكان إلى آخر حتى حصدوا جمهرتهم ، وأخبرنى صديق قادم من أستراليا أن البيض ييسرون أردأ الخمور لهؤلاء السكان الأصليين حتى يقضوا عليهم القضاء الأخير ، وتبقى أستراليا للمغيرين المسلحين بالتقدم العلمى والصناعى ، المجردين من كل رحمة وإيثار . . .!

أكان سكان أمريكا الأصليون أسعد حظاً من أستراليا ؟ لقد تتبعتهم حرب الإبادة من بلد إلى بلد ، وكان المكتشف الذى يسيل ريقه للذهب ينظر ، فإذا وجد هنديا أحمر على رأسه تاج من ذهب ، قطع الرأس ، وعاد بالتاج . .!

قد يقال : كان ذلك فى الأيام الأولى لاكتشاف العالم الجديد ، وقد ارتقت اليوم البشرية ، وضاقت بما كان يفعله المستعمرون الأولون ، واستنكرته!

ونجيب أن الاستهانة بالأجناس الأخرى كانت وما زالت ديدن الرجل الأبيض ، وعندما أعوزه الانتصار السريع ضد اليابان ألقى قنبلتين مبيدتين على هيروشيما وناجازاكى فقتل نصف مليون إنسان بين طفل وامرأة وشيخ وشاب ، ولا ريب أن عشر هؤلاء الهلكى فقط هو الذى كان يمكن أن يجند فى الحرب . .!!

المأساة أن هؤلاء «المتحضرين» ارتقوا علميا وهبطوا خلقيا ، وأنهم عبيد لذَّاتهم العاجلة ، وأن الفكرة عن يوم الدينونة غامضة أو معدومة لديهم ، أنهم لم يسمعوا يومًا من يقول لهم : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ**

هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ . . . ﴾[1] .

إن الإنسان يتحول إلى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر ، لاسيما إذا كان هو واضع القانون ومطبقه! إن القانون يومئذ يحرس الأقوياء ويجتاح الضعفاء ، وقد رأينا كيف يباد الشعب الفلسطينى ويمحى وجوده فوق أرضه ، ويجاء بألوف مؤلفة من اليهود لتحيا فوق أنقاضه ، والقانون الدولى مكمم الفم ، لأن ملاك القوة يريدون ذلك ، وأجهزة الدعاية قديرة على إبطال الحق وإحقاق الباطل . .!

إن الغرائز المهتاجة ، والعادات السيئة ، والموروثات الرديئة تهزم الحق فى دنيا الناس ، وقد نظرت إلى جموع المستشرقين ـ وهم قوم ذو ثقافة واسعة ـ لفتهم ضغائن غبية ضد «محمد» ﷺ ، فأذاعوا عنه أنه كبنى جنسه محب للنساء . . .

إن هؤلاء المستشرقين قرءوا فى العهد القديم أن سليمان جمع فى عصمته ألفا من النساء ، سبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الإماء ، فهل كان لدى محمد عشر ما عنده؟ لا ! نصف العشر؟ لا ! ربع العشر؟ لا !

ومع ذلك فسليمان نبى حكيم ، ومحمد دون ذلك !!

ونشيد الأنشاد الذى لسليمان تسمع فيه صيحات الباحث عن الحبيب المجهول أو المعلوم ، أما قرآن محمد فليس فى طوله وعرضه إلا جؤار
يدفع البشر إلى ربهم ، ويذكر بيوم لقائه ، ومع ذلك فمحمد لا يوحى إليه ، والأشواق وراء الحبيب المنشود هى الوحى المعصوم! ما قيمة العلم إذا لم يكن معه إنصاف ولا عدالة ؟ إننى أمقت الذكاء الخبيث ، والثقافة المسفة ، وعندى أن امرأة حصانًا غافلة أشرف من مومس عبقرية ، وأن رجلاً ساذجًا يعرف ربه أشرف من خبير فى الذرة يعبد نفسه ؟!

وقد أفهم ما يعنيه الرسول الكريم فيما روى عنه : «**النار أسرع إلى فسقة القراء منها إلى عبدة الأصنام! فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الوثن؟ فيقال لهم: ليس من يعلم كمن يجهل**»[2] .

والحضارة الغربية ، كما قلنا آنفا ، اتسع علمها وضاق أدبها ، أو طالت ثقافتها وقصرت تربيتها ، فهى الآن تصنع أجيالاً لا تعرف إلا الحياة ليومها فوق هذا التراب ،

---

(١) إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٤ .

(٢) الحديث رواه المنذرى فى الترغيب والترهيب وقال : هو على غرابته له شاهد من الصحيح .

وتؤمن أنها لن تحيا مرة أخرى أبدا ، ومن هنا غلب عليها هذا السعار فى اقتناص الموجود ، والركض وراء المفقود ، والحقد على من وجد ، والازدراء على من فقد!

إنها لا تؤمن بالله واليوم الآخر! ورجال الدين مشغولون بسخائمهم القديمة! إن كانوا هودا فهمهم الأكبر امتلاك أرض الميعاد كما يحلمون ، وإن كانوا نصارى فهمهم الأكبر استعادة قبر المسيح والثأر ممن أخذوه فى العصور الوسطى . .

وما يدور فى ذهنهم تعاون عام لإبقاء الأرض موصولة بالسماء ، فهل هذا تقدم علمى أم نجاح للغرائز الهابطة والأغراض الدنيا ؟ . . .

على أن القرون الأولى لم تخل من علم أثارت به الأرض . وزينت به الحياة! والمنكور هو انعدام التوازن فى أية حضارة بين جوانبها المادية والأدبية ، لقد بنى المصريون الأهرام ، والبناء فى ذاته ليس عيبا ، وإنما العيب أن تهلك أسرة فى سبيل بناء مقبرة الملك! وبنت عاد قصورًا شامخة ، وأبراجًا عالية ، فإذا اصطدم برغبتها أحد سحقته ، وأغراها جبروتها بحرب الإبادة ، فكان من قصص القرآن عنهم ﴿ . . . أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[1] .

ورفض هؤلاء وأولئك تقوى الله ، وسماع الناصح الأمين فماذا كانت العقبى؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾[2] .

إن هذه المدنيات البائدة قامت على علم له بحاجات الناس يومئذ وفاء ، ولقد اغتروا بهذا العلم وحسبوا أنهم يسبق بهم ولو أثقلهم الهوى ، وهيهات ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . . . ﴾[3] .

إن العلم مهما تقدم لا يغنى عن الإيمان ، والإيمان الذى نحترمه هو الذى يعانق العقل وتزدان به الحياة .

---

(١) الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣١ .　(٢) الفجر : ٦ ـ ١٤ .　(٣) غافر : ٨٣ .

٤٥. لماذا كانت المذاهب الفقهية المعمول بها أربعة، وما ضرورتها؟

أئمة الفقه الإسلامى المشهورون أربعة ، وقد كانوا قديمًا ضعف ذلك مرة أو مرتين ، بيد أن الذين رسخت مكانتهم وخلد ذكرهم أولئك الأربعة ، الكبار أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل !

أكان ذلك لمصادفات عارضة؟ أم تم وفق سنة البقاء للأصلح؟ لا تعنينى الإجابة وإنما يعنينى القول بأن أولئك الرجال الأربعة كانوا قمما فى التقوى والمعرفة ، والنصح للأمة ، وإقصاء مشاعر الرغبة والرهبة مع كل حاكم مهما امتدت دولته وعظمت سلطته . .

والخلاف الفقهى أول أمره كان علامة صحة ، ولا ضير من بقائه إلى آخر الدهر مادام لا يعدو حدوده! وحدوده هى دائرة الأعمال الفرعية .

أما أركان الدين ومعالم الإيمان ، ودعائم الأخلاق ، ومعاقد الشريعة ، فهى موضع اتفاق بين خاصة المسلمين وعامتهم . . .

والذى ضخم الخلاف الفقهى ، وشغل الناس به على نحو مستهجن أمران :

أولهما : جهل الغوغاء ، وفرح الواحد منهم بحكم عرفه ، ومغالاته به كما يقول الناس فى مصر : «الكعكة فى يد اليتيم عجب» ؛ ولذلك ترى هؤلاء يقدمون فقه المضمضة والاستنشاق على رعاية العهود والأمانات! وهذا ضلال مبين .

والأمر الثانى : طول أجل الفساد السياسى فى تاريخنا ، فقد أخرس الألسنة عن الكلام فى الفقه الإدارى والدستورى والدولى ، وضمانات الشورى والمال العام ، وأغرى أهل البطالة بالثرثرة المملة فيما وراء ذلك حتى جعل جماهير تهتاج لقضية «وضع اليدين» فى أثناء الصلاة ولا تتحرك بقوة لضرب الاستعمار المغير ، ومحو الأسباب التى جلبته . .

ولو تعاون المسلمون على تنفيذ ما اتفقوا عليه ـ وهو لب الدين وجمهرة تعاليمه ـ لكان الخلاف فيما وراءه شيئًا لطيفًا وطريفًا ، ومصدر تراحم لا خصام .

والأئمة الأربعة كما أسلفنا القول رجال كبار ، لكنهم ليسوا معصومين ، ولا فرض أحدهم نفسه على الأمة ، ولا كلفنا شرعا باتباع واحد بعينه منهم .

وإنما نحترمهم ؛ لقول رسول الله ﷺ : «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه**» .

وأحب أن أعرض نماذج متناثرة للخلاف الفقهى تومئ إلى طبيعته وعلته ، أما التأصيل العلمى لأسباب الخلاف فقد شرح فى أماكن أخرى .

هل القاذف الكذاب نقبل شهادته بعدما تتم توبته؟ . . . من الأئمة من يرفض شهادته أبدا وإن تاب ، ومنهم من يقبلها بعد توبته .

وأصل المسألة تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا** ﴾(١) .

قال البعض الاستثناء وقع من الوصف بالفسق ، وبقى الحرمان من الشهادة على التأبيد . وقال آخرون : بل الاستثناء يلحق الجملتين معا ، وتقبل شهادته ليكن هذا أو ذاك ، فلا حجر على فهم !

والتائبون من جريمة قطع الطريق ، إذا استسلموا قبل إلقاء القبض عليهم ، تقبل توبتهم وتسقط عقوبتهم لقوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٢) فهل يسقط الحد عمن ارتكب جريمة السرقة ، أو الزنى؟ إذا تاب؟

من الفقهاء من أعمل القياس ، واستشهد بالسنة ، وأوقف الحد ، جاء عن أنس بن مالك : كنت عند النبى ﷺ فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، إنى أصبت حدا فأقمه علىَّ ـ قال : ولم يسأل عنه ـ فحضرت الصلاة ، فصلى مع النبى ﷺ ، فلما قضى النبى الصلاة قام إليه الرجل ، فقال : يا رسول الله ، إنى أصبت حدا فأقم فىَّ كتاب الله!! قال : «**أليس قد صليت معنا؟ قال: بلى ! قال: فإن الله عز وجل قد غفر لك ذنبك**»!

وهناك فقهاء آخرون يرون ضرورة إقامة الحد رافضين القياس ومؤوِّلين الحديث الوارد . . لكلٍّ رأيه ولا تثريب على أحد . .!

---

(١) النور : ٤ ، ٥ .   (٢) المائدة : ٣٤ .

وفى فقه الأسرة نقرأ شريعة الخلع! ولا أدرى لماذا أهملت؟ ولماذا كان القضاء يأمر رجال الشرطة باقتياد الزوجة الكارهة إلى بيت زوجها لتسلمه جسدها !

وهل الخلع طلاق أو فسخ لعقد الزوجية؟ خلاف بين الفقهاء ، وظاهر القرآن أن الخلع فسخ ؛ لأن الله سبحانه يقول : ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ** ﴾[1] ثم يقول : ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾[2] وفسر التسريح بعد ذلك بقوله :﴿ ...**فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾[3] .

وقد توسط الخلع أحكام الطلاق بقوله سبحانه :﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ** ﴾[4] .

فالظاهر أن رد المرأة للمهر الذى قبضته عود فى العقد! ويحكم القضاء بالفسخ .

ويرى آخرون أن الخلع طلاق بائن للحديث الوارد للإشهاد عليه ، والحق أنى حائر فى ذلك مع قوله تعالى :﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾[5] .

كيف يكون الإشهاد نافلة مع هذه التوكيدات؟ ويغلب على ظنى أن التقاليد التى ضامت المرأة من قديم لها دخل كبير فى هذا الاضطراب .

إن التحقيق العلمى يوجب احترام شريعة الخلع التى أهملت ، كما يوجب ضرورة الإشهاد على الطلاق .

ونترك فقه الأسرة إلى طرف من فقه العبادات ، إننى قضيت ردحا من الزمان أعمل فى المساجد ، ورأيت مظاهر الخلاف بين الأئمة الأربعة : هذا يقنت فى الفجر وذاك يصمت! هذا يصلى نافلة قبل المغرب وذاك يأبى! هذا يحيى المسجد فى أثناء الخطبة وذاك يجلس! هذا يقرأ فاتحة الكتاب وراء الإمام وهذا ينصت! هذا يقبض يديه إلى سرته ، وهذا يقبضهما إلى صدره ، وهذا يسدلهما إلى جنبيه!

قال لى صديق : أيسرك هذا التفاوت؟ قلت : كنت أوثر وحدة الصورة ، لكنى أدع الوضع كما ترى ؛ لأن عنايتى بالموضوع أكثر من عنايتى بالشكل ، الأن هناك وجهات نظر فقهية محترمة وراء هذا التفاوت ، أكره الاصطدام بها . . . .!

(١) ، (٢) البقرة :٢٢٩ .   (٣) البقرة : ٢٣٠ .   (٤) البقرة : ٢٢٩ .   (٥) الطلاق : ٢ .

المشكلة ليست فى هذا الخلاف الفقهى ، إنها فيما وراءه من غلو وتعصب ، فالذى يمنع القنوت فى الفجر وبعض جماعة القانتين يظن أنه استنقذ القدس من براثن اليهود! ومنع بدعة تقود إلى النار!

المشكلة فى الضحالة الفكرية والضغائن النفسية التى تغلف أولئك الناس ، وهى آفات تفسد الطاعات ولا أحسب أن صلاة تقبل معها !

إن هؤلاء المتعصبين يعيشون داخل حجب سميكة ، كما يعيش الكتكوت داخل قشر البيضة قبل الفقس لا يرى أرضه ولا سماءه إلا هذه الدائرة الضيقة . . .

والدين بداهة غير هذا ، الدين لا خلاف فى عناصره قلب خاشع وفكر فاضل ، وأمانات مرعية فى تقلب المرء على ظهر الأرض منذ رشد إلى أن يلقى ربه !

ليختلف المسلمون فى الفروع العملية وراء أئمة أربعة أو ثمانية ، فالخطورة لا تنشأ من الخلاف الفرعى ، إنما تنشأ من فساد الأفئدة والألباب . . .!

على أن الخلاف يحسم ، ويختار رأى واحد حتمًا عندما يتعلق الأمر بالدولة وشئونها الإدارية ، وقوانينها الحاكمة فى الدماء والأموال والأعراض!

لنفرض أن فقيها يرى أن طلاق البدعة يقع ، وفقيها آخر يرى أن طلاق البدعة لغو ، فهل تقف أجهزة الدولة فى انتظار غلبة أحد الاجتهادين؟ إنها لن تدور أبدا والحالة هذه!

وإثبات الطلاق لابد من تدوينه فى سجلات ومن رعايته فى النسب والتوارث!

ومن حق الدولة أن تختار مذهبا فقهيا لتدير الأمور على أساسه ، وتحفظ الحقوق وفق نصوصه . .

هل المخدرات خمر يعاقب على تناولها أم لا؟ من حق الدولة أن تختار مذهبا فقهيا تجرم به تناول المسكرات والمخدرات جميعا ، وتهمل المذاهب الأخرى .

ويطرد الأمر بالنسبة إلى قضايا القتل مع اختلاف الدين ، ومع الملابسات الأخرى .

ويمكن أن يتغير القانون ، وأن تترك الحكومة مذهبا وتؤثر عليه آخر ، وذلك وفق نشاط الاجتهاد الفقهى ووزن الناس لمصالحهم المتجددة ، وذاك ما نشرحه فى فصل آخر إن شاء الله .

٤٦. ما مدى حرية الفكر فى الإسلام، وكيف نوفق بينه وبين قتل المرتد؟

هناك فرق بين حرية القول وحرية الشتم! وحرية العمل وحرية الإيذاء! أنا أقول ما أشاء وأفعل ما أشاء ، ولكن تقف مشيئتى عندما تبدأ حرية غيرى وحقوقه . .

وقد اقتنعت بأن كمال الإنسانية وارتقاءها منوطان بوفرة الحريات الصحيحة ، واستطاعة كل إنسان أن يتمتع بها دون مشاكسة أو افتيات . .

وقد قلنا فى فصل مضى : إن حرية المرء هى الوجه الآخر لعبودية الله وحده ، فالمؤمن حقا رجل تختفى من حياته رهبة الطواغيت ، ويقول ويعمل غير مكترث إلا برضا الله وحده . .

وحرية الفكر هى المهاد الأول ، أو المهاد الأوحد لمعرفة الله ، واستكشاف عظمته ، وتقرير حقوقه ، وإدراك هداياته . .

عندما أسرح بعينى فى الزروع والثمار استجابة لأمر الله ، ﴿ **انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ** ﴾[1] فأنا أسبح الله وأحمده وإن لم يتحرك لسانى بكلمة !

قد يكون هذا التسبيح الصامت معادلا لركعتين من النوافل ، وربما نما وأضحى معادلا لركعتين من الفرائض! ، وذلك حسب قيمة هذا الفكر .

قد يكون تحية إعزاز لمن أبرز الحياة من الموات ، وأخرج ألوانا وطعوما شتى من أرض داكنة هادمة !

وقد يكون ـ إلى جانب ذلك ـ عناية بالحصائل الناتجة ، وتكثيرًا لها ، ودفعًا للآفات عنها ، ونفعًا لعباد الله بها ودراسة ذكية للتربة ، وطبيعة العمل فيها وإمكانيات الإفادة منها . .!

المهم فى الجو الدينى الصحيح ألا أثقل العقل بما يؤوده عن الفكر المثمر ، أو هذا التسبيح الصامت . .

---

(١) الأنعام : ٩٩ .

والتدين المخترع والفاسد شديد المهارة فى صرف المؤمنين عن العمل العقلى والقلبى ، وتعليقهم بأشكال ورسوم وأوراد ما أنزل الله بها من سلطان .

مع أن هذه الأعمال ركن فى الإيمان ، وغيرها إما بدع ، وإما نوافل لا تقبل إلا بعد اكتمال الفروض!

ليس هذا استطرادًا ، وإنما هو بيان لقيمة الحرية الفكرية التى اطردت الآيات فى القرآن الكريم لتقريرها وتقديرها . . . ولكننا للأسف لم نحسن فهمها ولا البناء عليها . .

وقد ظفر أسلافنا بأنصبة كبيرة من تلك الحرية الغالية كانت وراء تفوقهم الحضارى وسيادتهم العالم زمانا طويلا . .

ورأيى أن هذه الحرية خرجت على نفسها أو تحولت إلى فوضى خلقية فى بعض الميادين ، فليس من حرية الفكر أن ينشد أبو نواس خمرياته ويفرض شذوذه على الأدب العربى . .

وليس من حرية الفكر أن ينشغل العقل الإسلامى بالبحث فى ذات الله ـ متأثرا بالفلسفة الإغريقية ـ ويترك البحث فى المادة وخصائصها ، وعندى أن الجانب الطبى فى ثقافة ابن سينا ألمع وأضوأ من الجانب الفلسفى! وأن الحرية الفكرية عندنا انكمشت حيث يجب أن تمتد ، وامتدت حيث يجب أن تنكمش ، على أنها اعتلت فى العهود المتأخرة ، وكادت تموت ، وذلك تبعا لاضمحلال الحرية السياسية فى حياتنا العامة ، وغلبة الحكم الفردى .

والحريات كالفضائل يقوى بعضها بعضا وينميه ، ومع ما أصاب الحريات إجمالا من علل ، فإن الحرية الدينية بقيت قوية وعاشت فى ظلالها طوائف اليهود والنصارى والباطنية دون حرج ، وما أحسب دارا أخرى غير دار الإسلام ، يقع فيها هذا التسامح!

لقد كانت الحرية الدينية أعصى الحريات على النقض ، كان عرب اليمن يتقاتلون ويرخص بعضهم دم بعض ، وكان يهود اليمن مرعيى الزمام مصونى الحقوق! وبقوا وافرين حتى التحقوا بإسرائيل!

ومن الطرائف التى يحكيها الأدباء أن الخوارج اعترضوا نفرًا من الناس ، وأحبوا أن يتعرفوا هويتهم ، وكان فيهم أبو حنيفة ، فأسرع يجيب الخوارج : نحن مشركون

مستجيرون! فلما تركهم الخوارج يمضون لشأنهم قال الإمام الفقيه : إن القرآن يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[1] فأسمعونا كلام الله وأبلغونا مأمننا . .!! وفعل الخوارج ذلك ، ونجا أبو حنيفة ومن معه من الفتك !

والقصة تستدعى التأمل! ولئن كانت مثار ريبة عند البعض ، إن التاريخ الإسلامى يصدق دلالتها ، ويكشف عن العلة فى بقاء الطوائف الكافرة بالإسلام وسط بحر مائج من الأمم الإسلامية ، بما لا نظير له فى القارات كلها . . .!

ونتساءل بعد ذلك الاستعراض : هل من حرية الفكر أن يسلم رجل ليتزوج امرأة مسلمة ، فإذا نال مبتغاه منها وتحولت عاطفته عنها رجع إلى دينه الأول . .؟

أو من حرية الفكر أن يتصل شخص بأعداء أمته ، وينقل إليهم أسرارها ، ويتآمر معهم على مستقبلها؟

إنه لابد من التفريق بين العبث بالأديان أو خيانة الأوطان وبين حرية الفكر! فالمسافة شاسعة بين المعنيين !

وقد ذكرنا فى موضع آخر كيف أراد اليهود استغلال هذه الحرية المتاحة لضرب الإسلام وصرف الناس عنه ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2]! فهل ترضى جماعة تحترم دينها أن يقع هذا العبث أو ينجح هذا التلاعب؟

إننا نريد أن نشرح حقيقة الارتداد ، وسر الموقف الحاسم منه . . .

معروف أن الإسلام عقيدة وشريعة ، أو بتعبير عصرنا دين ودولة ، والدولة التى تقيمها الجماعة المؤمنة مكلفة بما تكلف به الدول فى أرجاء الأرض ، فهى تنشر الأمان وتحميه وفق شرائعها الموحى بها من الله تبارك وتعالى . . .

وهى تدفع المغيرين وترد المعتدين مستثيرة الهمم ببواعث اليقين وحب الاستشهاد وسائر خصائصها الذاتية الأخرى . . .

---

(١) التوبة : ٦ .　　(٢) آل عمران :٧٢ .

والسؤال الذى نورده : هل يطلب من هذه الدولة أن توهى خطوط الدفاع فى الداخل والخارج ، وأن تدع من شاء حرا فى نشر الفتن وتمزيق الصف ومساعدة العدو وخذلان الصديق؟ أم لها أن تضرب على أيدى الخونة حتى يبقى كيانها سليما ؟

إذا كانت الدولة الشيوعية تقيم التعليم العام على الإلحاد ، وتنفى أو تغتال من يريدون بناءه على الإيمان ، فهل الدولة الإسلامية وحدها هى التى تطالب باحترام الإلحاد ، والإسراع فى إجابة مطالبه باسم الحرية؟ أنّى يتماسك لها بعد ذلك كيان؟

قد ينحرف امرؤ فيشرب خمرًا أو حشيشًا ، هذه معصية نرجو لصاحبها المتاب ثم نؤدبه بما رسم الإسلام! هل يستوى هذا المسىء مع رجل يدعو إلى ترك تجارة الحشيش حرة ، وإلى فتح الحانات دون عائق ؟

قد يواقع امرؤ منكرا فى بيته ، من وراء جدار! هل يستوى هذا مع آخر يجاهر بإباحة البغاء ، وترك الغرائز تتنفس كيف تشاء ، ويرى أن الشذوذ لا حرج فيه ، وعلى المجتمع الاعتراف بعقد بين شخصين من جنس واحد؟

قد يتكاسل امرؤ عن الصلاة ، فهل التارك المتهاون يستوى مع آخر يهاجم فرائض الصلاة والصيام ، ويقول : إنها تعطل الإنتاج؟

إن الارتداد نقض متعمد متبجح للأسس التى يقوم عليها المجتمع ، وللدستور الذى تقوم عليه الدولة ، والزعم بأن هذا المسلك سائغ زعم سخيف .

وتزداد خطورة الردة على كيان الدولة إذا علمنا أن الغزو الثقافى ظهير وتمهيد للغزو العسكرى! وأن أعداء الإسلام يرون محو شخصيته فى الداخل بفنون من الحيل ، وأن الاستسلام لذلك هو استسلام للذبح . .

نحن نرفض كل عائق أمام حرية الفكر ، ونضع كل عائق أمام حرية الهدم ، أى أمام تقويض الإسلام شريعة وعقيدة . . .

وعندما ننظر إلى تاريخنا الإسلامى الطويل نجد أن قتال المرتدين إلى آخر رمق تم دفاعًا عن الدين والدولة معا ، وما سمعنا برجل قتل مرتدا ؛ لأنه ترك الصلاة مثلا . . بل على العكس رأينا أبا نواس يرفض من يلومه فى شرب الخمر ، ويقول فى وقاحة :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء

وداونى بالتى كانت هى الداء !!

فهل قتل أبو نواس ، أو غيره بتهمة الردة؟

واضطر صلاح الدين الأيوبى إلى قتل صوفى يدعو إلى مبدأ وحدة الوجود! وذلك ؛ لأن عصابات الباطنية التى اعتنقت المبدأ ، تعاونت مع الصليبيين المهاجمين على ضرب الدولة ، وكانت حصون الحشاشين شوكة فى ظهور المجاهدين الذين يقاومون الغزو الأوربى المميت!

فلم يجد القائد الإسلامى بُداً من تطهير الجبهة الداخلية ، وإزاحة كل من يعرض مستقبل الإسلام للضياع ، فى حرب حياة أو موت . . .

وإلا فإن كتب كثير من رجال التصوف ملآى بفكرة الوحدة ، وقد ترك للعلماء أن يناقشوها بالبرهان وحده !

وقد لاحظت أن كثيرا من أهل الشغف بتكفير مخالفيهم ، يتخيرون من آراء الفقهاء ما يحلو لهم ، ويهيلون التراب على غيره ، فلما ثار كلام فى عقاب تارك الصلاة كسلاً ، لم يذكروا إلا أنه يقتل حدا أو مرتدا ، ومعلوم من الفقه الحنفى الذى حكم الدولة الإسلامية قرونا طويلة ، أنه لا يقتل لا حدا ولا مرتدا ، بل يؤاخذ بأساليب أخرى إذا جحد الحكم المعلوم من الدين بالضرورة . .

إن الارتداد ـ كما شرحنا ـ خروج على دولة الإسلام بغية النيل منها ومنه ، والإتيان عليها وعليه ، ومقاتلة المرتدين ـ والحالة هذه ـ دين . . .

٤٧. ما الاجتهاد؟ وهل هناك ضرورة لفتح بابه؟ ولماذا؟

يعلم المسلمون أن دينهم باق ما بقيت السموات والأرض ، وأن به تبيان كل شيء يحتاج الناس إليه! أى إن كتاب الله وسنة رسوله هما النور المبدد لكل ظلمة ، الكاشف لكل حيرة ، وهما الدواء الشافى من كل علة والساد لكل خلة . .

والاجتهاد هو بذل الجهد فى استخراج الحكم الشرعى من هذه الأصول ، وفى ضبط مسيرة المجتمع بها ، وهو عمل لا يقدر عليه بداهة كل إنسان ، بل لابد من أهلية علمية عالية له .

فالقرآن الكريم هو خلاصة الوحى الإلهى من أزل الدنيا إلى أبدها ، صيغ فى أسلوب يعجز الإنس والجن ، والسنة المطهرة هى توجيهات إنسان ملهم استدرج النبوات الأولى كلها بين جنبيه ، وشرع يصوغ العالم كله باسم الله فى قالب جديد ، وقد أدرك أولو الألباب أن التغيير الذى أحدثه برسالته الخاتمة كان حاسما فى سير الفكر والضمير ، وأنه فتح صفحة جديدة فى تاريخ الحياة الإنسانية . .

ومن ثم فإن فقه الكتاب والسنة لا يرشح له إلا أهل النباهة والتقوى!

وفقهاء الإسلام يرون أن مصدر التشريع ـ كما يقول الشيخ الكبير محمود شلتوت ـ «هو القرآن الكريم نصه ومحتمله ، ثم السنة وهى أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته ، بشرط صحة النقل ، ثم الرأى العلمى المستمد من النظر فى الكتاب والسنة وإلحاق ما لم ينص على حكمه بما جاء فيه نص» .

ويعنى بذلك القياس ، ثم فى تطبيق القواعد العامة المفهومة من النصوص والقضايا الخاصة .

وهذه القواعد مثل «الأصل فى الأشياء الإباحة» «منع الضرر» «رفع الحرج» «سد ذرائع الفساد» «الضرورات تبيح المحظورات» «ارتكاب أخف الضررين» «دفع

المفسدة مقدم على جلب المصلحة» «تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام» «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» «ما أدى إلى الحرام فهو حرام» «ما قارب الشيء يعطى حكمه» . . . إلخ .

وهناك بعد ذلك ما يسمى بالمصالح المرسلة ، وهو نهج فقهى غايته حماية النفس والمال والعرض والعقل والدين . .

والواقع أن الفقيه فى الكتاب والسنة ، الذى يعيش فى جوهما يقدر على استبانة مبادئ تنطلق الحياة منها ، ورسم مسار تشريعى يضمن الرشد والخير للناس كافة ، كما يستطيع أن يواجه القضايا المتجددة بأحكام إسلامية سديدة . .

والفقه الإسلامى الذى ورثناه مع مطالع القرن الخامس عشر للهجرة يعد أغنى فقه فى العالم ، والمهاد الذى يتحرك فوقه لا نظير له فى دنيا الناس .

قال الفقيه الكبير الشيخ محمود شلتوت : «استقبل أصحاب رسول الله بعد موته حياة أوسع ، إذ عرضت لهم شئون احتاجوا إلى تعرف أحكامها ، فكانوا يرجعون إلى القرآن ، فإن لم يجدوا فيه ما يدل على حكمها بحثوا عنه فيما يحفظه العدول الثقات من بيان الرسول واجتهاده . فإن لم يجدوا الحكم نظروا وبحثوا مستلهمين روح الشريعة ، وما عرفوه من هدفها ، وما ترشد إليه قواعدها العامة التى أضحت لها مكانة النصوص البينة» .

وكان الشأن العام فى عهد أبى بكر وعمر التحرى الشديد فيما يروى عن النبى ﷺ ، والنزوع فى الشئون العامة إلى استشارة كبار الصحابة المقيمين معهما فى دار الخلافة! والمعروفين بدقة الرأى ، وعمق النظر ، فى إدراك المصالح ، وحسن الفهم لروح الشريعة ، وجودة التطبيق على القواعد العامة .

وكانوا إذا أجمعوا على رأى ، وجب تنفيذه . . وبذلك كان أخذ الرأى بطريق الشورى مصدرًا جديدًا ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، أو فيما فيه نص محتمل .

وترجع حتمية الرأى فى التشريع إلى أمور :

أولاً : تقرير القرآن مبدأ الشورى ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾[1] .

---

(١) الشورى : ٣٨ .

ثانيًا : أمر القرآن الكريم برد المتنازع فيه إلى أولى الأمر وهم الذين أوتوا الفهم والحكمة وطرق الاستنباط ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾[1] .

ثالثًا : ثبوت إقرار النبى ﷺ لأصحابه الذين كان يبعثهم إلى الأقاليم النائية على الاجتهاد والأخذ بالرأى فيما لم يجدوا حكمه فى الكتاب أو السنة .

وظاهر من مطالعة تاريخنا الثقافى أن الاجتهاد التشريعى بدأ رسميّاً جماعيّاً ، ذلك أن رئيس الدولة كان يختار من أهل الدراية والفقه ، وكان بقدرته العلمية يجمع حوله أمثاله فى النظر والاستنباط ، فإذا انتهوا إلى حكم عملت به الدولة والأمة جميعًا . .

والدول العظمى الآن تقوم على هذا الاجتهاد الجماعى فى دعم مبادئها ومصالحها ، ويغلب أن يقودها أكفأ بنيها ، وأن يعاونه فى المشكلات المتجددة مجلس شورى ذكى نزيه حافل بشتى الكفايات .

مع ملاحظة أن الاجتهاد عندنا رحب الدائرة ، يشمل العبادات والمعاملات والشئون الشخصية والدولية ، وقد رأينا عمر يجتهد فى تحديد نفقة المطلقة ثلاثا وسكناها ، كما يجتهد فى أنصبة المجاهدين من غنائم الأرض المفتوحة!

وودت لو بقى الاجتهاد رسميّاً جماعيّاً كما بدأ! إذن لوقى المسلمين اختلافًا كثيرًا ، لكن سيطرة الأسر الكبيرة على منصب الخلافة مكن رجالا جهلة من الظفر به ، والرؤساء القاصرون ، لا فقه لهم فى كتاب أو سنة ، ولا علاقة لهم بشورى أو استنباط . .

وإنه لمن المحزن أن يقود العباقرة شتى الملل والنحل ، وأن يقود المهازيل أمة الرسالة الخاتمة!

وليست الأمة عقيمة ، بل إن أهل الذكر فيها كثر ، وقد تحركت الشعوب لما وقفت الحكومات ، وبدأ الاجتهاد الفقهى يزدهر ، ورجاله يلمعون ، ولكنه كان نشاط أفراد عظماء أسسوا مدارسهم العلمية بقوة وتجمع الأتباع حولهم بحماس .

---

(١) النساء : ٨٣ .

ومع أن الأئمة الفقهاء كانت بينهم وبين رجال السلطة وحشة ، وأكثرهم مسه الضر ، إلا أنهم نجحوا فى نشر علومهم وتنمية مدارسهم ، حتى ملأت أرجاء العالم الإسلامى .

ولم تخل عاصمة إسلامية قديمًا من فقيه كبير ، وإمام مرموق ، على أن الفقهاء الأربعة المتبوعين كانوا أسعد حظًا فرزقوا من حفظ اجتهادهم وضبط تراثهم ، واستنقذه من الضياع ، وفقه أولئك الأربعة على عظمته يمثل الاجتهاد الفردى ، ويحمل خصائصه ، وما يغنى قط عن الاجتهاد الجماعى الذى تلتزم الحكومة والجماهير بثماره!

ولا ريب أن اجتهاد محفل من العلماء أدنى إلى الصواب والنفع من اجتهاد إمام فرد .

والأربعة المشهورون يتفقون على استقاء الأحكام من الكتاب والسنة والإجماع ، إلا أن الأحناف يرجحون ظواهر القرآن وعموماته على أخبار الآحاد ، وربما ردوا الحديث بالقياس الجلى ، وهم بهذا المسلك وغيره طليعة فقهاء الرأى !

ويليهم المالكيون الذين اعتمدوا فى كثير من القضايا على بيئة الوحى ، وتقاليد أهل المدينة ، ويرونهم أعرف الناس بالسنة الثابتة ، وقد جعلهم هذا الفهم يردون أخبار آحاد أكثر مما رد الأحناف !

أما الحنابلة ومعهم الشافعية ، فارتباطهم بأخبار الآحاد أقوى ، وهم يردون بها القياس . . .

ولكل إمام منهج فى الفهم والاستنباط وتقرير الأحكام عرف به ، وقلده فيه آخرون .

ويظهر أن انفتاح باب الاجتهاد الفردى أغرى كثيرين باستقلال النظر وتقرير الأحكام حتى تحولت الحرية الفقهية إلى فوضى ، فتداعى أولو الغيرة لوقف هذا التيار ، ودون أن ينعقد مجمع أو يتفق مؤتمر تراجع الناس رويدًا رويدًا إلى فقه الأربعة المشهورين وأهمل غيرهم .

وقد كنت أول الأمر ناقمًا على إغلاق باب الاجتهاد ، ولكن لما انكسر الباب وتحدث فى الإسلام من يعقل ومن لا يعقل ، بل كان صوت المرتزقة أعلى من صوت المخلصين! عذرت الذين أغلقوا الباب ، وأطفئوا الفتن .

أيعنى ذلك أنى لا أريد فتح هذا الباب؟ كلا !

إن الاجتهاد التشريعى ، خصوصًا فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية !

والذى أدعو إليه أن تقوم مجامع كبيرة ، من علماء راسخين ، لا يخافون فى الله لومة لائم ، يحيون الاجتهاد الجماعى القديم ، ويقومون بعملين مهمين . .

الأول : إنعاش أو إحياء الفقه الدولى لتحديد أوضاعنا العالمية ، وإعادة النظر فى أنظمة الحكم الداخلية لإنقاذ المسلمين من مساوئ الحكم الفردى ، ومظالم المستبدين ، وإنشاء شرائع إدارية تضبط شئون العمال وتوزيع الأموال ، وتصون الحقوق الخاصة والعامة . .

إننا متخلفون بضعة قرون فى هذا المجال ، ولا يجوز ترك الإسلام يفترسه هذا الموت الأدبى !

أما العمل الثانى : فهو مراجعة المذاهب الفقهية السائدة ، وغربلة أحكامها ، فمن الغرور القول بأن مذهبًا ما انفرد بالصواب كله ، ومذهبا آخر يغلب عليه التخليط . .

إن المذاهب المشهورة وغيرها تحتوى على تراث نفيس من الأفكار وجهد عقلى ونقلى قد يقصر أغلبنا عن بلوغ مستواه ، بيد أن القول المشهور شىء والتحقيق العلمى شىء آخر . .

وقد نبَّهت فى مكان آخر إلى أن ابن تيمية رد فقه الأربعة فى إيقاع الطلاق البدعى ، والحق معه عند التأمل ، وأن ابن حزم هدى إلى أحكام فقهية أولى بالحياة من غيرها . .

ووجوه مجمع فقهى إسلامى عالمى ، يجتهد فيما جد من قضايا ، وفيما عانينا من فرقة وضعف أمر لابد منه . . .

٤٨. ماذا عن تجديد الفكر الدينى فى الإسلام؟

جرت على الألسنة كلمة تجديد الإسلام ، وظن البعض أن المقصود منها ترقيع ثوب لحقه البلى أو تحريك آلة أدركها العطب! وقد يتطلب ذلك إهمال شعبة من شعب الإيمان ، أو التجاوز عن حد من حدود الله ، أو إرخاص الماضى غرورًا بالحاضر ، وتمشيا مع المدنية الحديثة . . .!

وهذا كله لا يخطر ببال مسلم ، ولا يفكر فيه إلا لصيق بديننا لا يدرى عنه شيئًا . .!

إن التجديد المنشود حماية الأصل مما عراه وتنقيته مما شابه وعكر رونقه ، إنه غسل الثوب حتى يزول عنه القذى ، أو إزالة الغبار عن صورة غطى الإهمال ملامحها . . .

قلت فى أول كتاب الفقه من نحو أربعين عامًا « . . . إن حقائق الدين من منابعه الفريدة ما إن أخذت تسير فى مجراها من هذه الحياة حتى علق بها من رواسب البيئات ، ومخلفات القرون ، وجهالات العامة ، وشهوات الخاصة ، ونزوات الحكام ما ذهب بالكثير من نقائها وصفائها ، حتى لتشبه ماء النيل فى مجراه الأدنى ، لا يصلح للشراب إلا بعد مجهودات متعاقبة من التنقية والتصفية ترده سماويًا كما كان»!

هل إمداد الناس بالمياه النقية يضيف شيئًا إلى جوهرها الأصلى؟ لا ، الأمل كله أن يعود الماء كما نزل من السماء! وأملنا فى تجديد الإسلام قريب من عملنا فى تنقية مياه الشرب . . .

وقد نبه رسول الله ﷺ إلى جلال هذا العمل عندما قال : «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»!!

والكلمات الثلاث فيها من إعجاز النبوة المحمدية ما يبهر ويسحر! قديمًا رأينا عبادًا غلاة يكرهون الحياة ، ويقررون عدم الزواج ، وصيام الأبد ، وقيام الليل وهجر النوم ، ثم رأينا كيف تعلموا الاعتدال ، وترك الغلو . .

وقديمًا رأينا من يضع الحديث فى فضائل السور فإذا قيل له : كيف تفعل هذا والرسول يقول : «**من كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»؟ فيقول : كذبت له ولم أكذب عليه !!

هذا لون مفضوح من انتحال المبطلين ، ومثله كل ابتداع فى الدين ، وخلق لتقاليد رديئة كبلت الأمة وأقعدتها فى عالم يجرى كالريح المرسلة أما تأويلات الجهلة فما أكثرها فى تاريخنا القريب والبعيد! وآخر ما وقع فى يدى كتاب لمؤلف من الجزيرة العربية زعم أن به نيفا وأربعين دليلا على أن الأرض واقفة والشمس هى التى من حولها تدور . .

ونظرت فى هذه الأدلة فإذا هى تفاسير خاطئة لأكثر من أربعين آية قرآنية ، مال بها الكاتب المسكين عن وجهتها ليشعر الناس بأن الإسلام والعلم الحديث خصمان لا يتفقان !

والواقع أن حركات التجديد والإصلاح تخبو أو تضىء وتكبو أو تمضى بمقدار موقفها من هذه الآفات ، تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين . . وتأويل الجاهلين!

ولما كان تجديد الإسلام عوداً إلى الأصل النازل من السماء ، فإن المثل الأعلى والقدوة الصالحة لا يؤخذان إلا من سيرة محمد وصحبه !

إن محمداً عليه الصلاة والسلام ، والرجال الذين جمعهم حوله ورباهم على يده هم وحدهم الذين يمثلون الإسلام الحق ، وهم أفضل القرون وأجدرها بالاتباع . .

وقد وقع انحراف عن خطهم ، وبدأت زاوية الانحراف تتسع أضلاعها بمر الزمان .

فإذا جاء اليوم من يريد العودة إلى القرن الماضى ، والقرن الذى سبقه ، فهو لايزيد الأمة إلا خبالا ، ولن يصنع شيئًا أكثر من مد زاوية الانحراف ، وتوسيع الشُّقة بين الصراط المستقيم ومواريث العوج التى نشكو منها ، والتى انتهت بنا إلى أن صرنا فى مؤخرة العالم . . .

إن سوءات الحكم الفردى فى مطالع القرن الخامس عشر هى سوءات الحكم الفردى خلال القرن الثالث عشر ، وقرون كثيرة قبله . .

والمنار الذى نمشى على سناه هو جو الشورى أيام الرسول ودولة الخلافة ، عندما كان الحاكم ـ تأسيًا برسول الله ـ يوجل من الكبر ، ويستكين للحق ، ويستشير أهل الذكر ، ويرى أنه أجير للأمة يكدح لمصلحتها ، ولا حق له فى أكثر من مرتبه المفروض له ، ويشعر بالرهبة عندما يقال له : اتق الله ، ويرى أسرته بعض الرعية الذين لا حول لهم ولا طول ، ويقتص من نفسه إذا أخطأ ، أو يترك لأمناء الأمة ومشيرتها أن يقتصوا منه ، كما قال عمر بن الخطاب ـ وهو يؤدب كبار الموظفين ـ : لقد رأيت رسول الله يقتص من نفسه !!

هذه التقاليد السلفية فى فن الحكم لها نظائر فى شئون المال ، والقضاء ، وشتى الأوضاع الإجتماعية ، بل لها نظائر فى شئون العبادة . . .

ثم شرع المسلمون يتزحزحون عنها قليلا حتى أمسوا سواد العالم الثالث ، أو حثالة البشرية التى تملأ الأرض . . .!

وذلك لأنهم ذهلوا كل الذهول عن سنة نبيهم وتقاليد سلفهم ، ولم يعوا من دينهم شيئًا ذا بال . .

وبديه أن ما حدث قديمًا يتضمن مبادئ ويرسم اتجاهات ، وأن صور التنفيذ قد تتجدد على اختلاف الليل والنهار داخل النطاق الذى يصون المبدأ والوجهة .

فالجهاد حق ، وندب الناس إليه قد يكون بإعلان عادى ، أو بصيحة «الصلاة جامعة» . .

فهل ذلك الإعلان أو تلك الصيحة هما الآن وسيلة إعداد الجيوش وحشد المقاتلين؟ إن الوسائل تتغير ، والمبدأ ثابت .

والشورى حق ، وكان تنفيذها قديمًا يعتمد على وسائل قليلة الكلفة ، أو على طلب الرأى من الحاضرين ، لكن الأمر الآن يتطلب أنظمة دقيقة وتراتيب واسعة . .

والمشغولون بتجديد الفكر الإسلامى ينبغى أن ينظروا فى هدف الوسائل المطلوبة ، وأن يتخيروا منها أفضل ما يحقق الهدف ، ويبرز محاسن الإسلام ولا عليهم أن يقتبسوا من هنا ومن هناك . . .

قال لى أحد الناس : أليس عيبًا عليك وأنت من دعاة الإسلام أن تعجب بالديموقراطية وتدعو لها؟ قلت له : الحق معك! ينبغى أن أدع الكلمات الأجنبية ، وأستخدم الكلمات العربية . . .!

قال : الأمر أكبر من أن يكون اعتراضًا على كلمة ، إننا نرفض تنويهك بنظام!

قلت له : إننى مسرور بحبك للإسلام ، وأؤكد لك أننى لست أقل حبا له منك! فاسمع ما عندى . . .

عندما وقعت مجزرة «بيروت» الشهيرة ، وعندما وقعت مجازر قبلها تحركت الجماهير فى عواصم كثيرة تتظاهر ضد الجزارين وتندد بجرائمهم! كان ذلك كله بعيدًا عن أرض العروبة والإسلام التى لم تنطلق فيها مظاهرة احتجاج واحدة!

ما السبب؟ إن الناس فقدوا ـ أو كادوا ـ ملكة الشجاعة تحت ضغط النظم الاستبدادية .

لقد علموا أنهم لو خرجوا إلى الشوارع لتعرضوا للموت! فإن الحكومات القائمة لا تريد تجريئهم على الخروج ، إنهم لو خرجوا اليوم ضد اليهود فسيخرجون غداً ضدها ، فلتغلق الباب ابتداء . .!

أرأيت ما انتهى إليه الحكم الفردى ، وضياع الشورى الصحيحة؟

وانظر إلى حركة المال العام والخاص فى دار الإسلام وبعيداً عن دار الإسلام! إن استغلال النفوذ لكسب درهم من طريق قريب يقتل صاحبه أدبياً فى أقطار الأرض كلها ، أما لدينا وحدنا فإن امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والمساحات الشاسعة من أراضى الزراعة والبناء يتم بلا ضبط أو حساب ، وتسعه أعشار الأغنياء من هذا القبيل !!

هل لهذا العوج الرهيب صلة بالإسلام؟ إن ديننا أول من أعلن الحرب عليه! فماذا صنعتم لاتقاء هذا البلاء؟

هناك من خوّف بالله وذكر الدار الآخرة فى وعظ بليغ أو غير بليغ . .

وهناك من سكت وآثر السلامة! هناك من تحدث عن بدع المساجد ، وسخط لزيارة النساء للمقابر! هناك من تحدث عن أن الحلف بغير الله شرك ، ونسى أن الرياء شرك! وممالأة الظلمة كفر! هناك وهناك . . .

فإذا عمدنا إلى أصل الداء واستفدنا من أدوية اصطنعها غيرنا لاتقاء مضاعفاته اعترضتم طريقنا ، واتهمتم سيرتنا . . .؟

الحق أن موكب المتحدثين فى الإسلام مليء بالهازلين ، وهؤلاء يميتون الإسلام ولا يجددونه . .

ثم سل نفسك أيها الأخ المعترض : لو كان السلف الأولون يعتمدون فى غذائهم وكسائهم ودوائهم على ما يرد إليهم من الفرس والروم أكان ينجح لهم جهاد؟ أو يقدرون على تحرير مستضعف وحماية حقيقة؟

إنهم سيموتون فى أماكنهم هزالا!! فإذا شرعنا نتحدث عن الموات المادى والضياع الإنسانى لأمتنا ، وبدأنا تحريكها لتخدم نفسها ورسالتها ، جاء صوفى أو سلفى ليطعن فى كفاحنا .

إن تجديد الفكر الدينى يتطلب عقلا أنضج ، وقلباً أزكى! يتطلب بصراً بأخطاء التاريخ ومزالق الأجيال ، يتطلب علماء بالكتاب لا مجرد قراء ، وخبراء بالسنة لا مجرد رواة ، وفقهاء فى الشرع لا مجرد مقلدين ، وبصراء بالتربية والتثقيف لا عبيد تقاليد سائدة ، وأصحاب دراسات عفنة .

٤٩. ما مكانة الفقه الإسلامى فى الإسلام كله...؟

عندما أراد النبى ﷺ أن يدعو لابن عمه عبدالله بن عباس دعوة ترفع شأنه وتعلى رتبته قال : «**اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل**» .

وثبت أن الله إذا حبا أحدًا فضلا ، وآتاه من لدنه خيرًا رزقه الفقه «**من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين**» .

وكلمة الفقه فى ثقافتنا التقليدية تشبه كلمة الفكر فى عصرنا الحاضر ، فإذا وصف أحد الناس بأنه مفكر فمعنى ذلك أن فى ذكائه حدة ، وفى بحثه عمقًا ، وفى نظره بعدًا .

وقد تميز الفقهاء فى تاريخنا العلمى بأنهم الأعرف بأسرار الدين ، ووجوه الحكمة ، وعلل الحكم ، وأهداف الشريعة ، ومن ثم ألقت الجماهير إليهم بالزمام ومشت وراءهم فى أغلب شئونها . .

ويوجد ناس صالحون قليلو الفقه ، لعلهم المعنيون بقول القائل : من أصحابى من أرجو دعوته وأرفض شهادته . . والواقع أن هناك متدينين لا تقبل فتاواهم ولا أحكامهم ، كبعض الخوارج ، وبعض الصوفية ، وبعض المحدثين ، فإنهم مع نقاء سرائرهم لم يرزقوا الحكمة ، والوعى ، ولم يحسنوا العمل بما يعلمون ؛ لأنهم حرموا الفقه !!

والحاجة إلى الفقهاء ماسة ؛ لأن الفقه الإسلامى تناول شئون الحياة كلها ، فهو مع المرء فى يقظته وفى فراشه ، فى خلوته وجلوته ، فى سفره وإقامته ، فى أدق شئون جسده ، وفى علاقته بالدولة ، بل فى علاقته بشتى الملل والأجناس . .

واستيعاب الفقه لنواحى الحياة الخاصة والعامة على هذا النحو يجعله المسئول الأول عن حاضر الأمة ومستقبلها ، ويجعل الفقهاء القادة الحقيقيين للجماهير . .

ومعلوم أن الفقه يستمد أحكامه من الكتاب العزيز ، ثم من ألوف السنن التى نقلت عن صاحب الرسالة خلال ربع قرن ، ثم من القياس والاستصلاح والاستحسان والاستصحاب والقواعد المستفادة من أصول الإسلام الأولى !

والخبرة بهذا البحر المتلاطم من المعارف تحتاج إلى عبقرية فذة . . . ثم ينضم إلى ذلك ما قرره المسلمون - بإجماع - أن العلم النظرى وحده لا يكفى فى إعطاء قيمة أدبيـة لإنسـان! لابد مـعـه من تجـرد لله ، وصـلابة فى الخلق ، ونزاهة فى السلوك واستعلاء على إغراء الحكم والمال !

إن الفقه والفقهاء أسس شامخة فى حضارتنا ، ولا يضير البحر أحيانا أن يحمل موجه بعض الغثاء !

والمسلمون الآن يعانون هزائم فقهية وسياسية أليمة! ومع تسلط الغزو الفكرى على أقطارهم حسب البعض أن الدين صلة خاصة بالله ، وأن الصلات الإنسانية بعد ذلك موكولة إلى الفكر الإنسانى العادى ، وبذلك يسقط الفقه عن مكانته ، ويتحرك الناس وفق ما يضعون من قوانين !

وهذا الكلام جهالة فاضحة بالإسلام ، بل هو ارتداد حقيقى عنه ، فإن القرآن الكريم كما تحدث عن العقائد والأخلاق تحدث عن العلاقات الاجتماعية والدولية ، ورسم للأسرة ، وللدولة جميعًا ما شاء الله من شرائع وتوجيهات ، وسيرة محمد ﷺ لم تكن سيرة رجل يعيش فى صومعة ، بل كانت سيرة عابد مجاهد يشرف على استقامة الأخلاق ، كما يشرف فى الوقت نفسه على توزيع المال فى المجتمع ، والإمساك بدفة الحكم ، وشئون الحرب والسلام ، أى أن صومعته كانت الدنيا كلها . . .

وموضوع الفقه الإسلامى بعد العقائد والأخلاق يتناول أعمال المكلفين دون استثناء ، ويبت فيها وفق توجيهات الكتاب والسنة ، وما يعتمد عليهما من دلائل . . ألا ما أرحب هذه الدائرة وأغناها . . .

وأرى أن اختلاف وجهات النظر بين الفقهاء يعطى الساسة والقضاة فرصًا كثيرة للتصرف فى نطاق الشريعة على هدى من مبادئها ، ولنضرب مثلا مما يقع فى عصرنا هذا الذى تقاربت فيه الأزمنة والأمكنة والشعوب والملل . .

يقول الشيخ محمود شلتوت : «من مسائل الخلاف أن أبا حنيفة يرى مسئولية المسلم - وتغريمه - إذا أتلف مالاً لذمى . إذا كان هذا المال مما يحرمه الإسلام كالخمر والخنزير ، ولو كان المسلم قاصدًا بإتلافه وجه الله وثواب الآخرة» .

وخالفه الشافعى فى ذلك ، وقال لا مسئولية ولا غرامة عليه إذا أتلف ما حرمه الشارع !!

ويعتمد أبو حنيفة فى تقرير الضمان على المتلف بأن الإسلام أمرنا بترك أهل الكتاب وما يدينون ، وقد روى أن عمر بن الخطاب سأل عماله : ماذا تصنعون بما يمر به أهل الذمة من الخمور؟ قالوا : نعشرها!! فقال : لاتفعلوا ، وولوهم بيعها ، وخذوا العشر من أثمانها !

قال أبو حنيفة : «لولا أنها متقومة ـ أى لها قيمة ـ وأن بيعها جائز بينهم لما أمرهم بذلك! ومن المعلوم أن التقوم أصل الضمان والمسئولية ، أما إهدار تقومها فإنما هو بالنسبة إلى المسلمين وحدهم» .

ومن مسائل الخلاف كذلك أن أبا حنيفة يرى الاقتصاص من المسلم إذا قتل كافرا من أهل الذمة ، ويحكم بقتله ، ويخالف فى ذلك الفقهاء الآخرين . . .

وكلام الأحناف هو الذى يمكن إمضاؤه فى عصرنا ، وتستطيع الدولة الإسلامية به أن تتعايش مع الأسرة الدولية ، وتستطيع من خلال هذه المعايشة أن تبلغ رسالتها وتعرف شعوب الأرض بما عندها . . .

وكل ما يتطلبه الأمر إذا اختارت الحكومة مذهب الأحناف أن يتقبل الشافعية والحنابلة الموقف بغير اكتراث ، وألا يفكر بعضهم فى اللجوء إلى عصيان مسلح!!

إن ضيق الخلق والأفق يجر على المسلمين البلايا ، وما كان الفقهاء قديمًا يرون الخلاف مثار فتنة ، بل وجدنا الشافعى يقول : «الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة» مع رفضه لكثير من آرائه !

كنت أسمع برنامجا فقهيا فى إحدى الإذاعات العربية ، فعجبت لإجابات المفتى على الأسئلة التى توجه إليه ، وقلت : هذا كلام أقرب إلى الهدم منه إلى البناء . .

سئل ـ عفا الله عنه ـ عمن أخرج زكاة رمضان نقدًا؟ فقال : لا تقبل ، إلا أن تكون شعيرًا أو تمرًا أو شيئًا من غالب قوت البلد! ثم استطرد يصف إخراجها نقدًا بأنه مخالف للسنة ، وأن رسول الله ﷺ يقول : «**من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد..**»!!

وبدا من حديث المفتى أن إعطاء الفقير مالا ـ ريالات أو جنيهات ـ بدعة . . . وأن الأحناف بهذا المسلك أصحاب بدعة!

وقد رفضت كلام الرجل جملة وتفصيلا ، فإن مصلحة الفقراء هى التى ترعى ، وأخذ المال أجدى عليهم وأطيب لأنفسهم ، وجمهرة المسلمين تخرج زكاة رمضان نقدًا تبعًا لمذهب أبى حنيفة ، وهو أقرب إلى العقل ولا يصادم نقلا . . .

وسئل - هو أو زميل له - من طلبة إحدى المدارس عن الكتب التى بين أيديهم ، وما تحتويه من صور كثيرة؟ فأجاب بعدما شكا عموم البلوى بأن رءوس هذه الصور تقطع! وبذلك يحل تداول هذه الكتب !

ولماذا تقطع تلك الرءوس؟ لأن المصور يكلف يوم القيامة بنفخ الحياة فى هذه الصور ، إذا كانت تامة !

وتساءلت دهشا : كيف تحيا صور على الورق ، أو على شاشة تلفاز ، أو على سطح مرآة ، سواء بقى الجسم برأسه أو بقى بلا رأس ؟

ظاهر أن المفتى يريد نقل حكم التماثيل إلى الرسوم المسطحة ، وهو نقل مرفوض . . والأجيال تشب بهذه العقلية تفقد الحس الاجتماعى السليم .

ونعود إلى فقهنا الإسلامى الذى يتسع طولا وعرضا ليشمل كل شىء ، إنه يتحدث فى شئون العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج ، ويتحدث فى شئون الأسرة من زواج وطلاق وحضانة ومواريث ، ويتحدث فى الشئون التجارية من بيع وإيجار وشركات وكفالات وحوالات . . . إلخ ، ويتحدث فى الجنح والجنايات المتعلقة بالعرض والدم والمال ، ويشرع أنواع الحدود والقصاص ، ويتحدث فى الشئون الدولية وما قد يقع من حرب ، أو يعقد من صلح أو هدنة أو أمان . . . إلخ .

وهناك ميدان ندر الكلام فيه أو انعدم وهو الفقه السياسى الضابط لعلاقات الأمة بحاكمها ، وكيف يحاسب ويختار . . وميدان آخر لشئون العمل والعمال ، يؤسفنى أن أكثر قوانينه ينقل الآن من الخارج لعجز فقهائنا عن تلبية مطالبه !

والذى اقترحه لخدمة الفقه الإسلامى أن تطوى مسافة الخلاف بين رجاله ، وأن يتعاونوا على سد الثغرات واستدراك ما فات ، ويواجهوا ببصيرة نيرة قضايا اليوم والغد ، وأخيرا هناك موضوع جدير بالدراسة الجادة ، موضوع تقنين الفقه الإسلامى وصب أحكامه فى مواد محدودة ، يتصرف القاضى على ضوئها ، وفى نطاقها . .

إن ذلك أبعد عن المجازفات وأدنى إلى العدالة ، ومازلنا نذكر أن فوضى الإفتاء والتقاضى قديمًا هى التى انتهت بإغلاق باب الاجتهاد ، وتجميد الفقه كله ، وما تبع ذلك من ركود وتراجع . .

٥٠. لماذا يجب أن يكون الفقه الإسلامى المصدر الأساسى للتشريع ؟

وظيفة القانون فى أى مجتمع أن يحرس عقائده وقيمه ، وأن يحمى أفراده ، ويصون حقوقهم المادية والأدبية وفق ما استقر بينهم من مبادئ ومُثل ! . .

وبديهى أن تختلف القوانين باختلاف المجتمعات التى تسودها! ففى العالم مجتمعات وثنية وملحدة ومجتمعات تنتمى إلى اليهودية أو إلى النصرانية . . ووظيفة القانون فى بلد يرى الدين خرافة غير وظيفته فى بلد يحترم الدين على نحو ما . .!

وفى الأقطار التى بقيت للأديان فيها قيمة إسمية قد يمنح الدين قدرا من الحركة بقدر استكانته إلى الأنظمة الغالية وهروبه من مواجهتها ، فإذا ظهرت عليه أعراض المقاومة ، لاحقه النظر الشزر ليسكن أو . . ليذهب حقه فى الحياة . .!

وخلال القرنين الأخيرين سقطت مساحات هائلة من العالم الإسلامى فى أيدى أعداء الإسلام ، فاستولى الاستعمار الشيوعى على أقطار رحبة فى آسيا وأوربا وإفريقيا ، كما استولى الاستعمار الغربى على أقطار أكبر وأخطر .

وشرع كلا الاستعمارين يفرض قوانينه على الأراضى التى احتلها ، ويعمل بدأب وإصرار على سلخ الأمة من عقائدها وشرائعها وقسرها على قبول نظم أخرى لا تمت بصلة ما إلى كيانها الروحى والعقلى . .

كان المسلمون كجسد انتزع قلبه ثم جىء له بقلب ثور أو ذئب ليحل محل القلب المتقطع !!

إن معنى ذلك الموت البطىء أو السريع! ليكن ، فذلك هو المطلوب!

فى اليمن أو فى التركستان ، يكلف المسلم أن يحيا وفق معتقد جديد يضع الوحى الأعلى فى المتاحف ويجعل الولاء لسماسرة الفكر الأحمر ، لا لله وأنبيائه!

وينهض القانون بدور التنفيذ الصارم لمتطلبات الوضع الجديد .

وفى أغلب عواصم العالم العربى يكلف المسلم أن يصمَّ أذنيه عن نداء الكتاب والسنة ، يكفى أن يكون للإسلام وجود رمزى لا يتخطى حدوده ، أما زمام الحياة الخاصة والعامة ففى يد أخرى تمحو وتثبت كيف تشاء . .

وعلى القانون أن يلوى عنق المجتمع وتقاليده ومواريثه نحو هذا الهدف الجديد . . نعم ، على القانون الذى وضعه الاستعمار أن يصرف البصائر والأبصار عن شرع الله وهداه حتى يعمل الزمن عمله فى تمويت الإسلام كله بعدما مات تشريعه فى كل ميدان !!

إن للقوانين الوضعية التى جلبها الاستعمار معه وظيفة مقررة ، وظيفة أهم من اقتياد أمة مهزومة عسكريا وسياسيا ، وفرض إرادة الغالب عليها! إن القوانين الوضعية هنا تشويه متعمد لوجه الأمة الإسلامية ، أو مسخ حقيقى لكيانها الروحى والعقلى ، والهدف الأخير الإتيان على الإسلام من القواعد !

وعندما نقيس المسافة بين الدين ومطالبه وبين القوانين المجلوبة وآثارها ، تبدو الشُّقة بعيدة . . بعيدة! خذ مثلاً قضية الخمر - وهى نموذج للتقاليد الغربية الوافدة - أن المسلم يراها رجسا من عمل الشيطان ، ويراها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويرى شاربها ساقط المروءة واجب العقوبة ، ولكنه ينظر إلى أرجاء المجتمع فيرى مصانعها تقام وحوانيتها تفتح وأسعارها تقدر ، وأحفالها تبرز ، وإعلاناتها تكثر وشاربيها يكرمون ولا يهانون! فأى تحدٍ لإيمانه أبلغ من هذا التحدى ؟

إن ولاءه لله ولأحكامه يصدم ، ومبدأ السمع والطاعة يهتز ، والانزلاق عن سائر التعاليم الدينية الأخرى يمهد !!

ومن حق المسلمين فى كل شبر من أرضهم أن يرفضوا القوانين الوضعية وأن يعلنوا عليها حربًا قائمة فهى الوجه الرسمى لغلبة الجاهلية على دولتهم ، وهى الأساس الموضوع لضرب بقايا الإسلام الخلقية والاجتماعية ، بل هى الجرثومة المتحركة لمحو الإيمان من القلب وجعل الولاء لله ورسوله صفرًا . . .

ومن حق المسلم الذى ولد فى عصر الهزيمة الإسلامية وانتصار الجاهلية الحديثة أن

يشعر بالدهشة والتسأول : لماذا كتب على آيات المصحف أن تموت وأن يرفض انطلاقها إلى الحياة ؟ ولماذا تركت آيات أخرى يستطيع من شاء أن ينفذها وأن يهملها ، وهل هذه الاستطاعة باقية أم إلى حين؟ ثم تلحق بالآيات المعطلة أى الميتة؟!

إن تطلع أى مسلم إلى طاعة ربه فى كل ما أمر به أو نهى عنه شىء عادى أو هو الشىء المرتقب الذى لا يرتقب غيره . ولذلك فمن السماحة التى لا قرار لها أن يستغرب أحد المطالبة بحكم الله ، وأن يعرقل سير القوافل المؤمنة وهى تنتصر لشرائع السماء .

ولكنه الغزو العسكرى تحول إلى غزو ثقافى خبيث ، وسَّخ مخ الجيل الجديد وضلَّل سعيه ، وخلق عصابات من الأدباء والمترجمين والإعلاميين والمؤلفين والفنانين ، هجموا على تراثنا يبتغون محوه ليحلوا محله أردأ ما فى الحضارة الغربية . .

بذلك ينتهى وجودنا الأدبى باسم التجديد ، وتتحول هزيمتنا السياسية إلى فناء باسم التقدم .

بيد أن الله أحبط كيد الخائنين ، ونشأت فى العالم الإسلامى شرقه وغربه نهضة عارمة تنشد العودة إلى دينها وتزدرى ما أدخله الاستعمار علينا من قوانين ما أنزل الله بها من سلطان !

ومع المطالبة بعودة الشريعة الإسلامية إلى المجتمع الإسلامى ، نحب أن نلقى نظرة فاحصة إلى هذه القوانين الوافدة . . أن المستعمرين الأوائل الذين فرضوها كانوا نصارى ، فهل هذه القوانين نصرانية؟

الواقع أن الأناجيل ليست كتب تشريع ، وأن عيسى عليه السلام بيَّن أنه منفذ لتعاليم التوراة فى الجملة ومعنى هذا أن شرائع العهد القديم هى التى يجب تطبيقها ، فهل طبق النصارى هذه الشرائع؟ كلا ! لأن اليهود أنفسهم أهملوا أغلبها فكيف يجىء غيرهم ليرد إليها الحياة ؟ بل إن «بولس» داعية النصرانية الأكبر وسع دائرة التعطيل ، فألقى الختان وهو مقرر من عهد إبراهيم الخليل ، وأباح أكل الخنزير ، ونصوص التوراة تأبى ذلك . .!!

وأتباع النصرانية فى العصور الأخيرة ينظرون إلى شرائع التوراة نظرة ريبة وتهمة . . فبعضها يستحيل علميا قبوله لقسوته وشناعته كتهديم بيوت بعض المرضى ونقضها من أسسها ، وبعضها حف به ما وقف تنفيذه كشريعة الرجم . .!!

وعلى أية حال فإن اليهود والنصارى جميعًا أماتوا أغلب الأحكام السماوية وشرعوا لأنفسهم قوانين أرضية تحكم شئون الأموال والدماء والأعراض . .

وظاهر أن عددًا من القوانين والنظرات الرومانية ساد المجتمعات الأوربية وساقها إلى وجهته ، والقوانين الرومانية وثنية الأصل أرضية النزعة لا علاقة لها بالسماء . . وإنما تستمد وجاهتها من تقاليد ينبغى ـ لأمر ما ـ أن يحتكم الناس إليها . .!!

وعند التأمل نشعر بأن واضع القانون كان يتخيل نفسه مكان المنحرف ثم ينشئ العقوبة المناسبة فتجيء وكأنها اعتذار عن الجرم أو تقدير لوجهة نظره ، أو إتاحة لفرص النجاة أمامه . .

أعنى أنه ينظر فى حال القاتل ، فإن كان الدافع إلى القتل شعورًا مفاجئًا تملكه ، أبعد عنه القصاص ومهد أمامه طريق الحياة !

إن واضع القانون فى الحقيقة كان ينقذ نفسه من القتل لأنه يتصور نفسه مكان المجرم ، أما الآثار الاجتماعية لمنع القصاص فهو يتجاهلها .

وقد مضى هذا الشعور المعتل فى طريقه حتى أبطل أو كاد عقوبة الإعدام لجماهير القتلة . . وأمسى من العدالة أن يغتصب رجل ذئب بضع عشرة فتاة ، ثم يقتلهن جميعًا ، ثم يقضى بقية حياته فى سجن مهذب !!

وفى نظر القانون الوضعى أن الجسد ملك صاحبه ، ليس لله حق فيه ! فإذا زنى إنسان بملء إرادته فلا حرج ولا جريمة ، وإذا كان هناك حق لزوج ، كانت المؤاخذة محدودة ، تذهب بتنازل الزوج!

والمال أخطر من العِرْض ، فسن الرشد المالى إحدى وعشرون سنة ، أما سن الرشد عندما يتصرف امرؤ فى عِرْضه ، فثمانى عشرة سنة . والقضاء فى شئون المال ملزم بما كتب ، فلا تسمع الدعوى فى دين شفوى زاد على عشرين جنيها ، ولا مكان لضمير القاضى هنا فى محو أو إثبات . . أما فى شئون الدم والعرض فللقاضى أن يتصرف بما يراه أدنى إلى الصواب ، والصواب هنا وفق مقررات البيئة ، وفى قضية الثرى المصرى «على فهمى» الذى قتلته زوجته الفرنسية ، رأت المحكمة أن القاتلة لا تستحق عقوبة ما تقديرا لظروفها النفسية !!

وانقطاع الصلة بين التوجيه الإلهى وعلاج الانحراف انتقل من القضايا الخاصة إلى القضايا الدولية فإذا قتل يهودى فى روسيا قامت الدنيا وقعدت ، وإذا قتل ألف مسلم فى بلد آخر لم يتحرك أحد . .!!

ومظالم الزنوج فى جنوب إفريقيا قد تثير قليلا من التعليق ، ولكن هذا التعليق يختفى عندما تبلغ القضية مجلس الأمن ويقترح توقيع عقوبات على جنوب إفريقيا! أن الدول العظمى كلها تستغل حقها فى الاعتراض لتبقى جنوب إفريقيا ملكا خاصا للرجل الأبيض ـ يقترف ما يشاء دون حرج ـ ويجتاح حقوق السود بلا وجل .

وكان هلاك الأمم السابقة ؛ أنهم إذا سرق الضعيف قطعوه وإذا سرق الشريف تركوه : أى أن العدالة تتلون مع القوة والضعف ، وذاك ما يحدث الآن مع التقدم الحضارى الكبير ، إنه تقدم علمى حقًا ، ولكنه مثقل بأوزار الهوى وأوحال الشهوات ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا يخضع لحكمه ، ولا يتبع هداه .

ولا نزعم أن القوانين الوضعية شر كلها ، فهى من صنع الإنسان الذى يصيب ويخطئ ويضل ويهتدى وربما تضمنت أمورا جديرة بالقبول خصوصًا عندما تعمل فى الميدان الإدارى أو الدستورى . . لكن ذلك لا ينسينا أمرين : أولهما أنها جعلت إقصاء الإسلام وإزهاق روحه هدفها الكبير ، والآخر أنها تنقل إلينا قيم وأعراف أقطار جرفتها فلسفات مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر !

ومن ثم كان الخندق عميقًا بين هذه القوانين الغازية المفروضة كرها ، وبين جماهير لم تنس ولاءها لله ورسوله ، ولم تتنكر لماضيها الإسلامى الثابت .

والصراع القائم الآن هو بين سماسرة الغزو الجديد ومروجى عقائده وأنظمته . . وبين حراس الإسلام والأوفياء لتراثه وتاريخه وأمته . .

ولما كان الإسلام دينا متعدد الشُّعب ، له فى كل ميدان توجيهات ومعالم فإن رحى المعركة تتسع يومًا بعد يوم تتناول السياسة والاقتصاد كما تتناول الزواج والحضانة ، وقد رفضت الجماهير أن تقسم ولاءها بين ما تريد وما يراد لها .

وكل يوم يمر يزداد صوتها علوا بضرورة تحكيم الإسلام فى كل شىء ، وإنزال العبادات والمعاملات جميعًا ، على شرائعه المقررة فى الكتاب والسنة . . .

وأعداء الإسلام أيقاظ لموقف أمته من شريعته المهدرة ، وهم يضعون العوائق علنا وسرا أمام عودة الشريعة الإسلامية . .

وأمل الفريقين لا يخفى ، فأعداء الإسلام يريدون بقاء القوانين الوضعية تمهيدًا لإزالة الإسلام كله ، حتى من مجال الأخلاق ، فالأخلاق المدنية لديهم أفضل من الأخلاق الدينية . .

وأنصار الإسلام يبغون من عودة التشريع الإسلامى حماية الإيمان ذاته وحراسة آثاره فى شئون الحياة كلها ، ورد ما انتقص منها وإرغام المغيرين على الانسحاب بكل مقوماتهم المضادة لتعاليم الإسلام المناوئة لشعائره وشرائعه .

بيد أننا بعد ما كشفنا جبهة العدو لا نريد أن ندافع عن أنفسنا بالباطل ، فقد ظلمنا رسالتنا عندما جمَّدنا فقهنا ألف عام ، وأخذنا نطحن فى الماء خلال تلك القرون ، ما نزيد ولا ننقص . وكأنما أثبتنا الفلك وأغمضنا عين الزمان . .

وعندما أُرغمنا على الحركة شرع لفيف منا يبدأ العمل من حيث وقف الآباء غير معترف بأن شيئًا ما قد حدث فى طول العالم وعرضه .

إنه لا بأس أن نغالى بما عندنا ، على شريطة ألا نبخس ما حققه الآخرون فى فترة غيابنا عن قيادة العالم .

وشىء آخر لابد أن نراجع أنفسنا فيه ، أن الشمال الإفريقى لا يعرف إلا فقه الإمام مالك ، وأغلب الأتراك والهنود وجمهور من العرب لا يعرف إلا فقه الإمام أبى حنيفة . . ولكل إمام كبير أتباع متحمسون . .

وهؤلاء الأئمة الأعلام صنعهم الإسلام ولم يصنعوه ، وما أتردد فى اعتبارهم قممًا مرموقة . لكن مسلمى العصر الحاضر لا يجوز أن يلقوا حضارة العصر وفكره الموارى.بوجهة نظر واحدة لإمام لا يعرفون غيره . . الإسلام أكبر من ذلك .

الفقيه المسلم فى هذا العصر يجب أن يستوعب ما قاله رجالات الإسلام فى تفسير نصوصه ، وأن يواجه بهذه الحصيلة الفنية ما طلع به العصر من نظرات ومبادئ !

إن التعصب المذهبى منكور بين العامة ، وأرى أنه بين الفقهاء جريمة غليظة . . فإذا شرعنا نرد القوانين كلها إلى فقهنا الإسلامى ، فسنجد أنفسنا أمام ينابيع دفَّاقة وثروات طائلة ورجال مهدوا الطريق واستحقوا التقدير . . وما علينا إلا أن نحسن التأسى ونسرع المسير .

٥١ . ما معنى الإجماع وما مكانته فى الإسلام ؟

للإجماع معنيان نحب أن نوضحهما : فهناك إجماع على حكم شرعى مستفاد بطريق القطع من كتاب الله تعالى ، أو من سنة رسول الله ﷺ ، أى أن هذا الإجماع يعتمد على نص هو الذى أثبت الحكم الشرعى ويستوى فى هذا النص أن يكون من الكتاب أو السنة ، مادامت دلالته قاطعة !

والمجمعون هنا هم الأمة كلها من عامة وخاصة ، الأمة الإسلامية إذا اتفقت كلمتها على حكم شرعى من هذا القبيل فقد زادت الحكم قوة ، ومنعت للأبد أى شغب عليه «ولما كانت الأمة لاتجتمع على ضلالة فإن الخروج على هذا الحكم يعد انفلاتا من الإسلام وخروجًا عن الدين»! .

أما الإجماع الآخر فهو اتفاق أهل النظر ، أو أرباب الاجتهاد على حكم ثبت بطريق القياس أو رعاية المصلحة أو تطبيقًا للقواعد الفقهية المعتبرة ، أو ما أشبه ذلك من أدلة .

ويجب احترام هذا الإجماع ، والتزام الأفراد به ، وإذا حدث ما يستوجب إعادة النظر فيه فهو ينسخ بإجماع آخر ، من أهل الذكر ، وأصحاب الحل والعقد ، وليس لأحد أن يتصرف متجاهلاً هذا الإجماع ، والأمة التى تحترم نفسها ، والأفراد الذين يحترمون أمتهم لابد أن يتقيدوا بهذا الإجماع ؛ لأن الخروج عليه قد يكون فسوقًا أو عصيانًا ، وربما لابسه ما يؤدى إلى الكفر .

ونعود إلى شرح الإجماع بمعنييه ، وضرب الأمثال التى تكشف حقيقته !

أمر الله بالصلاة فقال : ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** ﴾[1] .

ثم علم الرسول الأمة كيف تصلى وبيَّن عمليًا أن الصلوات المفروضة تحتوى على سبع عشرة ركعة . موزعة على الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وأن كل ركعة بها ركوع واحد وسجودان . . . إلخ .

وأجمع المسلمون إجماعًا مؤكدًا منذ القرن الأول على هذه الحقائق! ما شذ أحد!

---

(١) البقرة : ٢٣٨ .

فإذا جاء اليوم من ينكر فريضة الصلاة ، أو من ينكر أداءها على النحو السابق ، فليس بمسلم !

وقد التقيت بأناس ينكرون السُّنة ، وسألت أحدهم : كيف تصلى؟ فقال كلاما استغربته !

ومن عجب أنه لما مثل لى السجود وضع ذقنه على الأرض ، وقال : هكذا أمرنا الله فى كتابه وتلا الآية ﴿ **يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا** ﴾[1] .

وأيقنت أنى أمام جنون كافر! وكفر مجنون! وقد بلغنى عن أحد الحكام العرب الكافرين بالسُّنة أنه اخترع طريقة أخرى فى الصلاة ، لايخرج بها عن الوصف الذى ذكرنا . . .

وحدث أن أحد الزنوج الأمريكيين المقدمين فى قومهم رأى ألا يكون الصيام فى شهر رمضان ، فكان يصدر قرارًا بالشهر الذى يختاره كل عام ، قد يكون يناير أو فبراير على حسب ما يهوى!

ومادام فى الرؤساء العرب من يغير الصلاة فلم لا يكون فى غيرهم من يغير الصيام؟

ويقول الله تعالى : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴾[2] فإذا أتى من يقول : هذا حكم مؤقت ، كان يصلح قديمًا ولاصلاحية له الآن ، أو أتى نص قرآنى آخر تلقته الأمة جمعاء بفهم موحد ، وقبول مطلق ، فرفض هو قبوله وإمضاءه . فهو بهذا الرفض ينسلخ عن جماعة المسلمين! وخروجه على جماعتهم أمارة الكفر بدينهم .

والفقهاء من قديم يسوون بين جحد العقيدة ، وبين إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

ونحن لانشذ عنهم ، ولا نحب أن يكون الدين مرتعًا للعبث والمجون ، إن الإجماع ـ والحالة هذه ـ سياج لحفظ الحرمات ، ومنع الفتن ، وتوجيه الجهود إلى البناء المجدى .

أما الإجماع بالمعنى الثانى ، فقد شرحه الإمام محمد عبده وهو يفسر قوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[3] قال رحمه الله : «إنه فكر فى هذه المسألة من زمن بعيد ، فانتهى به الفكر إلى أن المراد بأولى الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين ، وهم الأمراء يعنى الرؤساء

(١) الإسراء : ١٠٧ . (٢) النساء : ١١ . (٣) النساء : ٥٩ .

ـ والحكام والعلماء ، وقادة الجيش . . وغيرهم ممن يرجع إليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة . فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا منا ، وألا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله ﷺ التى عرفت بالتواتر ، وأن يكونوا مختارين فى بحوثهم لما عرض عليهم ، ومتفقين عليها ، وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة ، وهو ما لأولى الأمر سلطة فيه ، ووقوف عليه ، وأما العبادات ، وما كان من قبيل الاعتقاد الدينى ، فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد ، بل هو مأخوذ من الله ورسوله وحسب ، وليس لأحد رأى فيه ، إلا ما يكون فى فهمه . فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا اجتمعوا على أمر من مصالح الأمة ليس فيه نص عن الشارع ، مختارين فى ذلك ، غير مكرهين عليه بقوة أحد ولا نفوذه ، فطاعتهم واجبة ويصح أن يقال : هم معصومون فى هذا الإجماع ولذلك أطلق الأمر بطاعتهم» . . ـ نقلنا ذلك عن المنار بتصرف ـ .

ويضيف الشيخ محمود شلتوت إلى ذلك حقيقة أخرى : «أن الإجماع الذى يعتبر دينا من مصادر التشريع فيما لا نص فيه ، هو اتفاق أهل النظر فى المصالح ، وهم رجال الشورى الذين تعرض عليهم الأحداث ، ويتناولونها بالبحث ، وتتفق آراؤهم فيها ، وبما أن هذا الإتفاق لايكون إلا أثرًا للبحث والنظر كان خاصًا بأهل البحث والنظر ، ولا عبرة فيه بموافقة من ليس أهلا للنظر ولا بمخالفته» ثم يقول :

«ويجوز للمجتهدين أنفسهم أو لمن أتى بعدهم ، إذا تغيرت ظروف الإجماع الأول أن يعيدوا النظر فى المسألة على ضوء الظروف الجديدة ، وأن يقرروا ما يحقق المصلحة التى تقتضيها تلك الظروف ويكون الاتفاق الثانى إجماعًا منهيًا لأثر الإجماع الأول ، ويصير هو الحجة التى ينبغى اتباعها : وإذا وجدت المصلحة فثم شرع الله » .

إن الإجماع بمعنييه معقول! فأما بالنسبة إلى ما يستند إلى النصوص القاطعة فظاهر ، وما يحب الفكاك منه إلا الذى فى قلبه مرض .

ونتوقف قليلا عند الإجماع بالمعنى الثانى ، إنه لا يوجد مجتمع بشرى يحب أن يعرض مقرراته للعبث مادام أولو الألباب قد انتهوا إليها .

فإذا لاحظ أحد أن هناك تغيرًا فى معنى المصلحة وفد به الزمان المتجدد ، دعا إلى النظر فى الأمر ، وشرح مالديه من دوافع إلى مراجعة الإجماع السائد ، فإن

وافقه الآخرون فيها حل إجماع مكان إجماع . . . وإلا فلا يحل له أن يتصرف وحده ويشذ عن الجماعة .

إننى أود لو كتب المصحف بالإملاء المعهود لا بالرسم العثمانى ، ولكنى لا أبيح لنفسى نشر مصحف بهذا الإملاء شاقًا الإجماع السائد ! .

إذا اجتمع أهل الذكر فى الأمة على ترك الرسم القديم ، وإثبات الإملاء الجديد فيها ، وإلا فكتابة المصحف باقية على ما هى عليه .

وقد أنكرت على أحد الحكام تغييره للتاريخ بالهجرة ، وجعله التاريخ بدءاً من وفاة الرسول ﷺ !! إن هذا تصرف عابث ، وخروج على إجماع محترم دون سبب واضح أو غامض !!

وقد يتخيل البعض أن هناك إجماعًا على أمر ما ، وليس لخياله حظ من الواقع . .

فإجماع الأئمة الأربعة على حكم ما ، أو على فهم ما لا يسمى إجماعًا إذا كانت ثمَّت مذاهب لصاحبه أو تابعين أو مجتهدين آخرين .

وقد رأيت من يحتقر الفقه الظاهرى ، ويرى الإجماع يتم بدونه ، وهذا تصرف مستهجن ، وقد رأيت لابن حزم آراء كان فيها أولى بالحق من غيره ، وأقوم قيلا ، كما رأيت لابن تيمية فقها ناضجا بالذكاء والتألق .

وألفت النظر إلى أن الخلاف العلمى يترجح بقوة الدليل لا بكثرة الأتباع .

وأن مقلدى الأئمة لاتحسب لهم أصوات مستقلة عند المناقشة وإحصاء الآراء ، إن آراء المجتهدين هى التى توزن ، ويكترث بها .

ثم إن التحقيق العلمى ، غير الشهرة ، فقد يذيع رأى يكون التحقيق ضده .

وأرى أن مواريث كثيرة فى الفروع القائمة على الاستصلاح أو القياس أو ما يشبههما يمكن أن تراجع ، وتصدر فيها أحكام جديدة .

ولنضع نصب أعيننا أن سطوة الحكام القدامى كانت وراء شيوع آراء ضعيفة ، واستحيائها مع أنه كان يجب أن تدفن مكانها !!

ألا ترى أن الشورى ـ وهى أساس النظام السياسى فى الإسلام ـ عدها البعض من النوافل ، وعدها آخرون تفضلاً من الحاكم ، يعطيها بصوت شامخ وتقبلها الأمة بصوت خفيض! ومن سماسرة الفقه من لايزال ينشر هذا السخف!! . . .

٥٢. ما نظام الحكم فى الإسلام؟ وهل الأمة مصدر السلطة فيه؟

عندما ظهر الإسلام فى العالم كانت هناك دول صغرى وكبرى ، وأديان سماوية وأرضية ، وفلسفات مزدهرة أو مدبرة ، وشهوات فردية وجماعية ، وهذه طبيعة المجتمع البشرى من بداية التاريخ إلى عصرنا هذا مع تفاوت يسير .

وصاحب الوحى الخاتم كان يدرى مايفعل لما بدأ تبليغ الرسالة وبناء الأمة التى تحملها !

كان يدرى أنه رحمة للعالمين ، وأنه مكلف بإسعاد الإنسانية كلها ، وإخراجها من الظلمات إلى النور .

وكان يدرى أن الكتاب الذى يتلوه ، والسنة التى ينشئها يتضمنا الأشفية التى تنقذ الأمم من أمراضها المزمنة !!

وأمراض العالم كثيرة ، بيد أن الوثنية السياسية هى علة العلل ؛ لأنها هى التى تحمى الوثنية الدينية ، وتستبقى الخرافات والمظالم ، وتمد حقها المزعوم على حساب ما لله من حقوق .

وإلى يوم الناس هذا رأيت حكامًا يغتفرون العدوان على اسم الله وتعاليمه ، ولايغتفرون العدوان أبدا على سلطانهم ومراسمهم !! .

كنت أقرأ قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ** ﴾[1] .

قلت : كان بنو إسرائيل يعيشون فى مصر ذات السماء المشرقة والأرض الضاحية فما الظلام الذى يخرجون منه؟ إنه ظلام الاستبداد السياسى والفرعونية الحاكمة ، والاستضعاف الأثيم .

---

(١) إبراهيم : ٥ .

وفى صدر السورة يقول الله لنبيه محمد :﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾[1] .

إن الكتاب الجديد الذى يحمله النبى العربى العظيم ، يخرج الناس من الظلمات التى عاناها بنو إسرائيل من قبل ، كما يخرجهم من ظلمات الجاهلية المخيمة على كل قطر ، إنه يمحو الوثنيات الدينية والسياسية على سواء .

الناس يسجدون لإله واحد ، لايسجدون لغيره! . ومشاعر الخوف والرجاء والرغبة والرهبة ترتبط قبل كل شىء وبعده بالخافض الرافع الضار النافع!

وكل تقليد سياسى أو اقتصادى يربط المشاعر السابقة ببشر ما ، فهى ذرائع شرك وأسباب فساد ، ومحوها من الإصلاحات الأساسية للنظام الإسلامى .

ومعروف أن شبكة التشريعات الإسلامية تتناول الفرد من المهد إلى اللحد ، وتتناول الدولة من تنظيف الطرق الى عقد المعاهدات ، والأمة الإسلامية بهذا المنهاج أمة رسالة تعمل بها وتدعو إليها وقد قال الله لنبيها : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾[2] .

ومعنى هذا أن الحكم الإسلامى ليس دعوة إلى سيادة جنس من الأجناس ، ولا هو محاولة لنشر فلسفة أرضية ، ولاتعاون بين أفراد شعب ما ؛ كى يعيشوا فى مستوى معين من الغذاء والكساء !

إنه دولة تحمى عقيدة وتقيم شريعة ، وكما يصلى الناس وراء إمامهم فى المسجد يعبدون الله ، ولايعبدون هذا الإمام ، يمضى الناس وراء حاكمهم لإرضاء الله وإقامة دينه ، لا لإعلاء الحاكم ، وإشباع نهمه فى السلطة ، أو تملقه طلبا لدنيا ، وارتقابا لمغنم . .

تلك هى السمة العامة لنظام الحكم الإسلامى ، وللتفاصيل مكان يجىء بعد . والأمة الإسلامية ـ وقد بينا وظيفتها ـ مصدر السلطات التى تنشأ بين ظهرانيها ، أعنى أنها وحدها صاحبة الحق فى اختيار الرجال الذين يلون أمرها وفى محاسبتهم على ما يقومون به من أعمال ، وفى ذمهم أو الثناء عليهم ، وفى معاقبتهم إن أساءوا ، وفى عزلهم إذا شاءت . .

---

(١) إبراهيم : ١ .　　(٢) النحل : ٨٩ .

وكلمة «مصدر السلطة» من مصطلحات العصر الحاضر ، ونحن لا نهتم بالاسم وإنما نهتم بالحقيقة والمدلول ، كما أننا نرفض التلاعب بالألفاظ .

إن المسلمين أثبتوا حقهم فى اختيار الخليفة ، أو رئيس الدولة ، بعد وفاة الرسول مباشرة ، وتبين من مسلكهم أنه لا خلافة بالاغتصاب أو الانقلاب العسكرى ، ولا خلافة بالوراثة ، ولا خلافة بعصبية ما تفرض نفسها بأى لون من ألوان الإكراه المادى أو الأدبى .

إنها بيعة حرة تعمد إلى أكفأ رجل فتقدمه وتراقبه ، فإن صدق ظنها فى خدمتها وخدمة رسالتها كانت طاعته دينا ، وتوقيره تقوى ، وإن صدق عليه إبليس ظنه فلا طاعة له ولا كرامة . .

ولأى مسلم يأنس من نفسه القدرة على هذه الرياسة أن يرشح نفسه ، وإذا أنس القدرة فى شخص آخر رشحه ، وعرض على الناس اسمه ! . .

إن يوسف الصديق رشح نفسه لشئون المال ، وقال للملك : ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[1] ورشح خالد بن الوليد نفسه لقيادة المسلمين أول الاصطدام بالروم فى معركة اليرموك ؛ لأنه رأى نفسه أبصر بأسباب النصر ، ورشح عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح الصحابى الكبير أبا بكر الصديق لرياسة الأمة وتمت مبايعته . .

وما روى مخالفًا لما قلنا فله ملابساته الصحيحة . . إن أبا ذر رضى الله عنه رغب فى الإمارة ورشح نفسه لها ، بيد أن النبى ﷺ أفهمه أنه ضعيف وأنه ـ مع تقواه ـ لا يقدر على أعبائها .

كما أن النبى رفض ناسا من عشاق الإمارة ، طلبوا منه أن يعينهم فى بعض المناصب . .

إن المتطلعين إلى المناصب الكبيرة كثيرون ، وكذلك الذين يحسنون الظن بمواهبهم!

والأمة وحدها هى التى تنتخب من تتوسم الخير على يديه ، وتراه أقدر على مقاليد الحكم ، وأجمع لخلال القوة والأمانة . .

---

(١) يوسف : ٥٥ .

ومن السفه تصور أن الإسلام يكره الجماهير على قبول حاكم لايرضونه ؛ لأنه منحدر من عائلة كذا !!

واتفق المسلمون على تسمية الدولة الإسلامية الأولى : «بدولة الخلافة الراشدة» كما اتفقوا على سلب صفة الرشد عن حكومات الأسر القوية أو العائلات الكبيرة التى هيمنت على التاريخ الإسلامى فيما بعد . . .

لقد جاء فى السنة النبوية أن الله لايقبل صلاة رجل أَمَّ قوما وهم له كارهون! والصلاة عبادة ميسورة الأداء ، يقدر عليها الصالح والماجن!

أما الرياسة العظمى للأمة الإسلامية ، أو ما قاربها من مناصب حساسة ، فهى عبء هائل ، واستيلاء التافهين عليها بوسائل ملتوية سمجة ، بلاء ساحق ، ولعله السبب الأول أو السبب الأوحد فى طى ألوية الإسلام شرقًا وغربًا . . .

الخلافة نظام بعيد عن الفرعونية ، والكسروية ، والقيصرية ، والخليفة رجل تختاره الأمة - أى إنه برضاها جاء - وتنظر فى مبلغ وفائه لرسالتها ودينها فتستبقيه ما وفَّى ، وتستبعده إن عجز !

أو كما عبر ابن حزم : «إنه الإمام الذى تجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ، فإن زاغ عن شىء منهما منع من ذلك ، وأقيم عليه الحد والحق ، فإن لم يؤمَن أذاه إلا بخلعه ، خلع وولى غيره» .

وهذا هو ما نقصده بكلمة «الأمة مصدر السلطة»! ولا يجرؤ أحد على إنكار ما نقرره هنا ، وما نقرره هو ما تزعمه ، إن صدقًا ، وإن كذبًا ، شتى الأنظمة الإنسانية الحديثة . .

وقد رأيت بعض المتدينين قلقا من هذه الكلمة ، وربما أنكرها؟ . .

لماذا؟! أحسن هؤلاء المنكرين حالا من يقول : إن الكلمة تعطى الناس حق التحريم والتحليل وهو لله وحده!

وما ينكر مسلم أن هذا الحق لله وحده ، ولكن ما علاقة هذا الحق المقرر لرب العالمين بمبدأ اختيار الأمة لحكامها وإخضاعهم لسيطرتها؟ لا علاقة! . .

فالأمة الإسلامية المؤمنة بكتاب ربها وسنة نبيها لن تخرج عنهما أبدًا ، بل إنها هى التى تحاسب من يخرجون! . .

وهناك متدينون محصورون فيما ورثوا من ضروب الافتيات والتجاوز ، للكلمات في آذانهم طنين غامض ، وهم على استعداد لاتباع أى حاكم ، جاء من أى طريق! ولو كان عن طريق المستعمرين! ما دام يقدم لهم الكلأ ! هؤلاء لا دين ولا دنيا! .

وننظر فى أول خطبة ألقاها أبو بكر بعد انتخابه أميرًا للأمة كلها «أيها الناس ، إنى وليت عليكم ولست بخيركم! فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى!

الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له إن شاء الله! والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله .

أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم» . . .

تدبر هذه الكلمات ، الخليفة المختار من الأمة يقول إنه منها ، ويطلب عونها إن أحسن وتقويمها إذا أساء .

ويتعهد بإعزاز الضعفاء ؛ حتى يبقى لهم حقهم وقمع الأقوياء ؛ حتى لايمرحوا فى حقوق غيرهم . .

ويختم كلماته بأن طاعة الناس له مرهونة بطاعته لله ورسوله ، أى بإقامته للكتاب والسنة وإلا سقطت طاعته . .

أهناك اعتراف بسلطان الأمة ورقابتها أصرح من هذا الاعتراف؟ إنه ليس سلطانا ينظر إلى الناس من أعلى ، ويرتقب منهم أن يسارعوا إليه زلفى!

إنه رجل يطلب من الأمة أن تمنحه راتبا يطعم منه هو وأهله! وليس لصّاً كبيرًا جدّاً يضع يده على مال الله ، ويومئ إلى الخدامين والمداحين فيهرعون إلى ساحته . .

إن على المسلمين أن يعرفوا دينهم ، ومكانتهم ، وإلا هلكوا بالأوضاع التى ورثوها وألفوها ! . .

٥٣. ما المعالم الأولى للدولة الإسلامية؟

الناس ترهب الحكم الدينى لأمرين : الأول أنه قد يحرج مخالفيه فى العقيدة ، ويضيق عليهم الخناق ، ويعدهم ـ بلغة العصر ـ مواطنين من الدرجة الثانية !

وهذا التصرف منفى نفيا تامًا فى الدولة الإسلامية ، إذ أن الإسلام يجعل المواطنين المخالفين فى المعتقد فى ذمته وعهده وشرفه! يوفر لهم الحماية المادية والأدبية على نحو لم تعرفه ولن تعرفه دولة أخرى .

وهذا سر بقاء الطوائف الدينية المخالفة بين ظهرانى المسلمين دون حرج أو عنت ، على حين فنيت القلة الإسلامية أو اعتلت تحت سلطان العقائد الأخرى . .

والمحذور الثانى من الحكم الدينى أن الخليفة ، أو الرئيس يمنح ميزات روحية وغيبية غامضة ، وكأنه ممثل لله على ظهر الأرض ، فله ما يشبه القداسة أو العصمة!

وهذا المعنى منكور ومرفوض فى الدولة الإسلامية ، فالحاكم واحد من الناس ، غير أنه أثقلهم حملا ، وأشدهم مسئولية ، وهو يخطئ وينتظر التصويب من غيره ، ويضعف وحده إلا أن يقوى بمظاهريه من أولى الألباب وذوى الغيرة . . .

وقد رأينا فى الخلافة الراشدة كيف يقترب الخليفة من الناس ويلتمس النصح والعون ، وكيف ينفر من مظاهر العظمة الفارغة ، ويرى الخيلاء جريمة ، والتواضع تقوى . .

وأول معالم الدولة الإسلامية الشورى وطلب الصواب عند أهله ، والانصياع للحق إذا ظهر وتوفير الجو الذى يحق الحق ويبطل الباطل . .

والشورى خلق إنسانى رفيع ، محمود فى المجتمعات قديمها وحديثها ، ومعروف فى نظم الحكم من قديم ، وإن خرج عليه كثيرون ، وتمرد عليه مستبدون .

يقول الحسن : الناس ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل! فالرجل الرجل من له رأى ومشورة ، والرجل نصف الرجل من له رأى ولا مشورة له ، والثالث من لا رأى له ولا مشورة !

روى البغوى عن عائشة قالت : ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ ! وهو بداهة إنما يستشيرهم فى شئون الدنيا ، والمصالح العامة ، مما لم ينزل فيه وحى . .

وقد استشار المسلمين فى معارك بدر ، وأحد ، والخندق ، ونزل على رأيهم .

وروى أحمد بن حنبل فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر : «لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما» .

وروى ابن بردويه عن على بن أبى طالب : سئل رسول الله عن العزم - يعنى قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾[1] . فقال : «**مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم**»!!

والغريب أن أحد المفسرين شرح الآية فقال : تستشير ثم تمضى على الأرشد لا على الشورى ، أى تخالف الشورى وتتبع رأيك أنت ويخيل إلى أن عصا حاكم مستبد كانت فوق رأس هذا المفسر المضطرب ، فقال لإرضاء الحاكم ما قال!! . .

إن الله تبارك وتعالى وصف المسلمين بهذه الكلمة ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾[2] وهو قول فصل ، ليس بالهزل! فكيف يجىء أحد بعد ذلك ليقول : يمضى الحاكم على رأيه متجاهلا ثمرة الشورى ، فلم كان طلبها من قبل؟ . .

ثم إن تنفيذ المبادئ المقررة يتخذ على امتداد الزمان شتى الصور ، فالعلم فريضة ، وتطوع الناس بطلبه فى بعض المساجد أو المدارس كان الصورة المألوفة فى مجتمع ساذج ، أما اليوم فقد جندت الأجيال له ، ونسقت مراحله ومعاهده ، ويستحيل ترك التعليم للتطوع الفردى !

والجهاد فريضة ، وكانت صيحة شجاعة تجمع الشبان والشيب للانطلاق إلى ميادينه وخوض معاركه ، فهل تفعل الأمم ذلك الآن؟ أم تجعل للجيش كيانا دائمًا ، وتجعل للالتحاق به سنا معينة ، وترصد لتدريبه وتموينه وتسليحه الألوف المؤلفة؟ . . .

كذلك الشورى إنها مبدأ مقرر ، وفريضة محكمة ، ولابد من إنشاء أجهزتها ، وإمدادها بأنواع الخبرة ، وتنظيم إشرافها على شئون الدولة ، وتمكينها من تقليم أظافر الاستبداد الفردى ، وضمان مصالح الجماهير !

ومحاولة استبقاء الشورى فكرة ساذجة ، أو جعلها نافلة عارضة ، كذب على الدين وخيانة له ، ورغبة فى إرضاء حاكم متسلط على حساب الإسلام وأمته ، ولم يخل جيل من أناس يبيعون دينهم بعرض من الدنيا ، وقديما قال شاعر دجال ، لحاكم مستبد :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار!!

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) الشورى : ٣٨ .

كيف يقال هذا ، مع قول رسول الله ﷺ : «ما من أمير عشيرة إلا يؤتى به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل ، أو يوبقه الجور ، وإن كان مسيئًا زيد غلاً إلى غله» .

إن واحدًا من الخلفاء الراشدين لايمدح بهذه الكلمات الحمقاء ، فكيف بغيرهم من حكام الجور؟ . .

ومن الذى أعطى الحاكم مهما علا شأنه حق الاعتراض على رأى الجماعة أو رأى الكثرة ، فإذا رفع يده رافضا سكت الناطق ، وحم القضاء؟ وما قيمة ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ مع هذا الحق؟

إن أجهزة الشورى المنظمة ، المحترمة الملزمة هى التى تحفظ حدود الله ، وهى التى تأخذ على أيدى الظلمة وتقى الأمة شرهم ، وتنفذ قول الرسول الكريم «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك يعمهم الله بعقاب منه**» .

• وقد حكم التاريخ الإسلامى قريب من مائة خليفة من بضع أسر تعد على أصابع اليد! أكدت سيرتهم حاجة المسلمين الماسة إلى أدق أجهزة الشورى ، وأشدها محاسبة لولاة الأمور . .

ومن معالم الدولة فى الإسلام حفاظها الشديد على حقوق الإنسان المادية والأدبية ، وتوفير الأمن للأفراد والجماعات ، والترهيب من إيذاء أحد أو ترويعه! وجعل الدماء والأموال والأعراض فى مثل حرمة البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام أو أشد! . وإقرار العدل مع المؤيد والمعارض والقريب والغريب والغنى والفقير ، وتهديد الأمة جمعاء بالهلاك إن هى تبعت الهوى ، واستمرأت الفساد ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾[1] .

ولما كانت للسلطة ضراوة كضراوة الخمر ، فإن النبى عليه الصلاة والسلام حذر الحكام من الميل مع الهوى فقال : «**صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى: إمام ظلوم غشوم، وكل غال مارق**» والغلول الاختلاس من المال العام .

والغريب أن الفساد السياسى والاستغلال الشخصى لايفترقان ، فقلما تجد مستبدا إلا سارقا لمال الأمة ، متخوضا فيه بغير حق ، هو وأقاربه وأتباعه !!

---

(١) هود : ١١٧ .

ومن هنا نفهم ما رواه ابن عباس أن رسول الله بعث معاذا إلى اليمن ـ أميرًا عليها ـ وقال له : «**أتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» .

ويستوى أن يكون المظلوم مسلمًا أو غير مسلم كما جاء ذلك مصرحًا به فى روايات أخرى . .

ولممالأة الحاكم إغراء! وكما يتساقط الذباب على الحلوى ، يتهاوى الطامعون عند أصحاب السلطة ، ولا يحتاج ذلك إلى دليل! وقد نبه النبى ﷺ إلى عواقب هذه المسالك ، فقال : «**ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم! ولكن من رضى وتابع**» . . ولم يذكر النبى جزاءه ؛ لأنه معروف ، ثم رأى أن يذكر جزاء مؤيدى الباطل وأذناب المفسدين فقال : «**يكون أمراء تغشاهم غواش أو حواش من الناس، يكذبون ويظلمون، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه! ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه**» وفى رواية أخرى : «**فمن صدقهم بكذبهم فأعانهم على ظلمهم فأنا منه برىء، وهو منى برىء**»! والروايات كثيرة فى هذا الموضوع الحساس فى حياتنا وتاريخنا . .

ولعل ذلك سر الخصومة الممتدة بين أئمة الفقه الإسلامى وبين جمهرة الحكام الذين تسموا خلفاء ، وهم ملوك من شرار الملوك!!

وقد كانت جماهير الأمة تعرف عدالة الفقيه بقدر قربه أو بعده من باب السلطان وما ذلك إلا لشعورها العميق بأن هؤلاء السلاطين قطاع طريق ، لا خلفاء راشدون! . .

أما رئيس الدولة ـ أو الخليفة الصالح ـ الوفى للأمة ورسالتها فإن محبته عبادة ، وتوقيره دين ، وتأييده واجب على جمهور المؤمنين! أليس الساهر على مصالحهم الناهض بأعبائهم؟ أليس الحامل للراية القائد للجهاد؟

لقد جاء فى السنن أنه أول السبعة الذين يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله!! . . كما جاء عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : «**أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رقيق، وشر عباد الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق**» ـ أحمق!

٥٤. ما مدى تقبل الإسلام لأسس الدولة الحديثة ؟

أجدنى بحاجة إلى توكيد أنه لا فرق بين مقتضيات الفطرة السليمة ، وتعاليم الدين الحنيف !

إننى أحيانا أصحح بعض الأفكار الدينية المائلة على ضوء سلامة الفطرة ، كما أصحح بعض المسالك التى يزعم الإنسانيون سلامتها على ضوء الوحى المعصوم . .

وقد بحثت عن المقصود بأسس الدولة الحديثة بعد ما ذكرت أن الحكم عندنا يقوم على الاختيار الحر ، وأن الشورى تلزم الحاكم ، ماذا بقى؟

قالوا بقيت أمور نعرضها واحدًا واحدًا! هل يقبل الإسلام أن يختار الخليفة لأجل محدود؟

قلت : ليس هناك نص يمنع ، فإذا وجدت الأمة أن ذلك أحفظ لمصالحها ، وأصون لحرياتها ، وأبعد عن إساءة السلطة ، وأدعى إلى تواضع الحاكم ، فلا حرج عليها فى تقريره! . .

قد تقول : إن ذلك لم يعرف فى تاريخ المسلمين الطويل! ونجيب بأن تاريخ الخلافة غير الراشدة ليس أسوة ، بل قد يكون مثار لوم ومؤاخذة لذويه!

أما تاريخ الخلافة الراشدة فإن اختيار الخليفة فيه لم يتخذ نهجا واحدًا ، فأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ انتخبه أهل الحل والعقد انتخابا مباشرًا ، وعمر عهد إليه الخليفة القائم بعد مشورة عامة ، وذلك للظروف التى كانت تمر بالدولة ، فهى مشتبكة فى قتال ضار مع الروم والفرس جميعًا . . وعثمان أختير من بين ستة عينهم عمر ، ثم أقبل الناس يبايعونه حتى تم استخلافه .

وعلىٌّ بايعته الجماهير بعد مقتل عثمان مبايعة حرة لا ثغرة فيها !

وهذا الأسلوب المتجدد يشير إلى جواز كل ما يمنع الاستبداد الفردى ، مهما اختلفت صوره ، ولا يجرؤ مسلم على تحريم تصرف لم يجئ فى تحريمه نص ، من الكتاب أو السنة ، أو القياس الجلى ، أو الفوائد المحرمة ، بل الذى يقال هنا : إذا وجدت المصلحة فثمَّ شرع الله !

وعندما نراجع تاريخ الخلافة غير الراشدة ، وجنايتها الشديدة على الإسلام ، تميل إلى توقيت زمن الخليفة ، وتعريضه لانتخاب عام بين الحين والحين .

ولايخدش هذا الحكم أن الأجانب سبقونا إليه فى معالجة الاستبداد السياسى الذى أصيبوا به ، ونجوا من عقابيله وما نجونا !

وأعرف أن هناك قومًا لم ينطقوا بحرف فى التعقيب على ظلم قديم أو حديث ، يضيقون بتقييد المدة التى يبقاها الحاكم فى الحكم لماذا؟ لعلهم لم يقرءوه فى متن ، أو شرح !

وهؤلاء لايجوز أن يوزن لهم رأى ! . .

قال صاحبى : يمكن القول بأن تقييد زمن الخليفة مسألة لا يأمر الإسلام بها ولا ينهى عنها! فما رأى الإسلام فى وجود أحزاب سياسية تسعى للحكم وتستعمل له أهبته وهى بعيدة عنه ، وتقوم بقيادة المعارضة الشعبية ، إذا جد ما يستدعى ذلك؟

قلت : هى كسابقتها ، لايوجبها الدين ولا يحرمها . .

إن تكوُّن المذاهب الكثيرة ، واختلاف وجهات النظر ، أثر طبيعى للحرية الفكرية التى وفرها الإسلام لأتباعه ، وعرفها الناس بعد صراع مرير مع الجبابرة والأدعياء . .

وإيغال الحكم الفردى فى الاستئثار بكل شىء هو الذى حظر على الناس حقا طبيعيا لهم كان يمكن أن يمارسوه فى سلام وسماحة !

قال : كيف يسمح الإسلام بمعارضة لولى الأمر ؟

قلت : إن المعارضة فى نطاق الشورى ، وطلب الحقيقة واحترام حق الكثرة ، لاشىء فيها ، وهذه المعارضة نفع فى تفصيلات تشريعية واجتماعية ليس لأحد أن يفرض رأيه فيها بالعنف ، سواء كان حاكمًا أو محكومًا ، ولنضرب لك الأمثال ! . .

هب أن جماعة من الناس تخيرت من مذاهب الفقه الإسلامى أن تؤخذ الزكاة من جميع الزروع والثمار ، وأن تبقى المناجم ملكا لأصحابها على أن يؤخذ منها الخمس ، وأن يسوى بين دية الرجل والمرأة ، وأن تباشر المرأة عقد زواجها ، وأن تقبل شهادتها فى الدماء والأعراض كما تقبل فى الأموال ، وأن يقبل التفاضل فيما وراء الأصناف الستة . . . إلخ ثم وضعت هذه الجماعة منهاجها هذا وعرضته على الأمة ، وذكرت أنه أساس حكمها إذا منحت التأييد من الجمهور ، أيكون

هذا التصرف ارتداداً عن الإسلام؟ أيكون عصياناً مسلحًا للحاكم الموجود؟ لا هذا ولا ذاك !! . .

نعم إنه خروج على المألوف من تقاليد الحكم الفردى عندنا .

ألا لعنة الله على هذه التقاليد التى أذلت الدين وأُمَّته ، وجعلت دار الإسلام نهبا للذئاب والكلاب !

لقد ذكرت طوفان الخلاف الفقهى الذى يختبئ وراءه الغوغاء .

وهناك ما يساويه فى الخطورة ، هب أن جماعة من الناس رأت أن تضع منهجا لتصنيع البلاد ، فى بيئة زراعية ، أو لاتحادها مع غيرها ، فى أقاليم منفصلة أو لإنشاء سوق إسلامية مشتركة ، أو لتطوير أساليب عرض الإسلام ، مستغلة فى ذلك إمكانات الحكم ، فما الذى يمنع من إنشاء حزب ما ، لتحقيق ذلك؟ سواء ضاق به الخليفة أو رضى !

أيكون ذلك نقضًا للبيعة وخروجًا على الجماعة؟ لا هذا ولا ذاك ؛ لأن الأمة ستقول كلمتها ، وسترفض ما تراه خطأ ، وتقر ما تراه صوابا ، ومن فاز بثقتها اليوم يمكن أن يحرم منها غدًا ، مع نجاح المعارضين فى كسب الرأى العام .

أليس هذا أفضل من الاغتيال والكبت والاحتيال ، وإلصاق التهم بالأبرياء ، وتمكين الجهال من الإمساك بدقة الأمور زمنا أطول مما ينبغى؟

قال صاحبى : كأنك معجب بالنظام الانتخابى السائد فى الغرب !

قلت : إنه نظام أفاد أصحابه كثيرًا أو قليلا ، بيد أنه فسد عندئذ ؛ لأن الاستبداد السياسى زوره ، ومال به عن فحواه وأنا ـ باسم الإسلام ـ أحارب الاستبداد بكل ما لدى من طاقة . إن الكفايات العلمية والعسكرية أهينت طويلا فى أمتنا ، وبطش الحكم الفردى بها دون رحمة ، أحيانا ، أسائل نفسى : لماذا يقتل فاتح السند محمد بن القاسم بقلة اكتراث! لماذا يقضى فاتح الأندلس بقية عمره مهانا منبوذا؟ لماذا يقتل أبو حنيفة سجينًا وحيدا ؟ لماذا يضرب مالك ويجلد ابن حنبل؟ ويموت ابن تيمية محبوسًا؟ لماذا يغتال حسن البنا؟ لماذا يشنق أصحابه من بعده؟ لماذا يضرب رئيس مجلس الدولة عبد الرازق السنهورى بالنعال ليموت من بعد مشلولا؟ لماذا؟ لماذا؟

إننى أستطيع البقاء ساعات أتساءل وأتساءل ، فإذا فكرنا فى تغيير هذا البلاء ، ورسمنا أوضاعا تطيح به ، جاء نفر من الغوغاء الذين يلبسون زى الفقهاء ، ليقولوا باسم الإسلام : لا ، وهم - من الناحية العلمية - أشد الناس جهلا بالدين ، وخبرة بمآربهم ودناياهم؟

قلت ومازلت أقول : إن مبادئ الإسلام معصومة ، أما الذين حكموا باسم الإسلام ، وهم عشرات الخلفاء من ثلاث أو أربع عائلات ، فأمرهم فرط ، ونريد إنصاف الإسلام منهم ، وحماية حاضره ومستقبله من لوثتهم . .

لقد سقطت هذه الخلافة على أيدى التتار فى القرن السابع الهجرى ، ثم سقطت الخلافة مرة أخرى على أيدى الصليبيين فى القرن الرابع عشر الهجرى .

الأولى كانت حكرًا على أولاد العباس! والثانية كانت حكرًا على أولاد عثمان ، وهو من وجهاء الأناضول فى القرن الثامن! هل هذا الوضع هو الذى يستبقيه الإسلام ، ومن أجله يرفض تقييده مدة الحاكم ، ويرفض وجود الأحزاب السياسية .

٥٥. كيف يقيم المسلمون دولة إسلامية واحدة؟

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[١] . هذه الآية أدل شيء على صفة أمتنا وفحوى رسالتها . إنها أمة أورثها الله كتابه وأوصاها أن تعمل به وتدعو إليه ، وأن تجعل وجودها المادى والأدبى مربوطًا بحقائق الوحى الأعلى ، وترجمة عملية لمراد الله من خلقه : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٢] .

وقد بقيت علاقة الأمة المصطفاة قائمة برسالتها تلك على تفاوت مثير ، أحيانا تقوى فلا يعجزها شيء! وأحيانا تهين فيغلبها الذر!!

ومع التأمل فى التاريخ الإسلامى أستطيع القول : إن بقاء المسلمين إلى يوم الناس هذا يرجع قبل كل شيء إلى حفظ الله تبارك اسمه! ثم إلى وفاء الجماهير العميق لدينها ثم إلى جهاد الفقهاء والدعاة والمربين !

أما التاريخ السياسى فركام من الأقذاء نما على مر الأيام وبلغ ذروته فى هذه السنين العجاف! . .

وإن كان يظهر بين الحين والحين خليفة أو ملك يمسح القذى ، ويمهد الطريق ويكبت العدو !!

لقد شقت الأمة طريقها بقوة على عهد الخلافة الراشدة ، وكانت الجماهير والحكام جسدًا وروحًا لا فكاك بينها .

ثم اضطربت أجهزة الحكم العليا ، ودخلها خلل مزعج أيام الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية ، ومع ذلك رأى جمهرة العلماء والدعاة أن يبقوا الأمة موحدة الصف والهدف وراء أولئك الحكام ، فكان المسلمون أمة واحدة وخلافة واحدة تقريبًا . .

ثم نبتت إلى جوار الجذع الغليظ سيقان أخرى ما لبثت أن اشتدت وتحولت إلى جذوع قوية ، ومن هنا قامت دول إسلامية شتى ، فشاعت الفرقة والضعف ! . .

---

(١) الأنبياء :٩٢ . (٢) الحج : ٤١ .

والحق أن مأساة الإسلام الأولى لم تجئ من كثرة حكوماته قدر ما جاءت من تفاهة الحاكمين وندرة مواهبهم ، وسقوط منصب الخلافة بين أناس لا يصلحون لإدارة قرية صغيرة أو شركة محدودة !!

وما بد من كيان سياسى وثقافى موحد للمسلمين ، حتى يستطيعوا أداء رسالتهم والقيام بحق الله عليهم ، إلى جانب ما هو معروف من أن الإخاء الدينى بين المسلمين ، يسبق أخوة النسب ، وأن الولاء للمعتقد فوق الولاء للنزعات العرقية والأرضية !

وقد يظن ظان أن هذا ضرب من الغلو! لكنى بعد ما درست التاريخ الدولى للعلاقات بين المسلمين وغيرهم شعرت بأن هذا الترابط الإسلامى ضرورة حياة ، ونداء البقاء بين ملل ونَحل تنظر إلى المسلمين بكرهٍ ، وتود لهم العنت ، بل الضياع!

ولا تزال الضغائن الأولى تتوارثها الأجيال ، وتزيد جذوتها وهجًا ، حتى مطالع هذا القرن الخامس عشر ، فمع عمق الفجوة بين الهندوكية والشيوعية والصليبية واليهودية ، رأيت الكل يعالجون الوجود الإسلامى بالقتل .

المذابح الطائفية فى الهند ، والحرب الكيماوية فى أفغانستان ، ومجازر صبرا وشاتيلا فى لبنان ، ودير ياسين فى فلسطين المحتلة ، إنها النقمة على الإسلام وأمته حيث كانت ، قاسم مشترك يجمع بين الأضداد على اختلاف الزمان والمكان ، ويغريهم بانتهاز فرصة الضعف السائد للإجهاز على هذا الدين إلى الأبد . . .

فهل يلام المسلمون إذا فكروا فى وحدتهم وخلافتهم بعد ما فشلت النزعات العالمية والصيحات الإنسانية فى حقن دمائهم وحفظ حقوقهم . .؟

وسؤال آخر؟ مَن من الوثنيين وأهل الكتاب نسى عقيدته ، أو أصم أذنه عن ندائها؟ حتى يقال للمسلمين : انسوا ما لديكم !!

إن التحالف المكتوب وغير المكتوب ضد الإسلام يجعل الإنسان يهتف بين الحين والحين بالبيت المشهور :

كل يوم تبدى صروف الليالى

خلقا من أبى سعيد عجيبًا!!..

فلنقم للإسلام دولته الجامعة ولتعد إليه خلافته الضائعة ، وليتعلم المسلمون من أخطائهم الماضية كيف يحترمون الصواب ويلتزمونه . .

سمعت من يقول : كيف يمكن حشد المسلمين فى دولة واحدة ، وتحت راية واحدة ، وهم ألوف مؤلفة موزعون على أقطار فيحاء؟ .

قلت : إن المسلمين يبلغون ألف مليون نسمة ، وقد قامت للصين دولة وهى مثل ذلك العدد . . فإن قلت : إن الصينيين على أرض واحدة ، ومساحة مشتركة . قلت : إن الاتحاد السوفيتى قدر على بناء دولة واحدة فوق أرض تأخذ نصف أوربا ، ومثل ذلك من آسيا مع تعدد الأجناس واللغات!!

إنه لا توجد عوائق مادية تمنع قيام دولة واحدة للمسلمين ، بل إن هذه الدولة ظلت قائمة أكثر من ثلاثة عشر قرنًا ، ما يخرج عن نطاقها إلا عدد محدود ، يرنو إليها يستظل من بعيد بحمايتها .

إن العوائق دون هذه الدولة نفسية ، ومعنوية ، واستعمارية ، وهى ترجع إلى المسلمين قبل أن ترجع إلى خصومهم .

إن البعد عن الإسلام ، والموت الأدبى الرهيب الذى حاق بشعوبه كانا من وراء سقوط الخلافة ، واقتسام الأقوياء لتراثها ، بل إن المستعمرين فى أقطار شتى من إفريقيا وآسيا خرجوا من الأرض التى احتلوها طوعا لا كرها ، ودون أن تسفك قطرة دم! وتركوا فى هذه الأرض حكاما محليين يحرسون مصالحهم ونستحى أن نقول : تركوا حكامًا حزنوا لانسحابهم !

ومن هنا نؤكد أن عودة الدولة الإسلامية الواحدة تحتاج إلى تمهيد واسع ، يعيد المسلمين أولا إلى دينهم الحق ، ويملأ أفئدتهم وألبابهم برسالته وعقائده وشرائعه وفضائله . . . كما تحتاج إلى بصر حاد بأخطاء الماضى وأسباب الانهيار حتى يمكن تجنبها ، بلباقة ومقدرة ، فتبنى الدولة الجديدة على قواعد لاتنال منها الأيام . .

وغنى عن البيان أن هذه الدولة الجديدة ، ليست مركزية ، إنها مجموعة من الأقطار أو الولايات لها حكوماتها المحلية ، ومجالس شوراها ، وضرائبها ، وشخصيتها المعنوية ، يتكون منها بعد ذلك ، كيان الدولة الكبرى ويوجد بعاصمتها الخليفة بسلطاته العامة . .

ويستطيع الأخصائيون وضع القالب القانونى لهذا البنيان السياسى ، ولا حرج عليهم أن يقتبسوا من الأنظمة المطبقة فى دولة مشابهة بعد إشرابها روح الإسلام . .

إن العنصر الحاضر ليس عصر الدويلات المنثورة ، إنه عصر التكتلات الكبيرة القديرة على الحياة والمقاومة الذاتية!

إن العالم الإسلامى ضم أجناسا كثيرة ، من عرب وفرس وترك وهنود وزنوج . . . إلخ وهى أجناس سعدت بهذا الدين ، وأرضت به ربها ، وحققت به وجودها ، ولكنا

نقول بصراحة وصرامة : الإسلام استفاد سياسيّاً وثقافيّاً من فضائل هذه الأجناس ، كما نكب ثقافيّاً وسياسيّاً من معايبها الأخرى!! . .

ولما كنت عربيًا مسلما فإنى سوف أتحدث عن بنى قومى وأتحدث إليهم . .

ما هذه العروبة التى اخترعوها ، وكابروا بها الإسلام ، وحسموا الولاء له ، وجعلوا قوميتها فوق الدين ، وبعثها بعيدًا عن هداه؟ . .

هل العرب بلا إسلام يصلحون لشئ؟ أو يقدمون للإنسانية أى شىء؟

تفرست فى وجوه العروبيين الجدد ، ورابنى منهم ضغن على محمد ، وهو أعلى قمة فى التاريخ واستهانة بصحبه ، وبما حملوا للعالم من وحى! أكان مطلوبًا من هؤلاء الأصحاب ألا يبلغوا القرآن؟ وأن يتلوا على مسامع الناس هراء عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما

تخر له الجبابر ساجدينا!

لماذا؟ أيها الأبله؟

لا حياة للعرب ، ولا شرف ، إلا بالعودة إلى سيرة أجدادهم الأقدمين ، والإخلاص للإسلام عقيدة وشريعة ، واستبطان أدبه ، والتزام هدفه ، والاستقامة على صراطه المستقيم . .

أما أن يعود البعض إلى قبر مسيلمة ، يناشده العودة إلى الحياة ، ويطلب منه قيادة صحوة عربية جديدة ، فهو لا يألو أمته إلا خبالا ، ولن يزيد العالم إلا سخرية بها . . .

ولما ترك العرب تقاليد الإسلام السياسية ، وتقوى الخلافة الراشدة ، وسلوك الفقهاء الكبار ، ماذا صنعوا؟

استحيوا تقاليد المفاخرة والمنافرة ، والذهاب بالآباء ، واسترخاص الدماء ، فإذا الشعوب فى أرجاء الدنيا تتنفس بحرية ، وتعترض حكامها فى طمأنينة وثقة ، وتهتف ضدهم إذا شاءت . . أما العرب ، فإن حاكما واحدا يقدر على سحق عشرات الألوف لتكون العزة لغير الله! ومع هذه الفتكات الرهيبة يتواصى بقية العرب بالسكوت المطلق !

أظن العرب فى جاهليتهم الأولى لم يبلغوا هذا الدرك من النذالة ! .

إنه لن تقوم دولة الإسلام الكبرى إلا إذا اعتنق العرب الإسلام من جديد ، وكرروا ما صنع سلفهم الأول ، وإلا ذهب الله بهم وأتى بخير منهم .

٥٦. يوجل الناس من الحكم الدينى، وعودة الخلافة؟ فهل هناك ما يدفع هذا الوجل ؟

عندما يتخذ التعصب الدينى قناعا له من الحرية الفكرية فإن الأمر يستحق كل ازدراء ومن حق المسلمين أن يسألوا : لماذا نالت «إسرائيل» الرضا التام بوجودها وهى تقوم على أساس يهودى صرف؟ وترسم حدودها وفق مخططات التوراة ؟

إن الشرق والغرب كليهما اعترفا بحقها فى الحياة ، بل لم يعترفا بحق العرب فى «بقاء جزئى» إلا بعد الاعتراف بهذه الدولة الدينية؟ . .

لماذا قامت «للفاتيكان» دولة توجه أغلب نصارى العالم وتملك القوة الاقتصادية الثالثة - بعد أمريكا وروسيا - وتضع سياستها الرتيبة لتنصير الشعوب الأخرى وفى طليعتها المسلمون؟

إن الحرب الصليبية التى شنها قياصرة «روسيا» لم تدع الشيوعية ثمراتها ، بل ضمت إلى الأقطار الإسلامية المفتوحة «أفغانستان» !

والحرب الصليبية التى شنتها الدول الغربية تركت فى الكيان الإسلامى نزيفا طائفياً وثقافياً يوشك أن يقضى عليه !

فإذا تحرك المسلمون ليحموا كيانهم ، ويجددوا دولتهم قيل لهم : يجب أن يبتعد الإسلام عن السياسة ، فنحن نوجل من الحكم الدينى!! ومن عودة الخلافة الإسلامية! الحق أن هذه صفاقة مستغربة ! . .

إن الذى نوجل منه ، ويوجل منه كل عاقل! هو عودة الاستبداد السياسى! أو تولى رجل الحكم وهو يزعم أنه ذو صلة خاصة بالله ، أو أن الروح القدس حل فيه ويتعاون معه !!

والخلافة الراشدة بريئة من هذا الجنون المقدس ، وتصريحات رجالها واحدًا واحدًا يتمنى لو يقولها اليوم أعظم رجال «الديموقراطية» المعاصرين . .

ألم يقل أبو بكر : إن أحسنت فأعينونى ، وإن زغت فقوموني؟ وعندما يلى الأمر

يقول : أيها الناس كنت أحترف لعيالى (أكسب قوتهم) فأنا اليوم أحترف لكم ، فافرضوا لى من بيت مالكم!

ويجىء بعد أبى بكر عمر ليقول للناس فى المسجد الجامع : إذا وجدتم فىَّ اعوجاجا فقوموه ، فيُسمع من بين الصفوف صوت يقول : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا! فيكون جواب عمر : الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه !

وفى رواية أن عمر خطب فقال : يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت برأسى إلى الدنيا هكذا؟ فشق الصفوف رجل يقول وهو يلوح بذراعيه كأنهما حسام ممشوق : إذن نقول بالسيف هكذا . . .

فسأله عمر : إياى تعنى؟ فيجيب الرجل : نعم إياك أعنى بقولى! فيرد عمر : رحمك الله الحمد لله الذى جعل فيكم من يقوّم عوجى .

ويجىء دور عثمان ، الخليفة النبيل المظلوم ، الذى يقول للناس : «إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيود فضعوهما» . .

وقد كان عثمان قديرًا على استصراخ عشيرته ، وإعمال السيف فى محاصريه لكن الرجل الحيى الرقيق قبل أن يموت دون أن يستبيح قطرة دم لمسلم !! .

ويتولى على الخلافة فيقول : إنما أنا رجل منكم لى ما لكم وعلىَّ ما عليكم! ويقول : ليس لى أمر دونكم ويقول لصاحبه : إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة ـ سواء .

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ميراثا من أجداده بنى أمية كره الرجل الكبير هذا الوضع الذى يرفضه الإسلام ، وخرج إلى المسجد الجامع يقول للناس : لقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأى منى ، وعلى غير مشورة من المسلمين ، وإنى أخلع بيعة من بايعنى ، فاختاروا لأنفسكم !

فردت الجماهير بصوت واحد : بلى إياك نختار يا أمير المؤمنين . . .

هذه هى الخلافة الراشدة ، التى أمرنا أن نستمسك بسنتها ، أترى واحدا من رجالها يعرف الحق الإلهى للملوك؟ أو يظن نفسه فوق الأمة قيد إصبع؟ ويحتسب الحكم بقرة حلوبا تدر عليه وعلى أسرته وأتباعه؟

أترى واحدا منهم نكّل بمعارض أو ضيّق عليه الخناق أو حرمه حقا له؟ . .

والداهية الدهياء فى عصرنا هذا متحدثون عن الإسلام لا فقه فى الدين ، ولا بصر لهم بتاريخ المسلمين يصورون الحكم الإسلامى تصويرًا منكرًا ، ويقررون أحكامًا ما أنزل الله بها من سلطان ، يقولون : الحكم المسلم لا تقيده الشورى ، ولا يسمح بأحزاب معارضة ، ولا يعترف بمبدأ الانتخاب ، وحق الكثرة فى فرض نفسها !!

إنهم يدافعون عن الفرعونية والهرقلية ، ويؤيدون الحجاج والسفاح وكل مفتات على الأمة . . إنهم ناس يستمدون فقههم كله من تاريخ الخلافة غير الراشدة ، والملوك الذين حكموا الإسلام ولم يحكمهم الإسلام . . .

وهم بفكرهم وسلوكهم امتداد لزواية الانحراف الثقافى والسياسى فى التاريخ القريب والبعيد ، وبعضهم له إخلاص الدبة التى قتلت صاحبها ، وللبعض الآخر باع طويل فى الارتزاق والأكل على موائد الحاكمين !! . . .

علماء الدين عندنا يقولون فى الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ : إن الراوى الثقة إذا خالف من هو أوثق منه عد حديثه شاذًا ورفض . وإذا كان الراوى ضعيفا ، ونقل ما يخالف الصحاح عد حديثه منكرًا أو متروكًا ورفض! . .

فما نقول فى ناس يرسمون صورة الإسلام من أحاديث شاذة أو منكرة أو متروكة؟ وفى أى مجال؟ فى ميدان الحكم ، أو لمظاهرة فرد مستبد؟ . .

روى المحدثون عندنا هذا الحديث الضعيف ، نذكر نصه ثم نعلق عليه! رووا بصيغة التعريض **أن النبى ﷺ قال: «السلطان ظل الله فى الأرض، يأوى إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر، وعلى الرعية الصبر»**.

هذا الحديث الضعيف مخالف بسنن صحيحة كثيرة منها «**لتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم**».

ومنها : «**أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه**» .

ومنها أحاديث تغيير المنكر بمراتبه الثلاث . .

وظاهر الحديث الضعيف مرفوض من ناحيتى الشكل والموضوع ، وهو إما منكر أو متروك! ومع ذلك نقله وروج له بعض المرتزقة من المتحدثين عن الإسلام . .

ونسارع إلى القول بأن الأخذ على يد الظالم ليس باغتياله ، بعد محاكمة فردية له من بعض الناس . .

التصرف الإسلامى الوحيد مد رواق الحكم الشورى والمعارضة الحرة ، فمن رأى من الحاكم عوجا حدث الناس عنه ، وشرح للرأى العام موقفه ، فإن أيده الناس أسقطوه فى انتخاب صحيح ، وجاءوا بخير منه .

قال لى غلام ساذج : إنك تعترف بالنظام الانتخابى ، وتقرر رأى الكثرة مع أن القرآن ذم الكثرة فى مواضع كثيرة! قلت : أى كثرة تلك التى ذمها القرآن؟ إذا قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[1] أو قال فى آية أخرى : ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[2] . كأن معنى النظم القرآنى الكريم أن أغلب المسلمين منافقون وجهال؟ . .

قبح الله فهمكم! إن النبى ﷺ كان يرى فى معركة أُحُد استدراج المشركين إلى داخل المدينة ، والقضاء عليهم فى حرب شوارع! بيد أن الكثرة من أصحابه أبت إلا الخروج إليهم فى العراء ، فنزل على رأيهم وهو كاره ، فلما رأوا أنهم أكرهوه على الخروج عرضوا عليه أن ينفذوا خطته ، فأبى ! . .

فهل كانت كثرة الأصحاب جاهلة ، أو غير مؤمنة؟

كان عليه الصلاة والسلام ـ كثيرا ما يقول : «**أشيروا علىَّ أيها الناس!**» فهل حاكمكم الذى ترون ألا تقيده الشورى . وألا يلتفت إلى الكثرة ، أرشد من صاحب الرسالة العظمى وأعقل ؟

إن غباءكم فى فهم القرآن والسنة لايستفيد منه إلا أعداء الإسلام ، وعشاق الفرعنة من الحكام !

عندما نطلب عودة الخلافة الإسلامية ، وقيام حكم للكتاب والسنة ، فنحن نرنو إلى المبادئ الشريفة التى وعاها عهد الخلافة الراشدة ، ونريد تجنب أخطاء السلاطين ، والانتفاع بكل جهد إنسانى للخلاص من الاستبداد والمستبدين .

---

(١) غافر : ٥٩ .   (٢) غافر : ٥٧ .

٥٧. متى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟

الإنسان ليس ملاكا معصومًا ، ومن ثم لا نستغرب وقوع الخطأ منه ، وإذا أخطأ فلا ينبغى أن نبادر إلى قمعه بوحشية ، وإظلام حاضره ومستقبله . .

والشارع الأعظم يعلم هذه الطبيعة البشرية ، ويمهد لها طريق التوبة والتسامى ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾[١] .

هذه حقيقة لا ريب فيها ، وهناك حقيقة أخرى لا ننساها . . إن كل امرئ يجب أن يعيش آمنا فى سربه ، وافرا فى دمه وماله وعرضه ، وإن انحرافات المخطئين لا يجوز أن تتحول إلى وباء يعصف بالأمن ويجتاح الحرمات !

والإسلام عندما يضع عقوبة لخطيئة ينظر إلى هاتين الحقيقتين .

قد يعذر العاصى ويلتمس له الدواء! ولكنه لا يأذن أبدًا للجريمة أن تعكر الصفو ، وتنشر الخوف .

ومن أجل ذلك وضع الحدود ، ودرأها بالشبهات ، ووقفها بالتوبة إذا رأى القاضى[٢] . إن من تورط فيها ثائر على نفسه ، نادم على سقطته ، وإن عودته إليها مستبعدة ، وإن مستقبله هو الصلاح والاستقامة . .

إن النبى ﷺ حاول أن يثنى ماعزا ـ غفر الله لنا وله ـ عن اعترافه ، ورأى أن توبته تطهره ، ولكن الرجل كان مهتاج الأعصاب لما بدر منه ، وأراد أن يطهر نفسه بالرجم فتركه النبى الكريم وما يريد !

على حين أذن لمن صلى معه ، أن ينصرف بما اقترف ، فقد طهرته صلاته أو اعتبرت توبة له . .

لكن إذا اضطرب حبل الأمن ، أو رأى القاضى أن المذنب قاس مخوف الغدر ، فإن الحفاظ على المجتمع ، ومؤاخذة المجرم الجسور توجبان الضرب على يده وحماية الناس من شره . . .

---

(١) النساء : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) نحن نتابع أبو تيمية فى هذا الكلام ونرى الحق معه .

إن الحدود حق ، وإقامتها ـ بصورتها الشرعية ـ مطلوبة إلى آخر الدهر ، وما يقال عن قسوتها ضرب من الهراء ، ونحن نستبين ذلك كل الاستبانة عندما نتوسم أحوال المجتمعات التى أنكرتها أو تركتها . .

يقول الصحفى أنيس منصور : «إذا سرت فى شوارع «أمريكا» فلا تحمل فلوسا كثيرة ، فقد يستوقفك أحد الزنوج وفى يده سكين . وإذا ذهبت إلى محل لشراء شىء فلا تخرج من جيبك مالاً كثيرًا للسبب نفسه ، إن الأمريكيين يتعاملون بالبطاقات المالية ودفاتر الشيكات ولا يحملون مالا . . . وفى الفنادق يطلبون منك أن تضع فلوسك عندهم وإلا فأنت المسئول إذا سرقت أموالك أو أشياؤك الثمينة !

وقد تجد مكتوبا على باب الحمام : أغلق عليك الحمام من الداخل ، وإذا هاجمك أحد فاطلب رقم كذا بسرعة !

وهم ينصحونك ألا تمشى وحدك فى الشوارع فإذا اضطررت إلى ذلك فكن متجهما بادى القوة ، حتى لايظن بك الخوف!» .

قال : «ونزلت أتمشى وحدى قريبًا من البيت الأبيض ، وكان الشارع خاليا تمامًا من المارين ، وفجأة وجدت رجلا يتوكأ على عصاه ، استوقفنى وسألنى : كم الساعة؟ فتوقفت أنظر فى ساعتى ، فإذا هو يخرج سكينا من بين ملابسه . . فأعطيته الساعة! ونظرت فإذا هو يزيح القناع عن وجهه ويبدو شابًا صغيرًا !! لم يكن شيخًا ولا زنجيًا ، وضحك وضحكت .

وبينما أنا أنظر إلى الشاب إذ قفز إلى جوارى شاب آخر . فرفعت يدى إلى أعلى ، مظهرا أنه ليس معى شىء ، فأشار إليه ـ اللص الأول ـ من بعيد ، فتركنى! .

وعرفت أن الزنوج ليسوا وحدهم قطاع الطرق فى أمريكا»! .

لقد فقد هذا السائح المصرى ساعته ؛ لأنه سرى وحده ، فالأمن مفقود فى العاصمة الكبيرة ، لا أرتاب أن السارى لو كان أنثى لفقدت مالها وعرضها جميعًا ، وإذا قاومت مغتصبها فقدت حياتها !

وقد يكون القتيل رب أسرة لايعود إليها !

والحديث عن قلب يخشى الله أو يهاب لقاءه حديث خرافة! فقد انقطع التيار الكهربائى فى المدينة مدة طويلة ، فنهبت أغلب المتاجر والمعارض فى الظلام العارض ، إن وجود الضمير مرتبط برجل الشرطة وحده! ما أشرف هذه الحضارة! .

وعجبت لعمى القانون عندما قرأت أن لصا أطلق النار على جندى كان يطارده ، ثم قبض بعد لأىٍ على اللص ، وأودع السجن ، وقضى الأمر !

ماذا حدث؟ إن عقوبة الإعدام ملغاة ؛ لأن القصاص وحشية !!

إنه لايقر الأمان ، ويمنع الإجرام فى هذه البلاد إلا إقامة الحدود ، الحدود وحدها هى الدواء قد تكون نجد والحجاز أقل حضارة من الولايات المتحدة ، بيد أن ظلام الإرهاب والإجرام والتوجس والفزع لا وجود لها فى هذه الأرجاء الفيحاء ، ما السبب؟ إقامة الحدود .

لو أن عربة محملة بالذهب مشت من شمال اليمن إلى أول الشام مافكر أحد فى اعتراضها ، إذ الناس رجلان إما خائف من الله فهو يعاف أكل السحت ، وإما خائف من شريعته فهو واقف عند حده ، لايتعرض لقطع اليد ، ولا لقطع العنق!

أرى أنه لايحنو على المجرم ولا يعطل القصاص إلا خائف منه على نفسه! .

لقد قلت فى مكان آخر : إن رب الحياة الخبير بدروبها ومتاهاتها وضع رسما لمعالم الطريق إذا التزمه الأحياء لم يضلوا ، فما معنى الإعراض عنه؟ إن المصنع الذى أخرج الآلة وضع تعليمات بطريقة استخدامها ، فلماذا نرفض هذه التعليمات؟

إن خالق البشر أنزل أحكامًا محددة ، وقال لنا ونحن نسمعها : ﴿ **يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)** ﴾[(١)] . فماذا نبغى؟

﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[(٢)]!

يظن بعض الجهال أن الحدود نقطة ضعف فى الشرائع السماوية! ونسوا أنهم سوف يعانون القلق والترويع ماداموا يأبون إقامتها ، ولن يستريحوا إلا بعد إعلان السمع والطاعة .

إن الحدود المقررة تعد على الأصابع ، ويخيل إلىَّ أن تطبيق حد ما على أى إنسان يرتبط بقدر غالب ، ولأشرح ما أعنى ، إن الله يعلم ضعفنا ، ويتجاوز كثيرًا عن هفواتنا ، ولو أخذ المرء بأول عثراته ما نجا أحد من عقابه ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾[(٣)] .

إنه يمهل ويمهل ، حتى إذا فاض الإناء فضح وآلم! . وذلك ما أشار إليه «عمر» عندما استغاثته امرأة «ياأمير المؤمنين» ابنى سرق وهذه أول مرة ، فقال لها : كذبت إن الله لا يفضح عبده لأول مرة»!!

---

(١) النساء : ١٧٦ . (٢) المائدة : ٥٠ . (٣) النحل : ٦١ .

نعم إن الله يستر كثيرًا حتى إذا توقح المرء وتبجح جره سوء أدبه إلى مصيره .

ومع ذلك ، فإن الذى شرع الحدود ندب المؤمنين إلى الستر على المنحرفين ، ومنحهم فرصة متاب! لعلهم يرعوون! فعن سعيد بن المسيب أن رجلا من قبيلة أسلم اسمه «هزال» شكا رجلا إلى رسول الله ﷺ ، متهما إياه بالزنى ، فقال له النبى ﷺ : «يا هزال ، لوسترته بردائك لكان خيرًا لك»! . .

وكانت هذه الشكوى قبل نزول آية القذف ، وإلا لجلده النبى ثمانين جلدة . .

والغريب أن الرجل المشكو الذى أمر الرسول بستره ، هو «ماعز» المؤمن التائب الذى أبى إلا أن يموت مطهرًا ، كأن الرسول الكريم ألهم الدفاع عن رجل صالح يكره الإثم ، ويضيق باقترافه ، وإن وقع فيه !!

وفى إقامة الحدود جاء عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا عن سبيله ، فإن الإمام إن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة .

وقد كان حد السكر على عهد رسول الله ﷺ ضربًا مهينا يوقع بالعربيد الذى قبض عليه ، ثم رأى الصحابة بعد أن يجلد السكير أربعين أو ثمانين جلدة .

أما حد السرقة فهو قطع اليد ، ولم يقل أحد ، إن الجائع تقطع يده إذا سرق ما يقوته إنما تقطع يد البطال المعتدى على كسب الآخرين وكدحهم ، والذى يبنى سلوكه على الظلم والإفساد ، ولا أرى سببًا لاحترام هذه اليد ، وتركها تؤذى وتفجع الناس فى حقوقهم . .

أما المسلحون المتظاهرون على النهب والسلب ، المتعاونون على الإثم والعدوان وقطع الطريق وإشاعة الفوضى ، فإن قتلهم حق . .

بقى أن نقول : إن عقوبة الزنى صعبة التنفيذ ، فإن المجىء بأربعة شهداء يرون وقوعها يكاد يستحيل . إلا إذا كان المجرمان فى طريق عام ، عاريين مفضوحين لا يباليان بأحد !

وعندما يتحول امرؤ إلى حيوان متجرد على هذا النحو الخسيس ، فلا مكان للدفاع عنه أو احترام إنسانيته . .

٥٨. ما الضرائب فى الإسلام، وما نظامها ؟

سمعت كلمة من صديق عاش فى أوربا ردحًا من الزمن عجبت لها ولم أنسها ، قال : إن يوم إقرار الموازنة العامة للدولة يكاد يكون يوم عيد! الفرحة عامة ، والبشر باد على الوجوه !

قال : وفى بعض البلاد يقال لدافعى الضرائب : ادرسوا تفاصيل الإنفاق . انظروا أين وضعنا ما أخذنا منكم من مال !!

لقد روعيت المصلحة العامة بأمانة وسدت الثغرات ، وكفلت مدارس ومستشفيات ، وفرحت طوائف ، وتحققت آمال . . إلخ ، نعم أخذ المال بحق وأعطى ببصر ، ووزع بعدل ، فهناك لا تفرض ضريبة إلا بموافقة نواب الأمة ، ولا تصرف إلا بهذه الموافقة . .

تذكرت أنين «سديف» الشاعر الذى انضم إلى ثورة النفس الزكية وهو يقول : «اللهم قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة ـ أى استأثر الأغنياء به فهو دولة بينهم ـ

وإمارتنا غلبه بعد المشورة ـ يشكو الاستبداد السياسى ـ

واشتريت الملاهى والمعازف بسهم اليتيم والأرملة ـ سوء التصرف فى المال العام ـ

وحكم فى أبشار المسلمين أهل الذمة ! ـ فهم نعم العون للأمير الجائر ـ

وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة ـ هكذا تقع الطيور على أشكالها .

اللهم قد استحصد زرع الباطل ، وبلغ نهيته ، واستجمع طريده .

اللهم فافتح له من الحق يدا حاصدة تبدد شمله وتفرق أمره ، ليظهر الحق فى أحسن صوره ، وأتم نوره» . . .

مالى وهذا الأنين القديم؟ إن الشجا يبعث الشجا . . كأن الزمان أو كأن الحاضر صورة الماضى ، فى عالمنا الإسلامى المهيض!!

يقصد بالضرائب المال الذى تأخذه الدولة من الجمهور فى صور شتى ليعود ذلك المال مرة أخرى إلى الناس فى صورة خدمات عامة وضمانات لوجود الأمة ورخائها ، وصون مصالحها ودعم القائمين عليها .

ومن هنا كان أداء الضريبة لابد منه وكان التهرب منه ، أشبه بالخيانة الوطنية . .

وفى البلاد الراشدة يندر كل الندرة أن تذهب حصيلة الضرائب فى إجابة شهوة خاصة ، من أجل ذلك ينظرون إلى المتهرب من الضرائب على أنه ارتكب ما يحرمه من المناصب الكبرى وما يصمه بأردأ التهم ! . .

وقد فرقنا فى كتاب آخر بين الضريبة والزكاة ، فإن الله فرض الصدقة تطهيرًا للنفس من رذيلة الشح ومساعدة للفقراء على رد الضوائق والأزمات ، وإسهامًا فى الدفاع عن العقيدة . . . إلخ .

وحدد القرآن الكريم مصاريف الزكاة فى ثمانية أصناف لايجوز أن تعدوها إلى غيرها . .

أما دائرة الضريبة ، فهى أوسع مصادر ومصارف ، ومن حصيلة الضرائب ينهض الكيان السياسى والعسكرى والحضارى للأمة ، ومنها ينفق الجهاز الإدارى .

وقد تكثر الضرائب وترتفع نسبها خصوصًا أيام الحروب حتى تصل إلى ٩٠٪ من الدخل العام . .

أما الزكاة فموكول إليها ابتداء القضاء على البأساء والضراء ، ومن مصارفها الثمانية سهم قد يوجه للجهاد العسكرى! لكن مغارم الجهاد قد تمتد لتشمل المال كله ، والنفس معه . .

ولعلك ترى من هذا أن ثمة تشابكا بين دائرتى الضريبة والزكاة مع انفراد كل منهما بمجال تختص به !

والأمم الكبرى ـ خصوصًا من لها نشاط عالمى ـ تفتن فى وضع الضرائب وتعديد أوعيتها وتقرن ذلك بأهداف قومية مباشرة وغير مباشرة .

والإسلام حدد نسب الزكاة ، ومستحقيها ، لكن النشاط الإسلامى العالمى الممتد يفرض على المسلمين بذلا لا يقف عند حد كى يبلغوا رسالات الله ، ويحسنوا الدفاع عنها . .

وقد تأملت فى مطالب التربية والتعليم ، ومطالب الدعوة والثقافة ، ومطالب الأسطول البحرى والجوى ، ومطالب الجيش وأسلحته الكثيرة ومطالب الصناعات المدنية والعسكرية . . . إلخ فوجدت أن ذلك يتطلب أموالا لاتغيض منابعها ـ فأدركت معنى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم** ﴾[1] . .

---

(١) التوبة : ١١١ .

وقوله : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[١] . .

ويظهر أن كلمة «النفقة» تشمل الصدقات المفروضة والنافلة ، وتشمل أنواع البذل التى يفرضها العمل لله فى شتى الميادين .

وربما تمر بالمسلمين أيام يكلَّفون فيها بإنفاق ما يزيد على حاجاتهم الخاصة ، لايستبقون شيئًا استجابة للآية الكريمة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾[٢] . .

وهذا ما يقوم به الجهاز الضرائبى! وقد تكون كلمة ضريبة بغيضة إلى الناس! وعلة ذلك فيما بلوت فساد الحكم فى أغلب الأقطار الإسلامية ، والتبذير الشيطانى فى المال العام ، وقدرة الخائنين على العَبِّ منه دون حساب . .

وقد رأينا أن الدول الأخرى معافاة من هذا البلاء ، وأن مايؤخذ من دافعى الضرائب ينفق فى أرشد مواضعه ، ويراقب بعيون نافذة حادة . .

وهكذا نرى المكثرين والمنتجين يرعون مصالح أممهم ، ويعطون دون مَنٍّ ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾[٣] .

وقد كنت فيما كتبت صدر حياتى أرى ذلك من مقتضيات الفطرة ، وأفهمه من ظواهر الرأى ، ثم وجدت أن فقهاءنا استنبطوه من القواعد المقررة فى الشريعة! قال الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوى إنه يمكن «إذا قضت ظروف الحرب فرض ضرائب على القادرين وأهل اليسار لتمويل الجهاد ، وإمداد الجيوش وإعداد الحصون ، وما إلى ذلك من احتياجات الحروب! إن الشرع يؤيد ذلك ويوجبه كما نص على ذلك الفقهاء ، وإن كان كثير منهم فى الأحوال المعتادة لا يطالب الناس بحق فى المال غير الزكاة» واستدل الغزالى على ذلك بقوله : «لأنا نعلم أنه إذا تعارض شران أو ضرران ، قصد الشرع إلى دفع أشد الضررين وأعظم الشرين !

وما يؤديه كل واحد منهم ـ يعنى المكلفين بهذه الضرائب ـ قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله لوخلت بلاد الإسلام عن ذى شوكة يحفظ نظام الأمور ويقطع مادة الشرور» .

قال الدكتور القرضاوى . «مثل ذلك فك أسرى المسلمين ، وتخليصهم من قيود الكافرين وإذلالهم ، مهما كلف ذلك من أموال! قال الإمام مالك : يجب على كافة

---

(١) التوبة : ٤١ . (٢) البقرة : ٢١٩ . (٣) آل عمران : ١١٥ .

المسلمين فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم ، ذلك ؛ لأن كرامة هؤلاء الأسرى من كرامة الأمة الإسلامية ، وكرامة الأمة فوق الحرمة الخاصة لأموال الأفراد» .

وهذا منطق سديد هدى إليه الفقهاء والدعاة والموجهون فى تاريخنا العلمى ، وسارت عليه الأمم الآن شرقًا وغربًا ، فالحكومات الواعية قد تجعل من الضرائب شريان حياة كما تجعل منها أحيانا جراحة شفاء وتجميل . .

رأينا الضرائب تزاد على أسباب الترف وأدوات الزينة ولا بأس فى ذلك فالحصيلة ستكون سنادا للفقراء والمعوزين . .

ورأينا الضرائب تفرض على المصنوعات الأجنبية حماية للصناعة الوطنية ، وهذا حسن ، وقد نهضت فى الهند صناعات توشك أن تحقق الاكتفاء الذاتى للهنود ، بسبب الضرائب الصارمة التى أوجبتها الدولة .

وإذا أكره الجمهور على استخدام أدوات أو سلع غير جيدة ، فإن سنة الارتقاء ستصل بها إلى المستوى المنشود يومًا ما .

على أية حال لابد أن نذكر أن الدولة الإسلامية مربوطة بمبادئ وآداب وأهداف لايمكن تجاهلها ، فى الداخل والخارج على سواء!وربما بلغت الدولة بعض غاياتها بوسائل قريبة ، كما حدث من تآخ بين المهاجرين والأنصار على عهد رسول الله ﷺ ، أو على نحو ما فكر عمر بن الخطاب عندما قال : لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم ، حتى يأتى الله بالحيا لفعلت! فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم !! . .

لكن هذه الوسائل قد تصعب الآن ، والبديل المحتوم عنها هو الضريبة التى تمكن الحكومة من مباشرة الإطعام والإيواء ، وإمداد المحتاجين بما يسعفهم ويصونهم ماديًا وأدبيًا .

وما يقال فى مطالب السلام يقال مثله فى مطالب الحروب ، لاسيما وقد أحاطت بنا الذئاب من كل فج وسمع لعوائها طنين رهيب! . .

ولن يأسى مؤمن على مال يذهب فى هدف شريف . .

٥٩. كيف يحقق الإسلام التوازن الاقتصادى فى المجتمع؟

لا يرتاب عاقل فى أن الإسلام منح الفرد حق التملك مادام السبب مشروعًا ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾[1] .

وقد رغَّب الواجدين أولى السعة أن يؤتوا غيرهم ويشركوهم فى نعمة الله لديهم ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[2] .

ورهَّب ـ سبحانه ـ من تسليط اليد السفيهة على المال تريقه فى العبث ، وتهدد المصالح المرتبطة به القائمة عليه ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾[3] .

ونادى تبارك اسمه جماهير المؤمنين أن يستعفوا عن الحرام ، وألا تكون معاملاتهم انتهابًا وشرها ، بل يجب أن تكون عن طيب نفس ، وعن رضا قلبى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[4] والواقع أن ازدهار العمران وتوقد الملكات ، وتضاعف الإنتاج إنما يجىء مع سباق الحوافز الخاصة ، ورغبة البشر فى الكسب ، والمزيد من الكسب ، لأنفسهم وأولادهم . .

وقد أقر الإسلام حرية التملك ، وإن كان قد أثقلها بالقيود التى تمنع سطوة الأنانية ، وطغيان الاستغناء . .

والشيوعية تلعن الملكية الخاصة ، وتجعلها مسئولة عن المظالم الاجتماعية قديمها وحديثها ! .

---

(١) يس : ٧١ : ٧٣ .
(٢) النور : ٣٣ .
(٣) النساء : ٥ .
(٤) النساء : ٢٩ .

وقد تكونت للشيوعية بشقيها الاقتصادى والفلسفى الإلحادى دول كبيرة ، والذى يعنينى أنا المسلم المؤمن بالله وكتبه ورسله ـ أمران : أحدهما أهم وأخطر من الآخر .

الأول:

إثبات معالم الإيمان جملة وتفصيلا فلا هوادة فى جحد الألوهية ، وإنكار الوحى الأعلى . .

الثاني:

احترام الملكية الصحيحة ، ورفض ما عداها من تملك أساسه السحت والاغتصاب وضروب الاستغلال السيئ .

وإنما أقرر ذلك ؛ لأن هناك أناسا يزعمون الإسلام ـ ويعلم الله ما فى قلوبهم ـ ثم يتخوضون فى مال الله تخوضًا رهيبًا فلا يتركون منه إلا ماعجزوا عن حمله! ولايبالون من أين اكتسبوا! ولا يرقون لضعيف داسوه وهم يجمعون ولا يكترثون لمحتاج يرنو إليهم ابتغاء معونة !!

يقول أولئك : إنهم يحاربون الشيوعية ؛ لأنها ضد الدين!! وهم الطريق الموصل إليها والمغرى بها!! والدين الذى يذكرونه بعيد عن أخلاقهم وأعمالهم !

على أية حال نحن نحامى عن الإسلام الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد ، وتأبى أن تبقى رسالته العظمى فى وصاية نفر من المترفين والمتخومين ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾[١] .

ومن الصعب فصل الاقتصاد عن السياسة ، ومن هنا فإنك حيث تجد الخلل السياسى تجد الإثراء الحرام ، واستغلال السلطة إلى أبعد الآماد ، وسوق المغانم إلى الأقارب والأتباع والحواشى . .

وأرى أن طهارة الربح أصل عظيم لصلاح المجتمع ، وأن مصادرة الأملاك التى سرقت من حقوق الآخرين تعيد إلى النفوس والأوضاع قدرًا كبيرًا من الاستقرار والتوازن! إن رأى الأجانب فى أساليب الربح والخسارة ، والغنى والفقر فى بلادنا ينكس رءوس الدعاة ، ويلصق بالإسلام تهمًا هو منها براء .

---

(١) القصص : ٥ ، ٦ .

وقد سردنا النصوص فى تحريم النهب والغش والاحتكار والاستغلال فى أماكن من كتبنا . .

والمال المكسوب من حلال تجب فيه حقوق شتى ، أولها الزكاة ، ومكانتها فى الإسلام كبيرة ، والغاية منها قطع دابر البأساء والضراء ، وإبداء العون الذى يحقق للفقراء الاكتفاء الذاتى .

وتدبر قول الرسول الكريم : «**ألا رجل يمنح أهل بيت ناقة تغدو بعس ـ قدح كبير ـ وتروح بعس؟ إن أجرها لعظيم**» .

أى توفر لأهل البيت مقدارًا سخيا من اللبن فى الصباح والمساء ، وبذلك تتم تغذيتهم!

إن الصورة المعروفة للزكاة يد تمتد ذليلة سائلة لتتلقى فتاتا يسد حاجة اليوم ، ثم تكرر الضراعة والطلب لتسد حاجة الغد ، وهكذا دواليك !!

وتلك لعمر الله مستكرهة ، إن الإسلام أول قاتل لاستخراج حق الله فى المال ، ثم تولت الدولة إعطاء من ترى بهم حاجة ، لكن كيف تعطى وكم ؟ يجيب الدكتور يوسف القرضاوى على ذلك فى تفصيل نقتبس منه هذه السطور[1] : «فهناك المذهب الذى رجحه الغزالى وهو مذهب المالكية وجمهور الحنابلة وبعض الشافعية وهو أن يأخذ المحتاج ما يتمم كفايته من وقت الآخذ إلى سنة مستقبلة ـ أى نفقة عام كامل ـ قال الغزالى فهذا أقصى مايرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ، ومن حيث إن الرسول الكريم ادخر لعياله قوت سنة ، والقائلون بهذا الرأى يذكرون أن كفاية السنة ليس لها حد معين تقف عنده «**فإن كانت لاتتم إلا بإعطاء الفقير الواحد أكثر من نصاب، من نقود أو حرث أو ماشية أخذ من الزكاة ذلك القدر، وإن صار به غنيا؛ لأنه حين الدفع إليه كان فقيرًا مستحقًا**»!!

ومن الطرائف التى ذكرها صاحب الكتاب الجليل «فقه الزكاة» أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أمر من ينادى فى الناس كل يوم : أين المساكين؟ أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ يعنى طالبى الزواج الذين لا مهر معهم!! فإن بيت مال المسلمين يساعد على الزواج وإيتاء المهر !!

ثم ذكر الأستاذ رأيا آخر للفقهاء فى القدر الذى يمنح من الزكاة ، هذا القدر ليس كفاية عام كما ذكرنا ، إنه كفاية العمر ، قال : «وهذا الرأى هو الذى نص عليه الشافعى فى «الأم» ، واختاره جم غفير من أصحابه» .

---

(١) نعد نحن كتاب «فقه الزكاة» أعظم ما ألف فى موضوعه فى تاريخنا العلمى .

إن الإسلام دين طبيعي يحارب السرقة بتموين الناس! ويحارب الزنى بتزويج الراغبين في العفاف! ويسخر تعاليمه المالية لتحقيق أهدافه الخلقية ، وضبط المسار الاجتماعي حتى لايعوج أو يزيغ . .

على أن دائرة الزكاة مهما اتسعت فينبغي ألا تعدو بها حدودها ، قد تكون الزكاة عونا للعاجزين ، ولكنها مساعدة مؤقتة للعاطلين إلى أن يجدوا العمل !

وقد جاء في الحديث : «**لاتجوز الزكاة على ذي مرة سوى**» أي أن الرجل السليم الخلقة ، السوي الحواس والأعضاء يتجه إلى العمل ليتكسب منه ويقوت أهله!

ولا ننسى أن الزكاة نفسها هي فضول من عملوا وكسبوا وادخروا ، فالعمل هو المصدر الأساسي للثروة ، وعلى الدولة أن تمهد ميادينه لكل قادر ، وأن تحارب البطالة بكل ما لديها من قوة ! . .

وأجدني مكلفا بمصارحة قومي ، وإن ساءتهم هذه المصارحة ، إن غيرهم من الناس كان أجلد منهم على العمل ، وأبصر بأسبابه ، وأحيل على معالجته والنجاح فيه ونيل الغنى الباذخ منه ! . .

وقد تساءلت عن سر ذلك؟ فوجدت أن تقاليد البدو تسللت إلى تعاليم الإسلام وتقاليد المسلمين فوقفت بأمتنا على حين تحرك غيرها وسبق سبقا بعيدًا .

والبدو يحتقرون الفلاحة ، ويزدرون الحرف ومجالس الأعراب ملآى بالمفاخرات والمنافرات والتطاول بالرياسة ، والتنزه عن عدد من الصناعات !

فالفرزدق يهجو جريرًا لأن أباه حداد! أما مجاشع جد الفرزدق فلا تدري ما يأكل؟ . .

وإلى أمد قريب كان ابن عمدة القرية أصل من ابن طبيب القرية! أو ابن شرطيها !

واليد الملوثة بالنفط والقار مؤخرة عن اليد التي تقبض النقود حصيلة كدح هذا وذاك !!

وربما وصل هذا التفاوت إلى عقود الزواج فعد ابن هذا ليس كفئًا لبنت ذاك ، ونسب ذلك كله إلى الإسلام . .

إن المجتمع الإسلامي يجب أن يعاد تشكيله وفق القانون الإلهي الفذ ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ . . .** ﴾[1] .

أما عوائد المترفين والقاعدين فلتطوح معهم إلى الجحيم .

---

(١) التوبة : ١٠٥ .

٦٠. ما موقف الإسلام من نظام المصارف الحالى وما البديل الذى يقدمه ؟

المتأمل فى أعمال هذه البنوك يجد بعضها حلالاً محضا ، والآخر حراما لاريب فيه ، وهناك أعمال يمكن بتعديلات يسيرة أن تأخذ الصورة المشروعة .

ومن هنا شرع الاقتصاديون المسلمون يرفعون قواعد المصارف على أسس من الفقه الإسلامى ، ففى هذا الفقه عقد المضاربة الذى يتم بين الخبرة من ناحية ورأس المال من ناحية أخرى ، كما أن فى هذا الفقه قواعد ممهدة للصرف والحوالات والضمان والوكالة وغير ذلك .

ثم إن جماهير المسلمين راغبة كل الرغبة فى أن تبعد طعمتها عن الشبهة فضلا عن الحرام ؛ لذلك ما كادوا يسمعون عن مصرف إسلامى حتى سارعوا إلى الإسهام فيه !

وقد نهضت الآن عدة مصارف فى وجه مقاومة منظمة من البنوك العالمية التى لا يسرها ماحدث! . .

وقد قرأت كلمات لرؤساء المصارف الإسلامية تشرح وظائفها ، وعلائقها بالمؤسسات الاقتصادية الأخرى أرى أنها تلقى أضواء على الموضوع كله ، فالأستاذ «سعيد لوتاه» رئيس المصرف الإسلامى «بدبى» يقول[1] : إن أنشطة هذه المصارف هى الترجمة العملية للنظام الاقتصادى الإسلامى فى أيسر صوره ، نحن نقوم بدور الوسيط بين المال ورجل الأعمال فى كل المجالات ، وذلك فى نطاق محكم من تعاليم الشريعة ، وتقدير عملى لحاجات الأفراد ، أى إننا نربط الفكر النظرى بالواقع .

وفى العلاقة مع البنوك الربوية يقول : هناك فاصل لايمكن تخطيه! فنحن لا نأخذ فائدة ، والربا عندنا محرم فى كل قرض سواء للاستهلاك أو الإنتاج .

ويمكن أن نتعامل مع البنوك الأخرى فى الحسابات الجارية ، وتحويل العملات ، وصرف الصكوك «الشيكات» وخطابات الضمان ، وأنواع الكفالات ، فهذه كلها أعمال مصرفية جائزة شرعًا .

---

(١) بتلخيص قريب من الأصل .

ويقول الأستاذ أحمد أمين فؤاد رئيس المصرف الإسلامى الدولى للتنمية والاستثمار ـ السابق ـ : إن المال والكون كله ، ملك لله سبحانه ، وقد استخلفنا الله فى هذا المال ليرى كيف نكتسبه وكيف ننفقه ، فما يجوز أن نتملكه من وجه محرم ولا أن ننفقه على نحو سيئ ، كما لايجوز أن يكون تداول المال فى المجتمع على نحو يزلزل قواعد الأخلاق ويهدد كرامة البشر ، فالمال أداة لخدمة الإنسان وليس الإنسان عبد المال . .

والمفروض أن يكدح المرء ويخاطر ؛ لينجح لا أن يحاول الربح دون جهد يذكر . . والمصارف الإسلامية وهى تعطى المال لطالبه تشارك فى رسم الخطة وتقدير الظروف وتحمل المسئولية ، أما البنوك الربوية فهى تتنصل من هذا كله ، وتحتمى وراء ضمان الفائدة وحسب !

وقد كان نتاج الأسلوب الربوى مريرًا ، وانطبق عليه قوله تعالى :
﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا** ﴾[1] . .

كيف كان هذا المحق؟ ننظر إلى الدول المدينة والدول الدائنة على مدى أربعة أجيال من القروض الدولية ! . .

إن الدول النامية ـ المقترضة ـ تتدحرج من سيئ إلى أسوأ ، وها هى ذى قد أوقفت برامج التنمية وعجزت عن سداد الأقساط ، والفوائد المقررة ، ويوشك أغلبها أن يعلن إفلاسه .

أما الدول الدائنة فقد كانت فرحة بقدرتها على الإقراض وفرصتها فى أكل الربا . . ثم ذاقت وبال أمرها بعد تدهور أحوال المدين ، وظهور عجزه .

حتى إعادة جدولة الديون لاتحقق خيرًا ، فإن هذه الإعادة تؤدى إلى خسارة ٨٠٪ من القيمة الأصلية للدين .

ولو طبقت الأنظمة المحاسبية على هذه المؤسسات لأعلنت إفلاسها . . أليس هذا هو المحق الذى توعد القرآن به المرابين؟ . .

---

(١) البقرة : ٢٧٦ .

٦١. ما هى حدود الكسب الحلال فى التجارة؟ وكيف يضع الشارع حداً لأرباح التجار؟

التجارة باب عظيم من أبواب الثراء فى الدنيا كما هى ميدان فسيح للنشاط العمرانى، وتنقيل الخيرات بين أرجاء الأرض.

والعجيب أنها كذلك باب عظيم إلى الثراء فى الآخرة ورفعة المكانة عند الله، وحسبنا فى ذلك قول الرسول الكريم:

«التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» . .

وقد وقفت مليا أمام حديث آخر يشيد بخلق السماحة والرحمة فى معاملة التاجر لغيره، وبهرنى ماذكر من مثوبة لهذه الخلال، فعن حذيفة وأبى مسعود البدرى أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: إن رجلا ممن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه! فقال له: هل فعلت من خير؟ قال: ما أعلم . . .! قيل له: انظر . . .! قال: ما أعلم شيئًا غير أنى كنت أبايع الناس فى الدنيا فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر!! . . فأدخله الله الجنة» . .

والمعروف أن قوم النبى عليه الصلاة والسلام كانوا يشتغلون بالتجارة، بل لعلها كانت مصدر رزقهم وعماد معايشهم، وكانت حركتهم ناشطة بين اليمن والشام، وبين فارس والروم.

وقد شارك النبى نفسه فى بعض الرحلات التجارية، وعاش ﷺ من العمل فى هذا المجال عمره الأول، وكذلك كان صحبه!.

ولما كان العرب يمسون ويصبحون فى هذا الجو التجارى المشغول بالأرباح والمغامرات فإن لغة الوحى اتجهت إليهم من هذه الزاوية:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[1].

---

(١) الصف: ١٠، ١١.

وفى وصف المنافقين ، وعبيد الدنيا ، وطلاب المآرب الخاصة يقول سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[1] .

والتجارة على كل حال ينبغى أن تكون شريفة الوسائل ، نبيلة المسالك ، وفى صيحة تحذير من الغش والخداع والجشع يقول الرسول ﷺ :

(إن التجار يبعثون فجارًا يوم القيامة إلا من اتقى الله وبر وصدق) . .

ومعروف أن التاجر يشترى السلعة بثمن ما ولكنه عندما يضع لها سعرًا للبيع ، يضيف إلى ثمنها الأصلى نفقات النقل والتخزين ، ثم الربح الذى يقيم عليه حياته ، وقد يضيف إلى ذلك زيادة ما لضمان غده ! . .

إن التاجر ليس موظفا حكوميا له أجره الرتيب ، وله مدخرات تكفل معاشه بعد ترك الوظيفة ، كلا إن الميدان الذى يعمل فيه يقوم على المخاطرة ، وبديهى أن يحتال التاجر ليحفظ حاضره ومستقبله جميعًا . .

والناس تعلم ذلك ، وترضى به فى نطاق الاعتدال ، وإن كان هناك من يغالى فى تقدير أجره على تعبه أو يغالى فى مستوى العيش الذى ينشده! . .

وفى ربح التجارة يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[2] . .

وللشيخ محمد عبده تفسير غريب لهذه الآية ، فهو يقول : إنما استثنى الله التجارة من عموم الأموال التى يجرى فيها الأكل بالباطل ـ أى بدون مقابل ـ لأن معظم أنواعها يدخل فيه الأكل بالباطل! . فإن تحديد قيمة الشىء وجعل ثمنه على قدره بقسطاس مستقيم عزيز عسير ، إن لم يكن محالا! فالمراد من الاستثناء التسامح بما يكون فيه أحد العوضين أكبر من الآخر وما يكون سبب التعارض فيه براعة التاجر فى تزيين سلعته ، وترويجها بزخرف القول ـ من غير غش ولا خداع

---

(١) البقرة : ١٦ .   (٢) النساء : ٢٩ .

ولا تغرير . . فإن المرء قد يشترى الشيء من غير حاجة ملحة إليه ، وقد يشتريه بثمن يعلم أنه أكبر مما يباع به فى مكان آخر ، ولا يكون لذلك سبب إلا أن البائع أمهر وأقدر ، مع بعده عن الغش ، ومحافظته على الصدق ! . .

قال الشيخ : فيكون هذا الكسب من باطل التجارة التى تمت بالتراضى ، وهو ما استثنته الآية الكريمة! . والحكمة فى إباحته الترغيب فى التجارة لشدة الحاجة إليها ، وتنبيه الناس إلى استعمال ما أوتوا من ذكاء فى اختيار الأشياء ، وضبط المعاملات وحفظ أموالهم التى جعلها الله قيامًا أن يذهب شيء منها بالباطل . .

ثم قال : فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا خرج به الربح الكبير الذى يحصل عليه التاجر من غير غش ولا تغرير ، بل تم بتراض لم تنخدع فيه إرادة المغبون ، ولو لم يبح الشارع مثل هذا لما رغب فى التجارة ولا اشتغل بها أحد من أهل الدين . . إلخ . .

وقد ناقش الدكتور محمد زكى عبد البر هذا الكلام ورفضه ، وفسر التراضى بأنه ركن التجارة المباحة ، ويعنى طيب النفس بالأخذ والإعطاء . فلا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه . قال ﷺ :

«**لا يحل لامرئ مسلم أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه**» . .

قال الدكتور : «لانذهب إلى ماذهب إليه الأستاذ الإمام من مشروعية التجارة عن تراض ولو كان بها شيء من الباطل ، ترغيبًا فى التجارة لشدة الحاجة إليها ؛ لأن القول بالمشروعية يتنافى مع الباطل ولأن الأمر إذا شرع لايعد باطلا ، وإذا كان باطلا يكون مشروعًا . . إلخ» . .

ويبقى بعد ذلك كله السؤال الوارد : أليس لأرباح التجار حد تقف عنده ، وتحرم بعده؟ ربما لانجد نصا صريحًا فى تحديد الربح ، والذى نراه أن الظروف الطبيعية تقف بالمكاسب عادة عند حدود الاعتدال! .

لكن نفرا من التجار يحاول السيطرة على هذه الظروف والتلاعب بقانون العرض والطلب ، ويصل إلى غايته بالاحتكار المتعمد للسلع ، حتى يبيعها بأضعاف سعرها . .

والاحتكار جريمة خلقية واجتماعية ، وهو أقصر طريق لأكل أموال الناس بالباطل ، وإشباع النهم الفردى من حاجة ذوى الحاجات . .

ولعل من أدهى العلل التى وفدت بها الحضارة الحديثة حرق بعض المحاصيل الزراعية حتى لايرخص السعر الذى حدده الباعة . . .! والكفر ، كالجنون ، فنون! . .

بعد ماتبينت ضخامة الأرباح التى تجنيها الشركات المحتكرة فهمت قول رسول الله ﷺ : «**لايحتكر إلا خاطئ**» ، وما روى عنه «**يحشر الحاكرون وقتلة الأنفس فى درجة!. ومن دخل فى شىء من سعر المسلمين يغليه عليهم كان حقا على الله تعالى أن يعذبه فى معظم النار يوم القيامة**» . وكذلك ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام من رواية معاذ بن جبل : «بئس العبد المحتكر إنْ أرخص الله تعالى الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح» . .

وقد رأى الشيوعيون إلغاء التجارة لما رأوه من جشع أغلب التجار! وعينوا من يوزع السلع بعد نقلها من مواطن إنتاجها إلى مواطن استهلاكها! . .

وهذا الحل لايجدى فى تلبية الرغبات العامة ، ولا يتجاوب مع الحريات الطبيعية ، وهو جزء من خطة فى العيش لم تحظ برضا الجمهور ، فبقيت فى حراسة السلاح! . .

والذى نراه إبقاء سوق العرض والطلب ، وإطلاق المنافسة الحرة بين الأفراد والشركات ، وتدخل الدولة بالتسعير الجبرى إذا أحست سوء الاستغلال! .

ويبقى أمر له وزنه الكبير وإن مارى فيه البعض أعنى وازع الدين وقانون الأخلاق! . فإن زكاة النفوس فى جو التربية السليمة والحريات المكفولة يمنع أنواعا من البلاء ، ويجعل التجارة فى إطار الحديث الشريف :

«**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى**» . .

ومن لطائف عمر بن الخطاب أنه قال :

«لا بيع فى سوقنا إلا لمن قد تفقه فى الدين»!! . .

٦٢. ما دام الدين واحداً فلماذا تتعدد حركات التجديد وتكثر مناهج المصلحين؟

شرائع الإسلام لايغنى بعضها عن بعض ، ومعالمه الكاملة تؤخذ من نصوصه وقواعده ، وفروضه ونوافله فى صورة منسقة على حسب الوضع الإلهى الذى أتت به . .

غير أن المسلمين قد يسيئون إلى الموضوع أو الشكل وقد ينحرفون عن الأصل أو الفرع! . والعلل التى تصيبهم شتى . .

وهناك عينان حمئتان تسيلان بالشرور فى واقع المسلمين المعاصر : إحداهما من الاضطراب الداخلى فى ثقافتنا وسياستنا ، وهو اضطراب قديم مضت على جراثيمه قرون . .

والأخرى من الاستعمار الخارجى الدائب على محو شخصيتنا وهدم قواعدنا وحوك المؤامرات فى كل ميدان ضدنا . .

ومن ثم تتغاير الأدواء التى يحاصرها المصلحون ، ويبغون شفاء الأمة منها ، واهتمام أحدهم بوضع ما وجده فى بيئته لا يعنى قلة اكتراثه بالأوضاع الأخرى .

إن الظروف التى يواجهها هى التى تحكم عليه بمنهج معين يتخصص فيه ويعرف به . .

رفع محمد بن عبد الوهاب شعار التوحيد ، وحق له أن يفعل! فقد وجد نفسه فى بيئة تعبد القبور ، وتطلب من موتاها مالا يطلب إلا من الله سبحانه . .

وقد رأيت بعينى من يقبلون الأعتاب ويتمسحون بالأبواب ويجأرون بدعاء فلان أو فلان ، كى يفعل لهم كذا وكذا! ما هذا الزيغ؟ ما الذى أنسى هؤلاء ربهم؟ وصرفهم عن النطق باسمه والتعلق به؟ وماذا يرجو العبيد من عبد مثلهم لايملك لنفسه نفعًا ولا ضراً ؟ إنه لو كان حيا ما ملك لهم شيئًا ، فكيف وهو ميت؟ . .

وتذكرت قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾[1] .

وقوله :
﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] .

إن هذا المسلك ينافى جملة وتفصيلاً عقيدة التوحيد! وإنكاره واجب كل مؤمن غيور . .

بل إننى أذهب الى أبعد من هذا فأقول : كل إنسان له بشخص ما أو بشىء ما صلة تشبه من كل ناحية صلة المشرك القديم باللات والعزى فهو مثله ، وحكمه حكمه . . ! .

لقد رأيت من يهاب بشرًا أكثر مما يهاب الله ، ومن يرجوه أكثر مما يرجو الله! فكيف أعد هذا مؤمنا ، وليس فى قلبه اتجاه إلى الله! إن قلبه خال من ربه ملىء بغيره! فلماذا يكون خيرًا من عبد اللات أو عبد العزى؟ .

الذى أراه أن عبادة القبور وعبادة القصور : أعنى عبادة الأموات وعبادة الأحياء ، آثار متشابهة وخواتيمها سوء !! .

إن رفع شعار التوحيد هنا إصلاح عظيم لعوج هائل ، فهل معنى ذلك أن الإصلاح كله يقف عند رفع هذا الشعار؟ كلا هناك إصلاحات خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية لا يتم إلا بها ! .

وقد توفر رجال آخرون على هذه الإصلاحات ، وبذلوا فيها جهود مشكورة .

وفى مقدمة أولئك الرجال مقاومو الفساد السياسى ، ورافضو الفرعونية والهرقلية فى تاريخنا المديد ، لقد قتل من هؤلاء المجاهدين من قتل وعذب من عذب ، وبقيت حياتهم أسوة حسنة لرواد الخير وحماة الحق . .

وفى عصرنا هذا أئمة استشهدوا وهم يحاربون الاستبداد السياسى . ويستنقذون حقوق الإنسان من براثن الجبابرة . .

---

(١) الأحقاف : ٥ .
(٢) الشورى : ٩ .

ولأشرح هنا موقفًا اضطرب فيه المتكلمون باسم الإسلام . .

إن الإسلام يرفض الانحراف عن الحاكم إذا كان لغرض خسيس! نعم هناك قوم ينظرون إلى مغانم الحكم باشتهاء ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ! . .

ومعارضة هؤلاء للحاكم محقورة منكورة ، لا نكترث بها ، بل قد نشجبها . .

وهناك معارضون أغبياء ، يهدمون من أجل شيء تافه بنيانا قائمًا ، ولا يدرون شيئًا عن عواقب الأمور ، تأملت فى ثورة الخوارج على على بن أبى طالب ، إن قرار التحكيم الذى قبله لم يعجبهم ، فقاتلوه ؛ حتى قتلوه ، وانتهى تمردهم بقيام نظام ملكى أجهز عليهم دون رحمة!! . .

ماذا عليهم لو قبلوا القرار ، وبقوا مع أمير المؤمنين حتى استقر له الأمر؟ أليس ذلك خيرًا مما حدث؟ . .

وهناك معارضة تضعف الدولة أمام خصومها ، وقد تهدد وجودها ورسالتها ، إن هذه معارضة سيئة بلا ريب . .

وقد رفض الإسلام كل معارضة من هذا القبيل ، فهل معنى هذا إعطاء الحكم الفردى الأعمى ضمانات أبدية لبقائه والدفاع عنه؟ هل معنى ذلك أن الإسلام يسكت عن حكم يغتال الحقوق ، ويذل النفوس ، ويعطل الحدود ، ويستحل الحرمات؟ كلا . .

وأمامى الآن فتوى جبانة مضللة تلبس الحق بالباطل ، وتحرف الكلم عن مواضعه ، فتحت عنوان : هل تجوز منازعة الإمام الجائر؟ جاءت هذه الكلمات : « . . ذهبت طائفة من المعتزلة ، وعامة الخوارج إلى منازعة الإمام الجائر ، وأما أهل الحق - وهم أهل السنة والأثر - فقالوا : الصبر على طاعة الجائر أولى ، والأصول تشهد أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك ، فقال عياض : وأحاديث مسلم كلها حجة على ذلك كقوله ﷺ «أطعهم ، وإن أخذوا مالك ، وضربوا ظهرك»!! . . وقال الطرطوشى فى سراجه : حديث أبى داود عظيم الموقع فى هذا الباب : قال رسول الله ﷺ : «يطلبون منكم مالا يجب عليكم ، فإذا سألوا ذلك ، فأعطوهم ولا تسبوهم» . . أى

ندفع لهم ما طلبوا من الظلم ، ولا ننازعهم ، ونكف ألسنتنا عنهم ، وقال ابن العربي : السلطان نائب رسول الله ﷺ (!) يجب له ما يجب لرسول الله من التعظيم والحرمة والطاعة! . ويزيد على النبى ﷺ (!) لابحرمة زائدة ، لكن لعلة حادثة بأوجه ، منها الصبر على أذاه ويدعى له عند فساده بصلاحه . .

وقيل لمالك : الرجل عنده علم بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : يخبر بالسنة ، فإن سمع منه وإلا سكت ! قيل : فينصح السلطان ؟ قال : إن رجا أن يسمعه! وإلا فهو فى سعة» .

والواقع أن الجبن وحب الحياة ومهادنة الضلال تقطر من كلمات هذه الفتوى ، وما تربى إلا أذنابا للحاكمين ، وحوائى للمستبدين . .

وما سقتها إلا لأنها تصور الفكر السائد عند جمهور من المتدينين وهو الفكر الذى حاربه زعماء الإصلاح وأئمة العلم وبينوا بعده السحيق عن دين الله .

وما أدرى كيف يكتب هذه الكلمات من يعرف أن الدين النصيحة ، ومقاومة المنكر! وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر! وأن الأمة إذا هابت أن تقول للظالم ياظالم فقد ماتت موتا ماديًّا وأدبيًّا . .

هل قرأ مصدر هذه الفتوى قوله تعالى :

﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾[1]؟ .

إننا لم نُنصر من عدة قرون ، لشيوع الظلم بين المسلمين ، وكثرة من يداهنون الجائرين ويأكلون على موائدهم! . .

فى بنى إسرائيل - وهم من هم - دعا القاضى «كاهان» رئيس الحكومة فمثل بين يديه ، ثم دعاه مرة أخرى وأنذره إن تأخر ، فجاء رئيس الحكومة طائعًا ، ثم صدر الحكم ضده وضد من معه . .

وقال الناس : يستحيل أن يقع هذا فى بلد عربى!! . . وأردفوا ساخرين : الماء

(١) هود : ١١٣ .

لايجرى إلى أعلى! . . قلت : وبركات السماء لاتنزل على الأدنى ، إن الاستبداد السياسى أعمى المسلمين عن حقائق الكتاب والسنة فغشيهم من الضياع ماغشيهم . .

والإصلاح فى الميدان السياسى كالإصلاح فى الميدان العقائدى له رجاله المرموقون . .

وهناك الإصلاح فى الميدان الثقافى ، وغايته ـ كما أرى ـ إعادة الرشد إلى العقل الإسلامى الذى كاد يفقد وعيه بعد غيبوبة طالت وتراكمت آثارها ، وأمسى المسلمون معها لايعرفون رأسا من ذنب فى أفق المعرفة الدينية ، وأمسوا عالة على غيرهم فى علوم الكون والحياة . .

إن الله يبعث رسله من أنفس السلالات البشرية معدنا ، وأحدها ذكاء وفطنة ، والغريب فى الأمة الإسلامية أنها كادت تحصر علوم الدين بين الغوغاء والهمل ، وتكاد تلاوة القرآن الكريم تكون حرفة لأشباه المتسولين !! . فهل نجنى من ذلك إلا المر؟ . .

ولما كنت جنديا فى جيش الدعاة الإسلاميين فإنى مضاعف الحس بما يعانى الإسلام من بلبلة وغوض فى قضايا شديدة الوضوح ، ففى ميدان التربية فوضى أثارها متصوفون ، وفى ميدان التشريع فوضى أثارها متفقهون ، وفى ميدان التعليم فوضى أثارها قاصرون حتى لأكاد أقول : ما يبدأ الإصلاح إلا من هنا ! . .

وسواء بدأ الإصلاح ثقافيّاً أو سياسيّاً ، فإن المسار واحد لابد أن يلتقى على صعيده المخلصون وإن تباينت نقط الابتداء ، وستجنى الأمة منه أطيب الثمر!! . .

٦٣ . ماذا عن أحاديث آخر الزمان، وهل لها دلالات معيَّنة ؟

قبل أن ينتهي أجل الدنيا ، وتتلاشى الحياة فوق هذا الكوكب ستقع أشياء كثيرة مثيرة! . . بعضها يتصل بالأمة الإسلامية التى كلفت بهداية العالمين وفرطت فى هذا التكليف! وبعضها يمس الناس كلهم ، الذين خلقهم الله لعبادته فآثروا عبادة أنفسهم ، وجعلوا إلههم هواهم! . .

يظهر أن التقدم المادى سيبلغ الذروة ، وأن الغنى سيملأ كل يد ، وأن الأرض ـ قبل أن تسلم النزع الأخير ـ ستتخلى عما فى بطنها ! ، لمن تدخره؟ يوشك أن تصغر جنباتها ! فلزم بذهبها وفضتها لمن على ظهرها الآن ، ومن هنا سيتطاول الرعاع فى البنيان ، ويسكنون ناطحات السحاب ، وينعم العبيد بمستوى المعيشة التى عرفت للملوك! . .

ذلك ما نفهمه من قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾[1] . .

وقوله :

﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[2] . .

أى استمعت لأمره ، وحق عليها أن تسمع ! . .

وذلك ما أشار إليه الحديث الشريف فى علامات الساعة « . . . ويفيض المال حتى لايقبله أحد!» وقوله عليه الصلاة والسلام فى هذه الأمارات : « . . أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان» وفى رواية « . . إذا كان الحفاة العراة رءوس الناس» .

وقد وهل البعض فى فهم هذه الكلمات ، وظنوا الإسلام يكره رياسة الفقراء! وهذا خطأ فاحش ، وهل كان العرب حملة الحضارة الإسلامية إلا فقراء يرعون الغنم؟ . .

(١) يونس : ٢٤ .
(٢) الانشقاق : ٣ ـ ٥ .

إن المقصود تقدم السفلة بالوسائل الهابطة ، ووصول من لا كفاية له إلى مناصب لايستحقها ، وهذا مانفهمه من الأحاديث الأخرى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : «لاتقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع» أى اللئام الأقذار .

وفى رواية : «لاتقوم الساعة حتى يرث الدنيا شراركم» وفى أخرى «لاتقوم الساعة على أحد يقول الله الله» .

والواقع أن فساد الحكم شر أنواع الفساد كلها ، فإنه يتيح للأوغاد أن يدمروا الأخلاق والأمجاد وأن يرخصوا الدماء والأعراض .

ويبدو أن الأمة الإسلامية سيشيع فيها هذا البلاء أكثر من غيرها ، فقد صح ، عن الرسول الكريم أنه بَيْنَا كان يحدِّث القوم جاءه رجل فقال : متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ فى حديثه حتى إذا قضاه قال : «أين السائل؟ قال : هاأنذا يارسول الله! قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة! قال : وكيف إضاعتها؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»!! .

ومع أن الخيانات الاجتماعية والسياسية ضاربة الجذور فى تاريخنا إلا أنها ستزداد فشوا وعتوا فى الأعصار الأخيرة .

هناك حاكم مات أبوه وهو يشتهى ركوب الحمار! مكن له القدر فأصبح ينتقل بالطائرة ، ولم يكشف بذلك حتى جعل الطائرة تنقل الحلوى لأولاده وأحفاده ، من مال الشعب! ما أتعس الإسلام بأولئك الحكام!! . .

وقد وردت أحداث بين يدى الساعة نحب أن نشرح بعضها! من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر كريم ، ونحن المسلمين نرفض أن يكون إلها أو ابن إله ، وكتابنا يقول فيه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(١) .

ثم يقول :

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾(٢) .

وهذا تلميح إلى نزول عيسى قبيل الساعة ، بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح قال رسول الله ﷺ : «**والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية**» . .

ولماذا ينزل؟ ينزل ليكذب بنفسه من زعموه إلها ، وهم جماهير غفيرة! .

---

(١) الزخرف : ٥٩ .   (٢) الزخرف : ٦١ .

وفى حديث آخر أنه سينزل بين المسلمين ـ وهم أتباعه الحقيقيون ـ فيقاتل معهم الصليبيين ، حتى يهزمهم ، ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبدالله ، قال رسول الله ﷺ : «لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم ، فيقول له أميرهم : تعال صل بنا ـ يعرض عليه إمامة المسلمين ـ فيقول عيسى : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة» .

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات ، وأن عيسى لن يجىء بجديد! . .

وظاهر القرآن أن عيسى مات ، والقول بأنه حى فى مكان ما أو فى السماء لا دليل له ، ولا يمنع ذلك من أن يحييه الله مرة أخرى كما أحيا عبيدًا آخرين ، ليقوموا بعمل له خطره! وهذا رأى أهل الظاهر عندنا ، وهو عندى أرجح من القول بأنه حى الآن . .

ومن الأحداث المروية بين يدى الساعة ظهور الدجال الأكبر الذى يختم طائفة من الدجالين الكذبة أدعياء النبوة والمهدية الذين يزعمون أن لهم بالله علاقة ، وأنهم يتحدثون بوحى منه! . وفى الحديث : «**لاتقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله**» . .

والدجال الأخير رجل من اليهود أوتى علما وقدرة ، وربما ادعى الألوهية ، وليس ذلك غريبًا فإن المدعو بالبهاء ، زعم أن الله حل فيه ، وأنه مجلى الألوهية الهادية ، وأن إنكار ذلك نوع من الكفر الذى حذر منه القرآن فى الآية الكريمة :

﴿ . . . **وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾[1] .

فالتفريق عدم الإيمان بالحلول (!) .

وفى السنة تحذير من الدجال ومخرقته ، وتخويف من أتباعه ، ولفت إلى أنه سيكون شخصًا أعور مقبوح الهيئة . .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فتنة هذا الدجال تحتاج إلى بحث خاص ، والذى يهمنى هنا حديث : «إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين» . . وفيه «...**أنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذاباً كلهم يدعى أنه نبى، وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى**» .

العدد للتكثير ، والذين ادعوا أنهم أصحاب وحى كى يقودوا الناس باسم الدين جم غفير وليس بعد خاتم المرسلين وحى! ، إن المحتالين باسم الدين أكثر من المحتالين طلبا للدنيا ، ويغلب أن يلتف بهم أتباع واهمون مسحورون ينسبون لهم خوارق عادات ، ويطلبون لهم طاعة عمياء وديننا قوامه العقل ومعجزته إنسانية خالدة .

---

(١) النساء : ١٥٠ .

والأئمة المضلون هم الخلفاء الظلمة والملوك المستبدون ، وهؤلاء منذ ظهروا بدأ خط الانحراف فى تاريخنا فانفصل العلم عن الحكم أو انفصلت السياسة عن الثقافة .

ثم انشعبت المعرفة الدينية شعبتين بعد ماتوحدت زمانا ، فإذا متصوفون لا فقه لهم ، وفقهاء لا قلوب لهم! ، ثم مضى الانحراف إلى مداه فإذا المتصوفة يفقدون الإخلاص والتجرد ويمسون أصحاب مراسم وشيوخ طرق ، وإذا الفقهاء يخلفون بعدهم مقلدين لا يذوقون حكمة نص ، ولا يحسنون الاجتهاد لنازلة! .

وصحب هؤلاء وأولئك قصور شائن فى علوم الحياة وشئون الدنيا فكان لابد أن تركع الأمة أمام أعدائها بعد ما انهارت مادياً وأدبياً ! وأذكر أن صديقًا قال لى : إن الأوربيين والأمريكيين يكرهون اليهود ، ولكنهم يحتقرون العرب!! . وماذا لدينا يستدعى الاحترام . .

فى تلك الحال يذكر حديث عن رسول الله ﷺ «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** . فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ؟ قال : **لا، بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن!** ، قيل : وما الوهن؟ قال : **حب الدنيا وكراهية الموت**»! .

ومن علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها قال رسول الله ﷺ : «**لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لاينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا**» . .

إن الرتابة التى يتسم بها النظام الكونى خدعت البله فلم يبصروا الرب المدبر ، والسيد المشرف ، فأخذوا يقولون : هذه طبيعة الأمور! وكان ينبغى أن تكون لهم قلوب يفقهون بها .

فلما زالت الرتابة المألوفة صاحوا دهشين : عرفنا صاحب هذا النظام المحكم!! . . وهيهات هيهات! . إنه لاقيمة للامتحان بعد ما انكشفت الأسئلة! . .

بعد هذا الانقلاب الفلكى لايقبل من كافر إيمان ، ولا من فاسد صلاح! . .

وطلوع الشمس من مغربها أو من مشرقها سواء لدى القدرة العليا ، فإن الكواكب المتهادية فى قضائها ، تتحرك وفق مشيئة خالقها ومسخرها ، بإذنه تنطلق ، وبمشيئته تنطفئ يوم يسلبها نورها وحرارتها .

متى ذلك؟ عند قيام الساعة ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾[1] .

---

(١) التكوير : ١ ، ٢ .

٦٤. هل ينبغى فى عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟..

يظن كثير من الناس أن هذا العصر ليس عصر الأديان ، بما توحى به كلمة دين من تعصب خاص ، وأفق محدود ، ورباط بالماضى ، وتجهم لما لم نألف . .!! ويقولون : هذا عصر الإنسانية العامة ، ذات المعالم المطلقة والانفتاح على الآخرين .

إنه عصر هيئة الأمم ، والميثاق العالمى لحقوق الإنسان ، والدعوات التى تتسامى على الأجناس والألوان والقوميات والأديان! . .

والواقع أن التفكير السائد هو أن القرن الخامس عشر للهجرة أو العشرين للميلاد هو القرن الذى انسحبت فيه الأديان ، وتركت الزمام لمبادئ أخرى تقود العالم ، وعلى المتدينين الاكتفاء باللقاء العاطفى فى معابدهم وعدم شغل الناس بقضاياهم القديمة .

هذا الكلام خدعة كبرى لا أصل لها ، بل هو زيف من ألفه إلى يائه ، وأستطيع أن أكرر ماقلته فى مناسبات شتى إن هذا العصر هو العصر الذهبى للأديان كلها ماعدا الإسلام . .

وأخشى أن يكون ترديده من مكر الطوائف الأخرى بنا ، حتى تبنى وجودها على رفاتنا ، وتستطيع أن تملأ الفراغ الحادث بعد ذهابنا . .

إن هذه الأيام العجيبة تشهد انطلاق أديان كانت مقيدة! وعقائد كانت جامدة ، بل لقد تحرك مزهوًا من كان أمله أن يدفع العار عن نفسه ، وحسبه أن يظفر بحق الحياة المجردة! .

لننظر إلى اليهودية التى سلخت من عمر الزمان فوق ثلاثين قرنًا ، هل وجدت أزهى من هذا العصر؟ إن العالم أجمع يستمع إليها ، وينصت لأسلوبها فى عرض الأمور! . .

هل استطاعت اليهودية خلال عشرة قرون أو عشرين قرنًا أن تجمع فلولها من أقطار الأرض ، وأن تقيم لها دولة على أنقاضنا؟ وأن ترفض بصلف رجاء الراجحين أن تسمح للعرب بإقامة دويلة إلى جوارها؟ . .

لقد انتهت قصة اليهودى التائه ، وبدأت قصة العربى التائه . .

بدأت مأساة لاجئين ، جمهرتهم الكبرى من المسلمين ، يطاردون من قطر إلى قطر ؛ لأن «هويتهم» سرقت منهم تحت الشمس ، ومنحتها هيئة الأمم لأبناء التوراة ، ورأت ذلك هو الإنسانية الصحيحة . .

أفذلك ما نكلف بقبوله وإلا صرنا مسلمين متعصبين؟ نعمل ضد الإنسانية! ألا قبحًا لهذا المنطق . .

وكانت النصرانية حتى مطالع هذا العصر تجر وراءها تركة مثقلة من الخصام الدامى بين العلم والدين ، لقد قتلت العلماء وعوقت التقدم العلمى ، ومشت على أشلاء الضحايا من طلائع الفكر الإنسانى . . ورأت دول الغرب نفسها أن تقلم أظفارها ، وتسمح لها بالعيش بعيدًا عن كل نشاط ذى بال!! .

وبغية تغير الوضع كله ، وأصبحت النصرانية سيدة الموقف وانعقد صلح وارف الظلال بينها وبين شتى الحكومات فى أوربا وأمريكا . .

ورأينا «بابا روما» ينطلق من قلعته فى «الفاتيكان» إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ليجد الألوف المحشودة تنتظره ، ورؤساء الدول فى شرف استقباله ، ومن مرت بهم طائرته أرسلوا إليه فى الجو تحيات عطرة! . .

فإذا خطب فى «نيجيريا» وأكثر من تسعة أعشارها مسلم تناول بالضيق قضية تعدد الزوجات ، وأومأ إلى منافاتها الأخلاق (!) وهو يعرف أن العالم الغربى غارق فى الخنا إلى أذنيه .

إن مهاجمة الإسلام هدف إنسانى . . وفى سبيل ذلك رأينا تعاونا وثيقا منظما بين «الكاثوليك» الإنجيليين و «الأرثوذكس» علام يتعاونون؟ على إخماد الصحوة الإسلامية التى لاحت فى أقطار كثيرة!! . .

وفى سبيل تلك الغاية الإنسانية اتسع نطاق التعاون ليشمل اليهود ! . .

وتذكرت قول «تشرشل» لما حالف الروس الشيوعيين ضد الألمان المسيحيين : إننى مستعد للتحالف مع الشيطان ضد عدوى! . .

ورجعت إلى تاريخ البعثات التنصيرية فقرأت هذه المقتطفات للمطران «نيل» وهو يتحدث عن جهود الصليبيين فى العصور الوسطى للتعاون مع المغول على ضرب الإسلام قال : « . . . عندما سمع العالم الغربى للمرة الأولى عن غزو التتار للعالم

الإسلامى ، استقبل هذه الأنباء بانشراح ؛ لأنه إذا استطاع النصارى التحالف مع القوى المغولية على ضرب الإسلام من الخلف أمكن الخلاص بصورة نهائية من خطر المسلمين ، وقد يكون من الأفضل أن يدمر هذان العدوان بعضهما الآخر ، فستصبح الكنيسة بعدئذ الخيار الأفضل ، وذلك ما جعل المطران «وينشستر» يقول للملك هنرى الثالث ملك إنجلترا ما نصه «ليدمر هؤلاء الكلاب بعضهم بعضاً ، وليصف كلاهما الآخر! وعندها سنرى الكنيسة الكاثوليكية العالمية تتأسس على أطلالهم» . .

يقول محرر مجلة الأمة تعليقا على هذه النصوص : «إن بعض السذج من المسلمين يعجبون للتواطؤ القائم بين الشيوعية والصليبية على ضرب الإسلام ، والذى ظهرت آثاره فى زنجبار وتنجانيقا والسودان والحبشة وأوغندا وفلسطين . . إلخ لامكان للعجب ، فالتاريخ يعيد نفسه وأحداث العصر تماثل كل المماثلة ما نقلناه آنفا على لسان المطران نيل . . لم يتغير إلا الوقت ، أما الحق الكامن ، والجهل المتعصب ، والنفوس الملتوية والميول العدوانية فهى هى مازالت فى القرن العشرين كما كانت فى القرن العاشر ، وما قبله وما بعده» . .

ولنترك جيراننا أهل الكتاب! ولننظر بعيدًا إلى ديار البوذية والهندوكية ، إن الديانتين الوثنيتين فى عصرهما الذهبى الآن مابلغتا هذه الذروة يوما ما . .!! .

يعرف دارسو الملل والنحل أن بوذا لم يرفع بصره يومًا إلى السماء لا داعيًا ولا خاشيا ؛ لأنه لا يؤمن إلا بالأرض وما عليها وقد وضع لأتباعه تعاليم حسنة ليعيشوا بها ! .

فلما مات جعله هؤلاء الأتباع إلها ، وجعلوا تعاليمه توراة وإنجيلا وقرآنا ، وأصبحت البوذية دينا! ما أغرب نقائض البشر !

ورأيت القباب الذاهبة فى الفضاء تحتها تماثيل لبوذا جالسا يفكر! والألوف من العابدين يزدلفون حوله ، إن الدول الغربية أعانت هؤلاء على مطاردة الإسلام وطى راياته عن أقطار كثيرة ، فالوثنية ـ من الناحية الإنسانية ـ أفضل من الإسلام!! . .

أما الهنادك فهوايتهم المفضلة مطاردة المسلمين حيث كانوا! إنهم يقدسون الأبقار والقردة ، بل الجراثيم! الشىء الذى يستحق الموت هم المسلمون ، وأقرأ الآن وأنا أكتب هذه السطور ـ كيف قتل أكثر من خمسة آلاف طفل وامرأة رميا بالسهام

أو ضربًا بالفئوس أو حرقًا بالنيران ، مما جعل مئات الألوف تفر حذر الموت إلى جبال «الهيملايا» ، ذلك كله فى ولاية واحدة ، ولاية «آسام» .

تلك هى الإنسانية فى عصرنا الحديث! إن رنين الكلمة المزيفة يقرع الآذان ، ويثير الغثيان!! . .

إننى باسم الإسلام وأمته على استعداد كامل للحفاوة بهذه الكلمة يوم تكون عنوانًا له موضوع ، وعندما أفعل ذلك فأنا أوفى لدينى ولا أخرج عليه ، بل أعد من الولاء لدينى أن أحسِّن الحسن ، وأقبِّح القبيح ، وأدفع عن المظلوم ، وأنشر الرحمة ، وأقيم العدل ، وأرق للحيوان بله الإنسان أيا كان لونه ودينه!! .

إننى أعرف من دينى أن الله يقبل دعوة المظلوم ولو كانت من كافر! . .

وأعرف من دينى أن حلفا شريفًا تم فى الجاهلية الأولى ، قال النبى الكريم عنه : «**لو دعيت به فى إسلام لأجبت**»!! . . إنه حلف الفضول ، للحفاظ على الحقوق ونجدة المستضعفين . .

وعلى ضوء ذلك أعلن احترامى الشديد للجنة العفو الدولية التى تقف بجهدها ضد العدوان ، وتكشف أصحابه ، وتؤلب عليهم ذوى الضمائر الحية فى هذه الدنيا . .

وأؤيد من أعماقى حسن معاملة الأسرى وأعلن الحرب على الرق الفردى والجماعى وعلى التفرقة العنصرية بجميع صورها .

معنى أننى مسلم أننى أعتنق دينا طبيعيّاً ، يحترم الفطرة البشرية ونوازعها الطيبة ويحترم العقل الإنسانى وأحكامه المنطقية ، ويتوقع الخطأ ولا يحكم على مقترفه بالموت ، بل يمهد له طريق التوبة ويفتح أمامه أبواب الرجاء ، ويلحظ حكم القدر فى اختلاف الأديان فيدعو إلى رأيه بالحكمة والموعظة الحسنة ويرفض الفتنة والقسوة . .

تلك هى الإنسانية التى نحبها ونراها امتدادًا لرسالة الله ، ومرادفًا للإسلام . .

٦٥. أصحيح أن الفتوح الإسلامية تعود إلى عوامل قومية أكثر مما تعود إلى عوامل اقتصادية أو دينية؟

لاريب أن الفتوح الإسلامية كانت شيئًا خارقًا للعادات ، ولو أنك سألت أعرابيًا قبل بعثة محمد أو إبَّانها : هل تفكرون فى غزو فارس أو الروم؟ تظن بك مسا !! .

إن هذا لايريد أحلام النيام! إنه كالهبوط إلى القمر بغير وسائل علمية!! . .

لكن الواقع الذى لايمكن إنكاره أن العرب ـ بعد ما أسلموا ـ هزموا الفرس والروم معًا فى جبهتين متعاصرتين ، واحتلوا بلادهم فى وقت واحد ! . .

إن القبائل الهائمة على وجهها فى صحراء الجزيرة قامت لها فجأة دولة تحت علم التوحيد ، لم تسلخ من عمرها بضع سنين بعد وفاة صاحب الرسالة حتى شرعت تصارع الدولتين العملاقتين ، وتُلحق بهما هزائم أبدية! . .

ماذا حدث فى دنيا الناس؟ إنها معجزة ما عرف خبرها إلا محمد وحده ، الذى أقسم بربه أن تنفق كنوزها فى سبيل الله قال عليه الصلاة والسلام : «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، فو الذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله تعالى**»!! . .

إن الإنسان الملهم العابد المجاهد هو صاحب هذا التغيير الحاسم فى تاريخ البشر ، لقد جعل القمم سفوحا والسفوح قممًا ، وبين أن الهمل يستطيعون الوصول إلى أعلى السلم بالعلم والتربية ، وأن الملوك يتحولون إلى عبيد بالترف والمعصية .

ولقد ثبت لكل ذى بصيرة أن محمدًا وحده هو الإنسان الأول أو القمة الأولى فى تاريخ الحياة من أزلها إلى أبدها . .

غير أن أغلب المستشرقين أبى الاعتراف بهذه الحقيقة ورأى أن يلتمس تفسيرًا لما حدث فقال : إن جفافًا سيئًا حل بجزيرة العرب على عهد البعثة المحمدية وعقبها جعل العرب يتحولون إلى جيرانهم زرافات ووحدانا يطلبون القوت ، ويفرون من المجاعة إلى أرض الهلال الخصيب فى سوريا والعراق! .

ويبدو أن خبر هذه المجاعة العربية نمى إلى المستشرقين وحدهم فلم يذكره أحد من الناس! .

ولنفرض جدلا أن مجاعة وقعت! هل إذا حل قحط بسويسرا أغارت عسكريًا على روسيا والولايات المتحدة ابتغاء القوت؟ لماذا قلت : سويسرا؟ هل إذا حل قحط بالكونغو ناوش الدولتين العظميين فى العالم ، واحتل أرضهما سعيا وراء الرزق؟ هذا تفكير سكارى! .

ثم تذكرت أن فى كتبنا القديمة كلاما قد يكون من وراء هذا الهذيان ، قرأت فى وصف إحدى المعارك بفارس أن المسلمين بعد انتصارهم استولوا على غنائم كثيرة من بينها فطائر ورقائق ، فقال أحد الجنود : لو لم نقاتلهم على هذا الدين لقاتلناهم على هذا الرقاق!! . .

قلت ساعتها : هذه نكتة مثل ما يصدر عنا نحن المصريين من دعابات! ولم أكن أدرى أن الأب «لا مانس» سيتخذ من هذا الكلام دليلا على أن للفتح العربى أسبابًا اقتصادية!! . .

ومثل ذلك ما قاله «رستم» للمغيرة بن شعبة فى أثناء المفاوضات بين الفرس والعرب : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ماتتشبعون به ، ونصرفكم ببعض ماتحبون ، وهذا كلام هزل! فإن رستم يعلم أن كتابًا جاء سيده كسرى من بضع سنين يدعوه إلى الإسلام ، مرسله هو محمد عليه الصلاة والسلام وأن أتباع هذا النبى جاءوا اليوم بالدعوة ذاتها ، وهم مستعدون للعودة إلى بلادهم إذا ما اقتنع الفرس بها .

فما مكان هذا الطعام المعروض؟ ومن الذى طلبه؟ ومن الذى يقبله؟ إنه كلام هزل! .

وكتب التاريخ لدينا تروى الغث والسمين ، وقد نبه الطبرى قراءة إلى ذلك ، حتى لايخدعوا بكل ما يرويه ، ولو صدقنا جدلا ماحكاه الطبرى ـ بسند تافه ـ أن خالد بن الوليد قال لرجاله : ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب؟ بالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى تكون أولى به! ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم فيه !! .

إن هذا الكلام ـ لوصح ـ لكان ضربًا من المزاح أو لفت النظر إلى مافى أيدى الكافرين من نعماء ليسوا أهلا لها ؛ لأنهم لم يشكروا الله عليها ، ولم يؤدوا حقه فيها . .

ويستحيل أخذ العبارة على ظاهرها القريب ؛ لأن الأدلة قائمة أمام عيون المؤمنين على أن القتال طلبا للغنيمة جريمة ، وأن المجرمين لايفتح لهم ولا يفتح عليهم ، فعن أبي هريرة أن رجلا قال : يارسول الله ، رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضًا من الدنيا! فقال : «**لا أجر له! فأعاد عليه ثلاثاً ، كل ذلك يقول: لا أجر له**» . .

وروى مسلم فى صحيحه خبر أول ثلاثة يدخلون النار يوم القيامة ، وبعد أن ذكر القارئ المرائى والمتصدق قال : «**.. ثم يؤتى بالذى قتل فى سبيل الله، فيقول الله له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت! فيقول الله تعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت! يقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جرىء! وقد قيل ذلك!** ثم ضرب رسول الله على ركبة أبى هريرة فقال : **يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة!..**»

قال شفى الأصبحى : فأخبرت بهذا الحديث معاوية ، فبكى بكاء شديدًا حتى ظن أنه هالك! وقال : قد فعل بهؤلاء ذلك فكيف بمن بقى من الناس؟ وتلا قوله تعالى :

﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[1] .

إن الصحابة جميعًا ، والتابعين معهم ، يعلمون أن القتال طلبا لمغنم دنيوى مهلكة للدين ، ومن ثم خرجوا للجهاد ، ونفوسهم خالية من طلب الدنيا ، مقبلة على طلب الآخرة ، وذاك سر فلاحهم ونصرهم على عدوهم ! .

هناك عقد فادح الثمن بين المؤمنين وربهم ولكنه جليل العوض ، يقدمون حياتهم له ويمنحهم الجنة فى مقابله ، ومن طلب عظيمًا خاطر بعظيمته ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ..** ﴾[2] .

إن الإيمان حول أصحابه إلى زلازل وبراكين أتت على الشرك من القواعد! فإذا قيل : ياخيل الله اركبى ، وإلى الله ارغبى . . رأيت الرجال يتسابقون إلى الموت موقنين بأن بعده الجنة . .

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦ .   (٢) التوبة : ١١١ .

وقد يكون أحدهم شيخًا كبيرًا أثقلت جسمه السنون ، فإذا سمع النداء تحامل على نفسه ليؤدى واجبه ، فيقول له بنوه إن الله عذرك! ونحن نجاهد عنك! فيقول : كيف عذرنى وهو القائل :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1] .

إن الشاب والشيخ ، المثقل والمخفف ، سواء فى ضرورة الجهاد! الحق أن الوثنيات الدينية والسياسية والاقتصادية لم تجد فؤادا أشجع ولا ذراعًا أشد ، من فؤاد محمد وذراعه .

لقد حشد ضدها الجموع ، ورمى طواغيتها بالأبطال ، وأخذ يقول لهم : «**من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة**».. «**رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**».. «**ما من مكلوم. جريح. يكلم فى سبيل الله إلا جاء، يوم القيامة وكلمه. جرحه. يدمى، اللون لون الدم والريح ريح المسك**».. «**لايجتمع كافر وقاتله فى النار أبدا! لايجتمع فى جوف عبد غبار فى سبيل الله وفيح جهنم ولا يجتمع فى قلب عبد الإيمان والحسد**».. «**سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله**».. «**ألا أخبركم بخير الناس؟ وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل فى سبيل الله، على ظهر فرسه أو ظهر بعيره، حتى يأتيه الموت، وأن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب الله لا يرعوى بشىء منه**»! .

يقول المغيرة بن شعبة للفرس : أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا : «**أنه من قتل منا صار إلى الجنة! فنحن أحب فى الموت منكم فى الحياة**»! . .

بهذه التوجيهات وتلك المشاعر بدأ الهجوم على قوى الكفر والعدوان ، فإذا الدول الكبرى التى غالبت الزمن وطاولت التاريخ تترنح وتتراجع ثم تهوى!! . .

وجماعة المستشرقين دون مستوى الوعى بهذه الحقائق ، فهم ما عرفوا ـ فى ظل الاستعمار إلا حروب النهب والسلب ، والأحقاد والأطماع ، ولذلك يتحدثون عن محمد وصحبه حديث السكارى عن الملأ الأعلى . .

ثم ظهر بدع مضحك يقول للناس : إن العروبة من وراء الفتوح العظيمة فى فارس والروم! أى عروبة؟ كان العرب غربى فارس أذنابا لكسرى واسمهم المناذرة ، وكانوا جنوبى الروم أذنابا لقيصر واسمهم الغساسنة ، وكانوا فى قلب الجزيرة يسمعون عن الروم والفرس كما يسمع الحمالون عن ركاب الدرجة الممتازة فى السكك الحديدية!! إن العرب قبل الإسلام ومن غير الإسلام ما كانوا شيئًا ، ولن يكونوا شيئًا وسنزيد ذلك بيانا فى الإجابة التالية .

---

(١) التوبة : ٤١ .

٦٦. يدرس الآن فى بعض الجامعات أن القومية العربية هى العامل الأول فى نجاح الفتح الإسلامى وهزيمة الفرس والروم فما مدى الصحة فى هذا القول؟

هذا الكلام أقرب إلى الهزل منه إلى الجد ، بل يمكن وصفه بأنه جريمة علمية ومحاولة لتزوير التاريخ وقلب حقائقه .

وقد استمعنا إلى أوصاف محدودة توجه النفوس إلى هذا الغرض ، وتجاوزناها لتفاهتها ، ثم تبين لنا أن هناك خطة مرسومة متعمدة للنيل من الإسلام وتاريخه!! . .

من ذلك وصف السلطان المظفر قاهر التتار قطز بأنه بطل القومية العربية (!) . .

والرجل ما عرف قط هذه الكلمة ، ولا خطرت له ببال ، فهو ـ باسم الإسلام وحده ـ قاد المسلمين من عرب وترك لمواجهة التتار ووقف تقدمهم إلى مصر ، وكان حماسه لدينه وحبه له بارزين فى سيرته ، فلما رأى الجيش المصرى يضطرب عند الاصطدام بالعدو صرخ صرخته المشهورة ، وإسلاماه! فكانت مفتاح النصر ، وسر انكسار التتار للمرة الأولى فى تاريخهم العسكرى . .

ومعروف أنه من تركستان لا من جزيرة العرب ومع ذلك فقد كتب على مسجده أنه بطل القومية العربية !! . .

ومثل ذلك الكذب وصف صلاح الدين الأيوبى بأنه بطل العروبة! والرجل مسلم كردى الأصل دعاه دينه وإخلاصه لله ورسوله إلى محاربة الصليبيين حتى أجلاهم عن بيت المقدس وأعاده للعرب المطرودين منه وذلك باسم الإسلام الذى لايعرف غيره! . .

والواقع أن فكرة القومية عرفتها أوربا فى القرنين الأخيرين فقط ، ثم نقلها الاستعمار الثقافى إلى بلادنا ليطيح بوحدتها الكبرى ، فالقول بأن العرب عرفوها وقاتلوا باسمها الروم والفرس ضرب من الهراء الموغل فى السخف . .

ونذكر هنا بعض الحقائق التاريخية أن العرب المنتصرين سواء من كان منهم تابعا للروم ، أو الفرس ، أو قاطنا شمالى جزيرة العرب ، هؤلاء كانوا من أسوأ الناس معاملة للمسلمين ، وتحاملا عليهم . .

فرسل النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء ، عادوا جميعا إلى المدينة سالمين ، فلم يقتل إلا الرجل الذى بعث إلى الأمير الغسانى المنتظر شرحبيل بن عمرو! ، وهناك أمير عربى نصرانى آخر شرع يعد العدة لمهاجمة المسلمين فى المدينة مما عجل بمعركة مؤتة! . .

ويذكر التاريخ أنه عندما أمر النبى ﷺ بمقاطعة كعب بن مالك ، أحد الثلاثة الذين خلفوا فى معركة تبوك ، أرسل إليه الأمير النصرانى يستضيفه ويغريه بترك المدينة ونبذ الإسلام! . .

وقد ارتد إلى النصرانية جبلة بن الأيهم وأبى قبول الاقتصاص منه فى مخالفة ارتكبها وآثر ترك العرب والمسلمين واللحاق بالروم ، فأين منطق القومية فى هذه الأحداث كلها؟ .

إن العرب النصارى لم يدخروا جهدًا فى النيل من الإسلام ووقف تقدمه مؤيدين فى ذلك الروم والفرس جميعًا !! . .

ونسأل : أكان الروم أو الفرس يكنون للعرب احترامًا؟ كلا ، لما جاء كتاب النبى ﷺ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام غضب غضبًا شديدًا وقال : «**يكتب إلى هذا وهو عبدى**»؟ الكلمة نفسها التى قالها فرعون لما عرض عليه موسى وهارون عبادة الله الواحد ﴿**أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ**﴾[1] .

كان الفرس يحتقرون العرب كما كان المصريون يحتقرون اليهود ، إن الإسلام وحده هو الذى رفع العرب إلى مستوى آخر ، جعلهم أساتذة يعلمون الفرس والروم ، ويحاولون نقلهم من الظلمة إلى النور ، فأين هذه القومية التى يفخر بها العرب ، ويردون إليها انتصارهم على الدولتين العظميين؟ . .

كان عرب العراق يقاومون الفتح الإسلامى مع الفرس ، فلما هزمهم خالد بن الوليد كان يسائلهم : أعرب ؟ فما تنقمون من العرب؟ أم عجم؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف؟ فأين هذه القومية المزعومة؟ . .

لقد غلبتنى الدهشة وأنا أقرأ لأستاذ[2] جامعى يكتب لطلابه : « . . إن العامل الرئيسى للفتوحات الإسلامية هو عامل قومى أساسه نضج قومية العرب! وارتفاع روحهم المعنوية بعد استرجاع وحدتهم التى هددتها حركة الردة»!! .

---

(١) المؤمنون : ٤٧ .

(٢) كتاب تاريخ الدولة العربية للدكتور السيد عبد العزيز .

هل حركة الردة كانت تهديدًا للقومية العربية ، والوحدة العربية؟؟ أم كانت انتقاضا على الإسلام وتكذيبًا للوحى وعودا إلى الجاهلية ؟ .

أجدنى مضطرًا لمصارحة العرب ـ وهم قومى التائهون ـ بجملة حقائق ثقيلة! .

إننى ألمح مظاهر ردة أنكى من الردة الأولى تبغى الولاء للجنس وتأبى الولاء للإسلام! .

ليكن! . فحاجة العرب للإسلام أشد من حاجة الإسلام للعرب ، ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[1] .

وعندما يقع هذا فسينتصب لمساندة الدين قوم أولى بالله منهم ، وأحق بالكرامة ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)** ﴾[2] . ﴿ **مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾[3] .

إننى مصرى عربى الإسلام ، ولولا لغة الوحى ما كانت لى صلة بالعرب ، اللغة وحدها لا الدم أو العرق أو الجلد تنميني إلى هذا الجنس! وما يسرنى أن أكون هاشميا ، إذ الشرف عندى هو الإسلام وحسب! وكما قيل :

ليس الأعاريب عند الله من أحد!! . .

والجيل الذى رباه محمد ﷺ هو خير القرون ، وشرف الإنسانية كلها ، لأنه الجيل الذى اعتز بالإسلام وحمل لواءه ، وبلغ رسالته ، والذى رفض أن يقدم على العقيدة أى شيء آخر ولو كان الآباء والأبناء .

لقد كان الوحى الإلهى برنامجه الملتزم ، وثقته الوحيدة ثم خلفت خلوف تقبل الوحى على إغماض وتكلف ، وتكره الانتماء إلى الدين وتحب الانتماء إلى العروبة (!) وعند وزن البشر بإنتاجهم المادى والمعنوى تطيش كفة هؤلاء ، وتود الأرض لو صغرت منهم ، فما يصلحون إلا علفا لمدافع الغزاة !! . .

لما كان الإسلام دينا عالميا فقد دخلت فيه أجناس كثيرة ، استفادت منه وأفادته! ووسعت رقعته على ظهر الأرض ، وعمقت ثقافته وحفظتها وورثتها الأجيال المقبلة ، وبذلت المال والدم فى سبيل عقائدها ، ولاتزال تجاهد دونها إلى يوم الناس هذا .

(١) البقرة : ٢٥٤ . (٢) محمد : ٣٨ . (٣) المائدة : ٥٤ .

وصحابة محمد عليه الصلاة والسلام هم أزكى أتباعه وأطهرهم ، وأجدرهم بالتكرم والتأسى . .

بيد أننا نلحظ أن العرب حاشا الصحابة وتابعيهم بإحسان ـ كانوا كالوارث المعتمد على جهد أبيه ومدخراته ، أخذوا أكثر مما أعطوا ، وتشبعوا من الدنيا باسم الدين ، وطلبوا من الناس أن يحملوهم ويقبلوهم مع الإسلام نفسه (!) ففرضوا خصائصهم العرقية على هدايات الله ، وتقاليدهم الجاهلية والقبلية على حقائق الفطرة . .

فكان الملك العضوض أيام الأمويين! وكانت الخلافة الكاهنة أيام العباسيين والفاطميين! وكان احتقار الحرف والصناعات ، وكان الافتخار بالأصل والعزوة! وكان احتقار النساء ـ بعد وأدهم فى الجاهلية ـ ومضى الانحراف إلى العصر السابق فخان العرب الترك حتى جعلوهم يرمون الخلافة فى البحر ، ثم كانت الطامة الكبرى إذ ظهرت العروبة متخففة من الإسلام أو مستنكرة له ، يقودها من لا علاقة له بالله أبدا .

ويوم نقول : إن القومية العربية هى السبب الأعظم فى نجاح الفتح الإسلامى الأول ، فمعنى ذلك أن عقائد الإسلام وفضائله وحاجة العالم إليه أمور ثانوية أو وهمية ! .

ومن ثم يفقد الإسلام أمجاده التاريخية كما فقد وجوده التشريعى والتربوى فى الحاضر المهزوم ! .

لايجوز للجنس العربى أن يعدو قدره ، ويفتات على غيره ، وينسى أن الإسلام ولى نعمته ومقيم دولته ، وحافظ كيانه وداعم أركانه . .! .

إن شعوب العالم فتحت أحضانها لحملة التوحيد النقى والأخوة الجامعة ، ومبدأ «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**» ولم تفتح أحضانها لنعرة جنسية أو عزوة أموية أو عباسية ، أو أعراف بدوية وأوهام صحراوية .

كانت «قادسية» سعد بن أبى وقاص معبرًا لأركان الإيمان وحقوق الإنسان ، ونظام الشورى ، وإقامة العدل ، بعد إطفاء المجوسية الخربة ، ومحو الاستعباد السياسى وإخراج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام ! .

لا كرامة للعرب بدون إسلام:

ونعود - بتفصيل قليل - إلى تاريخ العرب إبان الفتوح ، ونسأل : هل انقض العرب الخاضعون للروم ، أو الخاضعون للفرس على الفرس حين وجدوا عرب الجزيرة يشتبكون مع أعدائهم؟ . .

إن هذا أول ما يرتقب منهم تلبية لنداء العروبة! لكن شيئًا من هذا لم يحدث قط ! .

ونسأل ثانية : هل استقبل أولئك الخاضعون إخوانهم القادمين بشيء من الترحاب ، وذاك أيسر ما يبذلون لو كان للعروبة قومية ملحوظة؟ لم يقع شيء من ذلك! .

الذى وقع أن العرب المستندلين قاوموا العرب الفاتحين بكل ما لديهم من وسع ! .

ولنلق نظرة على الجبهة الرومانية ، فى موقعة اليرموك التى أجهزت على الوجود الأجنبى بالشام فنرى جبلة بن الأيهم يقود الألوف من النصارى العرب ، مقاتلا مع الرومان أنفسهم ورابطا مصيره بمصيرهم ! .

إن كرهه لعمر بن الخطاب رسب فى أعماقه لأن عمر رفض الاعتراف له بامتيازات الإمارة ، ورأى أن يسوى بينه وبين أعرابى من عامة الناس فارتد إلى النصرانية ، وتألب مع القبائل التى على دينه ضد عقيدة التوحيد للخالق والمساواة بين الناس . . فأين هى القومية العربية؟ التى حاربت الروم؟ .

وقبل ذلك بسنين كانت معركة مؤتة التى حاول فيها مائة ألف من النصارى العرب ومعهم مثلهم من الرومان أن يفتكوا بالجيش الإسلامى القليل العدد ، الجيش الذى حركه الغضب لأن هؤلاء العرب أذناب الرومان قتلوا بطريقة سافلة رسولا للنبى ﷺ أرسله إلى أحد أمرائهم .

كاد هذا الجيش يذوب لولا انسحاب خالد بن الوليد! وسبب المعركة ، ماذكرناه آنفا ، قال الأمير الغسانى للحارث بن عمرو - رسول النبى لتبليغ الدعوة - لعلك من رسل محمد؟ قال : نعم ! فشد وثاقه ، ثم ضرب عنقه بالسيف! . .

فأين هى آصرة القومية التى تجمع بين المسلمين والعرب الخاضعين للروم؟ إن الأمر بلغ حدا من الهزل يستحق الدهشة أى قومية يعنون؟ ونذهب إلى جبهة فارس فماذا نرى؟ نرى عرب العراق ينضمون إلى مجوس فارس فى مقاومة

الصحابة والتابعين ، مع أن آخر ملك لهؤلاء العرب مات فى سجن كسرى! ولكنه الذل وقبول الدنية .

كانت موقعة الولجة ، وأليس ، على نهر الفرات من أقسى المعارك التى خاضها العرب المنتصرون مع سادتهم المجوس ضد زحف خالد ورجاله! حتى بلغ الغيظ من خالد مبلغه ، وهو يرى بنى جنسه يكسوهم هذا الصغار! فكان إذا ظفر بهم يقول : أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أم عجم فما تنقمون من العدل والإنصاف؟ . .

فكيف يجىء بعد هذه الحقائق الدامغة من يزعم زورا أن هذه الحروب كانت تحررًا وطنيّاً ، أو ثورة قومية (!) تعاون فيها عرب الشام وعرب العراق مع زملائهم عرب الجزيرة ضد الروم والفرس!! . .

إن الصحابة والتابعين الذين خرجوا من المدينة المنورة كانوا يحملون حقا رسالة تحرير ، لكنها للشعوب كافة ، لجماهير الفرس والروم والعرب الذين طحنهم الحكم الفردى ، وكبل ضمائرهم وحرمهم الحقوق الطبيعية للإنسان .

إن الإسلام لم يكن فورة جنسية ، ولا نزعة استقلالية عن التدخل الأجنبى ، كما يريد نشر ذلك المستشرقون والمبشرون والعروبيون! إنه حركة إنسانية عامة تعلو على الأقوام والأوطان ، تربط الناس بربهم ليستهدوا به وحده ، ويستلهموا منه وحده ، وليكونوا فى القارات كلها سواسية فى الكرامة والولاء ، فلا سجود إلا لله ولا حكم إلا لله . .

فإن عقل ذلك العرب أفلحوا ، وإلا بادوا ، وأتى الله بخير منهم فى التأسى بمحمد ورفع لوائه! . .

٦٧. ألا يمكن ردم الفجوة بين السلف والخلف حتى تستطيع الأمة رد الغارات المتتابعة عليها؟

لايوجد مسلم يحجب ولاءه عن السلف، أو يرفض الاستقامة على نهجهم! كيف وهم دعامة الدين وحرسه الشديد، وحاملوه إلينا نقيا قويا؟ . .

إن التفاوت نشأ من القصور العقلى لدى الدهماء ومن إليهم، ومن ضعف الخلق ـ أو ضعف التقدير ـ عند بعض المشتغلين بالمعرفة الدينية، ولا يوجد قضايا جسيمة تقسم الأمة اليوم إلى سلف وخلف، وتتيح لأعدائها فرصة القضاء عليها . .

ولأستعرض صورا من الخلاف الناشئ، وانظر : أين هى الفجوة المزعومة؟ . .

هل أتباع أحمد بن حنبل هم السلف، وغيرهم هم الخلف؟ ما أظن عاقلا يزعم هذا! قد يكون التفرق المذهبى والتعصب الأعمى لإمام بعينه بدعة لم يعرفها السلف! وهذا حق! . .

والعلاج أن تشيع فى هدوء دراسة الفقه المقارن، وأن تبحث القضايا من خلال مراجعة واعية لكتاب الله وسنة رسوله، وأن يتم ذلك فى بيئات متخصصة بعيدة عن هوس الدهماء . .

ثم تقدم خلاصات عملية للجماهير مع ملاحظة :

(أ) أن فقه الفروع ثانوى فى رسم السلوك الإسلامى .

(ب) أن شغل العامة به لون من الثرثرة الدينية المعطلة للإنتاج، والمضعفة للطاقة على الجهاد .

(جـ) أن اتباع أى رأى لإمام ثقة خطأ أم صوابا فى نظر الغير، لا حرج فيه، ولا يلد عداوة لأحد! . .

إن أولى الألباب أخذوا على عوام المسلمين قديمًا وحديثًا مغالاتهم الغريبة فى فقه الفروع وإهمالهم لسلامة الأخلاق والقلوب ، وتكاسلهم عن التفوق فى شئون الدنيا وأسباب الحضارة ، وهذا مسلك يودى بالدين كله .

وأمر آخر يثير البلبلة والفتنة! زيارة القبور والاستشفاع بأصحابها عند الله . .

والحق أن الخاصة الأولى فى الإسلام تعليق القلوب بالله وحده ، وإسلام الوجوه إليه ، والنظر إلى الأحياء والموتى على أنهم عبيد وحسب . . .

ولم يطلب الله منى وأنا أدعوه أن أستظهر معى بأحد ، أو أستشفع إليه بمخلوق . .

ولست أحب أن أعكر صفو التوحيد بمسلك سخيف . . وقد رأيت من زوار الأضرحة ما يثير التقزز ، ويوجب الإنكار . .

والذى أراه أن تعليم هؤلاء قد يفتقر إلى جهد شديد ، ولكنه واجب ، بل هو متعين ، وهو أولى وأجدى من تكفيرهم واستباحتهم واعتبار دارهم دار حرب!! . .

إنهم يكرهون التجسيد اليهودى ، والتعديد النصرانى ، وأنواع الوثنيات البوذية والهندوكية والعربية القديمة ، ويحرصون كل الحرص على انتمائهم الإسلامى ، بل يقاتلون دونه بكل ما أوتوا ! . .

فلماذا يحرص البعض على تكفيرهم ، ويعجز عن إرشادهم إلى المسلك؟ أكاد أقول إن الحرص على تكفيرهم مرض نفسى لايقل عن المرض الذى يعانى منه هؤلاء!! . .

نظرت إلى اختلاف الفقهاء فى حكم الصلاة بالمقبرة ، وتحيرت بادئ ذى بدء! أن جمهرة الأئمة الأربعة بين كاره ، أو مبيح! ثم جاء ابن تيمية ـ وللرجل وزنه العلمى ـ فحرم وشدد وذكر المسلمين بحديث نبيهم «**لاتتخذوا القبور مساجد، إنى أنهاكم عن هذا**»! . .

وخيل إلىَّ أن تغير الناس هو السبب فى اختلاف الحكم ، فما كان المسلمون الأوائل يذهبون إلى مقبور يلتمسون منه شيئًا ، ومن ثم لم يشعر الفقهاء المفتون قديما بأن الأمر يستحق الخطر والوعيد . .

أما فى القرن السابع ـ عصر ابن تيمية ـ فإن أعدادا من العامة كانت تستجير من التتار الغازين بقبر أحد الصالحين! .

كيف يقع هذا ؟ وما يغنى المسكين عن هؤلاء اللائذين به؟ إنه لو كان حيا ما أفادهم! . .

وهل يفيد فى الحرب إلا من استكمل عدتها؟ ﴿ **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً** ﴾[1] إن ذلك ماجعل الرجل يتشدد فى إنفاذ كلام رسول الله ﷺ ألا يبنى على القبر مسجد ، وألا يصلى فى مقبرة سدا للذريعة !! . .

الواقع أن حركة ابن عبد الوهاب ـ من الناحية العلمية ـ سليمة ، وقد تكون الوسائل الرديئة هى التى هزمتها ، يذكر الأستاذ أحمد أمين : «أنه قام فى الهند زعيم وهابى اسمه السيد أحمد ، حج سنة ١٨٢٢ م وهناك آمن بالمذهب الوهابى ، وعاد إلى بلاده فنشر الدعوة فى «البنجاب» وأقام دولة شبه وهابية وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند! وأعلن حربا عوانا على البدع والخرافات! وهاجم الوعاظ ورجال الدين الرسميين! ثم دعا إلى الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه ، ويقبل دعوته ، وقرر أن الهند دار حرب! وقد لقيت الحكومة الإنكليزية متاعب كثيرة من أتباعه حتى استطاعت إخضاعهم» .

ألا نستفيد من ذلك كله أن الوسائل ينبغى أن يعاد النظر فيها على ضوء التجارب الفاشلة؟ . .

إن الإقناع أهم من التخويف ، والدليل أجدى من السيف ، وأنا أريد هداية الناس لا أسرهم! . .

ومن نظر إلى الدنيا على أنها مغنم له إذا انتصر ، فهو قاطع طريق! وليس داعيا إلى الله ، وهو أجهل الناس بسيرة محمد وشريعته! . .

وإذا كان القتال الغبى لامساغ له من أجل العقيدة فكيف إذا كان فى سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة أو غطاء يوضع على قافية الرأس ، أو صورة ترسم على ورقة ، إن البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحقورة!! . .

---

(١) النساء : ١٠٢ .

وعلى أية حال فمن الخير أن ينأى عن ميدان الدعوة الدينية أصحاب الأمزجة السوداوية والطباع الغضوب والمتلمسون للبراء العيب! . .

وشيء أخير نثبته هنا . . لقد درسنا في الأزهر ونحن طلاب مذهبي السلف والخلف في آيات الصفات ، أعني التفويض والتأويل ، وتم ذلك دون تشنج أو توتر أعصاب ، وترك لمن شاء أن يختار ماشاء من أقوال! . .

وقد اخترت رأي السلف لأنه في نظري أعرف بوظيفة العقل الإنساني وقدراته ، ولأنه يسد الأبواب أمام مجالس الثرثرة الدينية التي تضيع الوقت سدى! ولأنه احترم مصادره الأصلية ، وازدرى فكر اليونان! . .

ومع ذلك فقد تعمقت في فهم أفكار الخلف ، وأستطيع القول بأن جمهرتهم حراص على توحيد الله وتوقيره! . وأن دراستهم لابد منها في فهم الملل والنحل ومقارنة المذاهب ، وأن الأفضل الآن تحنيط هذه الدراسات ووضعها في المخازن للذكرى والتاريخ .

فالنزعة العقلية المعاصرة لاتحب أن تسمع بحثًا عن : هل الله عالم بذاته؟ أو بصفة زائدة على الذات ؟! إن هذا اللون من الفكر أمسى لغوا ! . .

وعلى معتنقي فكر السلف أن يتجردوا لنصرة دينهم فالمدى فسيح! . أما أن يعتبروا اعتناق الفكر السلفي هو نصرة الدين ، وأن إلحاق هزائم بالأشاعرة قربى إلى الله ، فذاك الآن نوع من البطالة! . .

قال لي صديق من نجد : نطاق العقائد أوسع مما ذكرت ، والذين يقفون به عند هذه الحدود هم الذين لا يؤمنون بالوحيين معا ! . .

قلت دهشا : ما تعني بالوحيين؟ قال : الكتاب والسنة! قلت : هذه تثنية مثيرة! فإن القرآن معجز تحدى الله به الإنس والجن! وهو مقطوع بثبوته كلمة كلمة! ولا كذلك السنة! أكثر السنة أحاديث آحاد ، يعمل بها في الفروع أما العقيدة فتحتاج إلى نص مستيقين ثابت بالتواتر! . .

والقرآن أصل الإسلام ، والسنة فرع يجيء بعده ، بيانا وتفسيرًا . .

قال : السنة مثل الكتاب في أنها مصدر للعقائد مادام السند صحيحا! . .

قلت : ماهى العقيدة التى ترى أنها ثبتت بحديث آحاد؟ وكلفت الأمة جمعاء باعتناقها؟ . .

فتروى قليلا ثم قال : ثبت فى الصحاح أن الرسول ﷺ قال : «**لاتمتلئ النار حتى يضع الله تبارك وتعالى فيها رجله فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحدا**» ، فالحديث أثبت صفة القدم! . .

قلت : هذا كلام باطل ، إنك مع بعض السطحيين فهمتم أن «الرجل» كلمة تعنى العضو المعروف ، وقد قال المفسرون : إن القدم مايقدم للنار من الأشخاص الأراذل الذين يستحقونها ، وارجع مثلا إلى تفسير القرطبى لترى أن القدم وكذلك الرجل مفرد أرجال الجراد ، وأرجال يعنى الأرتال ، والمعنى معروف لدى العلماء . .

فلا دلالة الحديث قطعية ، ولا ثبوته قطعى ، فكيف تنشئ عقيدة من ظن حائر؟ . .

وما طولب عربى ولا رومى ولا عجمى باعتقاد أن لله قدما ، فهل نأخذ الدين من سلفنا الأول أم نأخذه من عقولهم؟ . .

راجعوا أنفسكم ليلتقى المؤمنون على كلمة سواء . .

٦٨. ما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتهما بالإنسان؟

هذا ميدان شائك! لأنه يتصل بعالم الغيب ، ودرايتنا به قليلة ، وسأنقل خطواتى بحذر ، مستهديا بما أملك من طاقة عقلية ، وبما تيسر من تعاليم سماوية! . .

أؤكد أولا أن الوجود أكبر من الإنسان! وأن تصور الإنسان نفسه على أنه الكائن المحتكر للحياة ينطوى على غرور وجهالة ، فالكون أكبر منا ، وساكنوه أكثر عددًا ، وأشد قوة ! .

وقد فهمت من القرآن الكريم أن الجن عالم برز إلى الحياة قبل الإنسان ، وربما كلف قبله قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾[١] .

ويبدو أن إبليس أبا الجن ضايقه هذا الكائن الجديد ، وظنه منافسا على مكانة استقرت له ، فكره آدم وبنيه ، وساءل الخالق معترضا : لم خلقت هذا الإنسان ذا الطبيعة الهشة؟ ولم أمرت بالسجود له؟ إننى أقدر منه وأصلب! ولو أطلقنا فى سباق لألحقنَّ به وبأولاده شر هزيمة **﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ**[٢] **ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾**[٣] .

وإبليس بهذا التصرف أحمق! فليس له ـ وهو أحد العبيد المخلوقين لرب الأرض والسماء ـ أن يقف هذا الموقف ، فلله أن يخلق ما يشاء ، ولله أن يفضل ضعيفا متواضعا على متكبر! وما أدرى إبليس أن من أبناء منافسه من يبهر بحسن الطاعة وصدق العبودية ، ويحطم ما يتعرضه من عقبات ، حتى يرضى ربه بجدارة؟ . .

على أن عالم الجن لم يمض كله فى طريق إبليس ، فقد بقى منه نفر كثير يعلن ولاءه لله ، ويثابر على طاعته ، ويؤدى التكاليف المطلوبة منه . .

(١) الحجر : ٢٦ ، ٢٧ . (٢) لأستأصلنّ . (٣) الإسراء : ٦٢ .

نعم فى الجن ناس طيبون ، يسبِّحون بحمد ربهم وينكرون أن يكون له ولد ، ويهتدون إلى الرشد وينفذون وصايا المرسلين ، وهناك أيضا من واصلوا الحملات ضد آدم وبنيه ، واحتالوا طويلا لإشقائهم وإقنائهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[1] .

والاحتكاك دائم بين ذرية إبليس وذرية آدم ، فما طبيعة هذا الاحتكاك؟ . .

الظاهر أن الشياطين ـ أعنى الجن العصاة ـ ليس لهم أكثر من الوسوسة والاستغفال! ومع ضخامة قواهم المادية فهم مكفوفون عن استخدامها ضد بنى آدم! إنهم يجيئون لمتردد فيغرونه بالجبن ، ولمتوقح فيغرونه بالكبر ، ولمتهافت على الشهوات فيغرونه بالفسق ، وهكذا . .

وعندما يوقف الكل للحساب ، يقول الشيطان لمن أغراهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾[2] .

والقانون ـ كما قيل ـ لايحمى المغفل ، فإذا زاغ بشر فهو المسئول عن نفسه ، ومايملك أحد إرغامه على عوج ، ولو استخدم مواهبه ما قدر أحد على الضحك منه .

قد تكون قصتنا على ظهر الأرض هى قصة أبينا آدم أيام الجنة! إنه لو ظل ذاكرًا فلم ينس ، قادرًا فلم يضعف لارتد سهم إبليس إلى نحره! ولكنه لم يكن عند حسن الظن ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾[3] .

والذين ينزلقون فى دنيانا وقع لهم ما وقع لخلل داخلى فيهم جعلهم يتجاوبون مع كيد الشيطان ، وينخدعون بكذبه ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[4] .

(١) الجن : ١١ ـ ١٥ . (٢) إبراهيم : ٢٢ . (٣) طه : ١١٥ . (٤) سبأ : ٢٠ ، ٢١ .

وعندما تقع رذيلة فلذة الشيطان منها الأز عليها وتزيينها ، ذلك كل ما يشتهى! أما الإنسان المجرم فلذته أكل حرام أو سرقة عرض أو ظلم ضعيف ، وما يحس مؤقتا بحلاوته لايحس الشيطان شيئًا منه ولا يرى لذة فيه ! . .

فرحة الشيطان أن يرى الإنسان ساقطا ذليلاً مغاضبا لربه ، ولذلك يقول الله لبنى آدم موبخا :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾[1] .

ويظهر أن للشياطين تخصصات شتى! كما يظهر أن بعضهم يلازم أنواعا من البشر ، ويقف نفسه على إغوائهم ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[2] .

وإذا كان للعصاة قرناؤهم ومضللوهم ، فإن الأقوياء ييأس الشيطان منهم ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾[3] .

ونترك عالم الجن وعلاقته بالإنسان إلى عالم آخر أنقى وأطيب . .

إن الإنس والجن جنسان مكلفان ممتحنان قادران على الخير والشر ، والذكر والنسيان ، من أجل ذلك يحصى الله عليهما نعمه ثم يقول :

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[4] ؟ . .

لكن هناك عالما آخر إرادته من إرادة الله ، وحياته وقف على إنفاذ مشيئته ، هو عالم الملائكة الذين يرنون دائمًا إلى أنوار الألوهية ويستغرقون فى أمجادها قال تعالى :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾[5] .

ووظائف الملائكة كثيرة ، وهم مع أبناء آدم من بدء تخلقه حتى يوارى فى التراب .

ففى الحديث عن ابن مسعود قال : قال رسول ﷺ : «**إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات، يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح**»!! . .

---

(1) الكهف : ٥٠ . (2) الزخرف : ٣٦ . (3) الحجر : ٤٢ .
(4) الرحمن : ١٦ . (5) الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ .

وإذا صح أن نسمى هؤلاء الموكلين بالأرحام ملائكة الحياة ، فهناك آخرون للوفاة ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

والمحيى المميت هو الله جل شأنه ، وهو الذى يلهم ملائكته ويقدرهم على فعل مايريد .

وقدرات الملائكة أعظم كثيرًا من قدرات الجن ، وإذا كان العفريت يستطيع أن يلمس السماء ، أو ينقل شيئًا من اليمن إلى فلسطين فى ساعة ، فإن الملائكة أوسع طاقة ، وفيهم من يستطيع تطويق أعتى المردة ، والهوى به إلى أسفل سافلين . .

والملائكة يتابعون حياة البشر ، ويسجلونها سواء كانت نية فى القلوب ، أو كسبا للجوارح ، ويعنى هذا بلا ريب رؤية عجيبة وصحوا تاما ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[2] .

وما يحتاج ربنا جل جلاله إلى من يعلمه أو يذكره ! ولكن النظام الذى وضعه لكونه ، أحصى فيه كل شىء من المخلوقات والأعمال ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[3] .

والملائكة الكرام الكاتبون لاينتهى لهم تسجيل ، ولا يقف لهم إحصاء ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[4]؟ .

والملائكة صديقة للمرء المؤمن تفرح بعبادته وتهش له ، وإذا دخل المسجد للصلاة حفت به ، وإذا جلس فى طاعة الله شرعت تدعو له : اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، وثبت أن لها نوبات فى صلاتى الفجر والعصر ، ثم تصعد إلى ربها تذكر له ماترى ، وهو أعلم به ، ولكنه النظام الذى وضعه سبحانه .

فى المحافل الجادة ، وفى مجالس الخير تكون الملائكة بلطفها ودعائها مع المؤمنين فربما قال أحدهم الكلمة يعينه عليها ملك كريم ، وربما صاغ القصيدة فى الدفاع عن الله ورسوله ، يؤيده فيها الروح القدس - كبير الملائكة . .

(١) السجدة : ١١ .
(٢) ق : ١٧ ، ١٨ .
(٣) يونس : ٦١ .
(٤) الرحمن : ٢٩ ، ٣٠ .

وفى الوقعات التى يصطرع فيها الحق والباطل ، ويبيع جند الله أنفسهم لنصرة دينه ، تتنزل الملائكة لتشجع وتلهم ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[1] فى هذا الحين تكون ملائكة أخرى لنزع أرواح الكفرة ، تتناولها باللطمات ظهر البطن ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[2] .

وهذا الكلام يحتاج إلى تفسير شامل ، فإن الملائكة لم تعمد إلى سكير فى حان لتدعو له وتلتمس له المغفرة ، بل دعت لامرئ يريد أن يتزكى ، سعى إلى المسجد ليؤدى حق الله ، وغالب أشغال العيش وأوقات اللهو ، ورجح عليها ذكر ربه فهو أهل لأن يصلى عليه الكرام الكاتبون . .

كذلك لم تعمد الملائكة إلى جبان فار من الميدان لتسأل له التثبيت والرضا ، وإنما دعت لرجل مؤمن هزم حب الحياة وآثر نصرة الله ، فهو جدير بالإيناس والبشرى! . .

والأصل فى هذا التفسير قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[3] . .

إن تنزل الملائكة كما يفيد ظاهر الآية فى أحوال الحياة كلها ، لا فى الرمق الأخير وحده كما يرى البعض . .

ويتضح ذلك عندما تعلم أن هذه الآية فى مقابلة ما نزل فى الغافلين المعوجين قبل ذلك مباشرة وهو قوله تعالى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾[4] .

فالأشرار تؤزهم الشياطين ، والأخيار تؤيدهم الملائكة ، والفريقان مسئولان برءوسهم عن نفوسهم ، فهم ذوو عقول ، ولهم إرادة حرة يحاسبون بها قبل أى شىء! . .

(١) الأنفال : ١٢ . (٢) الأنفال : ٥٠ . (٣) فصلت : ٣٠ . (٤) فصلت : ٢ .

٦٩. ما معنى أن لله تسعة وتسعين اسما وما مغزاها ؟

فى القرآن الكريم ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(١) . وفيه كذلك ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

المتأمل فى هذه الأسماء يجدها صفات علا ، ونعوت كمال وجلال وجمال . . والصفة تسمى اسما إذا دامت لصاحبها ولازمته فلم تنفك عنه كأنها أشبهت العلم الذى أطلق عليه وعرف به! . .

والأسماء الحسنى ـ بهذا المعنى ـ كثيرة ، لأن معالم العظمة الإلهية ليست لها نهاية ، وهى مبثوثة فى القرآن كما تنبث النجوم فى آفاق السماء ـ ولله المثل الأعلى ـ ويغلب أن تختم بها آيات ، ويختار الاسم ، أو الأسماء الخاتمة من السياق الذى جاءت به الآيات . . وسنشرح ذلك بعد حين . .

وجاء فى الحديث الصحيح «**إن لله تسعة وتسعين اسما، من حفظها دخل الجنة، إن الله وتر يحب الوتر**» . . وفى رواية «**من أحصاها دخل الجنة**» ، والمراد بالإحصاء ألا يقتصر فى معرفة الله ودعائه على بعض دون بعض ، بل يعيها كلها ، ويتعرف على الكمال الأعلى والعبودية الصحيحة من خلال مدارستها وإشراب القلب حقيقتها . .

وليس المقصود أن الأسماء الحسنى محصورة فى هذه التسعة والتسعين ، فهى أكثر من ذلك . .

والإسلام جاء لتصحيح أخطاء البشر فى فهم الذات الأقدس ، وتنزيهه عن أوهام القاصرين والجاهلين ، فإن الأديان الأرضية أثبتت للألوهية صورة مشوهة منكورة يرفضها أولو الألباب ، ويدركون أن مبدع هذا الملكوت أعلى منها وأجل . .

ثم جاء أهل الكتاب يتحدثون عن إله يتمدد واضعا يده تحت قفاه ، وواضعا قدما على أخرى!! إله ينسى ويندم ، ولا يدرى خطورة تصرفاته! . .

---

(١) طه : ٨ .   (٢) الأعراف : ١٨٠ .

وقد أمر المسلمون أن يتركوا أولئك الملحدين فى أسماء الله ، وأن يعبدوا الله بأسمائه الحسنى وحدها . .

وقارئ هذه الأسماء لايفهمها إلا إذا عرف الكون والحياة ، عرف هذه السماء المبنية ، والأرض المفروشة ، عرف قوافل الأحياء وهى تعبر عصرا بعد عصر فى طريقها إلى الدار الآخرة .

لايمكن أن تتم معرفة الله بمعزل عن ملكوته الكبير ، ومتابعة لقدره المحكم وهو يهزم وينصر ويضحك ويبكى ويخفض ويرفع ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[1] .

والعارف بالله من خلال إحصائه للأسماء الحسنى ، يعرف أن العالم كبير ، ولكن خالقه أكبر منه! وأن عقل الإنسان جهاز رائع ، ولكن مبدع الألوف المؤلفة من العقول المنتشرة فى القارات الموجودة من أزل الدنيا إلى أبدها ـ أروع وأوسع!

وماذا نقول؟ إن الحشرة المتحركة على الثرى لاتدرى : ما الإنسان ، وماذكاؤه؟ وما الكون ، وما أبعاده؟ إن الكلمة لاتدرى : ما كاتبها؟ فكيف نعرف نحن التافهين كنه الذات العليا ، وآماد عظمتها؟ . . .

إننا فى نطاق العبودية العاجزة نسبح بحمد الله ونتحدث عن مجده ، ونعلن بصدق ولاءنا له وفقرنا إليه . .

ولعلمائنا بعض التعليقات على الحديث الذى ذكر الأسماء التسعة والتسعين ، قالوا : الأسماء المتقابلة لاينبغى أن نذكرها مفردة ، واقفين عند المعنى الذى لانحب ، كالضار النافع ، والمعز المذل ، والقابض الباسط . .

فإن هذه الأسماء ذكرت بمعانيها المتضادة حتى يعلم البشر أنماينوبهم من خير وشر ليس بمعزل عن علم الله وتقديره! وله جل شأنه أن يختبر عباده بما يسوء ويسر . .

وعلى العبد أن يطلب كشف الضر ممن أرسله ، ويغلب أن يكون نصاب المرء من عند نفسه وأنه حرم اللطف بسبب ما اقترفه ، ومن ثم يطلب العفو والتجاوز .

ومن الأدب لذلك أن ينسب الخير لله ، وينسب الشر لنفسه ، وتأمل فى دعاء

---

(١) الرعد : ٢ .

الخليل : ﴿ الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذي هُوَ يُطْعِمُني ويَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[١] ولم يقل : أمرضنى .

وتوقف بعض العلماء عند اسم «المنتقم» ، ورده قائلا : لم يرد فى الكتاب أو السنن الصحاح .

والذى ورد فى آية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾[٢] .

والفارق كبير بين العبارتين ، إن الله لم يصف مكة بأنها قرية ظالمة عندما آذت المؤمنين قديمًا وإنما جاء فى الآية ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾[٣] ، وبين الوصفين تفاوت! . .

والأسماء الحسنى تقريب للعظمة الإلهية من العقل الإنسانى الكليل ، ومن مشاعر البشر المأنوسة ، وإلا فلا يعرف الله إلا الله ، أو كما وصف رسوله محمد ﷺ : «**سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»! . .

ومن الحقائق التاريخية أنه لايوجد إنسان أحسن تمجيد الله ، وإجلاله مثل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأنما عقد مسابقة بين أصحابه ليتنافسوا فى الثناء على الله ومدحه والتزلف إليه واللهج بمحامده! . .

عن بريدة رضى الله عنه ، سمع النبى ﷺ رجلا يقول : اللهم إنى أسالك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . . فقال : «**والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى**» . .

وعن أنس رضي الله عنه قال : دعا رجل فقال اللهم إنى أسالك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام ياحى ياقيوم . . فقال النبى : «**أتدرون بما دعا؟**» . . قالوا : الله ورسوله أعلم! . قال : «**والذى نفسى بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»!! . .

واسم الله الأعظم يبلغه العبد الذى ينبعث عن إخلاص عميق ، ودعاء حار ،

---

(١) الشعراء : ٧٨ ـ ٨٠ . (٢) آل عمران : ٤ . (٣) النساء : ٧٥ .

والذى يجتهد فى الثناء على الله بما يحفظ من صفاته وأمجاده . .

وعن أنس «بينما رسول الله ﷺ يصلى إذ جاءه رجل قد حفزه النفس ، أى يلهث وتتتابع أنفاسه . فقال : الله أكبر ، الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه! فلما قضى الرسول الصلاة قال : **أيكم المتكلم بالكلمات؟** فأرم القوم ـ أطرقوا سكوتا ـ فقال الرسول : **إنه لم يقل بأسا!** فقال الرجل : أنا يارسول الله ، فقال : «**لقد رأيت اثنى عشر ملكا يبتدرونها، أيهم يرفعها إلى الله**» .

وظاهر أن الصحابى القائل أنشأ الكلمة من بيانه! ولم يسبق إليها . .! إنها نضح الإيمان الذى تعلمه من نبيه فأطلق لسانه بهذا الثناء والتكبير .

ومعرفة الأسماء الحسنى ليست تصورًا نظريا للكمال الذى تومئ إليه ، إنها فى إحساس المؤمن لابد أن تختلط بشئون الحياة التى يحياها وتملى عليه السلوك الذى يلائمها . .

لاحظت أنه فى أوائل سورة الحديد قرابة خمسة وعشرين اسما ووصفا لله تعالى ، تتابع سردها على نحو يثير الفؤاد! .

ثم لاحظت كأن هذا كله كان تمهيدًا لتكاليف محددة من الإيمان والإنفاق والجهاد والهجرة بدأت بقوله تعالى :

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1] . .

إن إحصاء الأسماء الحسنى كما جاء فى الحديث الشريف هو إقامة الخلق والسلوك عليها . .

من أولى من الله أن نؤمن به؟ إنه الأول والآخر والظاهر والباطن! . .

من أولى من الله أن نرفع الصوت بتسبيحه وتكبيره؟ إنه الله الذى سبح له ما فى السموات والأرض . .

من أولى من الله أن ننفق فى سبيله ، إنه مانح المال فى الحياة ، ووارثه مع فناء الكون كله . .

من الذى يلجأ إليه الحائر ، ويستهدى به التائه؟ إنه النور ، الهادى! . .

من الذى ينقى له القلب وتخلص له النية؟ إنه العليم بذات الصدور .

---

(١) الحديد : ٧ .

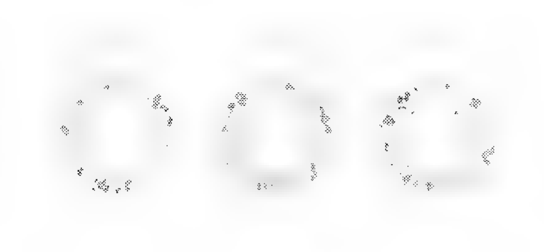
والبشر يتفاوتون فى هذه المعانى وآثارها ، ولذلك يقول الله للمؤمنين فى هذه السورة :

﴿ لا يَسْتَوِي منكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1] . .

ولما كان المسلمون قد جاءوا بعد اتباع أديان لم تحسن معرفة الله ، ولم تع أسماءه الحسنى ، فقد نبهوا إلى اليقظة ، ونبذ الغيبوبة التى طوت الأولين ، ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[2] .

والخشوع لذكر الله فى السياق الذى يملأ السورة كلها يقوم على أن الأسماء الحسنى لايمكن عزلها عن الكون والحياة ، فالإيمان بالله لايتم داخل صومعة معتمة ، لا ضوء بها ولا حراك ولا جهاد .

وربما لا يتحقق هنا الخشوع إلا فى ميدان عراك مع الملحدين فى أسماء الله ، الجاهلين بحقوق الخالق الكبير ، الذين يريدون أن تمضى الحياة بعيدة عن هداه ، محرومة من بركته وجداه .



---

(1) الحديد : ١٠ .

(2) الحديد : ١٦ .

٧٠. هل من شرح وجيز لأسماء الله الحسنى؟

الله اسم الذات ، المختص به جل شأنه ، لايتسمى به غيره ، فهو علم على المعبود بحق ، الذى تعنو له السموات والأرض وما بينها ، ونحن نرفض إطلاق اسم «وجود» أو «دييه» على الذات الأقدس فلفظ «الله» وحده هو العلم الحقيقى .

«**الرحمن**» و«**الرحيم**»: من أسماء الله الحسنى ، ومعنى الرحمة معروف ، والاسم الأول مختص كذلك بالله سبحانه فلا يوصف به غيره ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ**﴾(١) . وهذه الصيغة فى اللغة تعنى بلوغ الصفة تمامها أما الرحيم فالصيغة تعنى فيضان الوصف ليشمل الآخرين ، فالذات العليا ممتلئة بالرحمة ، وهذه الرحمة تعم الغير ، وتشمل كل شىء .

«**الملك**»: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾(٢) . ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾(٣) .

«**القدوس**»: المطهر من كل عيب ، المنزه عن كل نقص ، ومحور التسبيح يدور على هذا المعنى ، سبحانه وتعالى :

«**السلام**»: الذى لايجىء من قبله عدوان ، بل يرتقب الخير والرضا .

«**المؤمن**»: الذى يذهب القلق والخوف ويمنح الطمأنينة والأمان ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾(٤) .

«**المهيمن**»: الذى لايغيب عن سلطته شىء ، فهو يرقب ملكوته كله رقابة استيعاب وشهود .

«**العزيز**»: الغالب فلا يغلب ، والذى يجير ولا يجار عليه ، ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾(٥) .

---

(١) الإسراء : ١١٠ . (٢) مريم : ٩٣ . (٣) الرعد : ١٥ .
(٤) قريش : ٤ . (٥) غافر : ١٠ .

«**الجبار**»: العالى فوق الخلائق كلها ، وفارض قضائه وقدره على كل شىء ﴿ **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾[1] .

«**المتكبر**»: المتعالى على صفات الخلق لايتنزل إليها ، والتاء فى هذه الصيغة للانفراد والتخصص ، لا للتكلف ، من الكبرياء بمعنى العظمة التى هى حق الله ، ومن نازعه هذا الحق من جبابرة الأرض قصمه .

«**البارئ**»: الخالق ويغلب أن تستعمل الكلمة فى إيجاد الأحياء ، فيقال : بارئ النسم أى الأرواح . .

«**المصور**»: منشئ الخلق على صور شتى ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾[2] . وقلما تتفق ملامح الوجوه ، مع كثرة الناس ، ويكاد يستحيل اتفاق بصمات الأصابع ، وهو سبحانه مصور خطوطهما . .

«**الخالق**»: موجد الكون من عدم ، ولا يقدر أحد على الإيجاد من عدم ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ** ﴾[3] .

«**الغفار**»: الذى يتجدد غفرانه لعباده مع تجدد عصيانهم له ، وأصل الغفر الستر والتغطية ثم العفو ! . .

«**القهار**»: الذى تنفذ إرادته دون اعتراض! فيستحيل أن يردها بشر أو ملك ، وهو معطى الكواكب أحجامها ومعطى الرسل أقدارها ومكانتها ، وإذا منح أو منع لم يجرؤ على رد مشيئته أحد ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾[4] .

«**الوهاب**»: صاحب العطايا الجزيلة ، تفضلا منه على من شاء ﴿ **إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[5] . .

«**الرزاق**»: الذى يطعم ولا يطعم ، ويسوق لكل حى ما يفتقر إليه ، ويفعل ذلك عن سعة واقتدار ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾[6] . .

---

(١) الأعراف : ٥٤ . (٢) آل عمران : ٦ . (٣) النحل : ١٧ .
(٤) الأنعام : ١٧ ، ١٨ . (٥) آل عمران : ٧٣ . (٦) الذاريات : ٥٨ .

«الفتاح» : الذى يفتح أبواب الخير المادى والأدبى من رزق أو علم ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾(١) . .

«**القابض الباسط**»: هذه الصفات المتقابلة تشير إلى أفعال الله بين الناس حسب حكمته وإرادته ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٢) ، وليس هناك من يقترح أو يتدخل أو يعترض أو يعقب بل الله هو القابض الباسط وفق ما يعلم من خلقه ويشاء لهم .

ومثل ذلك «**الخافض الرافع**» و «**المعز المذل**» وآثار هذه الأسماء بين الناس تحتاج إلى إيضاح ، إن المرء بفطرته يكره الذل والخفض ، ويحب العز والرفع ، فإذا اشتهى ما يحب فعلى باب الله يجب أن يقف داعيًا ، وإذا استعاذ مما يكره فعلى باب الله يجب أن يقف لاجئًا مستعيذًا! . .

وهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير ، ما يستعير شيئًا من أحد! ، وهل معه أحد؟؟ . .

لكن الكثيرين من الناس لا يعرفون ما العز؟ وما الذل؟ إن ملوك الآخرة عاشوا سوقة فى الدنيا ما يأبه بهم أحد ، وإن حطب جهنم ربما عاشوا فى الدنيا فراعنة يستعرضون الجيوش ، ويسيرون المواكب! حتى تجيء الآخرة فتصحح الأوضاع المقلوبة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾(٣) وفى الحديث «**رب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة**»! وفى الحديث كذلك «**رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره**» .

فإذا ذكرت هذه الأسماء الحسنى وما شابهها ففى ضوء هذه المعانى ينبغى أن تفهم . .

وثم ضميمة أخرى ، إن الله إذا أعز فلا ذل أبدا ، وإذا أذل فلا عز أبدا ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(٤) .

---

(١) فاطر : ٢ .
(٢) العنكبوت : ٦٢ .
(٣) الواقعة : ١ ـ ٣ .
(٤) آل عمران : ١٦٠ .

وكل صوت تهمس به فى أذن صاحبك فالله سامعه! وكل حركة فوق الثرى فالله رائيها! . وعندما شعر موسى بالخوف لما بعث هو وأخوه إلى فرعون ، وقالا : ﴿ **قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾[١] .

فالله هو السميع البصير ومن أسمائه الحسنى «**الحكم**» . . «**العدل**» إنه المشرع الأعظم ، فلا حاكم غيره ولا معقب لحكمه ولا يلتمس العدل عند غيره إلا أحمق ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا** ﴾[٢] .

وهو يحكم بين عباده بما يشاء فى الدنيا والآخرة ، وقد يؤخر حكمه فى أمور تقع بين الناس الآن ليبت فيها يوم الفصل ، والدنيا دار اختبار ، وقد يكون من لوازم الاختبار أن يترك الناس على نظامهم إلى حين ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾[٣] .

ومن أسمائه الحسنى «**اللطيف**» إنه يبلغ أمره بخطة رائعة وحكمة بالغة ، وقد شعر بذلك يوسف فى نهاية قصته فقال : ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾[٤] كما أنه فى سننه الكونية يقدر بلطافته على استخراج الحبوب والرياحين من بين الماء والطين ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾[٥] .

«**الخبير**»: العارف بالبواطن والأسرار .

«**الحليم**»: بعيد الأناة فى معاملة المخطئين فلا يعاجلهم بالعقوبة ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾[٦] .

«**العظيم**»: إن علماء الكون يشعرون بضآلة أمام أبعاده وأغواره! فكيف يكون الشعور أمام من أبرزه من عدم ، وبنى فأوسع؟ . .

«**الغفور**»: للمسيء «**الشكور**» للمحسن «**العلى**» فوق الخلائق كافة سبحان ربنا الأعلى .

---

(١) طه : ٤٥ ، ٤٦ . (٢) الأنعام : ١١٤ . (٣) الأنعام : ٦٢ .
(٤) يوسف : ١٠٠ . (٥) الحج : ٦٣ . (٦) النحل : ٦١ .

«**الكبير**»: المنصف بجلال الشأن ، وعظمة الذات والكلمة مأخوذة من الكبر ، ومنها الهتاف المتكرر فى الآذان بالغدو والآصال : الله أكبر ، فما عدا الله موصوف بالصغر وملوك الأرض وجبابرتها موصوفون أمامه بالصغار . .

«**الحفيظ**»: الذى لاتضيع عنده الودائع «**المقيت**» القيم على الأحياء يوفر لهم أقواتهم فيغذيهم صغارًا وكبارًا .

«**الحسيب**»: الذى يكفى من أوى إليه وتوكل عليه ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾[1] ومن ذلك التعبير المحفوظ : حسبنا الله .

«**الجليل**»: من الجلال أو الجلالة وهو العلو المقرون بالمهابة «**الكريم**» يده تسخو بالعطاء ليلا ونهارًا من بدء الخلق وما دام الخلق «**الرقيب**» من الرقابة وهى النظر إلى الأشياء بدقة وإحاطة .

«**المجيب**»: قابل الدعاء والرجاء ممن قصده ﴿ **وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾[2] .

«**الواسع**» الذى وسعت رحمته كل شىء ، ووسع غناه كل فقير«**الحكيم**» الذى لايقع فى فعله عبث ولا فى وحيه عوج ، ولا فى خلقه تفاوت «**الودود**» الذى يتقرب إلى عباده بالنعمة والتجاوز مع غناه عنهم ، وحاجتهم إليه «**المجيد**» المجد تمام الشرف ، والله أهل الثناء والمجد وأمجاد الألوهية تعنو لها الخلائق كافة «**الباعث**» محيى الموتى ليوم النشور .

«**الشهيد**»: الذى لايغيب عنه شىء ﴿ **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** ﴾[3] ﴿ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[4] .

«**الحق**»: الوجود الإلهى واقع لايزول ولا يحول ، وكل كائن يأخذ وجوده من الله عارية تسترد يومًا (**ألا كل شىء ما خلا الله باطل**)!! . .

«**الوكيل**»: الذى نفوض إليه أمورنا فيقوم بها عنا ، وله القدرة على كفالة أرزاقنا ، وإنجاح سعينا ، ومن ثم يجب التوكل عليه .

«**القوى**»: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** ﴾[5] .

---

(١) الزمر : ٣٦ . (٢) الشورى : ٢٦ . (٣) الأعراف : ٧ .
(٤) البروج : ٩ . (٥) فاطر : ٤٤ .

«**المتين**»: الذى لايلحق قدرته إعياء .

«**الولى**»: الذى يتولى أمور الكون ، ويقوم بها كما يقوم ولى اليتيم القاصر بشئونه كلها ، ولله المثل الأعلى .

«**الحميد**»: كل أفعاله جديرة بالحمد ، والحمد معنى يمتزج فيه المدح والشكر والتمجيد .

«**المحصى**»: فى سجلاته إحصاء لكل شىء ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴾[1] .

«**المبدئ**»: خالق الأشياء لأول مرة و «**المعيد**» الذى يرد إليها وجودها بعد إفنائها ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾[2] .

«**المحيى المميت**»: الذى خلق الموت والحياة ، وأخضع لهما الكائنات ، أما هو فإنه «**الحى**» بذاته وهو «**القيوم**» لاتقوم الأشياء إلا به ، ولو سلبها وجودها لتلاشت ، فتيار الوجود يجيئها مددا بعد مدد من الحى القيوم ، فمنه الإيجاد والإمداد جميعًا . .

«**الواجد**»: من الجدة وهى الثروة ، وأملاك الله لاتعد ، لأن كل شىء ملكه «**الماجد**» كالمجيد «**الواحد**» المنقطع القرين لاشريك له ولاندَّ ولاضد ، «**الأحد**» مثله ، وأساسه الانفراد والوحدة عن الأصحاب «**الصمد**» هو السيد المقصود عنه كل سؤال «**القادر**» و «**المقتدر**» المعنى واضح والتكرار زيادة فى نفى العجز ، فإن جهلة البشر تتعاظم عندهم أمور هى عند الله بين الكاف والنون . .

«**المقدم**» و «**المؤخر**»: الله ـ تبارك اسمه ـ يرتب الأشخاص والأشياء وفق مشيئته وحكمته ، وهو يتفضل دون مساءلة ! ولكنه منزه عن الظلم وفى الحديث : «**أنت المؤخر، لا إله إلا أنت**» . .

«**الأول**»: السابق فليس قبله شىء «**الآخر**» الباقى فليس بعده شىء «**الظاهر**» المستعلى فليس فوقه شىء «**الباطن**» المحتجب عن الأبصار ، فليس دونه شىء! . .

«**الولى**»: المتصرف فى ملكوته لا ينازعه أحد «**المتعالى**» المنزه عن أوصاف الخلق وعما لايليق بكماله ، ﴿ **وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا** ﴾[3] . ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا** ﴾[4] .

(١) القمر : ٥٣ . (٢) الأنبياء : ١٠٤ . (٣) الجن : ٣ . (٤) الإسراء : ٤٣ .

«**البر**»: مصدر البر والحنان وكل مايتعاطف له الناس . «**التواب**» ملهم عباده ترك الإثم ، والندم عليه والاعتذار إلى ربهم عنه «**المنتقم**» المقصود أنه بالمرصاد للمجرمين يقمع غرورهم ، ويؤدبهم على طغواهم! «**العفو**» يصفح عمن أساء ، والعفو أحب إليه من القصاص ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾(١) .

«**الرءوف**»: الرأفة رقة تجعل المرء يخفف فى التكليف ، ويؤثر التجاوز عند الخطأ ، ولله المثل الأعلى ، وهو يكلف فى حدود الطاقة ويقدم الصفح على المؤاخذة ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾(٢) . ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٣) .

«**ذو الجلال والإكرام**»: صفات الجلال تورث الخشية والرهبة ، وصفات الجمال ـ وأساسها الإكرام ـ تورث الحب والرغبة ، وجاء فى الحديث : «**انطقوا بيا ذا الجلال والإكرام**» أى ألحوا على الله بهذا الاسم .

«**مالك الملك**»: كل شىء خلقه وعبده ، لاشريك له! «المقسط» العادل ، «الجامع» الذى يحشر الخلائق للحساب ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ** ﴾(٤) .

«**المانع**»: يحمى أولياءه ويدفع عنهم وينصرهم «**الغنى**» المعنى واضح . «المغنى واهب الغنى النفسى والمادى» .

«**الضار النافع**»: ماتراه من سرور وحزن ، ونعمة ونقمة ، ونصر وهزيمة فمن الله وحده . ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴾(٥) يختبر الله عباده بالأضداد .

«**النور**»: الذى يبصر بنوره ذوو العماية ، ويرشد بهداه ذوو الغواية ، وهو فالق الإصباح ومضىء الآفاق! .

«**الهادى**»: المنقذ من الحيرة ، ومثبت المؤمنين على الحق . (البديع) الإبداع اختراع ماليس له مثال ، والكون صنع الله الذى لم يصنع من قبل مثله .

---

(١) الشورى : ٢٥ . (٢) النساء : ٢٨ . (٣) الحج : ٦٥ .
(٤) آل عمران : ٩ . (٥) النجم : ٤٣ ، ٤٤ .

«**الباقى**»: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾[1] .

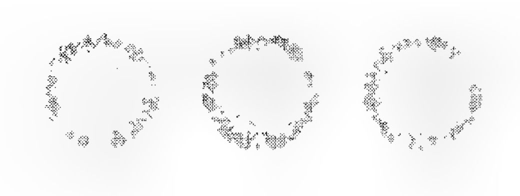
«**الوارث**»: الذى يؤول الوجود إليه . .

«**الرشيد**»: مرشد الناس إلى مصالحهم فى معاشهم ومعادهم .

«**الصبور**»: الذى يرى من عباده القبيح فلا يسارع بالفضيحة ، ويسمع منهم السوء فلا يعاجل بالعقوبة ، فهذا الاسم كاسمه .

«**الحليم**»:غير أن قد يطول لطفه ، ويرجى صفحه . أما الصبور فينبغى القلق من إمهاله!! . .

ويمكن أن يطالع القارئ فى شرح الأسماء الحسنى بتوسع وبصيرة كتاب أبى حامد الغزالى «المقصد الأسنى» ففيه إن شاء الله ما ينفع .



(١) القصص : ٨٨ .

٧١. طائفة من العباد يجتمعون على ذكر الله بأسمائه الحسنى كلها أو بعضها، وقد يتمايلون أو يهتزون، فما حكم هذه العبادة؟

هذه بدعة قديمة استحدثها بعض أصحاب المشاعر المضطربة ، وقد سماها بعض الصحافيين الأجانب «الرقص الديني» وهي تسمية يحس المسلم بالخزى إذا سمعها ، لأنها تجعل الإسلام أشبه بالعبادات التى يمارسها الزنوج فى إفريقية وهذه فتنة مزعجة ، وإهانة شديدة للإسلام . .

والغريب هو ظهورها من قديم! فقد سئل الحسن البصرى عن هذه المجالس فنهى عنها أشد النهى! وقال : لم يكن ذلك من عمل الصحابة ولا التابعين ، وكل مالم يكن من عمل الصحابة ولا التابعين فليس من الدين - يقصد فى شئون العبادات - وقد كان السلف حراصا على الخير وقافين عند حدود الله ، وكانوا أحرص على الخير من هؤلاء ، فنعلم أن ماتركوه ليس من الدين وقد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] .

قال مالك بن أنس تعقيبا على كلام الحسن : «**فما لم يكن يومئذ دينا لن يكون اليوم دينا، وإنما يعبد الله بما شرع، وهذا التجمع بالذكر والتمايل فيه لم يشرع قط فلا يصح أن يعبد الله به**»..

وحكى عياض عن التنيسى قال : كنا عند مالك وأصحابه حوله ، فجاء رجل من أهل «نصيبين» يقول : يا أبا عبدالله عندنا قوم من الصوفية يأكلون كثيرًا ، ثم يأخذون فى إنشاد القصائد ، ثم يقومون فيرقصون! فقال مالك : أصبيان هم؟ قال : لا! قال : أمجانين هم؟ قال لا ، قوم مشايخ يذكرون الله! قال مالك : ماسمعت أحدا من أهل الإسلام يفعل هذا؟ . .

---

(١) المائدة : ٣ .

وقال أبو إسحاق الشاطبى : إن الاجتماع على ذكر الله بصوت واحد من البدع المحدثة التى لم تكن فى زمان رسول الله ﷺ ، ولا فى عصر السلف ، ولا عرفت قط فى شريعة محمد وفى الحديث الصحيح «**إنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**» . .

الواقع أن هذا المسلك انحراف دينى مرفوض ، ونحن هنا نتساءل : ما الذى حمل عليه ، ودفع جماعة من العابدين إليه؟ . لابد من تحديد السبب لإمكان الدواء . .

إن الفقير قد يلزم طعامًا واحدًا لأنه لايجد غيره ، ولو كان موسعا لنوَّع وكثَّر!

وخطيب الأرياف الذى لايحفظ إلا خطبة واحدة لايجد بدا من تكرارها! ماذا يصنع؟ ذلك مبلغه من العلم! . وهكذا . .

والأمة الإسلامية حبست نفسها ، أو حبستها ظروف سيئة فى حملة من العبادات لاتتجاوزها ، فإذا اتسع وقتها ، وشاقتها الطاعة كررت ماتعرف ، فضمت إلى صلاة الفريضة مثلا صلاة نافلة ، فإذا اتسع الوقت أكثر تنفلت أكثر!

وربما عَنَّ للبعض أن يخترع من عند نفسه عبادات لا أصل لها ، ليزداد بها قربى إلى الله . .

ونسأل مرة أخرى : لماذا انفتح باب الاختراع فى الدين ، وهو شر؟ ولم ينفتح باب الاختراع فى الدنيا وهو الخير؟ . .

ولماذا كرر الأتقياء الصلوات ، والصيام ، والذكر والاستغفار ، وزادوا أرصدتهم من النوافل هنا ، على حين قلت أو صغرت الأرصدة فى ميادين الأمر والنهى والجهاد المدنى والعسكرى ، والاحتراف والتطواف بالبر والبحر ، ومسابقة الأمم فى تنمية النشاط العمرانى وتطويعه لدعم الحق ومساندة الخير؟

الحق المر أن الفساد السياسى من وراء هذه البلبلة الفكرية ، فإن الرجل التقى قد يحاول مرضاة الله بكلمة صادقة صريحة ، فإذا هو يدفع رأسه ثمنها!! وقد يؤثل لنفسه وبنيه مالا! فإذا مصادرة جائرة تجتاح كل ماجمع! وقد يبرز فى ميدان ثقافى أو أدبى أو صناعى فإذا هو يساوم : أيعطى ولاءه للحاكم الفذ ، أم يختفى؟ أما الحياد فلا!! . .

الفرار من هذا البلاء أولى ولو إلى مجالس ذكر تبتدع! أو خلوات قصية تقصد ، ويعتزل بها المجتمع!

لقد كان المهندس «سنمار» ماهرًا فى فن البناء ، فلمّا أبدع قصرًا لأحد شيوخ القبائل كى يتطاول فيه ، رأى الشيخ الكبير أن سنمار قد يبنى مثله لغيره!

فيشاركه العظمة ، فماذا يصنع؟ ألقى بسنمار من سطح القصر ، ليبقى القصر وحيدا للرجل الوحيد! .

إن جنون العظمة لايقف عند حد ، وهو قمين إذا استبد أن يهلك الدين والدنيا معًا . .

واعتقادى أن الفساد السياسى من وراء انهيار الأمة الإسلامية ، وضياعها دنيا ودينًا .

لقد بقيت صور العبادات الشخصية ، بل زاد حجم هذه العبادات بالبدع التى اخترعها أهل البطالة وأقبل عليها الرعاع ، يتمايلون ويتراقصون . . أما العبادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وسائر الأنشطة الحضارية ، فقد اعتلت ، ثم توقفت ، فلما جاء العصر الأخير كنا فى ذيل العالم نترنح ، أما الحكام الأكارم ففى ظل ممدود وماء مسكوب . .

وهمس فى أذنى رجل صالح ، قال : دعنى من سخريتك هذه! وسأقرأ عليك صفحة فيها خير كثير . . قلت : اقرأ فأنا إلى خير الله فقير!

قال : كتب محمد المواق وفقه الله : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، قال الله سبحانه وتعالى لسيد خلقه : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) وأنا ـ أيها الإنسان ـ قد ضاق صدرى بما يقول الناس ، لكن قال تاج الدين : متى توجه الناس بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لايقنعك علمه ، فعدم قناعتك بعلم الله أعظم من وجود الأذى منهم .

وأنا ـ أيها الإنسان ـ بالنسبة إلى مابينى وبين ربى غير راض ـ والله ـ عن نفسى! والله ما أرضى حياتى لمماتى! ولا نفسى لربى! فلا صواب لى أن أعتب على الناس!! . .

وأما بالنسبة إلى ماينقم الناس منى ، فما ندمت على ما كتبت ، ولا أستغفر الله منه!! . ولا أقدم اعتذارًا للناس على قول أرضيت به ربى! .

اللهم أغننى برحمتك عن بركاتهم . اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ؛ أنت كما أثنيت على نفسك .

اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكنفنى بركنك الذى لا يرام ، وارحمنى بقدرتك علىَّ ، أنت ثقتى ورجائى! . .

فكم من نعمة أنعمت بها علىَّ قل لك بها شكرى! . .

وكم من بلية ابتليتنى بها قل لك عندها صبرى! . .

فيامن قلَّ عند نعمته شكرى فلم يحرمنى ، ويامن قلَّ عند ابتلائه صبرى فلم يخذلنى ، ويا من رآنى على المعاصى فلم يفضحنى! أسألك اللهم أن تصلى على محمد وآله ، وأن تعيننى على دينى بدنياى وعلى آخرتى بالتقوى . .

واحفظنى فيما غبت عنه ، ولا تكلنى إلى نفسى فيما حضرته . .

يامن لاتضره الذنوب ، ولاتنقصه المغفرة ، هب لى ما لا ينقصك ، واغفر لى ما لايضرك! . .

يا إلهى أسألك فرجا قريبًا وصبرًا جميلا ، وأسألك العاقبة من كل بلية ، وأسألك الشكر على العافية ، وأسألك دوام العافية ، وأسألك الغنى عن الناس ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . .

إن هذا الدعاء نقلنى من حال إلى حال ، وشعرت بأن الرجل ينطق بلسانى ويترجم عن جنانى ، وغالبت أنينا دار فى فؤادى ، وفاضت به عيناى! . .

إن الذكر ليس صياح فم ، وإنما هو خشوع قلب ، واستكانة عبد إلى سيده ، وعمله له دون مَنٍّ أو خيلاء! ﴿ **بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[1] .

وعدت إلى نفسى أفكر فى الطرق الصوفية! ما أشك أن للعوام حماقات مرفوضة ، وأن حلقات الذكر التى تجمعهم بدع سيئة ، بل إن لخواصهم كلمات يعاقب عليها ، ولايصدقها عقل أو نقل . . لكن أيضًا لبعض العلماء الرسميين ، قلوب مغلقة ودنيا مؤثرة ، وطباع تنبعث عنها روائح منكرة . . فهل يضيع الدين بين هذه المتناقضات؟ . .

لماذا تكون لبعض المخلصين جهالات مردودة؟ ولبعض المتفقهين مقاصد مغشوشة؟ لماذا لايصطلح العقل والقلب ، أو العلم والتربية ، أو الذكاء والإخلاص ، فيصلح الإنسان بجوانبه كلها؟ . .

---

(١) الحجرات : ١٧ .

عندما أقرأ فى بعض كتب التصوف يتملكنى الشعور بأن مسافرًا ترك عمله ، ومصدر رزقه إلى بلد ناء يستجم فيه ، ويتخلص من قيود الواجبات وعناء التكاليف! هل هذه النشوة العاطفية هى الصورة الكاملة أو الصحيحة للحياة كلها؟ . .

بل السؤال الأول ، هل هذا الانقسام موجود فى مفهوم الدين عندما تقرأ القرآن الكريم أو عندما تطالع السيرة ، وكتب السنة؟ لا ، لا انقسام ولا تفاوت ، فالنية شرط لكل عمل مقبول وذكر الله إطار لابد منه حتى يستحق العمل الاحترام والثواب! . .

ويخالط هذا الذكر كل شئون الحياة بدءا من عمل الفلاح فى حقله إلى عمل الحاكم فى ديوانه ، وتسأل : ما هذا الذكر؟ وأجيب : ماصنعه عمر بن الخطاب عندما خطب الناس يومًا فذكر لهم تفاهة حرفته صدر حياته وكيف كان أجيرا لايؤبه له! فلما نزل من المنبر قال له عبد الرحمن بن عوف : مازدت على أن هجوت نفسك! فقال عمر : ذاك ماقصدت! إن نفسى تطاولت فأحببت أن أقمعها . .

هذا حاكم يفهم بعمق معنى قوله سبحانه ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[1] . . إنه سياسى كبير يحمل فؤاد عابد كسير ، إنه لن يتفرعن يوما وهو يحمل بين حناياه هذا القلب! . .

(١) القصص : ٨٣ .

٧٢. لماذا أوصى الإسلام بصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة؟

الصلاة جزء من النشاط الإسلامى فوق كل أرض يعمرها الإسلام ، والمسجد هو السمة الأولى للحضارة الإسلامية فى كل قرية أو مدينة .

وعندما ينجح المؤمنون فى إقامة مجتمعهم بعيدًا عن إذلال الفتانين وعماية الكافرين ، فإن أول عمل يفكرون فيه ويبادرون إليه هو إقام الصلاة ، استجابة للآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[1] .

وقد حاول البعض أن يدخل فى الإسلام متخففًا من الصلاة ، فأبى الرسول إباء جازمًا وهو يقول : «**لا خير فى دين بلا صلاة..**» .

ونبه القرآن الكريم إلى أن المدنيات التى تفسخت وبادت هى تلك المدنيات التى جفت فيها ينابيع الروحانية ، وهيمنت عليها الشهوات المادية ، وانقطعت بالله صلتها ، فقطع عنها بركته! . .

قال تعالى فى وصف هذه الأجيال المنحلة :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[2] .

إن ارتباط العفة والاعتدال بالصلاة مفهوم ، واشتداد السعار الحيوانى مع البعد عن الله واقع ، ولن تكسب الحضارات المغرقة فى المادة إلا الصراع على الوهم والهلاك وراء سراب يلمع ولا غوث فيه! . .

وقد أوصى الإسلام بالانطلاق إلى المسجد خمس مرات كل يوم ، وحافظ المسلمون على ذلك حتى قال ابن مسعود : «لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا

(١) الحج : ٤١ .   (٢) مريم : ٥٩ .

منافق قد علم نفاقه أو مريض وقال : إن رسول الله علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه» .

ويظهر أن أعداء الإسلام على عهد الوحى غاظهم هذا المنظر المهيب المتكرر بالغدو والآصال ، منظر المسلمين وهم يجيئون من أطراف المدينة ليصلوا وراء نبيهم ، ما تنفض لهم جماعة حتى تقوم أخرى ، ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾[1] .

فماذا يصنعون؟ أخذوا ينفسون عن ضغائنهم بالغمز واللمز ، وربما تضاحكوا ، وعقدوا المجالس عند سماع الأذان ، وقيام الجماعات ليرسلوا التعليقات الساخرة! وهذا مسلك شرير يمكن تركه! . .

ونزل الوحى يطالب المؤمنين أن يقاطعوا هؤلاء العابثين ، وأن يتجهموا لهم ، وهذا أقل مايمكن عمله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ** ﴾[2] .

ما الذى جمع اليهود ، وعبدة الأصنام ، والمنافقين على التندر بالدين الجديد والنيل من شعائره؟ إنما الإيغال فى الكفر والتحدى!

وكره النبى ﷺ أن يقابل الإسلام بهذا المجون ، وأن تنال شعائره بهذا العبث ، وأن يجد المنافقون ظهيرًا لهم من بين الكفار يساعدهم على النيل من المسلمين بهذا الأسلوب الدنىء ، فأرسل هذا التحذير الذى بلغ صداه القوم فأقض مضاجعهم ، قال : «**لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً يصلى بالناس، ثم أنطلق معى رجال معهم حزب من حطب إلى قوم لايشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم**» .

وكانت أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر! . . ولا ريب أنهم المعنيون بالتهديد السابق! فإن اليهود والنصارى لا يكلفون بصلاة! . .

---

(١) النساء : ١٠٣ .

(٢) المائدة : ٥٧ ، ٥٨ .

وليس معنى الحديث أن تجميع الناس للصلاة يتم بالتهديد ، فذاك مستحيل لأن جمهرة المؤمنين كانوا ابتغاء وجه الله يهرعون إلى المسجد كلما سمعوا النداء ، وكان أملهم ادخار الأجر العظيم عند الله . قال ابن مسعود : «إن كان المريض ليمشى بين الرجلين ـ يحملانه لمرضه ـ حتى يأتى الصلاة ، وكان أبعد الناس ممشى يحتسب خطاه عند الله ، ويحرص على الانتظام فى الصفوف» . .

لكن من حق المؤمنين عند إقام الصلاة فى الجماعات العامة ، ألا تنتظم جماعات أخرى للعبث ، وألا تنعقد مجالس لجد أو هزل ، وألا تقام أسواق للشغب . .

وقد لاحظ الناس عند عقد اجتماعات الهدنة بين المصريين واليهود أن اليهود كانوا يتحرون أيام الجمعة للمفاوضات وكأنهم يريدون عمدا انتهاك وقت الجمعة ، وإضاعة شعائرها!!

وتهديد الساخرين والماجنين بالتحريق عليهم ترك أثره ، ولم يؤثر قط عن النبى الكريم ، أو أيام الخلافة الراشدة ، أن وقع شىء من ذلك ، وقد شرحنا ملابسات هذا التهديد كما جاءت فى الكتاب العزيز ، فلا مجال للاستحقاق ، والقول بأن الإسلام يأمر بإحراق المتخلفين عن الصلاة!! . .

عن أم الدرداء قالت : دخل علىَّ أبو الدرداء وهو مغضب! فقلت : ما أغضبك؟ قال : والله ما أعرف من أمر أمة محمد ﷺ شيئًا إلا أنهم يصلون جميعا . .

وعن أنس ، قال رسول الله ﷺ : «**إنى لأدخل فى الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى ـ أخففها ـ لما أعلم من وجد أمه من بكائه**»! .

وعن أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم ـ من صلاته يمكث فى مكانه يسيرا ، فنرى والله أعلم أن مكثه لكى ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**» وظاهر أن الوصف بالشر لمن يحاول من الجنسين أن يقترب من الآخر! أما من لايجول بخاطره شىء يريب فلا يلحقه إثم ، والمراد توفير جو الطهر والتقوى فى المسجد .

وهذه الآثار المتتابعة قليل من كثير من السنن الدالة على أن المسجد كان يستقبل الأمة كلها ، وإن إقصاء النساء عنه لم يعرف فى سلف الأمة ، بل كانت روحانية المسجد وثقافته تسريان على امتداد الشوارع وداخل البيوت . .

وإذا كانت الجماعة للصلوات الخمس سنة مؤكدة ، فإن حضور الجمعة فرض عين على كل مسلم قادر . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(1) .

وعن عبدالله بن عمرو ، قال رسول الله ﷺ : «**يحضر الجمعة ثلاثة نفر: فرجل حضرها يلغو، وهو حظه منها!! ورجل حضرها يدعو، فهو رجل دعا الله إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً، فهى كفارة له إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام، إن الله تعالى** يقول :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾(2) .

وقال على بن أبى طالب وهو يخطب على منبر الكوفة ـ إذا كان يوم الجمعة : غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق ، فيرمون الناس بالربائث ـ الربيثة ما يعوق المرء عن عمله ويصرفه عن واجبه ـ ويثبطونهم عن الجمعة! وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المسجد يكتبون الرجل من ساعة والرجل من ساعتين! حتى يخرج الإمام . . فإذا جلس الرجل مجلسًا يستمكن فيه من الاستماع والنظر ، فأنصت ولم يلغ كان له كفلان من الأجر! فإن نأى وجلس حيث لايسمع فأنصت ولم يلغ كان له كفل من أجره! وإن جلس مجلسا يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغا ولم ينصت كان عليه كفلان من وزر . فإن جلس مجلسا لايستمكن فيه من الاستماع والنظر ، فلغا ولم ينصت ، كان عليه كفل من وزر ، ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : صه! فقد لغا ، ومن لغا فليس له فى جمعته تلك شىء! .

ثم قال فى آخره : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك .

والجمعة شعيرة ترجح أعظم أجهزة الدعاية التى وصل إليها العالم ، وإذا كان المسلمون الآن ألف مليون نسمة ، فمفروض أن تلقى بينهم خطب بين المليون

---

(1) الجمعة : ٩ .　　(2) الأنعام : ١٦٠ .

والمليونين كل أسبوع! يقوم رجل موجه فيتحدث باسم الله إلى عباده ، يقول مالديه ، والمصلون صامتون يصغون لما يقال ، لايتشاغل عنه أحد ، ولاينصرف من مكانه حتى يسمع الخطبة كلها ويؤدى الصلاة !! .

إن أمة هذه نظمها ينبغى أن تتوحد صيغتها ووجهتها ، وأن يرقى مستواها الفكرى والعاطفى ، وأن تغالب أسباب التفكك والفرقة . .

وأكره أن تكون الخطبة تحرشا شخصيّاً ، أو تهجمًا سياسيّاً ، أو تعليقًا مقصورًا على الأحداث العابرة ، فإن المساجد لم تبن لشىء من هذا ، وتشريع الخطبة كما جاء فى القرآن الكريم :

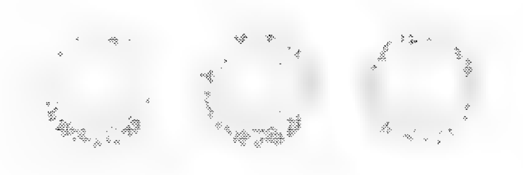
﴿ **فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾(1) . .

والذكر المقصود ربط الناس بربهم من خلال النظر فى آفاق الكون وشئون الناس على نحو ماوضح القرآن الكريم :

﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾(2) .

وتطويل الخطبة غير سائغ ولا مشروع ، فعن أبى وائل قال : خطبنا عمار بن ياسر فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت ، فلو كنت تنفست ـ أطلت! فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه!ـ علامة ـ فأقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة**» .

وكانت أكثر خطب رسول الله من القرآن الكريم ، ولذلك لم تحفظ عنه خطب من كلامه عليه الصلاة والسلام ، إلا على ندرة . . وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت «ما أخذت ق والقرآن المجيد ـ حفظتها ـ إلا من لسان رسول الله ﷺ يوم الجمعة يقرأ بها على المنبر فى كل جمعة» كانت قد شهدتها . . والمفروض أن خطبة الجمعة نحو خمسمائة مرة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام . .



(1) الجمعة : 9 .　(2) فصلت : 53 .

٧٣. ماذا تقترحون لرفع مستوى الخطبة ودعم رسالة المسجد ؟

المسجد قلب المجتمع الإسلامى ، وملتقى المؤمنين بالغدو والآصال لأداء حقوق الله ، واستلهام الرشد ، واستمداد العون منه جل شأنه .

وهو مصدر طاقة عاطفية وفكرية بعيدة المدى خصوصًا أيام الجمع عندما تنصت جماهير المصلين فى سكينة وخشوع «للإمام» وهو يشرح لهم تعاليم الإسلام ويبين لهم حدود الله ، ويفقههم على ما فى الكتاب والسنة من عظات وآداب .

إن خطبة الجمعة من شعائر الإسلام الكبرى ، ومعانيها تنساب إلى النفوس من لحظات انعطاف إلى الله وتقبل لوصاياه .

ومن ثم كان موضوعها جليل الأثر كبير الخطر . .

والإمام الذى يدرس موضوعه : ويجيد عرضه ، يقوم بنصيب ضخم فى تثقيف الأمة ، وترشيد نهضتها ، ودعم كيانها المادى والأدبى ، ووصل غدها المأمول بماضيها المجيد . .

لما كنا نريد الوصول بمستوى الخطابة فى المسجد إلى مكانته اللائقة به ، ونريد جعل المنبر مرآة لما حوى الإسلام من معرفة صالحة وتربية واعية ، فقد أثبت هذه التوجيهات الموجزة لما ينبغى أن يتوافر فى خطبة الجمعة من زاد روحى وثقافى منظم .

١ ـ يحسن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد واضح غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا ، فإن الخطيب الذى يخوض فى أحاديث كثيرة يشتت الأذهان وينتقل بالسامعين فى أودية تتخللها فجوات نفسية وفكرية بعيدة ، ومهما كانت عبارته بليغة ، ومهما كان مسترسلا متدفقا فإنه لن ينجح فى تكوين صورة عقلية واضحة الملامح لتعاليم الإسلام .

والوضوح أساس لابد منه فى التربية ، والتعميم والغموض لاينتهيان بشىء طائل ، وخطبة الجمعة ليست درسًا نظريًا بقدر ماهى حقيقة تشرح وتغرس .

٢ ـ عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها إلى الآخر فى تسلسل منطقى مقبول كما تسلم درجة السلم إلى مابعدها دون عناء بحيث إذا انتهى الخطيب من إلقاء

كلمته كان السامعون قد وصلوا معه إلى النتيجة التى يريد بلوغها . وعليه أن يتنقى من النصوص والآثار ما يمهد إلى هذه الغاية .

٣ ـ ولما كانت الخطبة الدينية تنسج من المعانى الإسلامية المستمدة من «الكتاب والسنة» وآثار السلف الصالح فإن لحمتها وسداها يجب أن يكونا من الحقائق المقبولة . وفى آيات القرآن الكريم ، ومعالم السنة المطهرة متسع يغنى فى الوعظ والإرشاد . ولذلك لايليق البتة أن تتضمن الخطبة الأخبار الواهية بله الموضوعة .

وإذا كان العلماء قد تجوزوا فى الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة فى فضائل الأعمال فقد اشترطوا لذلك : ألا تخالف قواعد الإسلام الكلية ولا أصوله العامة . وفى الأحاديث الصحيحة والحسنة مجال رحب للخطيب الفاقه . وفى سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأئمة المتبوعين ما يغنى عن الأساطير والأوهام .

٤ ـ لايجوز أن تتعرض الخطبة للأمور الخلافية ، ولا أن تكون تعصبا لوجهة نظر إسلامية محدودة . . فإن المسجد يجمع ولا يفرق ، ويلم شمل الأمة بشعب الإيمان التى يلتقى عندها الكل دون خوض فى المسائل التى يتفاوت تقديرها . وما أكثر العزائم والفضائل التى تصلح موضوعًا لنصائح جديدة وخطب موفقة .

وقد شقى المسلمون بالفرقة أيامًا طويلة وجدير بهم أن يجدوا فى المساجد ما يوحد الصفوف ، ويطفئ الخصومات .

٥ ـ بين الخطبة والأحداث العابرة ، والملابسات المحيطة ، والجماهير السامعة ، علاقة لايمكن تجاهلها ومما يزرى بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون فى واد ، والناس والزمان والمكان فى واد آخر . .

ولأمر ما نزل القرآن منجما على ثلاث وعشرين سنة ، فقد تجاوب مع الأحداث وأصاب مواقع التوجيه إصابة رائعة .

ولما كان القرآن شفاء للعلل الاجتماعية الشائعة ، فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذى يواجهه ، وأن يتعرف على حقيقته بدقة . فإذا عرفه واستبان أعراضه وأخطاره رجع إلى الكتاب والسنة فنقل الدواء إلى موضع المرض . وذلك يحتاج إلى بصيرة وحذق ، فإن الواعظ القاصر قد يجىء بدواء غير مناسب فلا يوفق فى علاج ، وربما أخطأ ابتداء فى تحديد العلة فجاءت خطبته لغوا وإن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة .

٦ ـ هناك طائفة من الأحاديث تسوق الأجزية الكبيرة على الأعمال الصغيرة . . وقد قرر العلماء المحققون أن هذه الأحاديث ليست على مايفهم منها لأول وهلة . . وأن مافيها من أجزية ضخمة إنما هو لأهل الشرف فى العبادة وأهل الصدق فى الإقبال على الله . . وليس ذلك للأعمال الصغيرة التى اقترنت بها .

ومن هنا لايجوز للخطيب أن يضمن خطبته هذه الأحاديث سردًا مجردًا ، فيحدث فوضى فى ميدان التكاليف الشرعية ، ولكن إذا قضى ظرف بذكر هذه الأحاديث ذكرها مع شروحها الصحيحة .

٧ ـ تقوم التربية الدينية على بيان الجوانب الخلقية والاجتماعية فى الإسلام وشرح مايقترن بالخير والشر من معان حسنة أو سيئة ، ومن عواقب حميدة أو ذميمة . . ولا بأس من التعريج على الأجزية الأخروية وعرض ما أعده الله فى الآخرة للأبرار والفجار ، بيد أن الإسهاب والتفصيل فى ذكر الأجزية المغيبة لا لزوم له ويكتفى بالإلماح إلى ما جاء فى القرآن والسنة عن ذلك دون تطويل وتعمق .

٨ ـ من الخير أن تتضمن خطبة الجمعة أحيانًا شيئًا من أمجاد المسلمين الأولين الثقافية والسياسية وتنويها بالحضارة اليانعة التى أقامها الإسلام فى العالم مع الإشارة ، إلى أن ينابيع هذه الحضارة تفجرت من الحركة العقلية التى أحدثها القرآن الكريم ، واليقظة الإنسانية التى صنعها الرسول ﷺ ، ويكون الغرض من هذه الخطب ـ على اختلاف موضوعاتها ـ أن ترجع إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم ورسالتهم العالمية .

٩ ـ معروف أن هناك فلسفات أجنبية ونزعات أجنبية ونزعات إلحادية تسربت إلى الأمة الإسلامية فى كبوتها التاريخية الماضية وطبيعى أن تتعرض الخطبة لذود هذه المفاسد النفسية عن أبناء الأمة ، ووظيفة الخطبة فى الإسلام عندئذ أن تتجنب الأخذ والرد والجدال السيئ . . ولكن تعرض الحقائق الإيجابية فى الإسلام بقوة ، وترد على الشبهات دون عناية بذكر مصدرها لأن المهم هو حماية التراث الروحى والعلمى . . وليس المهم تجريح الآخرين وإلحاق الهزائم بهم .

١٠ـ قبل أن يواجه الخطيب الجمهور ينبغى أن تكون فى ذهنه صورة بينة لما يريد أن يقوله ، بل يجب أن يراجع نفسه قبل الكلام ليطمئن اطمئنانًا كاملاً إلى صحة القضايا التى سوف يعرضها ، وإلى سلامة آثارها النفسية والاجتماعية .

وعليه أن يتثبت من الأدلة والشواهد التي يسوقها في معرض الحديث ، فإن كان قرآنا حفظه جيدًا وإن كان سنة رواها بدقة ، وإن كان أثرًا أدبيًا أو خبرًا تاريخيًا فإن توفيقه يكون بحسب مطابقته أو اقترابه من الأصل المنقول عنه .

إن التحضير المتقن دلالة احترام المرء لنفسه ولسامعيه ، وقد تفجأ الإنسان مواقف يرتجل فيها مايلقى به الناس ويصور مابنفسه .

والواقع أن القدرة على الارتجال تجيء بعد أوقات طويلة من الدربة على التحضير الجيد ، وعلى تكوين حصيلة علمية مواتية لكل موقف .

ومع ذلك فإن المهارة في الارتجال لاتغنى عن حسن التحضير للعالم الذي يريد أداء واجبه بأمانة وصدق ، والذي يقدر إنصات الناس له واحتفاءهم بما يقول .

١١ـ الإيجاز أعون على تثبيت الحقائق ، وجمع المشاعر والأفكار حول مايراد بثه من تعاليم .

فإن الكلام الكثير ينسى بعضه بعضًا ، وقد تضيع أهم أهدافه في زحام الإطناب والإفاضة .

ألا ترى الأرض تحتاج إلى قدر محدد من البذور كيما تنبت ، فإذا كثر النبات بها تخللها الفلاح باجتثاث الزائد حتى يعطي البقية فرصة النماء والإثمار .

كذلك النفس البشرية لاتزكو فيها المعاني إلا إذا أمكن تحديدها وتقويمها ، أما مع كثرة الكلام وبعثرة الحقائق ، فإن السامع يتحول إلى إناء مغلق تسيل من حوله الكلمات مهما بلغت نفاستها .

وللإطناب الممل أسباب معروفة منها سوء التحضير ، فإن الخطيب الذي يلقي الناس بالجزاف من الأحكام والتوجيهات لايدري بالضبط أين بلغ قوله ، وهل وصل إلى حد الإقناع أم لا فيحمله ذلك على التكرار والإطالة . . وما يزداد من الجمهور إلا بعدا . .

وقد تنشأ الإطالة عن سوء التقدير للوقت والمواقف ، فيظن الخطيب أن بحسبه أن يقول ماعنده وعلى الناس أن ينصتوا طوعًا أو كرهًا ـ وهذا خطأ .

ومما يحكى في قيمة الإيجاز أن أحد الرؤساء طلب منه إلقاء خطبة في بضع دقائق فقال : «أمهلوني أسبوعًا» فقيل له : نريدها في ربع ساعة قال : «أستطيع بعد يومين» قيل له : فإذا طلبناها في ساعة؟ قال : «فأنا مستعد الآن» .

إن الإيجاز يتطلب الموازنة والاختيار والمحو والإثبات . أما الكلام المرسل فالجهد العقلي فيه أقل ، والحقيقة أن خمس دقائق تستوعب علمًا كثيرًا ، وعشر دقائق وخمس عشرة دقيقة تستوعب خطبة أو محاضرة جيدة .

٧٤. ما الحكمة فى قيام الليل؟ وكيف يكون؟

لابد من تمهيد لهذا الموضوع ، وللموضوع الذى يجىء بعده ، نتحدث فيه عن الأوج الذى رفع محمد صحبه إليه ، وثبتهم - صلوات الله وسلامه عليه - فى رباه! لقد اتفق الدارسون لشخصية محمد على أن قدراته الروحية خارقة للعادة ، وأنه يخطف البصائر بطيب نفسه وعظمة خلقه ووهج مشاعره ، وأنه استطاع بالقرآن الكريم أن يشرح صدورا ويوسع آفاقا ، وينقل جيلا من البشرية الضيقة إلى الربانية الرحبة المشرقة ! . .

إن الجيل الذى رباه محمد كان جيلا محسنا يعبد الله كأنه يراه ، شجاعًا يركل الدنيا بقدمه ويمضى ثابت الخطا إلى ربه ، كريمًا لايحرص على مال ، بل مايعطيه لله أحب لديه مما يستبقيه لنفسه ، مقيما للصلاة ينتظم فى صفوفها برغبة وخشوع ، ويحافظ على أوقاتها فى الصحة والمرض والسلم والحرب . .

هذا الجيل تلقى الحق وصانه وسلمه إلى من بعده فى وفاء وفداء لم تعرف الدنيا لهما نظيرًا فى تاريخها الطويل !

إن الملائكة لتنظر بإعجاب إلى هؤلاء الأصحاب! بل إنها لتحفهم وهم يجاهدون ، تتنزل عليهم وهم يتهجدون! ما أحسبها - وهى ترقب الأرض من قديم - رأت خيرًا منهم ، حاشا أنبياء الله السابقين! . .

من أجل ذلك لم أحس باستغراب عندما قرأت فى الصحاح هذين الخبرين . .

عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال : «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس ، فسكت ، فسكنت ! فاستأنف القراءة فجالت ، فسكت فسكنت الفرس! ثم قرأ فجالت ، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فانصرف فأخره - أبعده عن قوائمها - ثم رفع رأسه إلى السماء ، فإذا مثل الظلة ، فيها أمثال المصابيح! فلما أصبح حدث النبى ﷺ - بما رأى - فقال له : **أو تدرى ما ذاك؟** قال لا . . قال : **تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت** - تابعت التلاوة - **لأصبحت ينظر إليها الناس ما تتوارى منهم**»! . .

قلت : ما الغرابة؟ ملائكة السماء اقتربت من ملائكة الأرض الذين يقومون الليل بالقرآن .

وقد تكررت هذه القصة لغير أسيد ، وسواء استبعدها الماديون أو قبلوها ، فإن من يناجى الله بكتابه والناس نيام له مكانة خاصة ، وقد جاء فى الحديث **«ما أذن الله بشىء ـ أى ما أنصت ـ أذنه ـ أى إنصاته ـ لعبد يقرأ القرآن فى جوف الليل، وإن البر ليذر على رأس العبد مادام فى مصلاه .. وما تقرب العباد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه»** .

قال أبو النضر : يعنى القرآن ، منه بدأ الأمر به ، وإليه يرجع الحكم فيه . .

والناس عادة ينطرحون فى فرشهم يحسبون النوم غيبوبة تتخللها أضغاث الأحلام ، وغرائز الأجهزة الدنيا أو وساوسها! لكن هناك ناسا آخرين رسب فى أعماقهم إجلال الله ، والتوجه إليه ، يشبه نومهم نوم المشوق إلى غائب أو الباحث عن حقيقة!! . .

فإذا نابتهم يقظة خلال الرقاد ، اتجهوا إلى الغائب المشوق ، أو الصواب المنشود! . .

صور الحديث الشريف حال هؤلاء فى قوله ﷺ : **«من تعار من الليل ـ أى استيقظ ـ فقال: لا إله الا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، الحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لى، أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»**!! . .

شتان بين نائم مغمى عليه ، مايحركه إلى ربه شىء ، وبين آخر يستجم بنومه ، ويسبح بحمد ربه كلما عاد إليه وعيه! الصنفان موجودان فى الدنيا ، والفارق بينهما شاسع ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾[1] . .

وقيام الليل فريضة على النبى وحده ، إن الإحساس بالله نهر جار فى شعوره لا يتوقف أبدا! فى وضح النهار أو فى جنح الليل لا يرى محمد إلا موصول القلب بالله! . .

وهو بهذا الذكر الدافق فى حسه ، المستولى على نفسه ينضح على من حوله ، ويصل الأرض بالسماء طهرًا وضوءًا ، مستجيبًا لقول الله :

---

(١) الزمر : ٩ .

﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[1] .

وقد حاول نفر من أصحابه أن يتابعوه فى هذا النهج ، لشدة حبهم له ورغبتهم فى تقليده ، غير أن الله سبحانه رحم ضعفهم ، وحط عنهم ماجشموا به أنفسهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾[2] .

ذلك بالنسبة إلى الأصحاب ، أما الرسول نفسه فبقى قيام الليل كله من خصائصه ، وقد كان ينبعث إلى هذا القيام عن حب ورغبة لا عن تكلف وعنت ، كان عميق الشعور بنعمة الله عنده ، واصطفائه له ، وإلى ذلك يشير عبدالله بن رواحة بقوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ماقال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فى الأيام الأولى للبعثة قيل له : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾[3] وقد استجاب لأمر الله حتى لحق بالرفيق الأعلى! . .

أما جمهور الأمة فلم يكلف بذلك ، فليس القيام فى حقه فريضة لازمة ، ولا سنة مؤكدة ، وهو نافلة مقبولة ممن يؤثر فيهم السهر ، ولا يعجزهم عن أداء واجباتهم طوال النهار! .

حسبهم ما يستطيعون قراءته بالليل ، وأمامهم سبح طويل بالنهار ﴿ ... عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾[4] .

---

(١) الإسراء : ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) المزمل : ٢٠ .
(٣) المزمل : ٢ ـ ٤ .
(٤) المزمل : ٢٠ .

والواقع أن الجهاد العسكرى والاقتصادى يحتاج إلى يقظة ونشاط ، والتفريط فى هذا أو ذاك مضيعة للأمة .

ورأيت ناسا يقومون الليل أحيانا ، ثم يجيئون إلى مكاتبهم ثقالا يترنحون ، فزجرتهم عن هذا المسلك ، وشرحت لهم الحكم! ومع ذلك فما كانوا يسمعون! . .

وقد رويت فى الأمر بالقيام أحاديث ضعيفة مثل ماجاء عن بلال أن رسول الله ﷺ قال : «**عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم، ومنهاة عن الآثام، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد**» .

ومع مافى سند الحديث من ضعف ، فإننا نحمله على ماورد فى الصحاح مثل حديث عثمان رضى الله عنه عن النبى ﷺ : «**من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله**» ذلك أن النهوض للفجر فيه مقاومة للنوم ، ومشى فى الظلمة ، واستفتاح للنهار بالخير قبل أن تطلع الشمس بوقت ، وكذلك الانتظام فى جماعة العشاء ، وكانت قديمًا تتأخر ، حتى تغمض عيون البعض فى انتظارها .

وسئلت عائشة رضى الله عنها : أى حين كان يقوم الرسول ﷺ من الليل؟ فقالت : إذا سمع الصارخ ـ تعنى الديك ـ ! .

وما فهمناه وافق ولله الحمد ما رواه أبو داود عن أنس فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾(1) .

قال : نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة ـ يعنى العشاء ـ كانوا يتنقلون بين المغرب والعشاء . .

وزيادة فى إيضاح الموضوع نذكر أن الجسد البشرى يحتاج إلى ساعات معينة ينام فيها ، ويستعيد قواه ، ويستحيل أن يستغنى عن هذه الساعات التى قدرها الأطباء بثمانى ساعات أو أكثر أو أقل حسب الأعمار المختلفة . .

والقرآن الكريم يقر هذه الحاجة الطبيعية ، ويلفت الأنظار إلى أنها من آثار اختلاف الليل والنهار ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾(2) . . ﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** ﴾(3) . .

(1) السجدة : ١٦ . (2) يونس : ٦٧ . (3) النبأ : ٩ ـ ١١ .

وقد تنشأ أحوال يجب فيها العمل بالليل، فى ظروف السلم والحرب جميعًا، فعلى المرء أن يقوم بواجبه، وسيطاوعه جسمه مع تعويض يرد إليه مابذل . .

وهناك ناس لهم طاقة على العمل الكثير، مع الاكتفاء بنوم قليل! كما أن هناك من فى أعصابه مدخر من النشاط يستطيع به أن يضم إلى عمل النهار جزءًا من الليل . .

وهنا نؤكد أمورًا، أن اليوم الإسلامى يبدأ مع الفجر، فكل سهر يضيع صلاة الفجر مرفوض! وهناك قلة من الرجال تستطيع الجمع بين طول التهجد بالليل، وطول الكدح بالنهار، وهذه قلة لايقاس عليها ! . .

وقد يستطيع البعض أن يقرأ نصف القرآن فى ليلة ثم يستقبل نهاره باسترخاء لايساعده على أداء واجب، هذه معصية ! لقد تلا ألفاظا لم يتدبرها وأهمل واجبات ترتبط بها حياته وحياة أمته ! . .

وأوغل فى المخالفة من يبيت يردد بعض أسماء الله الحسنى، ثم يصبح كليل التفكير لايحسن شأنا فى دنيا أو دين!! . .

إن عمر بن عبد العزيز سرح فكره فى آية واحدة ظل يرددها طوال الليل ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[1] ! لأن دقة إحساسه جعلته يتصور ـ وهو أمير المؤمنين ـ أنه الموقوف المسئول، فطار النوم من عينه! . .

ولو أن قاضيا سهر فى قضية يتحرى الحكم العادل، أو مجتهد سهر فى موضوع يبحث فيه عن الصواب، لكان أولى بالله من قارئ لايعى، أو قائم نائم الضمير والتفكير .

(١) الصافات : ٢٤ .

٧٥. كيف ولماذا اختير الأذان للصلاة؟ ولماذا لم يأت عن طريق الوحى مباشرة؟

لا أرى كلمات أحق بالسماع وأولى بالتأمل من كلمات الأذان، ولا أرى داعيًا أقرب إلى الرشد من المؤذن.. إن الكلمات الجهيرة المدوية فى الآفاق، تذكير بالله وحقوقه، تذكير بالعمل الذى خلقنا من أجله، إنها مناشدة لأبناء آدم أن يعرفوا الصراط المستقيم ويثبتوا عليه، وأن يحذروا السبل المعوجة وينأوا عنها.

عندما يقول المؤذن: «**الله أكبر الله أكبر**». ويؤكدها فكأنه يقول للإنسان: لا تدر حول نفسك واذكر من رباك وسواك، واجعله غايتك من مسعاك، يبارك لك فى وقتك وجهدك ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ** ﴾[1].

وعندما يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله» ويكررها مرة أخرى، فكأنه يقول للإنسان: لا تخش آلهة أخرى فى الأرض، الأمور كلها صائرة إليه وحده، يبت فيها ولا راد لحكمه، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، فانتصب عزيز النفس رفيع الرأس، واذهب لتسجد لله، فإنك لن تذل بعده لأحد!

وعندما يقول: «أشهد أن محمدًا رسول الله» ويكررها مرة أخرى، فهو يرسم أمام بصيرتك صورة الكمال الإنسانى لتقتدى به وتقتفى آثاره، محمد وحده الأسوة الحسنة فى الإيمان والتقوى والخلق والاستقامة..

وعندما يقول: «حى على الصلاة» ويكررها مرة أخرى فهو يدعوك لتتشرف بالمثول بين يدى ربك كى تسبح بحمده وتستزيد من رفده وتشترك مع إخوان العقيدة فى التجمع عليه والتحاب فيه..

وعندما يقول: «حى على الفلاح» ويؤكدها مرة أخرى فهو يدلك على الجهد المثمر والسعى الناجح، فما أكثر الذين يزرعون ولا يحصدون، أو يمشون ولا يصلون! أما أهل الصلاة فلا يضيعون، ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[2].

---

(١) الشورى: ٢٠. (٢) الحج: ٥٤.

وعندما يقول مرة ثالثة : «**الله أكبر الله أكبر**» فهو يؤكد الغاية الصحيحة من الحياة والكدح طول العمر ، إن المرء يخرج من بيته لعمله ، وليحصل ما يقدر عليه من نفع لنفسه وأهله ، وصيحة التكبير التى يسمعها تهيب به أن يقصد ربه ، ويجعل له عمله ، وعندما يقدم نفسه لربه فسيجدها موفورة مقدورة ، أما من آثر نفسه ، فسيفقدها ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1] .

ويختم الأذان بصيحة التوحيد ، لإسقاط الوثنيات كلها ، إن العالم الآن لاينحنى لصنم من حجر ، ولكنه يتفانى فى أصنام حية قامت شواخص مهيبة فى دنيا الحكم والمال ، وخافها الناس أكبر مما يخافون رب الأرباب .

إن كلمات الأذان منهج كامل ، ودعوة تامة ، مايمكن أن يغنى عنها بريق نار ، ولا رنين جرس ، ولا صفير بوق . . إنها هتاف من الملأ الأعلى ، يهيب بالبشر أن يرجعوا إلى أصلهم السماوى العريق .

هذه الكلمات نزلت من السماء ولم تخرج من الأرض ، استمع إليها نفر من الصحابة فى رؤى متقاربة ، وأحد الملائكة الكرام يهتف بها ، فى أعقاب مؤتمر تباحث فيه الصحابة مع الرسول ﷺ حول أمثل الطرق للدعوة إلى الصلاة! والحديث هنا يعود بنا إلى الإجابة السابقة ، وكيف كانت الملائكة تدنو من الأرض تستمع الذكر من تاليه وهو يناجى به ربه ، وتعود بنا إلى الأثر الروحى لمحمد فى أصحابه! . .

إن صحابيا أنكر نفسه لما أحس الفرق الشاسع بين حالته مع رسول الله وحالته بعد أن يخالط الأهل ويكابد هموم الرزق ، وظن أنه نافق بهذا التفاوت حيث إنه مع رسول الله ﷺ يكون منير القلب ، يتقلب فى مقام الإحسان ، وكأنه يشهد ربه ويحس جلاله! حتى إذا رجع إلى البيت والشارع والأهل والناس هبط ، واعتكر!! . .

قال له الرسول : «**لو بقيتم على حالتكم معى لصافحتكم الملائكة! ولكن ساعة وساعة!**» .

وكثير من الصحابة كان يستديم ساعات الإشراق التى تجمعه بصاحب الرسالة العظمى ، ويغالب إلى أمد طويل كثافة الطبع ، ومشاغل العيش ، وظلال الخلق! . .

جاء فى السنة عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : اهتم رسول الله ﷺ بالصلاة : كيف يجمع الناس لها ؟ فقيل له : انصب راية عند حضور الصلاة! فإذا رأوها آذن بعضهم بعضًا ، فلم يعجبه ذلك! . .

---

(١) الحشر : ١٩ .

فذكر له شبور اليهود - البوق الذى ينفخون فيه للإعلام بصلاتهم - فلم يعجبه ذلك وقال : هذا من أمر اليهود! فذكر له الناقوس ، فقال : هذا من أمر النصارى! . .

فانصرف عبدالله بن زيد الأنصارى ، وهو مهتم لهمِّ رسول الله ﷺ ، فأرى الأذان فى منامه .

وفى تفصيل آخر يذكر الراوى أن رجلا من الأنصار جاء فقال : يارسول الله ، إنى لما رجعت - إلى بيتى - لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلا كأن عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجد فأذن ، ثم قعد قعدة ثم قام فقال مثلها ، إلا أنه يقول : قد قامت الصلاة! . .

ولولا أن يقول الناس لقلت : إنى كنت يقظان غير نائم! . . فقال رسول الله : لقد أراك الله خيرًا ، فمر بلالا فليؤذن! .

فقال عمر بن الخطاب : أما أنى قد رأيت مثل الذى رأى ، ولكنى لما سبقت استحييت ، وقال فيه فاستقبل - الملك الذى رآه عمر - القبلة وقال : الله أكبر الله أكبر مرتين أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن محمدًا رسول الله مرتين ، حى على الصلاة مرتين ، حى على الفلاح مرتين الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ثم أمهل هنيهة ، ثم قام فقال مثلها ، إلا أنه زاد بعد ما قال حى على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، فقال رسول الله ﷺ : لقنها بلالاً! فأذن بها بلال .

وكان بلال ندى الصوت ، عذب الأداء ، وتتفاوت الروايات تفاوتًا قليلاً فى عدد الألفاظ مع اتفاقها جميعًا فى أصل القصة ومصدر التلقى . .

وعندما أتجرد من التأثر بكل مايروى ، أرانى أميل إلى سماع الأذان ومتابعة كلماته الهادية ، فإنى أحب أن أقاد من عقلى لا من أذنى! إن الأذان يوقظ فؤادى ، ويعرفنى بربى على نحو ينسجم مع الفطرة السليمة .

ومن ثم استحب الشارع لسامعى الأذان أن يرددوا كلماته ، ويغرسوها فى مشاعرهم ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ ، فقام بلال ينادى - للصلاة - فلما سكت قال رسول الله : «**من قال مثل هذا يقيناً دخل الجنة**» وعن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال : «**من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولا، وبالإسلام دينا، غفر له ذنبه**» .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إلا حلت له شفاعتى**» .

والمرء عندما يتأمل فى كلمات الأذان يجدها خلاصات للرسالة الإسلامية ، ووصفًا لله قائمًا على الحق المطلق ، الحق الذى لايتغير بين مشرق ومغرب! . .

ماذا وراء تكبير الله وتوحيده والنداء الدائب لعبادته؟ .

إن هذا لنداء يتنقل على سطح الأرض ، عابرا خطوط الطول فوق البر والبحر . مصاحبًا الأرض فى دورانها حول أمها الشمس «ووظيفة محمد العظمى تلبية الأمر الصادر إليه» ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** ﴾[1] .

إن الكون كله لا الأرض وحدها يتجاوب مع أصوات المؤذنين وهى تهيب بالبشر أن يهرعوا لمرضاة الله! . .

وليس بغريب أن يطلب من سامعى الأذان ـ وصداه لايزال يرن فى آذانهم ـ أن يدعوا للإنسان العظيم الذى يقودهم إلى الله ، ويؤمهم على الصراط المستقيم! إنه والله جدير بالدعاء المستديم أن يرفع الله درجته ، ويجزيه عن المسلمين خيرًا . .

على أن رؤى البشر مهما صلحت حالهم لاتكون مصدر وحى ، ولا دليل ، ولولا أن رؤيا الأذان أقرها النبى ﷺ ووافق على العمل بها ، ما التزم العمل بها أحد! .

ولعل الله سبحانه وتعالى أراد طمأنة نبيه على أن رسالته قد نجحت فى تكوين جيل نقى الصفحة زكى السريرة يلتقى بالملأ الأعلى ، فيسمع منهم وينقل عنهم ، وقد قلنا فى إجابة سابقة : إن الملائكة تتنزل على المؤمنين المستقيمين فتلهمهم الرشد ، وتساند على الحق ، وتقذف فى قلوبهم بالبشريات ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا** ﴾[2] .

لكن باب الأوهام والمزاعم لابد من سده فما يقبل كلام عن عالم الغيب إلا من المعصوم وحده! والمسلمون مجمعون على أن الشريعة ، لا منبع لها إلا الكتاب والسنة .

وقد ظهر فى عصرنا هذا فلاحون اقتحموا ميدان التدين وزعموا أن وحيا يجيئهم ، وخير علاج لهم أن يقادوا إلى تبليغه فى مستشفيات الأمراض العقلية . .

---

(١) طه : ١٣٠ . (٢) فصلت : ٣٠ .

٧٦. ما حقيقة الصوم وما حكمته؟

الصيام عبادة مستغربة أو منكورة فى جو الحضارة المادية التى تسود العالم . إنها حضارة تؤمن بالجسد ولا تؤمن بالروح ، وتؤمن بالحياة العاجلة ولا تكترث باليوم الآخر! ومن ثم فهى تكره عبادة تقيد الشهوات ولو إلى حين ، وتؤدب هذا البدن المدلل وتلزمه مثلا أعلى . .

إن الأفراد والجماعات فى العالم المعاصر تسعى لا غير لتكثير الدخل . . ورفع مستوى المعيشة ولا يعنيها أن تجعل من ذلك وسيلة لحياة أزكى ! . .

ونسارع إلى تبرئة الدين من حب الفقر ، وخصومة الجسم ، فالغنى سر العافية والجسم القوى نعم العون على أداء الواجب والنهوض بالأعباء ، وإنما نتساءل : هل يتعامل الناس مع أجسامهم على أسلوب معقول يحترم الحقائق وحدها؟

يقول علماء التغذية : إن للطعام وظيفتين : الأولى إمداد الجسم بالحرارة التى تعينه على الحركة والتقلب على ظهر الأرض ، والأخرى تجديد مايستهلك من خلاياه وإقداره على النمو فى مراحل الطفولة والشباب .

حسنا ، هل نأكل لسد هاتين الحاجتين وحسب؟ إن أولئك العلماء يقولون : يحتاج الجسم إلى مقدار كذا من «السعر الحرارى» كى يعيش . .

الطعام وقود لابد منه للآلة البشرية ، والفرق بين الآلات المصنوعة والإنسان الحى واضح . . فخزان السيارة مصنوع من الصلب ليسع مقدارًا معينًا من النفط يستحيل أن يزيد عليه ، أما المعدة فمصنوعة من نسيج قابل للامتداد والانتفاخ يسع أضعاف مايحتاج المرء إليه ! . .

وخزان السيارة يمدها بالوقود إلى آخر قطرة فيه ، إلى أن يجيء مدد آخر . .

أما المعدة فهى تسد الحاجة ثم يتحول الزائد إلى شحوم تبطن الجوف ، وتضاعف الوزن ، وذاك ما تعجز السيارة عنه ، إنها لاتقدر على أخذ «فائض» ولو افترضنا فإنها لاتقدر على تحويله إلى لدائن تضاف إلى الهيكل النحيف فيكبر أو إلى الإطارات الأربعة فتسمن!! . .

الإنسان كائن عجيب ، يتطلع أبدًا إلى أكثر مما يكفى ، وقد يقاتل من أجل هذه الزيادة الضارة ، ولا يرى حرجًا أن تكون بدانة فى جسمه ، فذاك عنده أفضل من أن تكون نماء فى جسد طفل فقير ، أو وقودًا فى جسد عامل يجب أن يتحرك ويعرق!!

كان لى صديق يكثر من التدخين ، نظرت له يومًا فى أسف ، ثم سمعنى وأنا أدعو الله له أن يعافيه من هذا البلاء ، فقال رحمه الله فقد أدركته الوفاة (اللهم لاتستجب ولا تحرمنى من لذة «السيجارة») . .

ولم أكن أعرف أن للتدخين عند أصحابه هذه اللذة ، فسكت وقد عقدت لسانى دهشة .

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يعرف ما يضره ، ويقبل عليه برغبة . . إنها الرغبة القاتلة!! . .

على أن النفس التى تشتهى مايؤذى يمكن أن تتأدب وتقف عند حدود معقولة ، كما قال الشاعر قديمًا :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وهنا يجىء أدب الصيام! إنه يرد النفس إلى القليل الكافى ، ويصدها عن الكثير المؤذى! . .

ذاك يوم نصوم حقا ، ولا يكون الامتناع المؤقت وسيلة إلى التهام مقادير أكبر كما يفعل سواد الناس!! . .

لعل أهم ثمرات الصوم إيتاء القدرة على الحياة مع الحرمان فى صورة ما . .

كنت أرمق النبى ﷺ وهو يسأل أهل بيته فى الصباح : «**أثم مايفطر به؟**» فيقال : لا ! فينوى الصيام ، ويستقبل يومه كأن شيئًا لم يحدث . .

ويذهب فيلقى الوفد ببشاشة ويبت فى القضايا ، وليس فى صفاء نفسه غيمة واحدة! وينتظر بثقة تامة رزق ربه دونما ريبة ، ولسان حاله ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾[1] . .

قلت : لو جاءنى فطورى دون شاى لسخطت!! ولرفضت إمضاء ورقة على مكتبى ، بل كتابة مقال!! . .

---

(١) الشرح : ٥ ، ٦ .

إنها لعظمة نفسية جديرة بالإكبار أن يواجه المرء البأساء والضراء مكتمل الرشد ، باسم الثغر ، والأفراد والجماعات تقدر على ذلك لو ـ شاءت! .

وأعتقد أن أسباب غلب العرب فى الفتوح الأولى قلة الشهوات التى يخضعون لها ، أو قلة العادات التى تعجز عن العمل إن لم تتوافر .

يضع الواحد منهم تمرات فى جيبه وينطلق إلى الميدان ، أما جنود فارس والروم فإن العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم ، وإلا توقفوا . .

وقد اعتمد غاندى على هذا السلاح عندما حارب «بريطانيا» العظمى . . كان الإنتاج البريطانى يعتمد على الاستهلاك الهندى . . وقرر غاندى أن ينتصر بتدريب قومه على الاستغناء ، نلبس الخيش ولا نلبس منسوجات «مانشيستر» نأكل الطعام بدون الملح مادامت الدولة تحتكره ، نركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم . .

وقاد حركة المقاطعة رجل نصف عار جائع ، ينتقل بين المدن والقرى مكتفيا بكوب من اللبن . .

واستجابت الجماهير الكثيفة للرجل الزاهد ، وشرعت تسير وراءه فإذا الإنتاج الإنكليزى يتوقف ، والمصانع تتعطل ، وألوف مؤلفة من العمال الإنجليز يشكون البطالة . .

واضطرت الحكومة إلى أن تطلب من «غاندى» المجىء إلى لندن كى يتفاوض معها ، أو يملى شروطه عليها!! . .

وحياه أحمد شوقى وهو ذاهب إلى لندن بقصيدته التى يقول فيها محذرًا من ألاعيب الساسة . .

وقل هاتوا أفاعيكم أتى «الحاوى» من الهند..

إن الإنسان الذى يملك شهواته قوة خطيرة ، والشعب الذى يملك شهواته قوة أخطر ، فهل نعقل؟؟ . .

فى صيام غاندى وأثر سياسته على إنجلترا ، وظفره باستقلال الهند يقول الشاعر القروى سليم خورى :

لقد صام هندى فجوع دولة..

وما ضار علجا صوم مليون مسلم

تجشم عن أوطانه صوم عامد

مجشم أوطان العدا صوم مرغم!

وخلى بلاد الظالمين بلاده
تضيق بجيش العاطلين العرمرم
وألقى على «مانشيستر» ظل رهبة
تضج بأشباح الشقاء المخيم..
أهاب بآلات الحديد فعطلت
مصانع كانت جنة المتنعم..
وشل دواليب الرخاء بصرخة
أدارت دواليب القضاء المحتم
كساها نسيج العنكبوت وكم كست
جسوم البرايا بالقشيب المنمنم
تهدمها أسرار نفس عجيبة
تجول بذلك الهيكل المتهدم
فيالك من عار، لديه تصاغرت
جبابر أبدان، وعقل ودرهم!!
وراحت ملوك المال تشكو ببابه
من الظلم، يا للظالم المتظلم!!

وفى عيد الفطر يقول رشيد سليم خورى أيضًا :

أكرم هذا العيد تكريم شاعر ... يتيه بآيات النبى المعظم
ولكن أصبو إلى عيد أمة ... محررة الأعناق من رق أعجم

أحفظ للشيخ الكبير «محمد الخضر حسين» شيخ الأزهر الأسبق كلمة عظيمة : «لست أنا الذى يهدد ، إن كوبا من اللبن يكفينى أربعًا وعشرين ساعة»! . .

ومن قبله قال الشيخ عبد المجيد سليم وقد حذروه من غضب جهات عالية : «أيمنعنى ذاك من التردد بين بيتى والمسجد؟ قالوا : لا . . قال : لاخطر إذن! ليس هناك ما يخاف» . .

من أركان العظمة أن يجعل الرجل مآربه من الدنيا فى أضيق نطاق مستطاع . . إنه يعنى عدوه بذلك الاستعفاف أو الاستغناء .

وذلك نهج الشرف الذى خطه على بن أبى طالب عندما قال : «استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره» . . وما يستقيم على هذا النهج إلا امرؤ يحسن الصيام .

أعجبتنى هذه الوصية لأبى عثمان النورى لابنه ، وأثبتها الجاحظ ، وليس لى فى كتابتها إلا فضل النقل . . «يابنى كل مايليك ، واعلم أنه إذا كان فى الطعام لقمة كريمة أو شىء مستطرف فإنما ذلك للشيخ المعظم أو الصبى المدلل ، ولست واحدا منهما .

يابنى عوِّد نفسك مجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم البغال ، ولا تلقم لقم الجمال ، الله جعلك إنسانا فلا تجعل نفسك بهيمة ، واعلم أن الشبع داعية البشم ، والبشم داعية السقم ، والسقم داعية الموت .

ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، لأنه قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره . .

يابنى والله ما أدى حق الركوع والسجود ممتلئ قط! ولا خشع لله ذو بطنة ، والصوم مصحة ، والوجبات عيش الصالحين .

يابنى قد بلغت تسعين عامًا ما نقص لى سن ولا انتشر لى عصب ، ولا عرفت ذنين أنف ، ولا سيلان عين ، ولا سلس بول ، وما لذلك علة إلا التخفف من الزاد . .

فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وإن كنت تحب الموت فتلك سبيل الموت ، ولا أبعد الله غيرك» . .

هذه وصية رجل لايعرف عبادة الجسد التى تهاوى فيها أبناء هذا العصر ، والتى جاء فيها قوله تعالى :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[2] .

---

(١) الحجر : ٣ . (٢) محمد : ١٢ .

وتجتاح الناس بين الحين والحين أزمات حادة تقشعر منها البلاد ، ويجف الزرع والضرع ، ما عساهم يفعلون؟ إنهم يصبرون مرغمين أو يصومون كارهين وملء أفئدتهم السخط والضيق . . وشريعة الصوم شيء فوق هذا ، إنها حرمان الواجد ، ابتغاء ماعند الله . إنها تحمل للمرء منه مندوحة ـ لو شاء ـ ولكنه يخرس صياح بطنه ، ويرجئ إجابة رغبته ، مدخرًا صبره عند ربه ، كيما يلقاه راحة ورضا فى يوم عصيب . . ﴿ **ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ** ﴾(١) .

وربط التعب بأجر الآخرة هو ما عناه النبى ﷺ فى قوله : «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ماتقدم من ذنبه**»! . .

إن كلمتى «إيمانًا واحتسابًا» تعنيان جهدًا لايستعجل أجره ، ولا يطلب اليوم ثمنه ، لأن باذله قرر حين بذله أن يجعله ضمن مدخراته عند ربه . . نازلا عند قوله :

﴿ **ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا** ﴾(٢) .

وسوف يجد الصائم مفطرين لايعرفون لرمضان حرمة ولا لصيامه حكمة ، إذا اشتهوا طعامًا أكلوا ، وإذا شاقهم شراب أكرعوا . . ماذا يجدون يوم اللقاء؟ . .

إنهم يجدون أصحاب المدخرات فى أفق آخر ، مفعم بالنعمة والمتاع ، ويحدثنا القرآن الكريم عمن أضاعوا مستقبلهم فيقول :﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾(٣) .

إن الصيام عبادة مضادة لتيار الحياة الآن ، لأن الفلسفات المادية المسيطرة فى الشرق والغرب ، تعرف الأرض ولاتعرف السماء ، تعرف الجسم ولاتعرف الروح ، تعرف الدنيا ولاتعرف الآخرة . .

ليكن للقوم ما أرادوا ، ذلك مبلغهم من العلم! . . بيد أننا نحن المسلمين يجب أن نعرف ربنا ، وأن نلزم صراطه ، وأن نصوم له ، وأن ندخر عنده! .

على أن هناك حقيقة مؤسفة هى أن الصوام قلة وإن امتنع عن الطعام كثيرون! . .

---

(١) هود : ١٠٣ . (٢) النبأ : ٣٩ .
(٣) الأعراف : ٥٠ ، ٥١ .

٧٧. فى المجالات الاجتماعية والسياسية نرى للإسلاميين مقالات متباعدة أو متناقضة! فلم هذا؟

أعترف بأن الملاحظة صادقة ، وأشعر بأن بقاء هذا الوضع يعوق الدعوة ويحرج الدعاة! وسأذكر هنا ما أراه باعثًا على هذا الاضطراب ، حتى يمكن تجاوزه . .

إن الإسلام صراط مستقيم وقد خرجت من هذا الصراط طرق شتى تميل يمنة أو يسرة! وكان اعوجاجها بارزًا كذلك فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وكان بارزًا كذلك فى النواحى المدنية والحضارية . . وقد خيل إلىّ أن الصراط المستقيم خلا من أهله فى العصر الأخير ، وتزاحمت القوافل الشاردة فى مسالكها التى انطلقت فيها ، ومن هنا استوحش الحق ، وأصابه ضر شديد . .

وسأختار نموذجين لهذا الشرود ، ولنتائجه فى عالم المعرفة والتوجيه . .

يعرف الإسلام أمير المؤمنين على أنه وليد بيعة حرة ، أو اختيار صحيح يتجه فيه الناس إلى انتخاب أكفأ إنسان لقيادتهم ، ويعرف القائد المنتخب أن الحكم أمانة ومسئولية جسيمة ، وأنه تكليف لا مغنم ، وأن عليه الاستعانة بأهل الشورى فى تعرف الصواب وتحديد الأرشد ، وأنه ليس بمعصوم ولا مستغن بنفسه بل يحتاج إلى مظاهرة الأقوياء والانتفاع بشتى الآراء ، وأنه إذا أخطأ وجب تقويمه ، وإذا عجز ترك للأمة أن تختار غيره فليست الرياسة حقًا شخصيًا له أو لغيره . .

هذه مسلَّمات فى أصول الحكم كما يعرفها الإسلام ، وهذا هو الصراط المستقيم .

لكن خط الانحراف الذى بدأ من عهد مبكر ، جعل الخلافة اغتصابًا وميراثًا ، وجعل الحصول عليها مغنما لا مغرما ، وتنوسيت أجهزة الشورى حتى لكأنها وهم أو أسطورة ، واقترب من الحاكم أهل الملق وابتعد رجال الحق ، أو أبعدوا ، واعتبروا النقد الصحيح فتنة أو خروجًا ، واعتبرت المداهنة طاعة وولاء!

من حقى أن أصف الثقافة التى تنظر إلى الصراط المستقيم وهى تتحدث عن الإسلام - بأنها الثقافة الأصلية ، كما أن من حقى أن أصف الثقافة التى قبلت الواقع وبنت عليه وأفتنت به ثقافة خط الانحراف! . .

التوجيهات القرآنية والنبوية وتطبيقات سلفنا الصالح هى الثقافة الأصلية ، أما الواقع الذى رسمه الملوك . ونضحت به طبيعة جنس من الأجناس ، فهو علم متأثر بخط الانحراف .

وهذا العلم لايفرضه على الإسلام عاقل ، مهما حاول أهله إعطاءه الصيغة الإسلامية ، فالقول بأن الشورى لاتلزم الحاكم ، والقول بأن الانتخاب بدعة ، والزعم بأن نقد الحاكم نقض للبيعة ، وأن على الجمهور أن يصبر على غصب المال ، وضرب السياط . . إلخ ، كل ذلك من وحى خط الانحراف وليس من معالم الصراط المستقيم .

والعرب جنس له محامده ومعايبه ، ومن معايب العرب العصبية للأسرة ، والتعالى بالنسب ، وحب السلطة والحرص على الإمارة! وقد جعلوا منصب الخلافة يحمل معالم شيخ القبيلة ، الذى يقول فيسمع ويأمر فيطاع! . .

وأرى أن هذه الخصال السيئة فى طلب الحكم ، والتصدير بالدعوى أساءت قديمًا للإسلام وتسىء يومنا هذا للعرب .

والفقهاء الناصحون ، لله ورسوله ، يفصلون بين طبيعة جاهلية فرضت نفسها ، ودين قويم يجب أن يسود .

وقد ألف عبد الرحمن الكواكبى كتابه «طبائع الاستبداد» لينصف الإسلام ممن حكموا باسمه وكذبوا عليه ، وفيه يقول : «المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الألوف المؤلفة ، يسدها عن النطق بالحق ومطالبتها به! والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل ولاتتملق! وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه! هل خلقت خادمة له؟ . أو هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد تقول له : لا أريد الشر! ، ثم هى مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه»[1] .

ومن الحكام من يحاول استجلاب صورة للشورى بها شبه من «ديمقراطية» الغرب! شبه التمثال الميت بالجسد الحى ، قال الشيخ محمد عبده فى وصفها :

---

(١) الإصلاح لأحمد أمين .

«لو حدث أن إنسانًا عرض وجهة نظر غير مايرى الحاكم لتعرض للتلف ، فإن أمام كل لفظ يقوله نفيًا عن الوطن أو إزهاقًا للروح أو تجريدًا من المال»!

والواقع أن المستبدين فى كثير من الأقطار الإسلامية برعوا فى تزوير الشورى ، عندما ألجأتهم الظروف إلى مجالسها ، حتى أمست الجماهير بين استبداد صريح أو استبداد منافق !!

إن حقوق الإنسان وحقوق الشعوب هى الوجه المقابل فى ديننا لعقيدة التوحيد ، وأحسب أن سدنة الوثنية السياسية لايقلون شرًا ولا أذى عن سدنة الأصنام .

وهؤلاء للأسف يجيدون تحريف الكلم عن مواضعه وتطويع النصوص لخدمة السلاطين . .

وهناك نموذج آخر لطغيان التقاليد الموروثة على تعاليم الإسلام! . .

كان العرب فى جاهليتهم يكرهون الأنثى ويتشاءمون لولدها ، وقد اشتطت بهم هذه الكراهية حتى حملتهم على اقتراف جريمة لم تعرف فى جنس آخر ، جريمة وأد البنات ، ولست أدرى : أذلك خشية العار كما يزعمون! أم هو إحياء دينى ضال؟ كما يفهم من الآية الكريمة :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾(١) .

ليكن هذا أو ذاك ، لقد جاء الإسلام فبدل الأحوال ، وكرم الأنثى وأوصى بالبشاشة عند مولدها ، ورعاها طفلة وفتاة وأمًا . . وأعطاها فى المجتمع حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى العبادة حق التردد على المسجد من الفجر إلى العشاء ، وفى التعليم ماتكمل به إنسانيتها فلم يقصرها على نصيب محدود! . .

وكان أن علا شأن المرأة ، فبايعت ، وجاهدت ، وحققت لنفسها مايشرف نوعها ، وظفرت المسلمة بما تظفر به امرأة أخرى! . .

ثم غلبت تقاليد الجاهلية العربية شيئًا فشيئًا حتى أقبل العصر الحاضر ، والمرأة محظور عليها أن تدخل مسجدًا (!) فى أغلب العواصم ـ خصوصًا المحافظة ـ أما حق التعليم فإنه لولا الحضارة الحديثة مادخلت أنثى مدرسة ولا انتمت طالبة إلى جامعة ، كأن تجهيلها فرض محتوم! . .

---

(١) الأنعام : ١٣٧ .

وانكمشت إنسانية المرأة حتى كاد ميراثها يجتاح كله ، وحتى أصبح إذنها فى عقد الزواج شكلا لا حقيقة له ، وإذا اقترفت فاحشة قتلت ونجا الطرف الآخر . .

والقاعدة العامة أنها لاترى أحدا ولايراها أحد ، وخط الانحراف فى هذه المسألة أساء ولايزال يسىء إلى الإسلام ، ويضع العوائق أمام دعوته! . .

هذا لون من العلم الذى أشاعه خط الانحراف فى تاريخنا وثقافتنا ، وهو علم لايعنى بعض المتدينين غيره! إذا وجدوا فى الميدان السياسى أنه لا شورى ، ولا أجهزة لها ، ولا ضوابط للحكم الفردى ، نسوا النصوص المهملة ، وأخذوا صورة الإسلام من الواقع السيئ . .

وإذا وجدوا أن المرأة كم مهمل ، وأنه لا مكان لها فى مدرسة أو مسجد ، وأنه لايجوز أن ترى أحدًا أو يراها أحد ، تجاوزوا القرآن والسنة ، وحكموا على المرأة بالإعدام الأدبى! .

وقد رأيت هؤلاء يختلقون الأحاديث ، أو يقوون الضعيف منها أو يهملون الصحيح لتغير الزمان ، ويحدث هذا كله فى وقت تعمل فيه المبشرات من كل ملة على تنصير المسلمين ، بل إن المجندات فى الجيش اليهودى يسبقن الرجال عندنا فى صناعات الموت[1] .

إننا نحذر الأمة من العلم الدينى المغشوش ومن فتانين يهدمون الحق ، على حين يبنى غيرهم الباطل . .

---

(١) وزع كتاب عن ضرورة ضرب النقاب على وجه المرأة المسلمة كى يتم إيمانها ويكمل دينها ومن بين ما قال مؤلفه : «حرم الإسلام الزنى ، وكشف الوجه طريق إليه ، فما أدى إلى الحرام حرام» : ونعجب نحن لهذا الاستدلال ، فإن الإسلام أوجب كشف الوجه فى الحج والعمرة ، وجعله الأساس عند أداء الصلوات كلها ، فهل كان الإسلام بهذا الكشف يمهد للفاحشة؟ ومن أغرب ما قرأت تعليق المؤلف على حديث المرأة الخثعمية التى رآها النبى ﷺ مكشوفة الوجه ، فلم يأمرها بتغطيته ، قال : لعل النبى أمرها بالنقاب . . فلم لم ينقل الرواة لنا ذلك؟! . .

٧٨. ما موقف الإسلام من اختلاط الجنسين؟

إذا ذكر الاختلاط ارتسمت فى الذهن الصورة الدميمة للعلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء كما استقرت فى الغرب ، والحق أن هذه العلاقات سيئة ، وأن وضع المرأة هناك لايرتضيه دين! . .

إن التبرج ، وإبداء الزينات الباطلة هما أساس الملابس العادية ، وكأن سرور المرأة لايتم إلا إذا أثارت الانتباه ولفتت إليها الأنظار! . .

ثم حشرت النساء فى أعمال شتى تتيسر فيها الخلوة ، وتعجز المرأة الشريفة فيها عن التصون! بل إن الحضارة الغربية فى إباحتها للرقص ، واستباحتها لإرواء اللذات بسبل كثيرة ، أرخصت قيمة الأسرة ، وجعلت الزواج محدود الأثر فى حماية الأعراض ، وقصر كلا الزوجين على صاحبه! . .

وقد نتساءل عن مكانة الدين فى هذه الجاهلية السائدة؟ إن اليهودية مشغولة بتهويد فلسطين وقتل العرب ، والنصرانية مشغولة بالحملات الصليبية على بلاد الإسلام ، وتيسير الارتداد عنه بكل طريقة! . .

أما حقيقة التدين بالنسبة إلى الجماهير فلا تعدو أيام العطلة والأعياد السنوية . .

وإن كان هناك من بقى على تدينه ، وواءم بين مايعرف وما يرى! . .

إن الحضارة البشرية السائدة فى العالم اعتبرت اللذات الجسدية حقوقًا طبيعية ، ولم تر فى الاعتراف بها ما ينافى الأخلاق ، ووجهت نشاطها بعد ذلك إلى الميادين العملية ، من مدنية وعسكرية ، وسبقت سبقًا بعيدًا . .

أما الأمة الإسلامية فإنها لم تسر مع فطرة الإسلام المقررة ، ووضعت أمام الزواج عقبات اقتصادية واجتماعية صعبة ، وأنشأت تقاليد صارمة فى إمكان رؤية كلا الجنسين للآخر ! . .

وعند التأمل نجد هذه التقاليد مبنية على الرياء ، والجهل ، والكبرياء المزعومة لبعض الأعراق ، ثم دعوى التدين! .

وعندى أن تقاليد الغرب إذا وصفت بأنها لاشرف لها ، فإن التقاليد الشرقية لا عقل لها ، الأولى فاضحة والأخرى فادحة وضحايا التقاليد المرعية هنا وهناك ، كثيرة ومتشابهة! . .

فلننظر إلى تقاليد الإسلام كما تعرف من مصادره ، ومن تطبيقات سلفه الأول! . .

لا كما يزعمها أشخاص درسوا خط الانحراف ، ورأوا أن يئدوا المرأة معنويا إذا كان آباؤهم قد وأدوها ماديًا . .

المرأة فى الإسلام تقدر على التردد خمس مرات كل يوم بين بيتها والمسجد ، ومتروك لضميرها ألا يكون ذلك على حساب خدمتها لزوجها وولدها ، ومتروك لرب البيت المؤمن ألا يمنعها من ذلك مادامت قد أدت واجبها نحو بيتها .

وفى المسجد لايختلط الحابل بالنابل ، فللرجال صفوفهم وللنساء صفوفهن! والنساء سوافر أى مستورات الأجسام ماعدا الوجه والكفين ، هل يسمى هذا اختلاطًا؟ . . إن الرؤية ممكنة فى المسجد ، وفى أثناء التردد عليه! لكن أى رؤية؟ مع غض البصر! وأدب النفس ، فإذا رأى رجل محاسن امرأة لم يعاود النظر ليتملى ، فذلك مرفوض ، له النظرة الأولى وليس له الثانية! .

إن هذه الرؤية العابرة من أحد الجنسين للآخر لاشىء فيها شرعًا ، وإن جادل المجادلون! . .

والشارع الإسلامى تسير فيه المرأة محتشمة على ما وصفنا تذهب إلى السوق ، أو المدرسة أو إلى المسجد دون حرج!

ولنفرض أن رجلاً مر بجمع من النسوة فألقى عليهن السلام ، إنه لم يرتكب إثمًا فقد صح عن أسماء بنت يزيد قالت : **مر علينا رسول الله ﷺ فى نسوة، فسلم علينا، وفى رواية للترمذى فألوى يده بالتسليم** ! . .

وقد خرجت صحابيات مع الجيش ـ فى نطاق الاحتشام الذى وصفنا ـ وكن يطهين الطعام ، ويمرضن الجرحى ، وينقلن الموتى ، وكافأهن الرسول ﷺ ببعض الهدايا . .

ووقفت مليا عند حديث رواه البخارى ، أضعه بين أيدى المؤمنين ليروا فيه بعض معالم المجتمع الأول ، عن أبى جحيفة ﷺ قال : **آخى رسول الله بعض [بين سلمان وأبى الدرداء رضى الله عنهما، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة. أى رأى ثيابها رديئة الهيئة. فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا!! . .**

فجاءه أبو الدرداء فصنع له طعامًا ، وقال له : **كل.. فقال: إنى صائم! فقال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل!... وترك صومه. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم.. قال له سلمان: نم! فنام . .**

فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه! فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صدق سلمان» .

قلت فى نفسى : إن البيئة التى يصنعها خط الانحراف ترى فى سؤال سلمان لأم الدرداء جريمة ، وترى فى إجابة أم الدرداء جريمة أشد ، وربما عالجت هذا بضرب تزهق فيه الروح أو يترك عاهة مستديمة! .

ولا أدرى كيف يتم الزواج فى هذه المجتمعات المغلقة؟ يكاد يكون نوعًا من المقامرة! ومن أجل ذلك عرف العرب فى عواصم أوربا وأمريكا بالسعار الجنسى ، وغلقت بيوت لا تحصى على آلاف العوانس! والسبب فى ذلك تقاليد فرضها العرب من عند أنفسهم على المسلمين ما أنزل الله بها من سلطان .

لا أصف المجتمع المسلم بأنه منغلق أو منفتح ، إنه مجتمع طبيعى تحكمه تعاليم الفطرة السليمة وحدها . .

المجتمع المنغلق يرتاب فى حركات المرأة كلها ، ويفسرها بابتغاء الشر ، أو يخشى عليها ذلك ، ومن ثم فهو يحرم المباح ويضع السدود ، ويتناول النصوص بالتأويل ، أو يقوى الضعيف منها ويضعف القوى ، وينتهى بمحو شخصية المرأة .

والمجتمع المنفتح يضع عنان المرأة فى يدها ، ويحرض الذئاب على نهشها ، ويستغل اعترافه بشخصيتها كى يستغل ضعفها فى مبازله . .

وكلا المجتمعين شر! ولست أرى بديلاً عن تعاليم الإسلام يفهمها عقل طبيعى لاعقل ملتاث! .

لقد رأيت رجلاً جامعياً متزمتًا يستغرب قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(١) .

كأنه لم يسمع الآية حتى ذكرتها له محتجا بها على أن المرأة تأمر وتنهى ، وتحق الحق وتبطل الباطل! كان يتصور أن صوت المرأة عورة ، فما يجوز لها أن تتكلم ناصرة حقا ، أو خاذلة باطلا . .

وقال لى شخص ممن يرون حجب المرأة عن المجتمع : أليس يقول الله :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾(٢) .

قلت : إن القرآن لايضرب بعضه بعضًا ، وتفسير الآية الكريمة على أن البيت سجن للمرأة لاتخرج منه تفسير باطل ، فإن الحديث الصحيح : «**إن الله أذن لكن أن تخرجن فى حوائجكن**» على أن خروج المرأة من بيتها لايجوز أن يكون مع تبرج الجاهلية القديمة أو الحديثة ، إن مكثها فيه أولى من هذا الخروج السيئ . .

وعندما تخرج ـ وهذا حقها يقينا ـ فإن آية أخرى أرشدتها إلى الهيئة التى تخرج بها! إن للاستعفاف ملابس سابغة تلف الجسد وتنفى الريبة ، وتنطق بأن هذه المرأة تقية نقية ، أما الملابس الخليعة المتبرجة التى تستفز الشهوات فهى تغرى السفلة ، وتشتم منها الذئاب رائحة معينة ، وعلى المسلمة الشريفة ألا تؤذى نفسها بهذه الملابس ، فإنها بثياب الفضيلة تحمى عرضها ، وتحصن نفسها ، وهذا معنى قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾**(٣) .

فى المجتمع المسلم لابد من تقوى تسكن القلوب ، وإقام للصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومحافظة على حدود الله تملأ أكناف المجتمع بالعلامات الخضراء والحمراء ، على ما أمر الله وما نهى عنه . . فى هذا الجو تخرج المرأة للعمل إن

(١) التوبة : ٧١ . (٢) الأحزاب : ٣٣ . (٣) الأحزاب : ٥٩ .

احتاجت إليه أو احتاج العمل إليها ، ولها أن تقاتل فى البر والبحر كما فعلت قبل ذلك صحابيات ، وما يمنعها الإسلام من غزو الفضاء إذا أتاحت لها مواهبها ذلك! . .

فليست المرأة ـ بالإسلام ـ دون غيرها من أية ملة! . .

أعرف أشخاصًا يوغر صدورهم هذا الكلام ، إن هؤلاء المساكين أصابوا الإسلام فى مقاتله بقصورهم الشائن ، لقد كونوا جيلاً من النساء ما يحسن تربية أولادهن على حين تكافح اليهوديات بجلد مزعج لإقامة دولة إسرائيل ، وتكافح الراهبات لتحويل الألوف عن الإسلام . .

الواقع أننى أتشاءم من المستقبل عندما أسمع مفتين منسوبين إلى الإسلام لا يزالون يحرمون على النساء دخول المساجد! . .

وأريد لفت الأنظار إلى العلاقات بين الجنسين قضية تالية لما هو أهم منها ، وهو غرس الإيمان الصحيح ، ثم إنضاج المعانى المبنية عليه من إخلاص وتوكل ورغبة ورهبة وولاء وبراء ، ثم إقامة الأخلاق الاجتماعية من صدق وبر ووفاء ورحمة! . .

فإن العلل النفسية الناشئة عن فقدان ما ذكرنا تهلك الأمم أكثر مما يهلكها الاضطراب الجنسى . . وأثر التحاقد بين العرب شر من أثر التحلل بين أعدائهم . .

ومن الحماقة أن يظن كشف الوجه أخطر من خبث القلب وحسد الغير ! . .

٧٩. ما موقف الإسلام من تحديد النسل؟

يطلق هذا العنوان على قضيتين مختلفتين كل الاختلاف ، الأولى تعنى التحديد المؤقت بعبارة أدق تنظيم النسل ، أما الأخرى فتعنى تقليل عدد الأمة ، وحصره فى رقم معروف مثلا ، وتوجيه الأفراد بعد ذلك لتنفيذ مطالبه . .

ونتناول القضية الأولى ، فنواجه حالات فريق من النسوة يحملن ولم ينقض على وضعهن عدة أسابيع!

إن هذا الحمل يجىء والأم ضعيفة غالبًا من آثار الولادة السابقة ، ورضيعها بين يديها يحتاج إلى عناية موفورة ، والجنين الجديد ينشأ فى ظروف صعبة ، فإذا تم وضعه انشغلت الأم بولدين يرهقانها ويوهن أحدهما الآخر ! . .

من حق الأم أن تتقى هذه المشكلة ، وأن تؤخر الحمل بعد ولادتها نحو سنتين تتم فيهما الرضاعة ، وتقوى على حمل جديد! . .

وجمهور الفقهاء يبيح ذلك ويرى أن هذا التحديد المؤقت للنسل يحقق مصالح لها وزنها ، ويشترط أن يتم ذلك بموافقة الزوجين ، وباتباع وسيلة لا تضر الأم ، فإن كثيرًا من الأدوية المانعة للحمل تترك آثارًا سيئة على الأمهات والأجنة! . .

والواقع أن هذا التنظيم فردى لا جماعى ، وأنه لايضع رقما معينا للأولاد ، فما تقدمه الأقدار هدايا جديرة بالحفاوة ، ومن الغرور الزعم بأننا نسعد ونشقى! . .

وهنا يجىء الحديث عن القضية الأخرى ، قضية ألا يزيد عدد الأمة المصرية أو العراقية أو الباكستانية عن رقم معين ، أو نسبة مضبوطة فى الزيادة السكانية .

ونحن مضطرون إلى ذكر حقائق قد يكون بعضها مخجلا ، أو يكون من وضع ساسة يكنون للإسلام وأمته أخبث النيات . .

ونبدأ بالتنبيه إلى أن الحدود الجغرافية التى رسمت لدار الإسلام وشعوبها فى هذا العصر حدود وهمية مزورة لا اعتراف بها من الناحية الدينية . .

فلكل مسلم أن يطلب رزقه فى أى مكان ينشده بين الأطلس والهادى ، دون أى قيد ، وخيرات الأرض الإسلامية متاحة لكل من ينطق بشهادة التوحيد ، لايحجبه عنها مولده فى قطر من الأقطار .

ومن الجاهلية تكليف شعب فى إفريقيا مثلا بتقليل عدده لأن نتاج أرضه قليل ، على حين أن الأرض الإسلامية فى آسيا ثرية الينابيع! هذه تعاليم استعمارية لإفساد الأمة الإسلامية كلها بزيادة الفقر فى جانب وزيادة الغنى فى جانب آخر ، وهى تتوسل بالنزعات القومية لإشاعة هذه الفوضى التى لم تعرفها دار الإسلام منذ بدأ الإسلام ! . .

ولو فرضنا جدلاً أن العالم الإسلامى قل خيره وجفت ينابيعه فإن المسلم لا يرتبط بمسقط رأسه ، ولا بديار إخوانه فى الدين! أمامه أرض الله واسعة! أليس يقول الله : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[1] . . أليس يقول : ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[2] . .

لماذا لاينتشرون فى أرجاء الدنيا وينشرون دينهم كما فعل آباؤهم الأقدمون؟ . .

الحق أن قصة تحديد النسل بين المسلمين خاصة تخفى وراءها فضيحة إنسانية تضحك وتبكى! . . هذه الفضيحة هى ضمور المواهب البشرية فى أجيال من الناس تمشى فوق مناجم الذهب ، وتكسل عن أخذ ما بها! أو تعجز عن افتتاح أبوابها !

ناس يعيشون على الشواطئ ولا يحسنون الصيد! ولا يتقنون الزرع ، وقد تكون تحت أقدامهم بحيرات من البترول ، ولكنهم مشغولون عن استخراجه بالسمر والثرثرة والفخر بالآباء!

إن الأموال التى تنفق للإغراء بتحديد النسل ، لو أنفقت فى تحريك الأجهزة العقلية المتوقفة عند هؤلاء لكان ذلك أجدى!

لكن كيف تتغير مصارف هذه الأموال ، وهى من أثرياء اليهود فى أمريكا وأوربا؟ . . إن القوم يريدون أن يقل النسل بين المسلمين خاصة لأغراض معروفة! . .

---

(١) الملك : ١٥ .　　(٢) الأعراف : ١٠ .

ونتساءل : ما الجدوى آخر الأمر؟ إنه بدل أن يكون التعداد «٥٠ مليون» كسلان سيكون «٤٥ مليونًا» فقط! أبهذا تنهض الأمم؟ أو تحل المعضلات الاجتماعية؟ . .

ونلقى نظرة أوسع على العالم أجمع ، أصحيح أن خيرات الأرض دون إعداد البشر التى تنمو باطراد؟ . .

الذى نراه أن جهودًا هائلة فى الإنتاج الزراعى والصناعى تجمد عمدًا فى أسلحة الدمار الشامل! إن الله لم يقتل البشر بتقليل رزقه وإجاعة خلقه ، ولكن البشر يتظالمون وينتحرون بالأثرة والعدوان . .

والمسلمون يحملون وزرًا مضاعفًا فى تلك الفوضى ، لأنهم يجهلون ما لديهم من حقائق أو يجحدونها ، وهوانهم الإنسانى أزرى برسالتهم وزهد الآخرين فيها! ولو هبطوا إلى نصف عددهم ما أغنى عنهم ذلك! وأثبت هنا هذه الكلمة فى العدد ١٥٦٠ من صحيفة «الشرق الأوسط» فى عمود «أسود وأبيض» كتب الأستاذ فاروق لقمان كلمة عن اليابان وسر تطورها حضارياً وصناعياً ، وكيف أضحت طليعة زاهية فى العالم الأول ، وكيف أن أمريكا وأوربا معا تخشيانها ، وترهبان منافستها لهما! . .

وعزا الكاتب سر هذا الارتقاء إلى الأم اليابانية ، فهى التى تغرس فى أولادها خصائص التفوق ، والإصرار على النجاح ، وفضائل الصدق والإخلاص وحب الوطن . . . إلخ .

والواقع أنى أحسست بالأسى لأن الأم الإسلامية لا تعى شيئًا من هذا كله ، لقد كتب عليها باسم الإسلام المفترى عليه ألا ترى أحدًا وألا يراها أحد ، ومنعت منعًا باتا أن تدخل مسجدًا أكثر من عشرة قرون! ومنعت منعًا باتًا أن تدخل مدرسة أو تتلقى علمًا فى معهد خاص أو عام ، كأن تجهيلها دين ، حتى قيل : لولا الحضارة ما فتحت جامعة أمام طالبة ، بل ما فتحت مدرسة ابتدائية!!

وأحزننى أن يسأل الإسلام عن هذا الهوان!! .

ثم قرأت بعد ذلك تعليقًا للسيد الزبير محمد نور سليمان يؤيد فيه تعاون الجنسين فى اليابان على النهوض بمستويات الأمة كلها ، ويؤكد عظمة النصيب الذى تسهم به «الأم»! مما يذكر بقول حافظ إبراهيم :

قال السيد الزبير : هذا الحديث ذكرنى بأشياء شاهدتها وعشتها فى اليابان . ساقتنى الظروف إلى هناك على ظهر سفينة يونانية ، كنت ضمن بحارتها كانت السفينة محملة بفول صويا . . من ميناء نيو أورليانز بأمريكا إلى ميناء يوكوهاما والباقى فى ميناء آخر فى اليابان نفسها . . عملية التفريغ تتم دائما لمثل هذا النوع من الحبوب ، بواسطة أنابيب كبيرة توضع داخل العنابر وتشفط الحبوب بواسطة الضغط إلى صومعة الغلال مباشرة . . أسرع طريقة أشاهدها . . أى فى غضون خمسة أيام تفرغ سفينة حمولة قدرها ثمانون ألف طن . . هذا غير الذى شاهدته فى ميناء الإسكندرية ، حيث مكثنا ثلاثة أشهر بالتمام لتفريغ حمولة بنفس القدر من القمح بواسطة الجوالات . . نصفها يضيع على سطح السفينة وداخل الماء طعامًا للسمك ، والنصف الآخر تحملها ترلات إلى داخل البلد ، والقمح يصب من الجوالات المهترئة على الأرض . . فى شريط ليس له نهاية . .

إن هذه الظاهرة هى التى رأيتها فى الإسكندرية وللأسف الشديد نعود إلى اليابان ، بعد أن تم تفريغ الشحنة فى يوكوهاما بدأنا نستعد لمغادرة الميناء ، ولكن قبل المغادرة كان يجب تسوية أكوام فول الصويا داخل العنابر ، كى لا تميل السفينة وتتعرض لخطر الغرق . . إذا كان لزاما على المسئولين فى الميناء القيام بهذه المهمة . . بعد ساعات قليلة رأيت مجموعة من النساء العجائز يهرعن إلى السفينة وهن يحملن معدات العمل من حبال ، ومجارف وجوالات ، أقول نساء عجائز عمر أصغرهن يقارب الستين عامًا . . عمر جدتى بادئ ذى بدء لم أصدق ، قلت : ربما جئن لمساعدة العمال فى أشياء خفيفة . . ولكن رأيت النساء ينزلن العنابر كالشياطين ويبدأن العمل بهمة لاتعرف الكلل . . وأى عمل . . عمل شاق يصعب على الرجال الأشداء . . أنا كبحار ورجل عندما أنزل فى هذه العنابر على السلالم الحديدية ، العارية من أى مكان ، أشعر بالدوار والرهبة ؛ لأن عمق العنبر نحو خمسة عشر مترًا ، وطوله أكثر من خمسين مترًا كله مبنى من الحديد . . رأيت النساء ينزلن ويصعدن هذه السلالم فى دقائق معدودات . . تعجبت من هذه الأمة . . قلت إذا كانت نساؤهم يعملن هكذا ، فكيف يعمل الرجال إنهن يحققن

المعجزات التى لا تخطر على بال . . فلا عجب إذا رأيت اليابان فى هذا العلو الشاهق من العلم ، والتطور ، والتكنولوجيا والصناعات التى أذهلت أوربا وأمريكا . . إننى أسجل هذه القصة لأنها تشير إلى عمل ما تقوم به بعض النسوة! وإن كنت أتردد ـ ولعل ذلك من آثار التربية ، وطبائع البيئة ـ فى اختيار هذا العمل لعجائزنا . .

بل إننى رفضت أن تقوم النساء بغسل شوارع «موسكو» ليلا ، وعافت نفسى إسناد هذه المهن لهن عندنا ! . .

إن كل الذى أريده تنفيذ تعليمات الرسول ﷺ فى أن النساء شقائق الرجال ، وتنفيذ الحقيقة القرآنية . . ﴿ **لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** ﴾[1] .

أما هذا السحق لشخصية المرأة ، وعدها للمهام الجسدية وحدها ، فذاك عوج أعتقد أن تقاليد الصحراء هى المسئولة عنه ، لا تعاليم الإسلام ، ومن الظلم أن يؤاخذ الإسلام بتقاليد أمة من الأمم التى دخلت فيه .

على هذه الأمة أن تنقاد لتعاليم الإسلام ، لا أن تفرض تقاليدها على هدايات الله . .

(١) آل عمران : ١٩٦ .

٨٠. لماذا حرم الإسلام الخمر؟ وما عقوبتها؟

بين يدى العـدد ٣٨ الذى أصـدرته منظمـة الصـحـة العـالميـة سنة ١٩٨١م عن الكحول والعقاقير المخدرة ، وقد أجلت النظر فى صحائفه فوجدتها ملآى بالنذر من ضراوة الخمر وفتك المخدرات ، ووجدت دراسات طبية وإحصاءات اجتماعية تثير التشاؤم بسبب كثرة السكارى والمدمنين! . .

تحت عنوان «ثمن الكأس» جاءت هذه العبارة : إن الخـمـر شـراب يبعث على السرور والاسترخاء لدى الألوف المؤلفة! ولكن المشكلات التى تنشأ عنها تعوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بل تهدد بفيضانها العرم كل الخدمات الصحية المتاحة . .

ثم يقول الكاتب «جون مادبى» إنَّ الخمر تسببت فى وفاة ما بين ٣٣٪ ، ٥٠٪ من ضحايا حوادث الطرق فى البلاد المتقدمة ، وتتزايد نسبة الوفيات فى العالم الثالث ، و«الكحول» مخدر يمكن أن يحطم الحياة العائلية ، ويكلف الكثيرين فقدان مكانتهم الاجتماعية ، أو وظائفهم ومواردهم التى تؤمن حياتهم! . .

كما يسبب الكحول ثلاثة من عشرة من حوادث العمل ، وهو أساس فى ضعف الإنتاج ، كما أنه سبب رئيسى فى ارتكاب الجرائم ، ذلك إلى جانب أن الكحول يؤدى إلى تليف الكبد ، وهو يشكل عبئًا ثقيلاً على الخدمات الصحية فى جميع أنحاء العالم ، وفى أستراليا مثلا نراه العلة الأولى وراء نصف المرضى فى مؤسسات الصحة النفسية!! . .

والخمر من وراء فقدان الملايين من ساعات العمل على امتداد السنة وقد قدرت الولايات المتحدة خسائرها فى الإنتاج ـ بسبب الكحول ـ بعشرين مليار دولار سنويّاً . .

وفى مقال آخر عن الخمر والنساء تقول الكاتبة : إن النساء المدمنات يعانين أكثر من الرجال من أمراض الكبد ، رغم المقادير التى يتناولنها ، كما أن

استجابتهن للعلاج أقل من استجابة الرجال ، وينتهى أجلهن فى سن أصغر من نظرائهن من الذكور! .

وفى مقال عن الخمر والشباب بدأ الكاتب حديثه بهذه العبارة : عندما يشرب الآباء الخمور ، فإن الأبناء هم الذين يدفعون الثمن .

والواقع أن الآباء والأبناء جميعًا يدفعون الثمن الفادح إن كانت العبارة الأولى هى التى رفعها الفرنسيون شعارًا لهم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية! . .

ومما يلفت النظر أن المستعمرات بعد تحررها يزداد استهلاكها للخمور! وإن دولا كثيرة فى العالم الثالث تقبل على السكر وتتجه إلى الإدمان ، وليس هذا عجيبًا ، فإن الفهم الأعوج للحضارة والتقليد الأعمى للغربيين من وراء هذا الانحطاط المبين . .

إن الإسلام حرم الخمر ، وعدَّها من كبائر الإثم! ونظمها فى سلك واحد مع الزنى والسرقة ، ففى الحديث : «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» . .

وعن أنس بن مالك : **لعن النبى ﷺ فى الخمر عشرة! عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وواهبها، وآكل ثمنها!!** وظاهر من هذا الاستقصاء أن الشارع يريد قطع دابرها ، ومحو آثارها ، وإغلاق كل الأبواب التى تؤدى إليها .

والقرآن عدها مع الوثنية والقمار وأوهام الشرك :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾[1] .

والخمر كل ما غطى العقل ، وأعجز الفكر أيا كان مصدره! يستوى فيه العنب والموز والقصب ، ويستوى فيه الجامد والسائل . . فإن القصد واضح ، الله كرم الإنسان بالعقل ، فما أضاع العقل حرام . .

---

(١) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

ومن السخف كذلك تصور الشارع يحرم الخمر السائلة ، ويتجاوز عن عقاقير جامدة قد تكون أشد من الخمر ضراوة وأعظم فتكا ، وإذا كان أئمة الفقه الأقدمون لم يذكروا الحشيش والأفيون فلأن بيئاتهم لم تعرفه . .

فلما ظهرت بعض المخدرات أيام ابن تيمية عدها لفوره من الخمور ، وفى أيامنا هذه ظهرت عقاقير أخرى كالكوكايين ، والماريجوانا وغيرهما تغتال العقول ، وتهلك المدمن وتستأصل إنسانيته فكيف تترك؟

وفى الحديث : «**كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام**» وفى حديث آخر : «**إن من العنب خمراً ، وإن من التمر خمراً ، وإن من العسل خمراً ، وإن من البر خمراً ، وإن من الشعير خمراً ، وأنهاكم عن كل مسكر**»!! . .

وظاهر من الحديث أنه يسوق نماذج ، ثم يذكر القاعدة العامة ، ونحن لا نهتم بالأسماء ، ولا بالمصادر ، وإنما نهتم بالتشخيص العلمى للأشربة والعقاقير ، فما ثبت تغييبه للعقل ، أو ما أفقد المرء اتزانه الفكرى فهو محرم بيقين!! . .

ولم تكن الخمر مألوفة فى البيئات الإسلامية ، وأذكر أننى فى طفولتى سرت مع موكب كثيف من أهل قريتنا وراء رجل ثمل ، نستغرب تمايله ونستنكر سكره! وعرفت أنه سكر فى حانة فتحها بعض اليونانيين فى ظل الاحتلال الإنجليزى . .

ثم أخذت الخمر تشيع مع هيمنة الاستعمار على شئوننا ، ثم أمست معهودة فى الأحفال «الديبلوماسية» وعلى موائد بعض المنحلين! . .

والواقع أن الخمر غامضة الحكم بين النصارى! وأغلبهم يستحل قليلها ، وينأى عن كثيرها! وإن كان القليل عادة يجر إلى الكثير ، وتلك طبيعة عامة فى الأشربة المسكرة والعقاقير المخدرة . .

ومع اضطراب الأعصاب ، وما وفدت به المدنية من هموم ، رأينا من يؤثر الغيبوبة على مواجهة المكاره! ولا بأس أن يغمض بصره أو بصيرته حتى لايرى ما يكره! . .

أهو منطق العامة؟ أم هو لون من الانتحار؟ أم هو التماس السرور فى الأوهام كما قال الأعرابى الأبله :

وإذا سكرت فإننى ... رب الخورنق والسدير!

وإذا صحوت فإننى ... رب الشويهة والبعير!

إن فترة الغيبوبة التى يحدثها السكر تعطل عمل العقل وتترك الشهوات سائبة دون قيد، وتتيح الانطلاق الحيوانى دون خوف على كرامة أو تهيب لسلطة! . .

وقد حكى الأدباء أن بدوية وفدت على بغداد، وحضرت عرسًا يشرب فيه المنكر، فلما انتشت قالت : أيشرب هذا نساؤكم؟ قالوا : بلى! قالت : زنين ورب الكعبة!! . .

الحق أن تحريم الخمور حفاظ على الدين والشرف والخلق والكرامة . . إلا أن الأوربيين مشوا فى طريقهم، فلما رأوا المخدرات سريعة التدمير للأمة حظروها بعنف، ويوجد تعاون عالمى على مطاردة هذه المخدرات، ومعاقبة تجارها ومتناوليها . .

أما الخمر فقد ازداد الإحساس بضراوتها فى الأيام الأخيرة وتوجد حكومات غير إسلامية تحرمها ـ كالهند مثلا ـ لضرورات قومية . .

وفى العالمين الرأسمالى والشيوعى تنطلق الدعايات الصحية والاجتماعية للتنفير منها، وإبراز مقابحها، فهل ذلك يكفى؟ . .

إن الإسلام تأنى فى إعلان حكمه على الخمر، وإن كان من أول يوم ينظر إليها شزرًا، ولم يقرر مهاجمتها إلا بعد أن أقام دعائم من الإيمان، وضوابط الأخلاق تعين على الخلاص منها، فلما أصدر الحكم بعد هذا المهاد أريقت دنان الخمر فى الأزقة، ورميت قربها فى المزابل . .

أى إنه لابد من مقدمات نفسية وفكرية تسبق أو تساند الحظر . .

وجمهور الأطباء والمربين والساسة والقواد العسكريين يكافحون المسكرات فى العهود الأخيرة، وأظن أنه لايمنع من عقاب شاربيها إلا الخوف من التشبه بالإسلام! . .

والفقه الإسلامى يضع حدًّا لشارب الخمر قدره ثمانون جلدة، وليس لهذا الحد سند من الكتاب الكريم أو السنة المطهرة، وإنما اتفق عليه جمهور الصحابة، وأوصى به الدولة فنفذته! ومن الفقهاء من يكتفى بأربعين جلدة . .

وفقهاؤنا مجمعون على أن من سكر من أى شراب نفذ فيه الحد، وإن أخذ أى جرعة من الخمر أسكرت أم لم تسكر حرام، وفيها العقوبة المقررة . .

إن دولاً كثيرة عاقبت تجار الأفيون ومتناوليه بالقتل ، ولم يسلم لها كيانها إلا بهذا العقاب الصارم ، ومع أن قليلا من الأفيون يحتاج إليه صحيّاً ، وفى مجلة الصحة العالمية التى أومأت إليها آنفا : « . . إن المواد المشتقة من نبات الأفيون مثل «الكودين» و «المورفين» مفردات مهمة فى دستور العقاقير»!! . . فهل شفع ذلك فى تخفيف العقوبة على مروجيه ومدمنيه؟؟ . .

فلماذا نتهاون فى مجال المسكرات ، ثم نشتط فى مجال المخدرات؟ قد تكون نسبة الكحول فى البيرة وما يشبهها ٣٪ أو أزيد قليلا ، بيد أن الملحوظ فى هذه الأشربة أن قليلها يجر كثيرها ، أى إن الذى يشرب زجاجة من البيرة يتجرع من سموم الكحول مثل أو أكثر من الذى تناول كأس خمر !! . .

٨١. التدخين عادة شائعة، فهل للدين رأى فيها؟

لم يكن التبغ موجودًا على عهد النبوة حتى يصدر فيه حكم ، وليست له خصائص الإسكار التى لأنواع الخمور حتى يمكن إلحاقه بها ، ومن ثم فإن الحكم له أو عليه يرتبط بالآثار التى يتركها فى جسم الإنسان . .

ولم أقرأ لأحد كلمة فى أن للتدخين فائدة ، بل إن جمهرة العقلاء من باحثين وأطباء أطالوا القول فى أضرار التدخين ، ويكاد إجماعهم ينعقد على أنه سم بطىء! . .

وقد طالعت عددًا من المجلة التى تصدرها منظمة الصحة العالمية عنوانه الواضح على الغلاف «**التدخين نقمة والصحة نعمة والاختيار لك**»! . .

وفى المقال الأول من هذا العدد وردت هذه العبارات : «لقد اتضحت العلاقة بين تدخين السجائر وطائفة من الأمراض المزعجة! كما اتضح أن نسبة الوفيات بين المدخنين أزيد كثيرًا من نسبتها بين رافضى التدخين! ولعل أكثر الأمراض ارتباطا بتدخين السجائر سرطان الرئة ، والتهاب الشعب ، وانتفاخ الرئة ، وأمراض القلب الإسكيمية ، وأمراض الأوعية الدموية! وترجع ٨٠٪ من الوفيات المتزايدة إلى هذه العلل! وهناك أمراض أخرى أكثر شيوعًا بين المدخنين ، هى سرطان الشفة واللسان والفم والحنجرة والبلعوم والمرىء والمثانة! ويتكرر حدوث قرحة الإثنى عشر بين المدخنين أضعاف حدوثها بين غيرهم . . . إلخ .

وقد تأملت فى هذا الكلام طويلا ، ولم أستطع رده ، ولكنى تساءلت : لماذا تبدو هذه النتائج ببطء حتى أن البعض يرتاب فيها؟ وعلمت أن الخالق أبدع تكوين الجسم البشرى ، وأودع فيه مقاومة شديدة للبلاء الهاجم! كأن الجسم ثوب متين النسيج يمكن أن تحمل فيه الحديد والحجر دون أن يخترق! بيد أن كثرة الاستعمال ، ستوهن قدرته يومًا فلا يتماسك أمام شىء يوضع فيه! . .

وربما ظن البعض أنه محصن ضد السرطانات وضروب الأذى المقرونة بالتدخين ـ وليس لهذا الظن أساس علمى ـ لكن يبقى ما لا شك فيه ، وهو أن التدخين

مضعف عام للصحة ، وأن جهد المدخن أقل من جهد غيره ، وأن الرائحة الرديئة المنبعثة من التبغ المحترق تلوث الفم والأصابع والملابس والجو المحيط بالمدخنين ، بل إن رائحة التدخين قريبة من النتن ، ومن حق الشخص السوى أن ينفر منها . .

وجمهور كبير من المدخنين ليس واسع الثراء حتى يحرق أمواله بلا مبالاة ، لقد ظهر أن الألوف المؤلفة من صرعى هذه العادة يحتاجون وتحتاج أسرهم إلى هذه النفقات الضائعة لتوفير الألبان والفواكه والأطعمة التى لاغنى عنها .

وقد رأت الحكومات على المستوى الدولى أن تدق أجراس الخطر ضد التدخين ، ولكنها اكتفت لأسباب ـ نضرب عن ذكرها ـ بإلصاق لافتة على كل علبة سجائر تشير إلى ضرر التدخين!

والعدد الذى بين يدى من مجلة الصحة العالمية يقول : « . . بالرغم من تحول صناعة السجائر فى البلدان الغنية إلى إنتاج سجائر تنخفض فيها نسبة القطران! وسجائر مزودة بالمرشحات «الفلتر» فإن السجائر المصدرة إلى العالم الثالث عمومًا تحوى نسبة من القطران تزيد ثلاثة أو أربعة أمثال على ما يشابهها فى البلدان المتقدمة»! . .

إن حياة السكان فى العالم الثالث تافهة ، ولا معنى للمحافظة على صحتهم! . .

والحقيقة أن التدخين بدأ يقل فى أغلب الأقطار الواعية ، وأن طوائف كثيرة من المثقفين هجرته ، وقد قرأت فى مجلة الصحة العالمية المذكورة أنه تبين من دراسة أجريت على ٦٠٠,٠٠٠ طبيب بريطانى أن نصفهم كف عن التدخين بين عامى ١٩٥١ و ١٩٦٥ ، ونتيجة لذلك انخفض معدل الوفيات بين الأطباء . .

إن شركات التدخين العملاقة تجد ضحاياها فى العالم الثالث ، وقد ارتفعت نسبة التدخين بل نسبة السكر بين الألوف المؤلفة فى هذه الأقطاع التعيسة ، وافتن المعلنون فى اجتذاب الفرائس الغبية ، فهذه امرأة أفهموها أن التدخين يزيد جاذبيتها! وهذا عيِّل أفهموه أن التدخين رجولة ! وهذا عامل أفهموه أن التدخين يجعله فارسا لا ينقصه من مظاهر الفروسية إلا أن يمتطى صهوة حصان ، أو حمار!! وهذا امرؤ مستغرق فى فكر عميق يحلم مع سحب الدخان المنعقدة من سيجارة ، بم يحلم؟! أو فيم يفكر؟ فى هراء وخديعة كبرى! . .

إن التواطؤ على استغلال العالم الثالث بلغ حد الفجور فى الاستخفاف والاستغلال ، فقد كتب محرر جريدة «الراية» تحت عنوان «عقاقير الموت» هذا الخبر : أجرى فريق من علماء جامعة «كاليفورنيا» دراسة خلال السنوات العشر الماضية فى أكثر من عشرين بلدًا من بلدان العالم النامى ، تم خلالها تحليل نحو ٥٠٠ دواء وعقار من المعروضات الصيدلية التى تنتجها ١٥٥ شركة عالمية وتصدرها إلى أقطارنا! ثم أصدرت الجامعة نتيجة هذه الدراسة فى كتاب نشرته بعنوان «وصفات الموت فى العقاقير الموردة لبلاد العالم الثالث» . .

وتؤكد النتائج أن بعضا من كبريات الشركات العالمية ذات المكانة المرموقة فى إنتاج الأدوية والعقاقير الطبية ، تسوق منتجاتها فى أقطار العالم الثالث بوسائل من الإعلانات المكذوبة والدعايات القائمة على الغش والرشوة والخداع ، وتتغاضى هذه الشركات عن ذكر الأعراض الجانبية للأدوية التى تبيعها . ٥المضاعفات الخطيرة التى تنشأ عن منتجاتها ، وكثيرا ما تكون لها عواقب وخيمة ومميتة . .

وأشارت الدراسات إلى أن أربع شركات وحسب من الشركات الـ ١٥٥ هى التى تلتزم بأمانة العمل وأخلاقياته ، وذكرت أن الأدوية المعروضة تتنوع بين علاجات للصداع والحمى ومهدئات وبين مضادات حيوية ، أو حبوب منع الحمل . .

قال المحرر : وبما أننا من أبناء العالم الثالث فإن أسواقنا سوف تبقى مجالا لهذه الأنشطة المسمومة ، وسوف تبقى مستهلكة لمقادير ضخمة من أدوية الطالح فيها أضعاف الصالح . .

الحقيقة أن الأمم الغربية لاتعدنا بشرًا مثلهم ، وأنهم ينظرون إلينا باستهانة أو بازدراء! . . إن كلمات الشرف والاستعفاف والأمانة ملغاة فى معاملتنا ونحن المسئولون عن هذا السلوك المحقور . .

ومن دعا الناس إلى ذمة ذموه بالحق وبالباطل!

إن قدرًا كبيرًا من الأموال العربية يذهب فى مطالب السرف ومظاهر الترف التى تسيطر على الخاصة والعامة! . .

والغربيون يعلمون أن تقاليد الرياء الاجتماعى هى التى تحكمنا ، وعن هذا الطريق يستنزفون ثرواتنا . .

الصعلوك يخرج من بيته واضعًا السيجارة فى فمه ، وبيته محتاج إلى بعض الضرورات ، وحسبه ذاك من مخايل الرجولة! والغنى يبعثر بيديه فى ميادين اللهو الحلال والحرام ، وهو يعلم أن أعدادًا لا تحصى من المسلمين قتلهم الجفاف أو استحوذ عليهم التبشير فكفروا بعد إيمان! . .

وقد كنت أحيانا أنظر إلى العمال وإلى الفلاحين العائدين من الجزيرة والخليج ، فأعجب لما يحملون من هدايا! لقد أهدروا عرقهم المبذول فى أجهزة التليفزيون والفيديو ، وعادوا ليسهروا عليها مع الأصحاب ، مضيعين بسهرهم العشاء والفجر! ومبتدئين بعدئذ نهارًا لا بركة فيه ولا إنتاج . .

لأدع هذا الاستطراد ـ وما منه بد ـ ولأسأل : هل التدخين مباح؟ إننى لا أقدر على الحكم بإباحته بعد ما قرأت عن أضراره المؤكدة . .

هل هو حرام؟ قد يكون حرامًا على بعض الناس! وقد يكون مكروها عند البعض الآخر! . .

والغريب أننى قرأت لامرأة مدخنة : أن رائحة التدخين أخف من رائحة الفم الطبيعى! فأيقنت أنها هى أو بعلها مرضى! وأنهما يجب أن يذهبا إلى طبيب يشفيهما بدل أن يحكما بإباحة التدخين ، فقد قرر أطباء محترمون أن التدخين شديد الأضرار بالنساء ، وأنه قد يؤثر فى صحة الجنين! . .

إن الرائحة الجميلة من شعائر الإسلام ، سواء كانت فى الجسم أو فى الملابس ، والرجل الكريه ينبغى ألا يخالط الناس ، فإن صلاة الجماعة تسقط عنه ، ولا أستطيع القول بأن رائحة الدخان حسنة !! . .

٨٢. ما حكمة الزكاة؟ وما نصابها؟

البخل عاهة قديمة فى الطبيعة البشرية ، ترجع إلى حب المرء لنفسه وحرصه على مصلحته ، وارتيابه فى المستقبل ارتيابا يغريه بالادخار ، والجمع بعد الجمع! .

والدين لا يبغض للمرء نفسه ولا يزهده فى مصالحها ، ولكنه يرفض أن يتحول ذلك إلى تجاهل للآخرين ، وفقدان للشعور بوجودهم وحقوقهم! ولعل ذلك هو الفارق بين الإنسان والحيوان! . .

فالحيوان ما يتحرك إلا وفق قوانين اللذة والألم ، إنه يستقتل من أجل قوته أو قوت صغاره الذين هم امتداد له ، والعالم فى عينه لايتجاوز هذا النطاق . .

والإنسان القريب من الحيوان يصبح ويمسى محصورًا فى مآربه ومطالبه ، لا يفكر أبعد من ذلك فليحى هو ولتمت الدنيا كلها بعدئذ .

وقد جاء الإسلام فخلع الفرد من هذه الأثرة ، وجعله جزءا من كيان مشترك أو جسد واحد ، وأفهمه أن الإيمان يقتضى محبة الآخرين والرحمة بهم ، واحترام مصالحهم ، وقد يقتضى الإيثار والعطاء المبرأ من المن .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] وقال : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾[2] .

وعند التأمل نجد أن حب المرء لنفسه ونسيانه لغيره يكمن وراء تشبعه مع جوع الآخرين ، وتطلعه إلى مزيد مع فقدان غيره للضرورات الماسة! ولم أعرف شيئًا يورث الضغائن كهذا التفاوت ، إنه يحول الجماعة البشرية إلى قطيع متوحش! . .

ومحنة الدين فى المجتمعات التى تحولت إلى الماركسية أتت من ذلك التفاوت الظالم ، والثوار ما كانوا حاقدين على الوجود الإلهى قدر ما كانوا ضائقين ببطنة الكهان ومسغبة البائسين . .

---

(١) التغابن : ١٦ .   (٢) الليل : ١٧ ـ ٢٠ .

وقد رأينا القرآن الكريم يعد أولئك الكهنة البطان هم السبب فى كفر الناس! ويعتبر مسلكهم صدا عن سبيل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] .

والكلام فى الزكاة فرع تنقية الطباع من الشح ، وغرس الأخوة المتحابة المتراحمة المتكاملة . .

وقبل أن أعطى أحدا من مالى أنا باسم الزكاة يجب أن أضمن للكادح ثمن عرقه ، وجزاء سعيه! . .

لقد رأيت قاعدين يشركون الآخرين فى ربحهم تحت عناوين ما أنزل الله بها من سلطان! رأيت الأعرابى يكفل عشرة من الناس ليستولى على نصف رواتبهم جميعًا! والإسلام برىء من هذا الجشع والغصب! .

إن دور الزكاة يجىء بعد إرساء قواعد الحلال والحرام ، فإذا حدثت ثغرات فى المجتمع بعد تسييره وفق سنن عادلة فإن الزكاة تمسح الآلام ، وتنشر الرحمة والوئام ، إن الزكاة طهارة نفسية واجتماعية قبل أن تكون مساعدات مادية ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] .

لم أعرف نظامًا دينيا فى الأولين والآخرين اهتم بالزكاة والصدقة مثلما اهتم الإسلام ، وفى كتاب الله وسنة رسوله آيات وحكم تحس معها كيف يريد الإسلام تعميم الخير وإشاعة النعمة ومطاردة البأساء والضراء ، وجعل بسمة الرضا يصطبغ بها كل فم ! . .

من قديم والناس يكرهون استخراج المال من خزائنهم ، ويودون لو بقى لهم وحدهم ، بيد أن الإسلام يقاوم هذه الرغبة ، ويكسر حدتها ، وإذا احتاج الأمر إلى مقاتلة أصحابها أعلن عليهم الحرب حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وهكذا فعل الخليفة الأول ، فهل يتكرر ما فعل؟ . .

عن الأحنف بن قيس قال : «**كنت فى نفر من قريش فمر أبو ذر رضى الله عنه وهو يقول: بشر الكافرين برضف يحمى عليهم فى نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدى أحدهم**

---

(١) التوبة : ٣٤ .	(٢) التوبة : ١٠٣ .

حتى يخرج من نغض كتفه.أعلاه.ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل، فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً! فأدبر، فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم! فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً! إن خليلى أبا القاسم دعانى فأجبته، فقال: أترى أحداً؟ فقلت: أراه! فقال: ما يسرنى أن لى مثله ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير! ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لايعقلون شيئاً» . .

وقد جاءت عن أبى ذر رواية أخرى تفسر ما نقلناه هنا قال : **انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال: هم الآخرون ورب الكعبة! قلت: يارسول الله فداك أبى وأمى، من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالا! إلا من قال هكذا وهكذا ثلاث مرات من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله! وقليل ماهم! ما من صاحب! بل ولا بقر ولا غنم لايؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه «تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما نفدت أخراها عادت إليه أولاها حتى يقضى بين الناس»** . .

وهذا الحديث يفيد إخراج الحقوق المعلومة ، والتيقظ إلى كل خلل يقع فى المجتمع والمسارعة إلى سده ، وهو ما قاله الله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١) .

وهذا الإنفاق المطلوب لايعنى أبدًا أن يظل المرء ينفق حتى يفلس ، ويصبح مساويًا لمن كان يعطيهم! فهذا فهم سخيف ، وإنما القصد قهر البخل وإحسان المواساة! عن جابر بن عبدالله ﷺ قال : **جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يارسول الله، أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، فأتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك فأخذها ﷺ فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته، وقال: يأتى أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة! ثم يقعد يتكفف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى!** . .

وإنما شرحنا هذه القضية لأن البعض نسب إلى أبى ذر أنه يحرم الكنز ، ويأمر بالنفقة حتى لايبقى شىء ! . .

هناك حق معلوم قدر فى السنَّة الشريفة بربع العشر فى الأموال المدخرة وعروض التجارة ، وبنصف العشر فى المحاصيل التى يتكلف فيها أصحابها ، وبالعشر فى

(١) البقرة : ٢٧٤ .

المحصولات السهلة . واختار فى الأراضى الزراعية المستأجرة أن تكون الزكاة بين المالك والمستأجر ، كما أختار القول بأن الزكاة فى جميع ما تخرجه الأرض من حبوب وفواكه وثمار . .

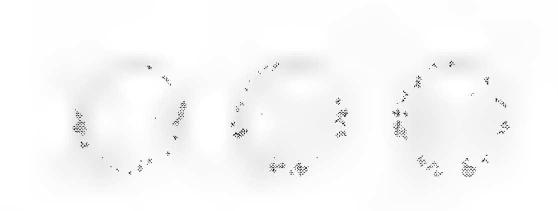
وقد جدت فى ميادين المال أشياء تقتضى النظر فى أحكام الزكاة المتوارثة ، فإن القواعد التى درسناها تجعل الوزير مثلا لايخرج زكاة عن مرتبه الذى ينفقه فى بيته ، مادامت النفقة تستغرقه! على حين توجب الزكاة على فلاح يزرع فدان شعير ، وتطالبه بحق الفقير يوم الحصاد! كما أن أغلب الفقهاء القدامى لا يأخذون زكاة من فدان فاكهة يدر ألف جنيه ، ويأخذونها من فدان يدر ربع هذه القيمة . .

وقد لفت النظر من أربعين سنة فى أول كتاب ألفته إلى هذا التفاوت المثير ، وتحدثت عما أسميته زكاة المال وزكاة الدخل! وقد كان ذلك إشارة محدودة إلى ما يجب عمله ، لاسيما أن الزكاة ليست عبادة محصنة يستحيل فيها التغيير ، بل هى عبادة مربوطة بحكمة ، وتترتب عليها مصالح متجددة . .

ثم جاء الشيخ يوسف القرضاوى فوضع كتابه فقه الزكاة الذى قلت : إنه أهم كتاب ألف فى هذا الركن الإسلامى منذ بدأ تاريخنا الثقافى . .

والواقع أنه يجب أن تقوم على عجل لجنة من الفقهاء والاقتصاديين تترجم المصطلحات القديمة إلى مفاهيمها الحديثة ، تبين كم تساوى عشرون مثقالا من ذهب ، ومئتا درهم من الفضة وخمسة أوسق من الحبوب ، وماذا يتركه التضخم من آثار فى قيم الأنصبة؟ . .

إن الزكاة عمل رائع فى ديننا العظيم ، وقد حصنت المجتمع الإسلامى من زلازل دكت غيره ، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدرس والتطبيق الواعى ، وضبط الحقوق المعلومة ، وإيصالها إلى أصحابها بأشرف أسلوب .



٨٣. ما العلاقة بين الإسراء وبنى إسرائيل ؟

ليس من قبيل المصادفات العارضة أن تروى آية فذة قصة الإسراء ، ثم ينتقل السياق بغتة إلى تاريخ بنى إسرائيل . وليس من قبيل المصادفات العارضة أن تسمى سورة الإسراء فى بعض المصاحف سورة «بنى إسرائيل» . .

بل أقول : إنه ليس من المصادفات العارضة أن يدخل صلاح الدين «بيت المقدس» ويسترده من الصليبيين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ بعد أن لبث فى أيديهم قرابة قرن : كأن الأقدار جعلت عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين فى ذكرى احتفالهم بالإسراء إشارة إلى أن المسجد الذى ورثه الإسلام يجب أن يبقى له ، وأن العلاقة بين أولى القبلتين وأخراها لاتنفصم ، وأنه لا الصليبية قديمًا ولا الصهيونية حديثًا ستغيران سنن الله فى مصاير الأمم ، وإن نجحت كلتاهما إلى حين فى إلحاق هزيمة بالمسلمين! . . .

ونعود إلى ما بدأنا به كلامنا . .

قال الله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

وعقب هذه الآية مباشرة نقرأ قوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾[2] .

ما العلاقة بين الإسراء ، وإنزال التوراة وتاريخ اليهود ، ثم حكاية مفاسدهم والتعليق عليها ، وتبصير المسلمين بعواقبها؟؟

إن الإسراء كان من مكة إلى القدس . ولليهود فى هذه البقاع تاريخ! . .

صحيح أنه لم يكن لهم وجود فى فلسطين يوم وقع الإسراء ، بل كان وجودهم فى فلسطين محظورًا ، لكن وجودهم السابق لا ريب فيه . .

---

(١) الإسراء : ١ .　　(٢) الإسراء : ٢ .

وانتهاء هذا الوجود ثم حظره يحتاج إلى تفسير ، وهو ما أشارت إليه الآية وما بعدها فى صدر سورة الإسراء ، وهو ما أريد الآن متابعته من الناحية التاريخية . .

كان الكنعانيون يسكنون فلسطين قديمًا وهم سلالات عربية كإخوانهم العدنانيين والقحطانيين ، ويظهر أنهم تجبروا ، وأثاروا الرعب حيث يعيشون ، وأراد الله تأديبهم على مفاسدهم ، فسلط عليهم بنى إسرائيل . وقد وجل الإسرائيليون أيام موسى من التعرض للكنعانيين ، وغلبهم الجبن ، ورفضوا الزحف إلى فلسطين قائلين لموسى : ﴿ **إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا** ﴾[1] . . فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى : ﴿ **لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا** ﴾[2]! . .

وعوقب الإسرائيليون على جبنهم بالتيه فى سيناء أربعين سنة مات خلالها موسى ، ثم خلفه يوشع الذى قاد بنى إسرائيل إلى فلسطين منتصرًا على الكنعانيين ، وبانيًا حكمًا دينيًا باسم التوراة بعد هزيمة العرب ! . .

بيد أن اليهود لم يلبثوا طويلا حتى نجمت بينهم علل خلقية واجتماعية بالغة السوء ، زادوا بها شرا على من كان قبلهم! وقد حكوا عن أنفسهم ، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل ، فقد اقترفوا رذائل جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين شر طردة ، وبدا أن السلطة فى يدهم تعين على الافتراء والاعتداء إلى حد بعيد ، فليسوا لها بأهل! . . ينبغى تجريدهم منها! . .

وكانت فلسطين ـ حتى بعد قدوم اليهود ـ مليئة بأجناس أخرى ، وكان المسلك المستحب لبنى إسرائيل تحقير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب! فقد زعموا أن «البنعميين» من أصل لا يمكن أبدا أن يرتفع ، كيف ، قالوا : إنهم سلالة «لوط» لما سكر وزنى بابنته! . . وكتبوا ذلك فى سفر التكوين!! . .

والقصة يقينا مكذوبة ، فأنبياء الله لا يسكرون ولا يزنون!!

ثم جاءوا إلى الكنعانيين العرب ووصفوهم بأنهم كلاب! وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر فى العهد الجديد ، فقد لقيت امرأة كنعانية عيسى وهو يدعو فى بيت المقدس ، وصاحت به : يا سيد يا ابن داود ، بنتى مريضة جداً . .

وطلبت منه شفاءها! . .

---

(١) المائدة : ٢٢ .
(٢) المائدة : ٢٤ .

فقال لها : اذهبى يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب . يعنى بالبنين : بنى إسرائيل ، وبالكلاب : الكنعانيين . .

فقالت المحزونة : والكلاب أيضًا تأكل أقدام السادة! فشفى لها ابنتها بعد هذه الضراعة الذليلة! . .

ونحن نجزم بأن الإنسان الرقيق الرحيم عيسى بن مريم يستحيل أن يسلك هذا المسلك ، أو يرسل هذه الشتائم! لكنهم اليهود الذين تخصصوا فى تجريح الأنبياء وإهانة الشعوب! ومن ثم نفهم قول القرآن فيهم :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[1] . .

أيكفى فى معاقبة بنى إسرائيل أن يطردوا من فلسطين؟ . .

لا . . إن الله عزلهم نهائيًا عن القيادة الدينية التى كانت لهم ، وحرمهم من الوحى وشرف إبلاغه ، واصطفى الأمة العربية لتقوم بهذه الأمانة ، وكانت ليلة الإسراء والمعراج التصديق الحاسم لهذا التحول . فقد انتقلت الرسالة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل ، وأصبحت الأمة العربية لا العبرية هى الوارثة لهدايات السماء! . .

ونهض الإسلام بالعرب نهضة رائعة ، وجعل منهم حملة حضارة زاهية ، وفوجئ العالم بالأمة التى لم تعرف إلا رعى الغنم ونقل السلع ، تتلو من كتابها أصح العقائد وأحكم الشرائع وأشرف التقاليد . .

كان دريد بن الصمة يصف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول :

يغار علينا واترين فيشتفى

بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا

فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وها هم العرب بالإسلام يعلمون الناس السماحة والأخوة والتعاون على البر والتقوى حتى قال «غستاف لوبون» : **إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من العرب!** . .

وكان دخول المسلمين بيت القدس أيام عمر بن الخطاب آية من آيات التواضع لله والبر بالناس . .

---

(١) آل عمران : ٢٢ .

ثم كان دخولهم بيت المقدس أيام صلاح الدين آية من آيات السماحة والعفو والمرحمة . .

أما الأمة العبرية فقد خطت لنفسها طريقًا آخر ، لقد هبت على اليهود عاصفة غضب بعثرتهم فى أرجاء الأرض ، فتوزعتهم المدائن والقرى فى المشارق والمغارب . بيد أنهم حيث ذهبوا كان لهم فكر واحد ومنهج ملحوظ ، يزعمون أنهم شعب الله المختار ، ومع هذا الزعم فإنهم نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله ، ونسبوا إلى رسله ما لا يليق بشرفهم ، واستباحوا لأنفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل . .

وتقوقعوا فى حاراتهم يحلمون بالعودة إلى الأرض التى طردوا منها بسوء خلقهم مع الله والناس . .

والغريب أنهم جعلوا آمالهم هذه وحيا يتلى ، وأودعوها صحائف كتبهم وكأن الله هو الذى أنزلها عليهم!! . . وقد تضايق النصارى من مزاعمهم وأعمالهم لاسيما أنهم هم الذين سعوا فى قتل عيسى ! . .

وإذا كنا على عكس النصارى نعتقد أن عيسى نجا من مؤامرتهم فالقوم على أية حال قتلة بضمائرهم . ومن ثم شرع النصارى حكامًا وشعوبًا فى اضطهادهم وإرخاص دمائهم . .

وعرضت لهم مآس فى انحاء أوربا كادت تنتهى بإبادتهم حتى قال نفر من المؤرخين : لولا ظهور الإسلام لفنى اليهود! إنهم وجدوا فى أرضه الفسيحة وسماحته الممتدة ما أبقى حياتهم !! .

ومن المؤرخين من يرى اليهود مسئولين عما نزل بهم من آلام ، فأثرتهم الشديدة ، وشرههم فى حب المال ، وقلة اكتراثهم بقضايا الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها كل ذلك جعل القلوب تنطوى على بغضهم . وقد كان «هتلر» الحلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة من الحكام الذين أذلوهم فى طول أوربا وعرضها . .

ومرت السنون ثقيلة طويلة ، وظهرت الخلائق المستورة ، أو نبتت ونضجت البذور الكامنة! . .

كان المسلمون يغطون فى نوم عميق ، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقد مشبوب وتطالب بثارات قديمة .

كان يحلو للمسلمين أن يتحدثوا عن الرحلة الجوية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وسدرة المنتهى! ولا بأس أن يقولوا شعرًا ونثرًا! . . أما الدرس الواعى للأمم

التى توارثت فلسطين ، وأسرار ازدهارها واندثارها فقلما يفكرون فى ذلك . وربما لا يخطر لهم ببال أن هذه الأمم تفكر فى العودة ، وتحسن استغلال الفرص . .

فلما جاء العصر الحديث انكشف الغطاء عن مفارقات مذهلة . انكشف عن تعصب يهودى شديد النبض ، وعن تأييد حار له من رجال الكنيسة وأغلب الساسة . . أما العرب فقد قيل لهم : احلموا بإنسانية عامة متجردة عن الهوى ، نؤازركم فى المحافل الدولية ، ونعدل بينكم وبين خصومكم!! . .

واستكان النوام للأحلام فما صحوا إلا على المذابح تحصدهم رجالاً ونساء ، والتسميم يجتاح الطلاب والطالبات ، والغيوم تسد الآفاق كلها أمام مستقبل معقول . .

ما الذى حدث؟ . .

ندع الجواب لغيرنا ! . .

ندعه لخصومنا ونتدبر مايقولون . .

كتب «حاييم وايزمان» فى مذكراته يقول لقومه : تحسبون أن لورد «بلفور» كان يحابينا عندما منحنا الوعد بإنشاء وطن قومى لنا فى فلسطين؟ . . كلا ، إن الرجل كان يستجيب لعاطفة دينية يتجاوب بها مع تعاليم العهد القديم !! . .

. . . وندع «وايزمان» و «بلفور» ، ونتدبر تصريحات مستر «كارتر» ومن بعده! . .

إنهم جميعا يتحدثون مع «بيجن» عن أرض الميعاد ، وعن نبوءات التوراة والحدود التى رسمتها ! . .

إن المشاعر الدينية الغائرة فى العقل الباطن والظاهر هى التى جعلت جنرال «جيرو» يقول فى دمشق أمام قبر صلاح الدين : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين! . .

وهى نفسها التى جعلت مارشال «اللنبى» يدخل القدس فى الحرب العالمية الأولى ويقول : الآن انتهت الحروب الصليبية .

يظهر أن العالم كله شديد الإحساس بعقائده وآماله الدينية إلا قومنا وحدهم ، فإنهم يتذاكرون بينهم أن الدين رجعية!! . .

إن قضية بيت المقدس وفلسطين منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة قضية دينية عند أصحاب الرسالات السماوية جميعًا ، فكيف يتجرأ البعض على جعلها قضية قومية أو اقتصادية؟ . .

المسلمون يرون المسجد الأقصى يذكر فى سياق واحد مع المسجد الحرام والمسجد النبوى ، ويرون الدفاع عنه جزءاً من الإيمان ، ويعترضون باسم الله ورسوله جهود اليهود لهدمه وإقامة الهيكل فوقه! ويعدون هذه الجهود جريمة ضد الإسلام والألف مليون مسلم الذين يعتنقونه! فكيف يتجاهل هذا؟ . .

والنصارى يرون بيت المقدس قبلتهم ، وبه قبر المسيح ، وقد جعلوا مفاتيح كنيسة القيامة بأيدى المسلمين لأنهم أمناء عليها ، وحماة لها ، ولرفع التنازع الطائفى بينهم على حيازتها! .

واليهود يرون أن هذه الأرض منحها الله إبراهيم الخليل وذريته من بعده وزعموا أنهم هم الذرية المعنية(!) وأن طردهم منها لعصيانهم وقتلهم الأنبياء لايمنع من العودة إليها وطرد العرب منها ! . .

فإذا كان الدين وراء كل دعوى ، فكيف جاء من أسموا أنفسهم العروبيين ، وجردوا العرب من ولائهم الإسلامى ، وأغروهم بجعل القضية صراعًا جنسيّاً أو نزاعًا «إمبرياليا» وغير ذلك من الأوصاف المكذوبة؟ . .

وعندما يفقد صاحب البيت عاطفته الدينية ويهجم اللص بهذه العاطفة المهتاجة فماذا تكون النتيجة؟ . .

إن اليهود اغتصبوا نصف مسجد الخليل ، ويتآمرون على اغتصاب بقيته ، والأخبار تترى ـ وأنا أكتب هذه السطور ـ إن مساجد شتى فى يافا وعكا نسفت ، وإن ترويع الطلاب العرب فى مدارسهم بمحاولات التسميم مستمر حتى يترك العرب الضفة الغربية ، وقطاع غزة ، أو كما يعبر اليهود «يهوذا أو السامرة» إحياء لعناوين التوراة! .

إننى أتساءل : ماذا وراء تجريد فلسطين من صبغتها الإسلامية إلا الضياع؟ . .

نحن نحتفى بالبقعة التى انتهى إليها الإسراء ، وبدأ منها المعراج ، ونريد أن يسأل العرب أنفسهم : لماذا لم يكن المعراج من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟ إن الإجابة تعرف من الآيات التى أعقبت قصة الإسراء فى سورتها المباركة ، كما تعرف من دراسة التاريخ القديم والوسيط والحديث! . .

فى هذه الأرض قامت رسالات وانتهت ، وفيها نهضت دول وتلاشت . .

ثم ورث المسلمون بيت المقدس باسم الله . .

ولو أنك قرأت أحوال أمتنا أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين لظننت أنك تقرأ أحوال المسلمين فى هذه الأيام العجاف! . .

إن الصليبيين القدامى تقدموا فى فراغ :

كانت الفرقة بين العرب والمنافسة على السلطة هى الأسلحة التى هزمنا بها أعداؤنا ، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين فى أية معركة جادة ما سقطت فلسطين . .

وكأن التاريخ يعيد نفسه ، إن الصهيونيين تقدموا فى الفراغ نفسه!

أعانتهم الفرقة ، والشهوات المطاعة ، والعقائد المنحلة ، والأنانية الطاغية ، فكسبوا معركتهم بأيدينا . .

أريد ـ كلما استقبلنا ذكرى الإسراء ـ أن نتجاوز الهامش إلى الصميم . . أن نترك السرد السطحى للقضية . .

أن نعمق النظر فى الأسباب التى من أجلها كان الإسراء . . ولأجلها قامت للعرب دولة تحمل الرسالة الإسلامية ، ونضع الموازين القسط بين الناس .

٨٤. لماذا كانت قبلة العالم فى أرضنا ؟

قبل بضعة أسابيع من معركة بدر وقع حدث دلالته العميقة فى صلة المسلمين بأهل الكتاب . فقد كان بيت المقدس القبلة التى يتجه إليها أصحاب الأديان السماوية جميعًا .

ثم صدر الأمر إلى المسلمين أن يتحولوا من بيت المقدس إلى مكة المكرمة! . .

ما سر هذا التحول؟ . .

الواقع أن أهل الكتاب ما كانوا سعداء بالدين الجديد! ولا فهموا من وحدة القبلة أن قرابة مشتركة تربطهم بأتباعه !

الذى حدث أنهم ضاقوا أشد الضيق بالنبى العربى ، وعدوه منافسا محذورًا كأن الأمر صراع على مغنم عاجل ، أو مأرب قريب!

ولو كان أهل الكتاب مخلصين لأديانهم لكان لهم موقف آخر ، فإن العرب كانوا عباد أصنام! حتى عرفهم محمد بالإله الواحد . وكانوا يعيشون ليومهم حتى أقنعهم بالعمل لليوم الآخر . وكانوا لايدرون شيئًا عن نبوة سبقت حتى حدثهم عن موسى وعيسى وغيرهما من المرسلين! . .

فلم الضيق بهذه الرسالة؟ ومخاصمة صاحبها؟ . .

بيد أن الأمر تجاوز الخصومة المحتملة إلى ضرب من اللدد يثير الاشمئزاز . تدبر قوله تعالى :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

وإذا كانت للمسلمين مساجد تنبعث من منابرها صيحات التوحيد وتستقبل ساحاتها الركع السجود ، فإن أهل الكتاب تواصوا بصرف الناس عن هذه المساجد ،

---

(١) البقرة : ١٠٩ .

وتآمروا على تهديمها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾[1] .

فلم يبق بعدئذ مساغ لمشاركة هؤلاء الحاقدين قبلتهم ، وانبعثت فى نفس الرسول الكريم الرغبة فى الاتجاه إلى القبلة الأولى ، إلى الكعبة التى بناها جده الأكبر إبراهيم الخليل ، ولكنه لايستطيع ذلك إلا بإذن من الله ، فلينتظر ، وليؤمل! .

ثم جاء ـ على تلهف وشوق ـ الأمر الإلهى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾[2] . فاتجه المسلمون إلى الكعبة المشرفة بعد قرابة سبعة عشر شهرًا من الصلاة إلى بيت المقدس .

كانت هذه المدة كافية لفضح ضغائن اليهود ، وأثرتهم المفرطة ، وظنهم أن الدين مؤسسة احتكارية يديرها حكماء صهيون لمصلحة جنس من الأجناس ، إنهم لايفهمون ولا يريدون أن يفهموا أن الدين علاقة سمحة رحبة بين الناس ورب الناس .

وقد بدا لى من تجارب كثيرة أن المتاجرين بالحق قد يكونون شرا من المخدوعين بالباطل ، وأن العرب الأميين كانوا ـ بنقاء سرائرهم ـ أصلح للحياة والإحياء من أهل الكتاب المستكبرين الشرهين . .

كان أولئك العرب يعتزون بكعبتهم ، ويرغبون طوال عمرهم فى استقبالها ، وهم لم ينسوا أن الله حماها عندما أراد نصارى الحبشة هدمها! وأن قوى السماء هى التى تصدت للمغيرين لما عجز أهل الأرض عن الدفاع ، فإذا الجيش المعتدى يلقى ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[3] . .

مع ما كان للمسجد الحرام من هذه المكانة الوطيدة ، فإن الصحابة قبلوا عن طيب خاطر ترك استقباله لما هاجروا ، ولبوا أمر الله باستقبال بيت المقدس! .

كان امتحانا صعبا غير أنهم نجحوا فيه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾[4] .

وعندما يحتدم النقاش حول القبلة التى يتجه الناس إليها ، يذكر الإسلام حقائق رفيعة ، يلقيها فى مسامع كل من ينتسبون إلى دين! حقائق لا يقررها إلا الإسلام وحده! إنه يتساءل : ما هذا اللغط حول الاتجاه إلى شمال أو جنوب؟ . .

---

(١) البقرة : ١١٤ . (٢) البقرة : ١٤٤ . (٣) الفيل : ٣ ـ ٥ . (٤) البقرة : ١٤٣ .

إن الكمال البشرى لايصنعه استقبال مكان هنا أو مكان هناك ! الكمال المنشود عمل حقيقى داخل النفس الإنسانية تزكو به وتسمو . .

العظمة الإنسانية ، هى اليقين الراسخ والاستمساك بالله ، وإن هاجت العواصف! وبذل المعروف وإجابة الملهوف ، ومساندة الضعفاء وإيتاء المحرومين! . .

وهى الثبات على المبدأ وإن كثرت المغريات ، والمضى على الجهاد وإن فدحت المغارم! . .

إن اتجاه المسلمين إلى المسجد الحرام فى صلواتهم حق لا ريب فيه ، وهى قضية تنظيمية سنشرح بعد قليل أبعادها ، بيد أن ذلك لايعنى نسيان الحقيقة فى الوصول إلى الكمال الإنسانى والرضوان الإلهى ، وتدبر قوله تبارك اسمه :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[1] . .

إن اليهود يلتمسون الشرف من الانتساب إلى نبى الله يعقوب! والأب العظيم لايرفع شأن بنيه إذا كانت أعمالهم هابطة! وهم يرتبطون بالقدس والأرض المقدسة ، والأرض لاتقدس أحدا ، إنما يتزكى المرء بالهدى والتقى والعفاف والعدالة! .

والخلاف بين الناس باق إلى قيام الساعة ، إنه جزء من طبيعة الحياة ، وهو بعض الحكمة فى خلق الناس! . .

لكن الخلاف مهما اتسمت شقته لايجوز أن يكون مثار عدوان وتظالم ، ولايجوز أن يجعل الحيف حقا ، ومن ثم قال الله لنبيه :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[2] .

والجملة الأخيرة فى الآية الكريمة تشير إلى خصائص أمتنا ، وإلى الرسالة التى كلفت بحملها إلى آخر الدهر . .

---

(١) البقرة : ١٧٧ .　　(٢) البقرة : ١٤٥ .

إن العرب عندما يحملون للناس حضارة فهذه تنفرد بأنها موصولة بالسماء، تعرف الله، وتلتزم هداه، وترفض الفلسفات المادية، والرغبات المجنونة فى عبادة الحياة ونسيان ما بعدها . .

وقد شاء الله أن يذكر للعرب وظيفتهم الدولية، عندما جعل قبلة العالمين فى أرضهم وعندما طالب البشر فى كل مكان أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام! . .

فما معنى ذلك؟ . .

إذا قيل : إن موسكو قبلة الشيوعيين فى العالم، فليس معنى ذلك اتجاه اليساريين إلى جدار فى «الكرملين»! بل المعنى أنهم يستقون أفكارهم ويتلون توجيهاتهم من هناك! . .

والواقع أن القرآن الكريم فى سياق تحديده للقبلة قال للعرب فى جلاء : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] . والآية توضح الوظيفة التى اختارها القدر لأمتنا، فإن الله اختار محمدًا ليحمل أمانات الوحى، وليكون بسيرته وسنته أسوة حسنة! . وقد تلقى العرب ذلك منه ليعلموا الناس كما تعلموا، وليهدوهم كما اهتدوا، أو ليكونوا أساتذة للعالم كما كان محمد أستاذًا لهم! . تلك وظيفتهم التى رفعهم الله إليها، والتى لابد من حسابهم عليها . .

والشهادة على الناس منزلة فوق التبليغ العادى! قد يكون المرء شاهدًا فى قضية لا علاقة له بوقائعها، كل دوره فيها أنه يقول الحق، فهل هذا دور الأمة العربية فى تاريخ البشرية؟ كلا، ربما تحول الشاهد إلى متهم إذا تبين من التحقيق أن له أصابع فى وقوع الجريمة!! . .

والعرب منذ حملوا رسالة الإسلام وجب عليهم أن يستنيروا بها وأن يرفعوا منارها، وأن يستطبوا بأدويتها، ويعالجوا علل العالم بدوائها، فمسئوليتهم مضاعفة . الرسول أمام الله يشهد بأنه علمهم من جهالة، وأقامهم من عوج، وهم أمام الله كذلك مطالبون بالشهادة على سكان الأرض، إنهم بلغوهم الوحى الأعلى وقدموا من أنفسهم نماذج عملية للتقوى والإصلاح والإنصاف! ترى هل قام العرب بهذه الأمانات؟ . .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

إن رباط العروبة بالإسلام وثيق ، وهذا الرباط وحده هو الذى يجعل العرب أمة قائدة رائدة فإذا وهت صلتها به ، فهى تخون أساس وجودها ، وهى ستتحول حتما من رأس إلى ذنب! أو من أمة تدفع غيرها نحو الخير ، إلى أمة يدحرجها الآخرون إلى الشر أو إلى الهاوية! .

وقد تأكد هذا المعنى مرة أخرى فى سياق تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾(1) .

أى حتى تنقطع حجج العرب الحراص على كعبتهم الضائقين بالاتجاه السابق إلى بيت المقدس! أما أهل العناد والمتشبثون بالجاهلية الأولى ، فلا تخافوهم ، فأمرهم إلى إدبار ونارهم إلى رماد . . **﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾**(2) .

أى إن الله باختياره المسجد الحرام قبلة لكل مصل فى الدنيا ، يضاعف على العرب منته ، ويتم عليهم نعمته . . وقد بدا الإنعام عليهم بانبعاث الرسول منهم **﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾**(3) .

والمعنى أن العرب بهذا الدين أضحى لهم تاريخ جديد ، وافتتحوا به صفحة مجد باذخ ما كان لهم به عهد من قبل ، ذلك أنهم يتلون آيات الحق ، ويمهدون طريق التربية الفاضلة ، ويخطون معلم الحكمة والرشد ، فليعرفوا لله حقه وليقدروه قدره **﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾**(4) وهكذا يخاطب الله العرب ويشرح لهم ما أسدى إليهم من جميل! فهل نذكر ونشكر؟؟ . .

والأنبياء شهود على أممهم بالبلاغ المبين ، وقد كان رسولنا ﷺ وهو يخاطب الناس فى حجة الوداع يقول : اللهم قد بلغت . . اللهم فاشهد! . .

وهناك قبل شهادة الأنبياء مواثيق الفطرة التى أخذها الله على أبناء آدم . إن الله أودع فى كل ضمير صوتا يذكر بالله ويدفع إلى صراطه المستقيم ، ويقاوم التقاليد

(1) البقرة : 150 . (2) البقرة : 150 . (3) البقرة : 151 . (4) البقرة : 152 .

المنحرفة والأصوات الزائفة ، وما من إنسان إلا هو مسئول عن هذا الميثاق : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[١] .

ويتضح من ذلك أن العدل الإلهى يستظهر على كل مخطئ بشاهدين من العقل والنقل! ومع ذلك ، فإن ناسا يوم الحساب سيحاولون بالكذب الإفلات من مصيرهم! . .

مشركون يقولون : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[٢] ودجالون مرنوا على الاحتيال والمخادعة فى الدنيا يحاولون فى الآخرة أن يقوموا بالدور القديم ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾[٣] .

وهيهات أن يجدى هذا التملص مهما صاحبه حلف! . .

ولما كان محمد ﷺ شهيدًا على العرب فسيجاء به يوم القيامة وبالكتاب القيم الجامع الذى بلغه ، وسيرى عندئذ من وفى ومن غدر؟ بل من آمن ومن كفر؟ قال الله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[٤] .

إننى أحببت أن أشرح هذه القضية لأن العرب من أمد قريب أو بعيد شرعوا ينسون أو يتناسون رسالتهم! بل بدا لهم أن يستقيلوا من الوظيفة الشريفة التى آثرهم الله بها أو اصطفاهم لها .

وسمعنا من يقول فى جهل فاضح : إن العروبة شىء ، والإسلام شىء آخر! وإن العروبة يمكن أن تشق طريقها بغير دين إلى مستقبل مكين! . .

وقد استجاب نفر من الأغرار لهذه الفرية ، فإذا الأمة المسكينة تتراجع فى كل ميدان ، وتلاحقها الهزائم الشائنة فى كل أفق ، ولولا بقايا إيمان مبثوثة هنا وهناك لحل بها خزى الأبد ، ولكنها تقاوم اليوم ببأس شديد معتمدة على مواريث الإسلام وحده .

(١) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ . (٢) الأنعام : ٢٣ . (٣) المجادلة : ١٨ . (٤) النحل : ٨٩ .

هل للعرب فى قديم الزمان وحديثه رسالة أخرى غير الإسلام يمكن أن يؤدوها للعالم؟ . .

إن لمحمد كتابًا وسنة قامت عليهما دولة ، وأينعت حضارة! وتصدرت قافلة البشرية أمة تعتز بها وتبنى عليها ، فماذا لغيره فى الأولين والآخرين؟ وما قدر العرب من غير محمد والإسلام؟ .

قال شخص غر : وهل ضرورى أن تكون لأمة ما رسالة سماوية حتى تقتعد مكانة مرموقة فى العالم ؟ . ما أكثر الشعوب التى استراحت واستقرت برسالات أرضية!! . .

قلت : هذا الكلام قرة عين الاستعمار والصهيونية! إنهما لا يريدان أكثر من تجريد المسلمين من عقائدهم وتاريخهم حتى يقفوا أمام أعدائهم عزلا من كل سلاح فعال .

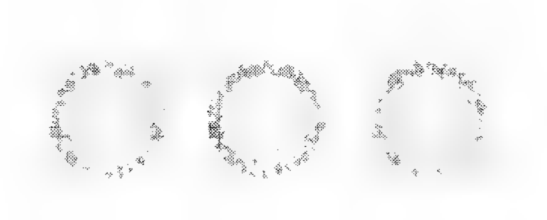
وعندما يفقد عرب فلسطين أساسهم الدينى أمام أتباع التوراة فستضيع فلسطين! . .

وعندما يزهد غيرهم فى معتقداته الإسلامية فسينطلق التبشير العالمى دون عائق ، وتكسب الصليبية جولتها الجديدة .

لا بل إن الوثنية التى ذبحت المسلمين فى «أسام» ستقطع شوطا أوسع فى الإجهاز على مبدأ التوحيد! . .

إن تحقير الثقافة الإسلامية وتوهين أركانها لابد أن ينتهى بهذه النتائج! . .

أما يحق لنا أن نحصن الأجيال الجديدة ضد هذه الخيانات الفكرية والاجتماعية؟؟ . .



٨٥. هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق، وجعلها نصف الرجل فى الميراث والشهادة؟

فى قضية تعدد الزوجات أريد أن أسأل أولا : هل الإسلام مبتدع التعدد مخالفا بذلك الأديان التى سبقته؟ إن الأديان كلها ، وثنية أو سماوية أباحت التعدد فلماذا يسأل الإسلام عنه ويؤاخذ به؟ . .

ليس فى العهد القديم حظر على تعدد الزوجات ، وقد جمع سليمان الحكيم صاحب نشيد الإنشاد العامر بالغزل ـ ألف امرأة فى بيته بين حرائر وإماء! . .

وليس فى الأناجيل التى كتبها تلامذة عيسى عليه السلام حظر على التعدد! إن التحريم الذى وقع بعد ذلك كان تشريعًا مدنيّاً لا دينيّاً ، أو كان كنسيا يعتمد على الاجتهاد لا على النص! .

قد يقال : فليسع الإسلام ما وسع الأديان قبله ، وليحرم التعدد!! . .

وهنا لا أجد مناصا من توجيه سؤال آخر؟ هل اكتفى كل رجل ، أو أغلب الرجال ، بما لديهم فلم يتصل أحدهم بأخرى؟ بل أسأل الرجال الذين تظلهم حضارة الغرب فى عدة قارات : ألم ينشئوا علاقات متصلة طويلة الأمد أو قصيرته بأعداد كبيرة من النساء الأخريات؟ . .

لماذا يراد قبول المرأة الأخرى خليلة لا حليلة؟ لماذا يرمى ابنها لقيطا ، أو ينشأ زنيما ، ولا ينسب لأبيه الحقيقى؟ . .

إننى أتهم إخواننا أهل الكتاب بأنهم استهانوا بمقاييس الحل والحرمة ، وأنهم اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله ، وأنهم ـ من الناحية الجنسية ـ استباحوا الأعراض واجتاحوا الفروج ، ويسروا الشذوذ ، ومهدوا لمناكر ما عرفت بهذه الوفرة إلا فى حضارتهم المادية الموغلة فى الإثم! . .

أيعنى ذلك أنى أدافع عن تصرفات سيئة ارتكبها المسلمون باسم التعدد؟ كلا ، لقد عدد من لايعدل ، وهذا مرفوض! بل عدد من لايستطيع الإنفاق على واحدة! وهذا مرفوض! .

إن التعدد جائز بشروطه المادية والأدبية فإذا لم تتوافر هذه الشروط فلا تعدد . .

وحل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع يرجع إلى يقظة القلوب وسلامة الأخلاق قبل أن يرجع إلى سطوة القانون ، ومكاسب النساء من التعدد ـ والحالة هذه ـ ليست أقل من مكاسب الرجال! . .

أما إباحة التطليق للرجل فأحب أن أضع بين يديه هذه الروايات ، **قال رجل لعمر ابن الخطاب: أريد أن أطلق امرأتي! فقال له عمر: لم؟ قال: لا أحبها! فقال له عمر: أو كل البيوت بنى على الحب؟.. فأين التذمم والوفاء؟** . .

ويشبه هذا مارواه ابن مردويه **أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن النبى** ﷺ ، **قال أنس: فقال له الرسول: إن طلاق أم أيوب لحوب!** ـ أى إثم فكف عن مراده وأمسك امرأته . .

وقد روى مثل ذلك من طريق آخر ، **أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته، فقال النبى** ﷺ : «**إن طلاق أم سليم لحوب**» فتراجع الرجل عن مراده . .

وقد يكون الأصل فى هذا الإمساك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً** ﴾[1] . .

إن الحياة الزوجية أشرف من أن تعصف بها أزمة عابرة أو غيمة عارضة ، وما بين الزوجين من وشائج لا يرخصه إلا لئيم . .

بيد أن سياج الأسرة لا يقيمه إلا الخلق الزكى ، والأسر التى يمسكها القانون هى أسر على الورق وحسب ، وقد سئم الأوربيون هذا الخداع واضطروا إلى الاعتراف بالواقع المرير ، فأباحوا الطلاق فى انتخابات عامة هزمت وصايا الكنيسة فى الموضوع . .

إننى لا أدرى كيف يدفع رجال الشرطة امرأة إلى زوجها أو رجلا إلى امرأته!

الحل الأمثل هو فى قوله تعالى :

﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ﴾[2] .

وذلك بعد مراحل من الإنذار والإصلاح مبسوطة فى كتب الفقه . .

قد يكون الطلاق جراحة لا مفر منها بعد ذهاب الود وجفاف الحنان وتولد مشاعر أخرى على نحو ما قيل :

إن القلوب إذا تنافر ودها ... مثل الزجاجة كسرها لا يجبر!

(١) النساء : ٣٤ . (٢) الطلاق : ٢ .

وإذا كان الطلاق حق الرجل للخلاص ، من هذا الوضع فالخلع حق المرأة للراحة منه! وليس لأحد أن يكره المرأة على البقاء فى بيت مقتت صاحبه وأحست الضرر بجواره ﴿ **وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** ﴾(١) .

وعندما تطلب الزوجة الفراق فيجب أن ترد إلى زوجها ما ساق إليها من مال ، ومن الحيف أن يدفع الرجل المهر ، ويرسل الهدايا ثم تستولى المرأة على هذا كله وتطلب الانفصال ! .

ويحزننى أن جل الفقهاء تناسى شريعة الخلع أو أبطل حكمتها ، وأن الجماهير لاتعرف شريعة تمتيع المطلقة! وأن طلاق السنة ـ كما صح عن صاحب الشريعة ـ لايطبق! وإنما المألوف المحترم هو طلاق البدعة ، فقد أمضيت آثاره كلها بوحشية! .

وعندما تيقظ فقيه ذكى كابن تيمية إلى أن طلاق البدعة باطل منكور الآثار تعرض لنقد شديد! . .

ومما يثير الدهشة أن أنصار ابن تيمية فى عصرنا لا يوافقونه على إبطال طلاق البدعة ، وإنما يوافقونه على إنكار وقوع المجاز فى القرآن الكريم! وهذا من هناته غفر الله له .

واعتقادى أن الفقهاء المسلمين المعاصرين ـ وهم يحسون المحنة الاجتماعية التى يمر بها المسلمون ـ سوف يسدون هذه الثغرات ، وينتقون من أقوال الأئمة والمجتهدين مايلم شمل الأسرة ، ويقيها عبث العابثين . .

ويجىء بعد ذلك عمل المرأة لتنفق على نفسها! إن الإسلام له منهج آخر غير ما يعرف الآن فى الحياة الغربية بشقيها الشيوعى والرأسمالى ، المرأة هناك ـ عند البلوغ ـ تستقل بنفسها ، وتواجه مستقبلها ، وتكلف بتحصيل قوتها ، والضرب فى فجاج الأرض لتأمين عيشها ، وهى تزاحم الرجل فى كل ميدان!

ماذا نشأ عن هذا الوضع؟ فقدان أغلب النساء لعفتهن ، واستطالة الذئاب فى أعراضهن لسبب أو لآخر! . .

والمجتمعات الأوربية والأمريكية والأسترالية كادت تطبق على اعتبار الناحية الجنسية حاجة جسد لا علاقة لها بالخلق والدين ، وكانت لهذه الفلسفة الحيوانية نتائج رهيبة!

---

(١) البقرة : ٢٣١ .

والإسلام يرفض هذا الفكر وآثاره كلها ، نعم ، قد تعمل المرأة فى ظروف تختارها أو تختار لها ، وبعد توفير ضمانات الصون وحماية الشرف ومرضاة الله . .

أما تكليفها بالكدح لتقتات ، ولتوفر مهرًا للرجل المنتظر فلا . . . ولا . . .

وهنا يوجب الإسلام نفقتها على أبيها أو أخيها أو ذوى قرابتها فإن لم يوجد أحد أرصد لها ما يكفيها من بيت مال المسلمين . .

وإعانة للرجل على النهوض بهذا العبء جعل حظه فى أغلب المواريث ضعف حظ المرأة . . وقد يتساويان فى حالات كثيرة . كما أمره بأن يدفع هو للمرأة مهرها لا أن تدفع له كما توصى بعض الديانات .

وعلى الرجل أن ينصب ليقوت زوجه وولده ، فإذا عرضت ظروف لتعمل المرأة خارج البيت كان لذلك وزنه الخاص وملابساته المقدورة! . .

أعتقد أنه ليس من تكريم المرأة تكليفها بالارتزاق فى أحوال مقلقة ، ولا من تكريمها أن تجمع بين وظيفة ربة بيت ، ووظيفة أخرى ترهق أعصابها وتستغرق انتباهها . .

وبعض الجهلة يستغل فضل الرجل على المرأة فى الميراث ليهينها ويزدرى منزلتها ، وكم أسىء إلى ديننا من أولئك الجاهلين .

ولنثبت هنا حديثًا يحتاج إلى بيان وفقه ، دار على كثير من الألسنة ، واستغل بخبث لتحقير النساء وإلهاب عداوتهن ضد الإسلام . . روى مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «**يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار** .

فقالت امرأة منهن جزلة: ومالنا يارسول الله أكثر أهل النار؟..

فقال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير! مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن»!.

قالت: يارسول الله، مانقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل! وتمكث الليالى لاتصلى، وتفطر فى رمضان، فهذا نقصان الدين»..

وقبل أن نحكم على ظاهر هذا الحديث ونشرح معناه نذكر حديثًا آخر يساويه فى قوة السند ، ويزيد عليه فى تكرار سياقاته ، وتعدد رواياته . .

هذا الحديث هو قول رسول الله ﷺ : «**اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء! واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء**» . وفى رواية أحمد «... **فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء**» . .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام**» . .

وعن أسامة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : «**قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين! وأصحاب الجد** ـ اليسار والعافية ـ **محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء**»!! . .

ماذا تعنى ظواهر هذه الأحاديث جميعًا ، وما أثرها المنظور فى بناء الأمة الإسلامية؟؟ . .

إنها تعنى ترجيح الفقر على الغنى ، والمسكنة على السعة ، والصعلكة على الثراء والتمكين! . .

أيمكن أن تقوم دولة أو تزدهر حضارة أو يكسب المسلمون معركة وهم واقفون عند هذه الظواهر لما روى عن نبيهم؟ .

إن ذلك مستحيل ، والحق أن هذه الظواهر غير مرادة أصلا ، وأن معناها فوق مستوى القاصرين ، ولذلك قلنا فى كتاب آخر : **إنه لا سنة بغير فقه!!** . .

الزعم بأن كل غنى رذيلة زعم سخيف ، فالغنى المحقور هو المكسوب من سحت ، أو المكنوز لايستفيد منه مجتمع ، والأغنياء من هذا القبيل أعداء الله وأعداء الشعوب وإذا ملأوا جهنم فهى مصير عدل . .

أما تكوين الثروات من وجه شريف ، وإيتاء حق الله فيها ، وتطويعها لإعلاء الإيمان ، وحماية الثغور فهذا محض الإيمان .

وقد كان العشرة المبشرون بالجنة من هذا الصنف ، ولم يكن فيهم رجل مقل . .

والفقير الذى آثر القلة من حلال على الكثرة من باطل ، أو الذى ملك بجهده المبذول ولكنه ضحى بما يملك فى سبيل ربه ليس أقل درجة من غيره ، وكونه يسبق غنيا أو يسبقه غنى ليس إلينا ، وإنما يبت فيه علام الغيوب . .

ثم عندما يكون عامة من دخل النار من النساء فأين يذهب قوله تعالى :

﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** ﴾[1] . .

الواقع أن عرض الحديث النبوى دون فقه صالح ، لون من تحريف الكلام عن مواضعه ، ومصاب الإسلام شديد من هذا التصرف! ونعود إلى حديث النساء ونقصان العقل والدين . .

صدر هذا الحديث يقى الأسرة الإسلامية شرّاً يشيع بين الناس ، جرثومته امرأة تحيا على خير رجلها ، وتنكر فضله وتجحد حقه ، قد يخطئ الرجل ، وكل بنى آدم خطاء ، وينبغى أن تتجاوز المرأة هذا الخطأ العارض ، وربما كان الخطأ من وجهة نظرها هى . . ولكنها بدل ذلك تغضب غضبا طائشا ، وتنسى فى ثورتها كل شىء ، وتزعم أنها ما رأت خيرا قط من زوجها ، وقد تلعن نفسها وحظها وما حدث أو يحدث لها! . .

أليس من حق النبى ﷺ أن يحذر من هذا المسلك ، وأن يذكر لصاحباته أنهن إن أصررن عليه يكنَّ من أهل النار؟؟ . . ثم يستطرد الحديث «.. **ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن**» والعبارة متصلة بالجملة قبلها ، فإن الرجل قد يستكين لامرأته ، والحق معه ، حتى يوفر الهدوء فى بيته! ويمنع اللجاجة والخصام! وقد يلغى فكره الصائب من أجل ذلك الهدف مما قد يدفع بالمرأة المغرورة إلى مزيد من العنت ! . .

وهذه هزيمة ذى اللب كما عبر الحديث أو أولى الألباب كما نرى فى مجتمعات كثيرة تنتصر فيها رغبات النساء على عزائم الرجال . .

والمرأة ـ على ضعفها ـ تحب أن تغلب غيرها وتعرض نفسها! قد تقول وما هذا الضعف؟ والجواب فى تكوينها الخلقى ، فإنها تضحى عليلة أو شبه عليلة خلال الدورة الشهرية التى تعتادها ، وتؤثر فى أعصابها وأفكارها ، وقد عذرها الله من أجل ذلك ، وأعفاها من بعض الفروض .

إن نفرا من المتحدثين فى الدين شاء أن يفهم من هذا الحديث أمورا لا علاقة لها به ، فصاغ قاعدة كلية نشرها فى طول الأمة وعرضها مفادها «**النساء ناقصات**

---

(١) الرعد : ٢٣ .

عقل ودين» ، وسواء كانت «أل» للجنس أو الاستغراق فهذه الكلية الشائعة فاسدة ، من ناحيتى العقل والنقل ، فقد اكتملت قديمًا وحديثًا نسوة أرضين الله ورسوله وخدمن الدين والأمة خدمات جليلة .

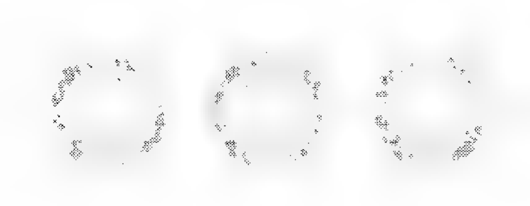
وهذه الكلية المزعومة تناقض الآيات القرآنية التى قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض ، وتناقض الأحاديث التى جعلت النساء شقائق الرجال! . .

وزاد الطين بلة فى تأليب المرأة المعاصرة على الإسلام أن البعض فسر نقصان العقل بالحماقة ونقصان الدين بالمعصية ، وعد الأنوثة ترادف الخسة والهوان ، وهذا التفكير امتداد للجاهلية الأولى ، وهو بعض ما يشين النفسية العربية ، والإسلام برىء من هذا اللغو . .

ونسأل بعد ذلك البيان : أكل امرأة تتصف بالبخل؟ أكل امرأة تتصف بنكران الجميل؟ أكل امرأة تتهم بكفران العشير؟ ما أبعد ذلك عن واقع الحياة . .

لكن من المسلمين إلى الآن من يظن الغنى أخطر طريق إلى النار ، ومن يظن الأنوثة أسرع شىء إلى جهنم . .

ونريد أن نقى ديننا لوثات هؤلاء المفتين الكذبة ، وأن ننصف النصوص والأخبار ممن يتهجمون عليها دون وعى . .



٨٦. ما موقف الإسلام من المرأة فى ضوء الأوضاع السائدة فى مجتمعاتنا؟

إننى أسأل أولا :

هل عوملت المرأة فى العالم الإسلامى وفق تعاليم الإسلام؟ ما أظن ذلك وقع إلا لمامًا . .

إن الحاكم فى مستدركه روى حديثًا موضوعًا حكم العالم الإسلامى أكثر من ألف عام ، يقول هذا الحديث : لاتعلموا النساء الكتابة ، ولاتسكنوهن الغرف . . أى إذا كان البيت مكونا من طبقات لم يجز إسكان النساء فى الطبقات العليا ، حسبهن ظهر الأرض أو تحتها إن أمكن !! . .

وتطبيقا لهذا الحديث المكذوب لم تفتح مدرسة لتعليم البنات فى قرية أو مدينة خلال القرون الماضية وأصبح تثقيف النساء من الفضول ، بل من المناكر المحظورة !! . .

وروى عبدالله بن عمر قول رسول الله ﷺ : **لاتمنعوا إماء الله مساجد الله** ، وفى رواية أخرى : ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد! فقال ابنه معترضًا التوجيه النبوى ، إذن يتخذنه دغلا ـ أى مهربا لاقتراف المفاسد ـ والله لنمنعهن .

فوكز عبدالله ابنه فى صدره ، واشتد عليه غضبه ، وقال : أقول : قال رسول الله وتقول : لا . . وقاطعه إلى آخر حياته . .

والغريب أن العالم الإسلامى لم يكترث لرواية ابن عمر ـ على صحتها ـ وتبع رأى الولد السيئ الأدب!! . .

ويوجد حظر عام على ارتياد النساء للمساجد . .

وبعد جهاد سنين طويلة للسماح بصلاة المرأة فى المسجد أمكن فتح أقل من ١٠٪ من بيوت الله لإماء الله ، أما الكثرة الساحقة من مساجد القرى والمدن فهيهات أن يدخلها النساء . .

كنت فى دولة الإمارات المتحدة ، وشاركت فى قضية جديرة بالعرض ، نشرتها جريدة الاتحاد على هذا النحو : قال الأستاذ مصطفى شردى : نحن فى إحدى أمسيات الثلاثاء بمسجد سعد بن أبى وقاص . انتهى المحاضر من حديثه وبدأ التحاور .

سؤال جاء من الشرفة المخصصة للسيدات . تقول صاحبة السؤال إنها متزوجة منذ سنوات ، من رجل له أكثر من زوجة . وأن زوجها لا يسمح لها بزيارة أبيها ورعايته بين الحين والآخر ، على الرغم من أن الأب وحيد يحتاج إلى الرعاية والعناية ، والشعور ببر الأبناء لآبائهم ينغصها فهل تطيع الزوج وتهمل واجب رعاية الأب ، أم تخالف زوجها وتطيع قلبها وتكون بارة بوالدها؟ أثار السؤال الهمس ، ثم سكت الجميع انتظارًا لما سيرد به المحاضر وهو عالم فاضل ، وكان من الواضح أن السؤال مس أوتارًا فى العديد من القلوب ، وأعتقد أن قلب المحاضر من بينها . .

حمد الرجل الله وأثنى على الرسول الكريم ، وتحدث عن التزام الزوجة بطاعة الزوج ، وكيف أن الإسلام شدد على الوفاء والتمسك بهذا الالتزام لصلاح الأسرة وسلامة المجتمع ، وطالب الزوجة بأن تضاعف جهدها لإقناع زوجها حتى يسمح لها برعاية أبيها ، إلا أنه اختتم إجابته برأى محدد اجتهد فيه فقال : إنه فى حال تمسك الزوج بموقفه القاسى الغريب دون مبرر مقبول ، فإنه على الزوجة أن تبادر إلى زيارة أبيها ورعايته وتقديم حنانها إليه ، لأن النص القرآنى بشأن بر الوالدين واضح وقاطع وصريح ، ولأن لهذا الزوج بالذات أكثر من زوجة تخدمه وترعاه إذا غابت عنه واحدة لأداء واجب البر والإحسان تجاه والد عجوز مريض ضعيف أمرها الله بأن ترعاه وتحسن إليه .

انتهى المحاضر من إجابته فاشتد الهمس! وبين الحاضرين عدد كبير من المتزوجين بأكثر من واحدة! وقد رأوا فى إجابة المحاضر تحريضًا للزوجات على عدم الالتزام بأوامر الزوج ، حتى ولو كانت متعارضة مع المنطق ومتضاربة مع المعقول! وبدأ فريق من الحاضرين يناقشون الرأى بأعصاب توشك على الانفلات! فقالوا : إن رأى المحاضر يتعارض مع تعاليم الإسلام! ولابد من التراجع عنه! لأن طاعة الزوج واجبة قبل أى اعتبار آخر ، وتمسك المحاضر برأيه وكادت تهب عاصفة من الاحتجاجات بسبب هذا الرأى ، وتتحول إلى مهاترة لايسمح بها . .

المهم أننا انصرفنا من المسجد ، وظل السؤال معلقا بين الآراء التى اختلفت عليه! . .

كان مطلوبا من الشيخ المفتى أن يغير فتواه ، وأن يحكم بحبس المرأة فى البيت ولو مات أبوها! وأيد ذلك الاتجاه أن متفيهقا ذكر حديثًا معناه أن الله رضى عن زوجة بقيت فى بيتها حتى توفى والدها فلم تعده فى مرضه الأخير ؛ لأن زوجها كان فى سفر فلم يأذن لها بالخروج من البيت ! .

قلت : هذا حديث مكذوب! واستغربت أن يطلب من امرأة ما باسم الإسلام أن تعق أباها ، وتقطع به صلتها ، وتدعه يموت مستوحشا لأن هذا حق رجلها! . .

وعندما تفقد المسكينة عاطفة البنوة فماذا يبقى من كيانها الإنسانى فى بيت الزوجية؟ إنها ستكون أسيرة فحل يملك أمرها وقهرها . . وحسب! . .

وفى الأرياف كان أغلب النساء يفقد ميراثه الشرعى ، فتقسم الأرض على الذكور وحدهم ، ويقول الإخوة الذين اجتاحوا الأرض : كيف نترك غريبًا ينزل بأرض أبينا؟ ويعنون بالغريب زوج أختهم! . .

فإذا حدث أن طالبت الأخت بنصيبها الشرعى قاطعها إخوانها إلى الأبد! . .

والأسر الشريفة لها تقليد عجيب ـ أعنى الأسر التى تدعى الانتساب إلى البيت النبوى ـ فالمرأة تموت عانسًا بائسة إذا لم يجئها الكفء من الأشراف ، أما الرجل فله حق الزواج من الإنكليز والأمريكان! . .

ويظهر أن بنات العم سام أو العم جون لهن شرف يضارع شرفه ، أما النساء اللاتى نكبن بالدم الشريف ، فلا كفء لهن على المدى البعيد إلا الموت ! . .

وروى البخارى عن الربيع بنت معوذ قالت : كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة . .

ويبدو أن هذا التقليد كان قصير العمر جدّاً ، فاستخفى فى أيام الحرب والسلم على سواء وتعتمد المستشفيات فى العالم الإسلامى اليوم على الممرضات الأجانب ، وإذا كان النساء قد منعن المساجد أفكان يؤذن لهن بالذهاب إلى ميادين القتال؟

ولا أريد أن يفهم غر أنى راغب فى نقل معالم الحضارة الغربية إلى مجتمعاتنا . فهذه الحضارة تجمع خليطا من التقاليد الحسنة والتقاليد الرديئة . .

وإنما أريد إعمال النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول ﷺ ، وسلفه الأول ، وهذا مسلك يعجز عنه أصحاب الخيال والشذوذ . .

لقد رأيت فى قضية المرأة أحاديث موضوعة ، وأحاديث واهية صححها الغرض المدخول ، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضعها . .

واستغربت وأنا أقرأ لبعض الفقهاء أن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد الحرام أو المسجد النبوى!

وقلت : لو كان الأمر كذلك فلم أشرف الرسول على تنظيم صفوفهن فى مسجده؟ ولم جعل لهن بابا خاصّاً بهن؟ ولم ذهب إليهن فعلمهن وحثهن على الصدقة ، ولم حذر «البعض» أن يحرص على القرب من صفوفهن؟ . .

الواقع أن المرأة أولى بها أن تصلى فى البيت إذا كانت مسئولية التغذية أو التربية تفرض عليها ذلك ، أما إذا تخففت من هذه الواجبات لسبب أو لآخر فلا يمنعها بشر من الذهاب إلى المسجد ليلا أو نهارًا .

أى إن صلاة الجماعة ليست مؤكدة فى حقها كالرجال ، وليس يفيد ذلك فرض حصار قاتل على حياتها العلمية والعبادية ، وتحويلها إلى مسخ لا مكان له فى دنيا ولا دين ، كما انتهت بذلك الأوضاع الاجتماعية فى العالم الإسلامى . .

عندما فتح النبى ﷺ مكة خرج النساء لمبايعته ، وتلقى تعاليم الإسلام منه ، ولم يحتبسن فى بيوتهن قعودًا عن هذا الغرض ، أى إن علاقة المرأة بالحياة العامة كانت قائمة ، وكانت من الناحية العملية ـ تسير فى خط يحاذى علاقة الرجل ، ولا يتطابق معه . .

وقبل فتح مكة اهتدت نساء كثيرات إلى الإسلام ، ورفضن البقاء مع أزواجهن الكفار فقررن الهجرة إلى المدينة . .

وحدث ذلك فى وقت كان المسلمون فيه ملزمين برد كل من يلحق بهم من مكة فارًا بدينه ـ تنفيذاً لمعاهدة الحديبية .

ولكن القرآن نزل يستثنى النساء من ذلك الحكم فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾[1] .

وورد أن عمر بن الخطاب كان فى ذلك الامتحان يحلف المرأة المهاجرة : الله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض! وبالله ما خرجت من بغض زوج! وبالله ما خرجت التماس دنيا! وبالله ما خرجت إلا حبّاً لله ورسوله» . .

ماذا ترى فى هذا القسم؟ . . وفيمن أدته؟ . . ألا ترى شخصية مستقلة واضحة الوجهة محترمة المسلك ، تحارب وتسالم وتقيم أو تسافر وفق ضميرها وتفكيرها؟ . .

أين هذه الشخصية التى واثقت الرسول فى مكة ، والتى هاجرت إليه فى المدينة ، من شخصية المرأة المسلمة فى القرون الأخيرة؟ . .

المرأة التى لاتعرف كتابًا ولا إيمانًا ولا صلاة ولا ثقافة عامة ، بل التى يعتبر من العيب الفاضح أن يعرف لها اسم ، أو يبدو لها شبح؟! لأنه لا وظيفة لها إلا إعداد الطعام ، وإرضاء البعل !! . .

---

(١) الممتحنة : ١٠ .

٨٧. ما أبعاد النشاط الاجتماعى للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهى؟

فى النشاط الاجتماعى للمرأة يمكن أن نعرف أبعاد هذا النشاط إذا ذكرنا أن قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشمل الرجال والنساء على سواء ، وذلك ظاهر قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[١] .

إن الأمر والنهى والصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ليست حكرًا على أحد الجنسين ، والزعم بأن المرأة تصلى وتزكى وتسكت فى ميدان النصيحة زعم باطل . .

والذى حدث فى القرون الأخيرة ، فى قرى كثيرة أن المرأة سقطت عنها هذه التكاليف كلها ، فلا تصلى أو تزكى ، إلا قبل الوفاة بفترة تطول أو تقصر بحسب الملابسات! . .

على أن حراسة المجتمع تنقل من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق ، وهنا تبتعد المسافة بين أقوال الفقهاء فى الإمكانات التى تعطاها المرأة ، ويبلغ الاختلاف حد التضاد . .

فابن جرير الطبرى يجيز للمرأة القضاء فى كل شىء يجوز للرجل أن يقضى فيه دون استثناء! .

ويقول الأحناف ـ كما جاء فى البدائع ـ إن الذكورة ليست شرطًا لتقلد منصب القضاء فى الجملة ، لأن المرأة من أهل الشهادة فى الجملة ، إلا أنها لا تقضى فى الحدود والقصاص لأنها لا شهادة لها فى ذلك ، وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة !

وهنا نسأل : ما قيمة شهادة المرأة فى الحدود والقصاص ؟ والجواب أن جمهور الأئمة يردها ! . . جاء عن الزهرى رضي الله عنه ، مضت السنة من رسول الله والخليفتين بعده أنه لا تجوز شهادة النساء فى الحدود والنكاح والطلاق ، وفى رواية أخرى والدماء! . .

---

(١) التوبة : ٧١ .

ويرفض ابن حزم هذا الكلام كله! ويجيز شهادة النساء فى كل ما ذكر ! ويقول فى حديث الزهرى : إنه بلية ، وإن إسناده منقطع ، وهو من طريق إسماعيل بن عياش - وهو راو ضعيف - عن الحجاج بن أرطاة - وهو هالك - تلك قيمة حديث الزهرى عنده . .

ويرى ابن حزم قبول شهادة المرأة فى كل قضية بعد مضاعفة النصاب ، فيقبل فى حد الزنا ثمانى نساء بدل أربعة رجال!

والدليل الذى يعتمد عليه ابن حزم هو العموم الظاهر فى حديث مسلم عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «**فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل**» وما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال فى حديث : «**أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلنا: بلى**» . .

فقطع رسول الله بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل . . قال ابن حزم فوجب ضرورة أنه لا يقبل - حيث يقبل رجل لو شهد - إلا امرأتان ، وهكذا مازاد . .

ويفسر ابن حزم قوله تعالى :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[1] .

فيقول : هذا متوجه بعمومه إلى الرجل والمرأة والحر والعبد ، والدين كله واحد! لا حيث جاء النص بالفرق بين المرأة والرجل ، وبين الحر والعبد ، فيستثنى من عموم إجمال الدين ! . .

وقبل ذلك يقول ابن حزم : وجائز أن تلى المرأة الحكم ، وهو قول أبى حنيفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولى الشفاء - امرأة من قومه - السوق . .

فإن قيل : قد قال رسول الله ﷺ : «**لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة**» قلنا : إنما قال رسول الله فى الأمر العام الذى هو الخلافة .

برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «**المرأة راعية على مال زوجها وهى مسئولة عن رعيتها**» . وقد أجاز المالكيون أن تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص يمنعها من أن تلى بعض الأمور . .

(١) النساء : ٥٨ .

والفقهاء متفقون على أن شهادة المرأة مقبولة فى المعاملات المالية لقوله تعالى :

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴾[1] . .

وقد نقلت فى أحد كتبى كلامًا للأطباء عن اعتلال مزاج المرأة وبدنها عند الدورة الشهرية وقلت : لعل ذلك سر توكيد خبرها بأخرى معها ، والضلال هنا يعنى الذهول والشرود .

وأبادر إلى القول بأنى لست ظاهريًا ، لكنى أتبع الدليل حيث كان ، وكثيرًا ما أرفض اجتهادات لابن حزم ولغيره من أئمة الفقه ، لأن وجهات نظر أخرى بدت لى أرجح .

وغايتى خدمة الإسلام بما يناسب المرحلة التى بلغتها الإنسانية كلها فى هذا العصر الخطير . .

إن تعاليم الإسلام قسمان ، قسم مقطوع به ، لا مكان لخلاف فيه . .

وهذا القسم هو صلب الدين ومعقد أموره ، ولا أثر لاختلاف الأمكنة والأزمنة فيه ، والدعوة عامة إنما تكون إليه ، والمفاضلة بيننا وبين غيرنا إنما تكون عليه . .

أما القسم الآخر فهو القضايا الظنية والمسائل الخلافية .

إن المجال رحب هنا للأخذ والرد والفعل والترك .

وقد رفض أولو الألباب أن يكون رأى مجتهد ما بمنزلة الوحى المعصوم فى الأخذ به والتعويل عليه .

ومن ثم يجب ترك الناس أحرارا فى التحول إلى غيره لسبب أو لآخر .

ولتوضيح ما أعنى أريد - وأنا أعرض الإسلام فى بلاد أخرى - ألا أغير سلوكا فى هذه البلاد يرى بعض فقهائنا ألا جرح فيه . .

فإذا كانوا يقتنون الكلاب فليفعلوا فمالك بن أنس يرى الكلاب طاهرة الريق والعرق ، وقد كان للفتية المؤمنين من أهل الكهف كلب يلازمهم فى أحلك الأوقات .

وإذا كانوا يسمعون الموسيقى فليفعلوا ، فالغزالى وابن حزم وغيرهم يرون سماعها ولا مساغ لزجرهم عن أمر ليس لدينا قاطع فى منعه . .

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

وإذا كانوا يولون النساء بعض المناصب المهمة فليفعلوا فما أستطيع باسم الإسلام أن أحظر عليهم ذلك ، إن الحظر عندنا رأى مجتهد ، وليس وحيًا حاسمًا .

الشيء الذى أتشبث به فعلا وتركًا ما انعقد إجماعنا عليه .

أما عرض بعض المذاهب السائدة أو الشاذة ، وعرض بعض التقاليد البدوية أو الحضرية على أنها الإسلام ، فهذا ظلم للإسلام ، وربما كان صداً عن سبيل الله . .

وما أقوله هو ما كان عليه سلفنا الأول الذى نشر الدين عقائد وعبادات وأخلاقًا وقيما جوهرية . . وقلما اكترث بالتوافه والأشكال . .

وأمر آخر أريد التنبيه إليه . أرى مع سير الزمن أن نغلغل النظر فى الاجتهادات الفقهية لنعرف بدقة نتائجها التطبيقية .

إن الأئمة الأربعة أمضوا الطلاق الثالث ثلاثًا ولو بكلمة واحدة ، وغبرت على ذلك قرون ، ثم جاء ابن تيمية وغيره فجعلوا الثلاث واحدة . .

وكنت فى مصر أرقب أثر الطلاق على كيان الأسرة فوجدت صدوعا رهيبة فى هذا الكيان جعلتنى أوثر فقه ابن تيمية وغيره ، وأؤيد تحول المحاكم الشرعية عن رأى الأئمة .

لقد تركوا اجتهاداً إلى اجتهاد ، ولا حرج ، فالعصمة للوحى وليست لبشر ما . .

وما يقال فى قضايا الطلاق يقال فى معاملات أخرى تجارية وزراعية ، كانت مسرحًا رحبًا لأنصار الفقهاء الأقدمين ، أنه لا قداسة لاجتهاد ، والخلود لكتاب الله وسنة رسوله .

وبديه أننا ندع اجتهاد فقيه لاجتهاد مثله ، ولا نفتح الباب للأدعياء والدجالين ومن لا قدم لهم فى علوم الشريعة . .

وبديه أيضًا أننا نضاعف الأسوار حول المقطوع به ، ونستميت دون أن يمسه أحد . .

وقضايا المرأة فيها نصوص قطعية ، وفيها اجتهادات فقهية اكتنفها الخطأ والصواب .

ويؤسفنى القول بأن الجراءة على النصوص المستيقنة كان سببها تشبث المقلدين البله بأفكار رديئة عن حقوق المرأة العادية والعبادية . .

إن الله أمر بالغض من البصر ، ووجه هذا الأمر للمؤمنين والمؤمنات ، فجاء من أمر بمنع النظر أصلا . .

فلا يجوز للمرأة أن ترى أو تُرى ، ولتحقيق ذلك تم حبسها أبدا فى البيت . .

ونشأ عن ذلك الغلو قتل إنسانية المرأة وإضاعة حقوقها الدينية والمدنية . .

ثم جاء من يعالج هذا العوج ينقل تقاليد أوربا وأمريكا ، أى استبدال داء بداء . .

ونحن نأبى غباوة هؤلاء وانحلال أولئك!! . . ونريد الأوضاع التى عرفها العهد النبوى والفقه الذكى الذى يدرك هذه الأوضاع . .

إن محدثًا جليل القدر كأبى عبدالله البخارى نظر إلى السنن الصحاح ثم استنتج منها دون تكلف ولا تخوف أحكامًا يرفضها اليوم بعض الناس ، ففى كتاب المرضى يذكر إمام المحدثين هذا العنوان «باب عيادة النساء الرجال ، وعادت أم الدرداء رجلا من أهل المسجد من الأنصار . . إلخ» . .

وفى مكان آخر يثبت عنوانا آخر «باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال» و «باب غزو المرأة فى البحر» . . إلخ .

ولو أن امرأة طلبت شيئًا من ذلك فى بعض البيئات التى تحترف التدين لضربت حتى الموت ، إنهم يقرءون البخارى للبركة لا للفقه . .

وقد يبسطون ألسنتهم فينا بالقدح ، لأننا أحيينا هذه الحقائق من ديننا السمح . .

ومع ماذكرنا فنحن نؤكد أن نشاط المرأة لا يجوز أن يكون على حساب أسرتها ، وأن حق زوجها وولدها أسبق من شتى الحقوق الأخرى ، وقد قرأت لوزيرة فرنسية ، وأخرى إنكليزية أن عمل المرأة فى بيتها هو رسالتها الأولى . . وهذا تفكير جيد . فإن منصب «ربة البيت» منصب كبير وهو فى نظرى يحتاج إلى مؤهلات رفيعة . .

وإنشاء الحياة وفق المقررات الإسلامية يتطلب حظوظًا مضاعفة من العلم والخبرة ، فكيف توائم بين شتى الأوضاع والغايات؟ . .

ذاك ما يتطلب حسن التفكير والتنسيق . .

٨٨. ما نظرة الإسلام إلى الأسرة، وما عمل المرأة فى بنائها؟

الذين خبروا الحياة فى أوربا وأمريكا يؤكدون أن الأسرة وهم لا حقيقة له ، وأنها فى أفضل أحوالها تقوم بجزء تافه مما يجب أن تقوم به لإنشاء أجيال أزكى وأقوم . .

إن البيت خاو على عروشه أغلب اليوم ، لأن الذكور والإناث توزعتهم ميادين العمل والعلم ، حتى الأطفال وكلتهم أمهاتهم إلى دور الحضانة ، وانشغل كل امرئ ـ بعد ـ بما انشغل به . .

وهم يسمعون عن جو الأسرة فى بلادنا ، وربما حلمت بعض المراهقات أن تحيا فيه ، ولكن الهوان الفكرى والنفسى الذى يلف المرأة فيه يصرف الكثيرات عن التعرض لمآسيه .

وعندى أن المثقفة التى تحيا خارج بيتها ليست خيرًا من الجاهلة التى تعيش داخل هذا البيت . .

ألا فلنعلم أنها نعمة حقيقية أن تمتد الحياة من الآباء إلى الأولاد إلى الأحفاد ، وأن تكون الأسرة المؤمنة المستقرة هى المهاد الوثير لهذا الامتداد .

وليس الإنتاج الحيوانى سر هذه النعمة ، إن العظمة هنا فى توارث العقائد ، وانتقال التقاليد الصالحة من جيل إلى جيل . .

إن الأسرة هنا حصن الدين وسياج مبادئه وعباداته ودور المرأة وأجرها كدور الرجل وأجره سواء بسواء .

وعن عظمة هذه النعمة يقول الله سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[١] .

إن الرجال هم حمالو الأعباء الثقال فى قافلة الحياة السائرة ، سواء كانوا أساتذة أو ساسة ، أو أُجراء أو باعة فهم يعودون إلى بيوتهن فقراء إلى المشاعر الدافئة والعون المبذول . .

---

(١) النحل : ٧٢ .

والبيت الذى تكون قاعدته امرأة تنفح هذه المعانى ، بيت رفيع القدر ، بل هو بيت يحتوى على أثمن الكنوز .

والتقاليد الغربية هزت كيان الأسرة ، وهى تقاليد تجتاح العالم ، أما التقاليد الإسلامية فالعارفون بها قلة ونشرها يلقى مقاومة عنيدة خصوصًا من جهلة المتدينين . .

من أجل ذلك رأيت لفت النظر إلى أن وظيفة ربة البيت من أشرف الوظائف .

وقد تخرج المرأة من بيتها وراء أعمال مشروعة ، بيد أن هذه الأعمال مهما سمت لا يجوز أن تجور على عملها الأول الذى لا يشركها فيه أحد . .

روى ابن عبد البر فى كتابه «الاستيعاب» أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبى ﷺ فقالت : بأبى أنت وأمى يارسول الله! أنا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة . فآمنا بك وبإلهك ! . إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم ، وأنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل . . وإن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا أو مجاهدًا ، حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفنشارككم فى هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبى إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : «**هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن مسألة فى دينها من هذه؟**» فقالوا : يارسول الله ، ماظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا . . فالتفت النبى ﷺ إليها وقال : «**افهمى أيتها المرأة، وأفهمى من خلفك من النساء، إن حسن تبعل المرأة لزوجها.** يعنى قيامها بحقه وإحسانها لعشرته. **وطلبها مرضاته واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله . .**»

على أن هناك ميادين للأعمال لابد أن يكثر فيها النساء ، أولها الميدان الطبى ، فيجب أن تكون هناك طبيبات ماهرات فى كل ناحية من نواحى الطب ، والأشعة ، والصيدلة ، والولادة والتمريض . .

ثم ميدان التدريس لجميع المراحل دنياها وعلياها .

ولا يجوز أن يوصد باب من أبواب المعرفة أمام النساء إلا أن يكون لأسباب فنية أو مواصفات خاصة .

عندئذ ينطبق التخصيص على الرجال والنساء جميعًا ، فيوجه كل أحد إلى ما يناسب قدرته وخبرته .

إن النساء فى عالم الكفر الشيوعى يغزون الفضاء فلا يسوغ اجترار الإسلام ليمنع المرأة من علم تحسنه . .

والنساء فى عالم التثليث يشتغلن بالتبشير والاستشراق فلا يسوغ تسخير الإسلام لمنع النساء من أعمال يجدنها ويجدين فيها . .

إن القماءة الفقهية عند بعض المشتغلين بالعلم الدينى أحرجت الإسلام كثيرًا ، ومكنت خصومه من خناقه! وأذكر وأنا طالب فى معهد الإسكندرية ـ من خمسين سنة ـ أن الدكتور طه حسين فتح فصلا للطالبات بكلية الآداب التى كان عميدًا لها . .

وحدث هيجان هائل لفتح الجامعة أمام المرأة وبعد سنين طوال ، طوال ، فتح الأزهر كلية البنات . . لقد وصل متأخرًا كثيرًا . .

ما السبب؟ إنها القماءة الفقهية عند بعض المتحدثين باسم الإسلام ، ولما مشوا فى الطريق كانوا يمشون منهزمين ، فقبلوا أمورًا وصورًا لا ريب فى أن الإسلام يرفضها .

عندما يدعم الإسلام مكانة المرأة يحصنها من الصور الحيوانية التى أبرزتها فيها الحضارة الحديثة ، وجعلتها محورًا لإثارات متصلة تزلزل العفة وتهيج الغريزة . .

الدين ينشد الصون ويؤثر الاحتشام والحضارة الحديثة تنشد التبرج وتدفع إلى الإغراء ومع ضعف اليقين وحب الحياة العاجلة أخذ السعار الجنسى يشتد ويفرض رغائبه ، حتى فقد الاتصال الحرام دمامته ، وأمسى كأنه حاجة تلبى دون حرج كبير!! . .

والدين يرفض أى خلوة بين رجل وامرأة ، وهى تقرب بينهم فى الأعمال الجادة والهازلة . .

وكثيرًا ما تساءلت : لماذا تكون «للمدير» سكرتيرة خاصة؟ . .

لماذا تشتغل الفتيات بالخدمة فى الطائرات ، وحدهن؟ ويقضين فى الجو وفى الفنادق ليلهن ونهارهن؟ . .

إن النساء يحشرن فى أعمال كثيرة لا معنى لها . . وعندما نقرر أحكام الإسلام وتوجيهاته فإن ابتذال المرأة سيمنع للفور ، وسيكون عملها فى أى موقع مضبوطا بآداب الشرع وحدوده . . ذلك ، ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة ، وصاحبة منصب منتجة . .

إن ذلك قد يقع على ندرة ، وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شئون بيتها وأولادها . .

إن تعاون المسلمين والمسلمات لإقامة مدنية مشرفة طاهرة أمر ميسور . .

ويحتاج ذلك إلى محو فكرة تحقير المرأة وجعلها متهمة حتى تثبت براءتها . . وهى فكرة تسيطر على بعض المتحدثين فى الدين وتجعل فتاواهم أقرب إلى اللغو منها إلى الصدق .

إن القول بأن المرأة هى التى أخرجت آدم من الجنة تزوير على الإسلام ، والزعم بأنها لا تزال تقوده إلى النار تزوير كذلك . .

والتصور الإسلامى كما أثبته القرآن الكريم : ﴿ **لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾[1] .

إننى غيور على الأعراض كأشد المتزمتين ، ولكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان .

فالبون بعيد بين تكوين العقل والضمير بالعلم والتقوى وبين حبس الأجساد فى قفص من حديد .

والإسلام قاد المرأة إلى المسجد لتسمع الدرس ، وتسجد لربها ، وبذلك صقل روحها وفكرها ، وفى المسجد كانت ترى الإمام وربما علقت على ملابسه![2] . وكانت ترى المدرس وربما ناقشت ما يقول . .

أما عقلية السجان فأساسها أن المرأة لا تُرى ولا ترى ، وإذا كان المسجد مظنة ذلك فلا ذهاب إلى المسجد! وهذا هو الإسلام فى فلسفة السجان .

عندما آثر الناس السيارة والطيارة على الخيل والبغال والحمير لم يكن ذلك تحقيرًا للمواصلات الإسلامية الرديئة ، فما علاقة هذه المواصلات المهجورة بالإسلام؟ . .

وعندما يترك الناس التقاليد التى وضعتها عقلية السجان ، فهم لم يتركوا الإسلام قط ، وإنما تركوا أساليب بعض الناس فى الحياة . .

والحكم هو كتاب الله وسنة رسوله أولا وآخرا . . والمشكلة تجىء من طريقة فهم البعض للنصوص والآثار . .

روى البخارى ومسلم وأحمد عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال :« **اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها فقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء** » .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .

(٢) روى البخارى أن امرأة نددت بثوب الإمام لأنه مشقوق!

ورواية أحمد فى مسنده : «**اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء**» .

إن جماهير من المتصوفة اعتمدوا على الشق الأول من الحديث فحاربوا المال ، وحقروا الغنى حتى طلعت القرون الأخيرة على المسلمين وهم صعاليك الأرض . .

وجماهير أخرى من قصار النظر والباع عدت الأنوثة لعنة ، وجعلت جمهور أهل النار من النساء ، فهن حبائل الشيطان وشباك المعاصى . .

وهذا المنهج فى فقه الأمور لا وزن له ، وأصحابه لا علم لهم لا بكتاب ولا سنة . .

بين الإفراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه ، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة الإسلامية فى أغلب المجتمعات ، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التى تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق . .

إن أفلاطون فى مدينته «الفاضلة» يجعل المرأة مشاعا بين الآخرين ، فما تكون إذن المدينة الدنسة . .

على أن عقلية السجان هى الأخرى لا تقيم أمة راقية الفكر زاكية القلب . .

وتعاليم الإسلام الصحيحة هى الأمل فى بناء عالم متراحم مصون؟ . .

٨٩. يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة، فما قيمة هذا الرأى؟

فى العصر الأول وجدنا عمر بن الخطاب ـ وهو المشهور بغيرته ـ يولى على سوق المدينة الشفاء بنت عبدالله المخزومية قضاء الحسبة ، وهى وظيفة دينية مدنية تتطلب الخبرة والصرامة . .

وذكر ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» أن عبد الرحمن بن عوف ظل ثلاثة أيام يستشير النساء فيمن يخلف عمر بعد مقتله ـ من الستة المرشحين ـ فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه إلا استشاره . .

كانت النساء تستشار! ولم لا وقد استشار النبى أم سلمة عندما تقاعس الناس عن التحلل من عمرة الحديبية .

أما المرأة المسلمة فى الأعصر الأخيرة فقد ماتت أدبيًا وراء تقاليد جاهلية ليست من الدين حتى دهمتنا الحضارة الحديثة بمنازعها المادية ومسالكها الإباحية ، فلم يدر أهل الدين مايفعلون . . لقد طالعت فى السيرة النبوية أحاديث تبرز المجتمع الأول فى صورة أرحم وأرحب من الصورة التى يرسمها بعض الناس للمجتمع المسلم ، وهى صورة قاتمة موحشة .

روى مسلم فى صحيحه أن جارا فارسيا للنبى ﷺ كان طيب المرق ، فصنع لرسول الله ـ طعامًا ـ ثم جاء يدعوه فقال : وهذه ـ لعائشة ـ فقال الفارسى : لا فقال رسول الله ﷺ : لا! أى لا أذهب معك وحدى . فعاد يدعوه . فقال رسول الله ﷺ : وهذه . . قال : لا . . فقال رسول الله : لا . . ثم عاد يدعوه ـ للمرة الثالثة ـ فقال رسول الله : هذه! قال الفارسى : نعم . فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله[1] . .

وروى البخارى أن أبا سعد الساعدى دعا النبى ﷺ لعرسه ، وأصحابه رضى الله عنهم ، فما صنع لهم طعامًا ولا قربه إليهم إلا امرأته أم سيد ، فقد بلت من

(١) ربما كان ذلك قبل نزول آية الحجاب ، لكن الحجاب خاص بأمهات المؤمنين ، كما قرر ذلك المحققون ويبدو أن الفارسى المضيف كان قد أعد الطعام لواحد فقط ولذلك تحرج من قدوم ضيفين معًا . . ولم يدر أن طعام الاثنين يكفى ثلاثة ، وأن الرسول الكريم يريد إيناس زوجته على مائدة فارسية .

الليل تمرات فى تور - إناء من حجارة - فلما فرغ النبى ﷺ أماشته له - أى هرسته بيدها - فسقته تتحفه بذلك - وكانت امرأته خادمتهم يومئذ وهى عروس .

وبديه أن ذلك الاختلاط المحدود تم فى إطار تعاليم الشريعة التى توجب على المرأة المتحشمة الكاملة . .

والحشمة المطلوبة ستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين .

وقد زعم البعض أن النقاب كان مضروبًا على الوجه ، فلم يبد من المرأة شىء قط . .

وهذا زعم مردود فقد قرأت نحو اثنى عشر حديثًا فى أصح كتب السنة تشير إلى أن النساء كن يكشفن وجوههن وأيديهن أمام النبى ﷺ ، فما أمر واحدة منهن بتغطية شىء من ذلك ، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون . .

ومع ذلك فإن ناسا لا فقه لهم ولا تقوى يسلقون السوافر بلسان حاد ، مع أنهن تامات الحشمة ، ويرون انسياقا مع أفكار غبية أن وجه المرأة ويديها وصوتها عورة! . .

مات سعد بن خولة فى السنة العاشرة للهجرة وترك امرأته حاملا ، وشاء الله أن تضع قبل عدة الوفاة - قبل أربعة أشهر وعشرة أيام - فتركت المرأة إحدادها ، وتجملت للخطاب - اكتملت وتخضبت وتهيأت - فلقيها رجل اسمه أبو السنابل ، وأنكر عليها ذلك وقال لها : لعلك تريدين الزواج؟ بعد أربعة أشهر وعشر ! . .

قالت : فأتيت النبى ﷺ ، وذكرت له ما قيل . . فقال لها : قد حللت حين وضعت . . والقصة موجودة فى الصحيحين ومسند أحمد ، وهى كقصص وقعت فى آخر حياة رسول الله ﷺ ، ولا مساغ للزعم بأنها قبل الحجاب . .

إن شيئًا آخر غير دين الإسلام يراد فرضه على الأمة الإسلامية . .

والذين يريدون ذلك يخضعون لدوافع نفسية لا لشواهد علمية . .

والشىء الوحيد الذى يذكرونه هو التأسى بأمهات المؤمنين ، ونقول : لو كان التأسى بهن مطلوبًا فى هذه القضية فلم تركه الرسول وصحابته ، ولم تركوا الوجوه مكشوفة دون اعتراض؟ .

والواقع أن تنظيم البيت النبوى خضع لظروف خاصة ، وقد صرح القرآن بذلك عندما قال لزوجات الرسول : ﴿ **لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾[1] . .

---

(١) الأحزاب : ٣٢ .

إن تحريم الزواج منهن بعده ﷺ ، ومضاعفة الثواب أو العقاب لهن ، تشريع خاص بهن . .

ومعروف أن البر والفاجر كانوا يطرقون باب النبى ﷺ ، كيف لا وهو محط الرجال ومقصد الوفود من كل فج؟ . .

وفى بعض البدو جراءة على النظر والقول ، وبين الأعراب بقايا جاهلية فى التطلع إلى النساء ، فكان من إعزاز الله لنبيه أن نزلت آية الحجاب فى سورة الأحزاب تمنع الدخول عليهن بتة ، فلا يراهن أحد إلا ما استثنى الله عز وجل فى قوله : ﴿ **لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا** ﴾[1] . .

وظاهر أن هذا التنظيم خاص بأمهات المؤمنين ، وأنه بعد نزوله رئى النساء المؤمنات مقاتلات فى حنين ، ورئين فى مناسبات كثيرة فى المسجد وغيره سافرات الوجوه ، فما أنكر عليهن أحد ، ومن الناس من يحظر رؤية النساء للرجال والرجال للنساء مطلقًا . واستدل لرأيه بما روى من كراهية الرسول ﷺ أن يرى نساءه عبدالله بن أم مكتوم ، ويرى ابن حجر أن ذلك كان لسبب خاص ، هو أن عبدالله أعمى لا يحسن تعهد ثيابه ، وستر بدنه كله . .

وهو تعليل اضطر إليه ابن حجر لما رأى الحديث يخالف الصحاح .

إن ابن حجر رد حديث «أفعمياوان أنتما» بطريقته الخاصة ، فتغاضى عن السند ، وتأول المتن . . لكن ابن العربى رفض الحديث سندًا ومتنًا! . وقال عن نبهان . . راوى هذا الحديث أنه مجهول . . ونبهان هذا كان خادمًا لأم سلمة رضى الله عنها ، ولم يعرف بين أهل العلم بشىء وحديثه إذا كان قد خالف ما رواه البخارى فى رؤية عائشة للأحباش عند عرضهم الرياضى ، فهو قد خالف واقعة أخرى رواها مسلم أيضًا تتصل ببنت عم لابن أم مكتوم أمرها النبى ﷺ أن تقضى عدتها عنده . .

روى مسلم عن فاطمة بنت قيس أن زوجها عمرو بن حفص طلقها البتة ـ طلقة ثالثة ـ فجاءت رسول الله فذكرت ذلك له ، فأمرها أن تعتد فى بيت «أم شريك» ثم قال : تلك امرأة يخشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده . .

---

(١) الأحزاب : ٥٥ .

وفى رواية انتقلى إلى أم شريك ـ وهى امرأة غنية من الأنصار واسعة النفقة فى سبيل الله ، ينزل عندها الضيفان ـ فقلت : سأفعل . . ثم بدا لرسول الله أمر آخر ، فقال : لاتفعلى ، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان ، فإنى أكره أن يسقط خمارك ، أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ماتكرهين ، ولكن انتقلى إلى ابن عمك عبدالله بن أم مكتوم ، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك ـ الوضع الإنزال والكشف ـ فانتقلت إليه ، فقالت : فلما انقضت عدتى سمعت نداء المنادى : الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد ، فصليت مع رسول الله ، فلما قضى صلاته جلس على المنبر فقال : إني والله ماجمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم لأن تميما الدارى كان رجلاً نصرانيّاً فجاء وبايع وأسلم . . . إلخ . .

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى :

وجه دلالة الحديث على أن الوجه ليس بعورة ظاهرة ، وذلك لأن النبى ﷺ أقر فاطمة بنت قيس على أن يراها الرجال وعليها الخمار (وهو غطاء الرأس) فدل هذا على أن الوجه منها ليس بالواجب ستره كما ستر رأسها ، ولكنه ﷺ خشى عليها أن يسقط الخمار عنها فيظهر منها ما هو محرم بالنص ، فأمرها عليه السلام بما هو الأحوط لها وهو الانتقال إلى دار ابن أم مكتوم الأعمى قال : «وهذه القصة وقعت فى آخر حياته ﷺ لأن فاطمة بنت قيس ذكرت بعد انقضاء عدتها سمعت النبى ﷺ يحدث بحديث تميم الدارى أنه جاء وأسلم ، وإسلام تميم كان سنة تسع للهجرة ، فدل ذلك على تأخر القصة عن آية الحجاب ، فالحديث إذن نص كذلك على أن الوجه ليس بعورة» . .

فى السنة العاشرة للهجرة ، وبعد نزول آية الحجاب بست سنين وقعت قصة «الخثعمية» وهى امرأة جميلة الوجه جاءت إلى النبى ﷺ يوم النحر وهو فى حجة الوداع تريد أن تستفتيه فى شأن ما من مناسك الحج . .

قال الرواة : وكان الفضل بن العباس رديف النبى ﷺ ، فلفته جمال المرأة ، وقد حدث الفضل عن نفسه ـ كما روى أحمد فى مسنده ـ «فكنت أنظر إليها . . فنظر النبى ﷺ فقلب وجهى عن وجهها ، حتى فعل ذلك ثلاثا وأنا لا أنتهى» ! .

وأصل هذه القصة ثابت فى البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى ، كانت المرأة وضيئة الوجه ، لم يرو أحد عن صاحب الرسالة صلوات الله عليه أنه زجرها عن

كشف وجهها ، أو اتهمها ببث الفتنة وقلة الحياء! . ولكن الملكيين أكثر من الملك يريدون الاستدراك على المشرع الأعظم ، وإطلاق ألسنتهم فى الناس ويريدون طى هذه السنن الصحاح ، وإبراز آثار منكرة تفيد أن المرأة تغطى عينًا وتبدى أخرى! . . أو تغطى جسدها كله من الوجه إلى القدم ، فلا يرى منها شىء ، ولا يسمع لها صوت ، لأن الصوت هو الآخر عورة!! . .

إن هذا الغلو أعقب ـ على امتداد القرون ـ آثارا اجتماعية سيئة قتلت شخصية المرأة ، وإنسانيتها وأساءت ولا تزال تسىء إلى الإسلام . .

يقول البعض : لا بأس أن تضع المرأة نقابًا على وجهها اقتداء بنساء الرسول ﷺ . .

نقول : ولا بأس أيضا من تحريم الزواج على المرأة إذا مات زوجها امتدادًا لهذه الأسوة . .

إننا نريد التزام خط إسلامى صحيح لا علاقة له بتبرج الغربيات ولا بهوان الشرقيات المسلمات وإهدار آدميتهن . .

إن الغضب لله على العين والرأس . . أما الغضب لتقاليد ملصقة بالوحى دخيلة عليه فشىء لا نكترث له ، ولا نخشى أصحابه . .

قال لى صديق : إن الطريقة التى تعرض بها قضايا المرأة تخالف تقاليد قوية ومذاهب مستقرة ، وهذا يسىء إليك وقد يعوق آراء صالحة شرحتها للناس فى ميادين أخرى . .

قلت : نصيحة مقدورة! . . وأحب أن أذكر لك ما عندى لتدرك ما هنالك .

إننى فى هذه القضية وفى غيرها أرفض الأحاديث الموضوعة والواهية ، ولا أحترم التقاليد التى تبنى عليها . . إن العرف السائد يحكم عليه ولا يحتكم إليه ، والأساس المرعى هو كتاب الله وسنة رسوله . .

وإننى أعوذ بالله أن أكون قد خرجت عليهما ، إن المتواتر يحكمنى والصحيح يلزمنى . . أما المرويات الأخرى فلا اكتراث .

ومازلت أذكر أن رئيس جماعة إسلامية كتب مقالا ضدى تحت عنوان «مدير المساجد يكذب رسول الله»!! . .

وقد اقشعر جلدى من التهمة ، فأنا أحد الأرقاء لجميل محمد ، الشاعرين بعظمته ، المتابعين لسيرته ، فكيف أكذبه!! ومحور المقال حديث منكر يقول إن المرأة لا ترى أحدًا ولا يراها أحد . .

والذى يصدق هذا الكلام يجب أن يكذب المتواتر والصحيح فى قضايا المرأة كلها! وهذا مافعله البعض وأقام بعدئذ تقاليد فرضها على الدين فرضا ، كيف احترام هذه التقاليد؟ . .

وهناك آثار صحيحة السند ، شرحها البعض من زاوية خاصة ، ولهم ما مالوا إليه من فهم وإن كان معتلاً ، وليس لهم إلزام غيرهم . . فقوله تعالى :

﴿ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾[1] .

فسره أولئك بأن الزينة لا تظهر أبدًا ، ولا يجوز إظهارها بتاتًا ، وإن الاستثناء هو لما يقع أحيانا من مجاذبة الريح للنقاب المضروب على الوجه . .

إن كشف الوجه كان العادة السائدة ، وربما تنقبت بعض النساء ، ولم يحدث أن النبى ﷺ اعترض امرأة سافرة ، والسنن شاهد صدق على ذلك ، وكان مجتمع الصحابة قائمًا على هذا الوضع دون تكبر . .

وتأمل فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده ـ والحديث صحيح ـ قال عن أبى أسماء أنه دخل على أبى ذر رضي الله عنه وهو بالربذة ـ أيام عثمان ـ وعنده امرأة سوداء مشعثة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلوق ـ الطيب ـ فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرنى هذه السويداء؟ . . تأمرنى أن آتى العراق ، فإذا أتيت العراق مالوا على بدنياهم . . وإن خليلى ﷺ عهد إلى أن دون جسر جهنم طريقًا ذا دحض ومزلة ، وإنا إن نأتى عليه وفى أحمالنا اقتدار أحرى أن ننجو من أن نأتى عليه ونحن مواقير . .

يعنى إذا كنا خفافًا فى الدنيا قدرنا على النجاة من هذا الطريق الزلق ، أما إذا أوقرنا أحمالها وأثقلنا مآربها فسنهوى .

وأبو ذر يشكو امرأته لبعض صحبه ، لأنها تشير عليه بالارتحال إلى العراق ، وقد رأى الصحب المرأة ووصفوها بما قرأت . .

أعرف أن هناك من يرى أن المرأة لا يجوز أن يلمح شبحها فى مكان! فما الذى يجعل هذا الكلام هو دين محمد ، إنه أمر بالغ السخف أن يرى أحد رأيا ثم يقول : هذا هو الدين ، لا دين غيره . .

نعم قد قال : هو وجهة نظر فى فقه ما ورد من آثار .

ولا أحارب هذا ، وإنما أضم إلى الموضوع حقيقة أخرى ليست خاصة بالميدان النسائى ، وإنما تعم كل ميدان اختلفت فيه آراء المجتهدين . .

---

(١) النور : ٣١ .

هناك خلافات لايضر بقاؤها إلى قيام الساعة ، فليقنت من شاء فى صلاة الفجر أو لا يقنت ، إن مذاهب المجتهدين هنا تترك آثارًا مهمة فى مسيرة المجتمع .

لكن هناك من يرى أن الخمر والحشيش والأفيون سواء فى الحرمة ، وهناك من يفاوت بينها ، بل هناك من يبيح بعضها! وقد شعر أولو الألباب أن الأم التى تقبل على المخدرات أسوأ حالا وأضعف إنتاجًا من الأم التى تشرب المسكرات . .

فهل يقبل من أتباع بعض المذاهب الفقهية القول بأن الإسلام يبيح كذا من المخدرات فلا تحرموا ما أحل الله؟ . .

لماذا لا يسكت من اعتنقوا وجهة نظر ما إذا كانت الأيام قد كشفت أن وجهة نظرهم سيئة؟ . .

ولماذا يريدون جعل ما يعتنقون دينًا لايمس؟! ولحساب من هذا التعصب والحماس؟!

الأمر كذلك فى قضايا المرأة . . إن ترددها على المساجد وتزودها بالعلم سنة يساندها التواتر . .

ثم نبتت وجهة نظر أخرى فحرم عليها الذهاب إلى المساجد ، وحظر عليهم التعلم . .

وهذه الوجهة لاتعدو أن تكون فهما رديئًا لأثر ما أو تباعًا أعمى لحديث موضوع . .

ثم انهار العالم الإسلامى كله ، وأصبح رجاله ونساؤه أمثلة مزرية للتخلف ، فإذا جاء من يعيد الكرامة الأدبية والعقلية للمرأة . ويعيد الأمة إلى معالم سلفها الأول . قيل له : لا! . .

والدليل؟ فقه مغشوش! أو نقل مريض ، أو رأى امرئ يريد التقدم بين يدى الله ورسوله ليجعل من سلوكه وإدراكه النهج الذى يفرض على الكتاب والسنة لا نهج غيره . .

إننا نؤكد أن النصوص على العين والرأس ، وأن الخلاف الفقهى وجهات نظر تخضع للموازنة والترجيح ولا قداسة لإحداها ، وأن من حق المسلمين فى أى بلد أن يدعوا رأيا تبين من تطبيقه أنه حطهم فى الداخل وأزرى بهم فى الخارج . .

ولا يوصف أبدا ترك هذا الرأى بأنه ترك للدين ، بل إن أغلب ما يشيع بين المسلمين فى المجال الإنسانى مخالف للدين ، وليس وراءه اتباع محترم . .

من أجل ذلك كله أرفض عرض الإسلام فى هذا العصر على أنه نقاب ، أو أنه رفض لشهادة المرأة وعملها فيما تصلح له ، أو رفض لقيادتها السيارة مثلا ، ورفض لاضطلاعها بمهام تطيقها مع تأكيدى أن عمل المرأة فى الأسرة يصدر كل أعمالها الأخرى ويحكمها . .

٩٠. يرى البعض أن هناك مملكة فى عالم الغيب تتكون من الأقطاب والأوتاد. إلخ تؤثر فى عالم الشهادة فما قيمة هذا الرأى ؟ وما مصادر المعرفة فى هذه القضايا وأمثالها؟

العلم الذى يتلقاه الناس ويحظى بينهم بالقبول نوعان : دينى ومدنى ، ولكل منهما مصادره المحترمة بين أهله ، وحدوده التى يقرها خبراؤه ، والراسخون فيه والعلوم المدنية متروكة للاجتهاد المطلق وأساسها الملاحظة والتجربة والاستقراء ، ولما كانت هذه العلوم متصلة بشئون الدنيا ، فإن دائرتها ليست وقفًا على جنس من الأجناس أو عصر من الأعصار ، والسياق العالمى فيها يجرى دون توقف! . .

وقد أفهمنا المعصوم - صلوات الله عليه - أننا فى هذا الضرب من المعرفة الإنسانية أحرار حرية تامة فقال : «**أنتم أعلم بشئون دنياكم..**» .

وليت العقل الإسلامى انطلق فى هذا الميدان يبتدع ويكتشف ، ويأتى بالعجائب والغرائب كما صنعت عقول أخرى . .

إنه لايتقيد فى حركته هنا إلا بالحقائق التى يستقر الناس عليها . وينتهون إليها ، وليس للوحى الإلهى دخل فى بحوثه الكيماوية أو كشوفه الفلكية أو إنتاجه الصناعى . . . إلخ .

أما العلوم الدينية بأساسها العتيد ، النقل عن الله ورسوله ، وتستمد مكانتها من قيمة النقل ، وصحة المعنى ولذلك قال العلماء : الإسناد من الدين ، ولولاه لقال من شاء ماشاء .

ولا يمكن اعتداد شيء ما دينا إذا كان ضعيف الصلة بالله ورسوله أو منقطعها! وتتفاوت قيم الثبوت تفاوتًا شاسعًا بين التواتر المقطوع به وأخبار الآحاد المعتلة التى يرفضها البعض ، أو التى يترخص البعض فى قبولها عندما تتعلق بفضائل ، أو بمناقب الرجال . .

على أن ما استقر عليه الأمر فى دوائر التشريع أن الأحاديث الضعيفة ليست مصدرًا لحكم شرعى عملى ، وأن القضاة والمفتين فى حل من التقيد بها دون تكبر ولا تأثيم . .

فإذا لم يكن ثمت سناد من نص دينى قوى أو ضعيف ، فلا مجال للزعم بأن لله فى هذا الأمر توجيهًا خاصًا . .

للناس أن يقولوا ما يقولون من عند أنفسهم ، ولكن لا مكان لإعطاء كلامهم هالة معينة توهم بأن لهذا الكلام صلة بالدين . .

إننى أثبت هذه المقدمة وبين يدىَّ نقل طويل قرأته لإمام من أئمة التصوف المعاصر تحت عنوان : «مراتب أهل الغيب» مايلى :

للصوفية ـ بحسب مراتب الأذواق والكشوف والمقامات ، مؤيدة بمفاهيم الآيات والآثار ـ أقوال شتى فى مراتب السادة (أهل الباطن) المعروفين عندهم باسم (أهل الغيب) أو (أهل الديوان) وتتلخص هذه الصورة تقريبًا فى الآتى :

١ ـ الغوث الأعظم ، والفرد الجامع ، الذى هو قدم النبى ﷺ ومجاله الروحى حول العرش .

٢ ـ ثم الإمامان ، وهما وزيرا القطب عن يمينه وشماله ، ومجالهما الروحى فى طرفى الفرش (الفرش بالفاء ، ما دون العرش بالعين) .

٣ ـ ثم الأوتاد ، وهم الأقطاب الأربعة الكبار ، ومجالهم الروحى : الجهات الكونية الأربع .

٤ ـ ثم الأبدال السبعة ، ومجالهم الروحى : السبع الطباق . .

٥ ـ ثم النقباء الاثنا عشر ، ومجالهم الروحى : البروج السماوية الاثنا عشر . .

٦ ـ ثم النجباء السبعون ، وهم أهل الخلوة والميقات ، ومجالهم الروحى : الأفلاك والمجرات . .

٧ ـ ثم الأخيار وهم الحواريون وأهل المعارج وعددهم بين الثلاثين والثلاثمائة ، ومجالهم الروحى : أقطار الأفق الأعلى ، وأصحاب هذه المقامات السبعة هم الأقطاب .

٨ ـ ثم المفردون ، وهم الأولياء المختارون من صالحى الأمة ، ولا عدد يحصرهم ، ومجالهم الروحى الأفق الأدنى . وأقطار المدن والقرى . .

٩ ـ ثم الصالحون ، وهم أتقياء الأمة وهم درجات شتى ، ومجالاتهم الروحية متعددة ، ثم إن لكل صاحب مقام من هذه المقامات خلفاء وعرفاء ، فإذا خلا المقام انتقل إليه الخليفة ، ثم ارتفع العريف إلى رتبة الخليفة ، واختير من المستوى الثانى من هو أهل للعرافة ، وهكذا . .

وقد تختلف هذه الصورة عند بعض السادة فى التسميات والأعداد وترتيب المستويات وكلها صحيح فى ذاته معلل بدليله (كما قدمنا) وهو راجع إلى اختلاف

نسب المقامات وإفاضات الكشوف لكن ماذكرناه هنا هو الأوثق عندنا ، والله أعلم .

وعندنا أيضًا أن كل مستوى من هذه المستويات محفوف بأرواح كل من سبق أن شغله من أهل الله السابقين وعلى هذا فإن شاغله من الأحياء يعتبر ممثلا للأرواح التى سبقته ، إلى هذا المقام ، فهى تحوطه ، ومنها يستمد الكثير من السر والإفاضة .

وكما أرجعنا أقدام الأقطاب الأربعة الكبار إلى نظام أهل الملأ الأعلى باعتباره مرجع النظام الكونى كله ، والتناسب الرابط بينه وبين العالم الأرضى حقيقة مسلمة فكذلك . مقام الإمامين أحدهما مستغرق فى (الجلال) على قدم (مالك النار) ومن هنا صح مقام (الكمال) للغوث الأعظم ، جامعا فيه بين الجمال والجلال . .

ثم نجد مقام الإمامين عند أهل الكشف مثلا ، هما مقاما : آدم وإدريس ، ثم إلياس والخضر ، ومن شاء الله من أهل النبوات ، ثم من على أقدامهم من الربانيين مشهورين أو مستورين ، وكان على مقام الإمامين السعيدان : سيد الأوس والخزرج ، والسعيدان : ابن المسيب وابن جبير ، والصاحبان الفقهيان : أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، والشيخان المحدثان : البخارى ومسلم وهكذا . .

ويجتمع (أهل الديوان) وهم كبار أصحاب الوظائف الغيبية ، أرواحًا وهيولا ، فى المعاهد الثلاثة المقدسة : الحرم المكى ، والحرم النبوى ، وبيت المقدس ، ثم فى أماكن مقدسة أخرى يكشف عنها لأهل القلوب ، على توقيت وترتيب دقيقين ، فليس فى الغيب فوضى ، ولا تجمد وعدم ، ولا انفصال الغريب المفصل المعالم !! ا . هـ .

قرأت هذا الوصف للكون وحركات عالمى الغيب والشهادة ثم تساءلت عن هذا اللون من المعرفة : أهو مادى ألتمس أدلته من علم الكون والحياة والطبيعة والكيمياء؟ . .

وكان الجواب السريع : لا . . فإن علماء الكون والحياة لا يقررون من هذا الكلام حرفًا . .

أهو دينى نلتمس أدلته من الكتاب الكريم والسنة المطهرة؟ .

وراجعت سور القرآن كلها ، فلم أجد لهذا الكلام شاهدًا ، وأخذت أتذكر ما أعرف من السنن التى رواها البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حنبل . . إلخ ، فلم أجد لهذا الكلام شاهدًا . .

قلت : هل هذا الكلام رأى فقهى يستند إلى أثر ضعيف عند الناس قوى عند صاحبه! . . إن هذه الآراء وجدت فى علومنا ، ألا ترى الأحناف يحكمون بنقض

وضوء من يقهقه فى الصلاة اعتمادًا على أثر أخذوا به ، والشافعية يشترطون أربعين لصلاة الجمعة اعتمادًا على حديث لين؟ . إن أصحاب هذه المذاهب معروفون لدينا وقد يخطئهم غيرهم فى هذه الآراء ، وعلى كل حال فإن من ذهب إليها لا يتعصب لها ولا يظن أنها الصواب الذى لا صواب وراءه ، ولا يصفها بتاتا بأنها حقائق مستيقنة! . . لكن الأستاذ الكاتب ـ عفا الله عنه ـ لا يعتمد فيما كتب على مرويات قوية أو ضعيفة ، ومع ذلك فهو يتهم من يعارضه بالجهل ويوصيه بأن يمسك جهله على نفسه وحدها ، وإلا فهو سيقول هرطقة أو شقشقة ، أو هنبقة أو فيهقة باسم الدين المظلوم . . هكذا يقول! . .

عجبا ، هل إذا أنكرت اجتماع أهل الديوان من أصحاب الوظائف الغيبية ، فى مكة أو المدينة أو القدس ـ قبل احتلالها أو بعده ـ أتعرض لهذه التهم؟ . . لماذا؟ شىء لم يقله الله ولا رسوله ، بل شىء نجزم أن أصحاب رسول الله ماتوا وهم لا يعرفون عنه شيئًا ، يعتبر إنكاره هرطقة وهنبقة؟ لماذا؟

هل لأى إنسان يقوم الليل ويصوم النهار أن يقول لجماهير المسلمين كلاما لا يعرفونه فى مراجع دينهم ، ويلزمهم باعتناقه؟ وإلا فهم جهال؟ . .

ذاك ما نرفضه جملة وتفصيلا . .

بل إن الذى نوصى الجماهير به أن يعضوا على كتاب الله وسنة رسوله . . وأن يحكموا ما عداه إلى ما ورد وثبت . . فمن أتى لهم بشىء من عند نفسه ردوا عليه . .

وليس للخواطر أو الإلهامات أو الرؤى أو الخيالات أى موقع من مصادر التشريع . لقد قرر علم الفلك حقائق معروفة عن حركات الأرض حول نفسها وحول الشمس ، فإذا جاء رجل يحلف أنه لا خلاف بيننا على أن الله يؤتى فضله من يشاء ، وأنه فضل بعض الأنبياء على بعض ، وبعض الأمكنة والأزمنة على البعض . . إلخ . .

لكن من أين تعرف هذه التفضيلات ومداها؟ . .

الذى نقرره قاطعين أن الشارع وحده مصدر هذه المعرفة . .

ونحن من الكتاب والسنة نعرف أن المؤمن ينظر بنور الله وقد قال الله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾**[1] . .

---

(١) الحديد : ٢٨ .

لكن ليس من النظر بنور الله أن نفتح أبواب الرجم بالغيب لكل إنسان مهما اجتهد فى عبادته وتقواه ، ليقول فى دين الله كلاما لا برهان له به إلا المعاناة الخاصة والكشف الذاتى . .

إن قسم السمعيات من ديننا يشمل الأمور الغيبية التى لاتعرف إلا عن طريق المعصوم ، فالصراط والميزان ، وثواب القبر وعقابه ، وشئون الملأ الأعلى ، وبعض الأوصاف الإلهية ، كل أولئك لا ينفرد العقل بإدراكه ، ولا سبيل للبشر إليه إلا بتوقيف من الشارع نفسه . .

فإذا جاء امرؤ فزعم أن حملة العرش الثمانية تحتهم ستة عشر ملكًا ، ثم اثنان وثلاثون ملكا . . وهكذا متواليات هندسية قلنا له : من أين جئت بهذا الكلام؟ . .

ومن حقنا أن نقول له هذا ! . . بل إننا نجرم فى حق ديننا إذا لم نقل له : من أين جئت بهذا الكلام؟ . .

فإذا لم يذكر آية من كتاب ، ولا أحاديث مقبولة عن رسول الله وجب أن نمحو هذه الزيادات وأن نرفض تلك الإضافات .

والمقامات الكبرى التى شرحها الأستاذ محمد زكى إبراهيم ، وتحدث فيها حديثه المدون فى مجلة المسلم عن الملائكة والأقطاب هى إقحام لجملة من المعلومات الغريبة على قسم السمعيات فى ديننا ، دون أن يكون لهذه المعلومات الدخيلة أى إسناد من كتاب أو سنة . .

وقد هدد من ينكرها بأنه «عند أهل الحق معوق عن السلوك ، مؤخر عن الوصول ، معرض للسلب والاستدراج»! .

بل قال إن إنكارها «موطئ لما قد يكون به سوء الخاتمة والعياذ بالله ، لأنه حكم على مجهول لا يقين عليه لغير العالم به فيسلم له»!! . .

ونقول دون تردد : هذا باطل ، فقد انتهى الوحى ، ولا نسلم لبشر أن يزيد فى حقائق الدين ، بل إن الزيادة فى هذا الباب لا تقل خطرًا عن وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ ، ومن حق المسلمين فى المشارق والمغارب أن ينادوا : هذا وحى من عند الله فيقبل وهذا لغو من عند الناس فيرفض .

ثم إنه فى باب السمعيات لا تقبل الروايات المعتلة ، ولا الأسانيد والمتون المختلفة ، لقد ذكر السيوطى فى كتابه «الإتقان» أن هناك ثلاثة أقوال فى ألفاظ

القرآن ، إنها من عند محمد (كذا)! وإنها من عند جبريل! . . وإنها كالمعانى من عند الله . .

وإيراد هذا الكلام ضرب من الجهل رفضه المسلمون أجمعون ، فالقرآن ألفاظ ومعانى من عند الله ، ولكن السيوطى حاطب ليل وجماع للحق والباطل دون تمحيص ، ونحن لا نأخذ ديننا بهذه الطريقة البلهاء . .

وإننى أعجب : لماذا يريد بعض إخواننا أن يقرن التصوف بهذه المبتدعات والغرائب المنكورة؟! إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة ، وتدريب على مراقبة الله ومشاهدته فيما نفعل ونترك . .

ويمكن تسميته على الأخلاق الدينية ، لأن تراثه المنتقى لا يخرج على هذا الإطار وقد كان أبى رحمه الله صوفيا من أتباع الشيخ أبى خليل ، فما عرفته إلا كادحًا يتقى الله فى رزقه ، ويقرأ كتابه فى دكانه ، ويعايش الناس على الأخوة السمحة ، ولا يعرف شيئًا بعد ذلك من هذه الخيالات .

أخشى إذا حرص صوفية العصر على التشبث بغير الكتاب والسنة أن يجنوا على التصوف جملة وتفصيلا ، فيجتاح من أصله . .

ولهذه المناسبة نذكر ما لهجت به الألسنة أخيرًا من تفسير الدكتور عبد الحليم محمود لأوائل سورة النجم .

يقول الله تعالى واصفا الوحى النازل على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام :

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[١] فمن هو شديد القوى الذى استوى بالأفق ثم اقترب من الرسول فعلمه ماتعلم؟ . .

فى سورة التكوير يذكر هذا المعنى بأسلوب آخر **﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾**[٢] . . إلى أن قال : **﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾**[٣] . .

وفى سورة الشعراء يصاغ هذا المعنى نفسه فى قالب آخر : **﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾**[٤] . .

---

(١) النجم : ٥ ـ ٩ .
(٢) التكوير : ١٩ ، ٢٠ .
(٣) التكوير : ٢٣ .
(٤) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٤ .

وظاهر من هذه الآيات كلها أن الموصوف بالقوة ، البادى بالأفق ، النازل على قلب الرسول الأمين هو ملك الوحى ، جبريل لا غير . .

لكن الدكتور عبد الحليم محمود عفا الله عنه لوى عنق الآيات من أوائل النجم ، وجعل الذى دنا فتدلى ، هو الله ـ سبحانه وتعالى .

وهو خطأ مبين ، وينبغى عند تفسير آية مانزلت فى موضوعها آيات أخرى وأحاديث متعددة الروايات ألا نحصر أنفسنا داخل آية واحدة ، ورواية واحدة ، ثم نتعسف القول ، خصوصًا عندما يتصل الأمر بذى الجلال والإكرام .

وحب رسول الله ﷺ لا يشفع فى هذا الخطأ . .

لقد اعتمد الدكتور الفاضل فى رأيه على حديث للبخارى أخرجه من رواية شريك بن أبى نمر عن أنس بن مالك ، وهذه الرواية مجرحة ، قال النووى فى شرحه لمسلم : قد جاء من رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : قدم وأخر وزاد ونقص!! يعنى فى الرواية التى أوردها البخارى عنه . .

وهذه الرواية المنكرة تصرح بأن الإسراء قبل البعثة! وأن القصة كلها رؤية منام! وأن رب العزة هو الذى دنا فتدلى!

ونقل القاضى عياض إنكار أهل العلم لهذه الرواية ، قال النووى : وهذا الذى قاله القاضى عياض قاله غيره . .

وقال الحافظ عبد الحق فى كتابه «الجمع بين الصحيحين» بعد ذكر هذه الرواية عن أنس ـ التى أثبتها البخارى ـ قد زاد فيها شريك زيادة مجهولة وأتى فيها بألفاظ غير معروفة .

هذه هى الرواية التى اعتمد عليها الدكتور عبد الحليم فى تفسيره الذى دافع عنه بحرارة وأثبته في رسالته التى نشرها مجمع البحوث ، وهو تفسير لا يقبل بتاتا! . .

ولا أدرى لم تلقى الأحكام الخطيرة بهذه الطريقة المستغربة؟ ولم لا نعود إلى كتبنا الأولى نستبين منها الرشد ؟ . .

٩١. لم حرم الإسلام لحوماً معينة، وهل لذلك حكمة؟

بين العباد وربهم عقود تتصل بحقوقه جل شأنه ، أو تتناول علاقة بعضهم ببعض ، وقد تتناول علاقاتهم بالكون المسخر لهم ، والأحياء التى ذللها لمنافعهم . .

وقد أمر المؤمنين برعاية هذه العقود والإحساس بحرمتها : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾[١] .

وما يتلى عليهم أربعة أنواع على الإجمال ، وعشرة على التفصيل ذكرت فى قوله تعالى :

﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ** ﴾[٢] .

والتحريم مشروع هنا لمصالح الناس ، والحفاظ على صحتهم ، ولا يقال : إن الناس تأكل الخبائث ولا يصيبها ضرر ظاهر ، أو أن الجماهير تشرب الخمر والدخان والمخدرات ويتأخر اعتلالها ، أو تكون وعكاتها خفيفة ، إن هذا الكلام مردود ، إذ إن التحقيق العلمى أثبت أخطار هذه السموم ، وإذا كان البعض ينجو منها فلأسباب غير مطردة . . والواجب أن تتنزه الجماهير عن أكل هذه المحرمات ، فرارا من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة . .

أول هذه المحرمات «الميتة» وهى الحيوانات أو الطيور التى تموت حتف أنفها ، ويغلب أن يكون هلاكها لمرض باطن بها ، وليست الأسماك التى تموت بعد خروجها من الماء من صنف الميتة ، بل هى لحم حلال . .

ثم الدم ، أى المسفوح الذى يسيل من عروق الذبيحة ، لا يجوز تجميعه وطبخه .

ولحم الخنزير لقذارته واحتوائه على جراثيم وديدان خبيثة! ولحم الخنزير محظور فى الأديان الأولى كما هو واضح فى تعاليم العهد القديم ، وقد أباحه «بولس» ولا ندرى لماذا؟ مع أن شرائع العهد القديم ملزمة للنصارى . .

---

(١) المائدة : ١ .

(٢) المائدة : ٣ .

وما أُهِلَّ لغير الله به ، وهذا تحريم تعبدى محض ، والمقصود قطع دابر الوثنية ومايمت إليها بصلة! فما ذبح مقترنا باسم صنم أو بأى اسم آخر غير اسم الله حرم أكله . .

والأصل فى الذبح أن يكون باسم الله الذى سخر وأباح ، قال تعالى : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ** ﴾[1] ، ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ** ﴾[2] . .

ويرى فريق من الفقهاء أن ذكر الاسم الكريم مستحب وليس فرضا ، فذكر الله مستكن فى قلب كل مسلم وإن لم يجر على لسانه ، وإنما يوصف المذبوح بأنه فسق إذا ذكر عليه غير اسم الله ، وقد اعتمد هؤلاء فى فهمهم على سنن واردة!

وهنا قضية أخرى : هل ذبائح أهل الكتاب باسم الصليب أو باسم الكنيسة تندرج فى هذا التحريم ، وتعد مما أهِلَّ لغير الله به؟ يرى ذلك جمهور الفقهاء .

ومن رجال المذاهب من يخص العموم هنا بإباحة طعام أهل الكتاب التى قررت فى آية أخرى ، وهو استدلال قد يقبل ، وإن كنت أعاف الأكل من ذبيحة على هذا النحو! ولكنى لا أعيب الآكلين . .

ومن أنواع الميتة المحرمة «المنخنقة» وهى التى شنقت نفسها أو شنقها غيرها بأن لف حبلها حول عنقها حتى طاحت .

و «الموقوذة» وهى التى ظلت تضرب حتى هلكت سواء كان بعصا أو بما أشبه بالعصا . .

و «المتردية» وهى التى هوت من مكان عال ، أو داخل حفرة ، ففقدت حياتها . .

و «النطيحة» وهى التى ماتت فى صراع مع حيوان آخر ظل ينطحها حتى أهلكها .

«وما أكل السبع» التى عدا عليها وحش مفترس فأعطبها ، فإذا أدرك المرء بهيمة من هذه الخمسة الأخيرة ، ولاتزال بها حياة ، فذبحها حتى سال منها الدم ، جاز أكلها ، مادام قد رأى أن ذبحه هو الذى أجهز عليها . .

أما «ما ذبح على النصب» فهو من قبيل ما أُهِلَّ لغير الله به ، والنُّصُب شاخص يقيمه الناس لمعنى يتواضعون عليه ، كالنصب التذكارى للشهداء ، أو للجندى المجهول مثلا . .

والذبح عند نصب قائم أو ضريح يزار نوع من الوثنية يأباه الإسلام ، وتحرم به الذبيحة . .

---

(١) الأنعام : ١٨٨ .
(٢) الأنعام : ١٢١ .

إن الله الذى خلق كل شيء هو الذى سخر لبنى آدم بعض مخلوقاته منها ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[1] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[2] . .

وللنباتيين رأى فى ترك اللحوم كلها لا تقرهم الأديان عليه ، ولا أعرف شريعة سماوية حظرت ذبح الحيوان . .

ومادام الله هو الذى أحل فينبغى التزام الأسلوب الذى قرره فى الارتفاع بهذه الذبائح ورفض ما عداه .

والمحرمات التى أحصيناها هنا تكرر ذكرها فى أربعة مواضع من القرآن الكريم على طريق القصر والحصر ، مما يجعلنا نعد ما ورد من نهى عن أكل غيرها من قبيل الكراهية ، وفى ذلك خلاف فقهى معروف . .

وقد أطال صاحب المنار فى التعليق على تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، واقترب من مذهب مالك رضى الله عنه ، ولا نقحم أنفسنا فى هذا الميدان ، وإنما يُلفت النظر إلى أن نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام قد بعث بتحليل الطيبات وتحريم الخبائث! ونحن نجزم بأن ما نص الشارع على تحريمه فهو من الخبائث . . فما الرأى فيما لم يتناوله الكتاب بنص ؟ . .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : «مالا نص فى الكتاب على حله أو حرمته قسمان : طيب حلال ، وخبيث حرام . وهل العبرة فى التمييز بينهما ذوق أصحاب الطباع السليمة ، أو يعمل كل أناس بحسب ذوقهم؟ كل من الوجهين محتمل . . والموافق لحكمة التحريم الثانى ، وهو أنه يحرم على كل أحد أن يأكل ما تستخبثه نفسه وتعافه ، لأنه يضره ولا يصلح لتغذيته . ولذلك قال بعض الحكماء : ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته ، وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك! . .»

ونحن نرى أن الاستعانة بعلم «التغذية» وما وصل إليه الأخصائيون فى علوم الأحياء مطلوبة ، ولعل ذلك يميز الخبيث من الطيب . . على أننا نرفض كل احتيال على إهمال النص ، فإن الإسلام حرم الخنزير مثلا لوساخته وحمل لحمه لمصادر البلاء! فإذا جاء اليوم من يقول : إنه ربَّى خنازير معينة على مراع حسنة واتخذ ضمانات لإنقاء لحمها من مصادر العلل ، لم نقبل قوله ، ولم نستبح الحرام! . . . إن ذلك يشبه ما

(١) المؤمنون : ٢١ . (٢) غافر : ٧٩ .

تزعمه شركات التبغ من أن «الفلتر» الذى تضعه فى سجائرها يمنع القطران من تلويث الرئة . . ما أغنانا عن هذا كله ، وفى الحلال الكثير الميسور مايغنى عن هذه الحيل . .

ولا يجوز تعذيب الحيوان عند ذبحه ، وأفضل طرق التذكية ما يخفف على الحيوان خروج روحه ، وقد رأى فقهاؤنا القدامى أن يكون الذبح بقطع الحلقوم والمرىء والودجين ـ عرقان على صفحتى العنق ـ أو أكثر ذلك ، لتتم تنقية البدن من الدم الكائن فيه! يقول صاحب المنار : «إن هذا لتحكم فى الطب والشرع بغير بينة ، ولو كان الأمر كذلك لما أحل الصيد الذى يأتى به الجارح ميتًا» . .

ثم يقول : «وإنى أعتقد أن النبى ﷺ لو اطلع على طريقة للتذكية أسهل على الحيوان ، ولا ضرر فيها كالتذكية بالكهربائية» (!) إن صح هذا الوصف لفضلها على الذبح ، لأن قاعدة شريعته أنه لا يحرم على الناس إلا ما فيه ضرر لأنفسهم أو لغيرهم من الأحياء . .

ولا أعرف الطريقة التى يومئ إليها الشيخ رشيد! وقد عرفت أن مصانع اللحوم البقرية تضرب البهيمة قبل ذبحها ضربة تخدر أعصابها ، ثم تقطع الرأس ، وتمضى فى تهيئة اللحم لآكليه ، قد تكون الصدمة التى تذهب بإحساس البهيمة ولا تذهب بحياتها مشبهة للمخدر الذى يتناوله المريض قبل جراحة يجريها الأطباء ولا شىء فى ذلك بداهة . .

بيد أن أعدادًا من الغربيين والشرقيين يخنقون الطيور ، أو يجهزون على حياتها بوسائل همجية أقسى من الذبح ، وإن كانوا يعيبون الذبح! وذلك ماتأباه الشريعة الإسلامية .

ذلك ، وقد عطف القرآن الكريم على الطيبات المباحة مثل لحوم الصيد **﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾**[1] .

والصيد كما يكون بالكلاب المدربة والبزاة والصقور يكون بالأسلحة الفاتكة **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾**[2] .

وفى عصرنا هذا اختفت الرماح والسهام لتحل محلها الأسلحة النارية التى تقتل الصيد أو تصيبه بجراح مجهدة ، وعند إدراكه حيا ينبغى أن يذبح الذبح الشرعى المعهود ، وإلا فإن موته بأى أداة من أدوات الصيد السابقة يعتبر ذكاة له . .

---

(١) المائدة : ٤ .　　(٢) المائدة : ٩٤ .

وليس الصيد مسلاة لطلاب اللهو وهواة قتل الحيوان ، بل هو مصدر من مصادر التغذية التى كان الناس ، ولا يزالون فى بعض البيئات يحتاجون إليها . .

والصائد يذكر اسم الله عندما يرسل كلبه ، أو يطلق رصاصه ، وروى ابن جرير : «إذا أرسلت جوارحك فقل باسم الله ، وإن نسيت فلا حرج ، أى إن عدم الذكر لا يحرم الصيد» . .

وروى البخارى أن قوما قالوا : يارسول الله ، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى! ذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : **سموا عليه أنتم وكلوا** . . قال : وكانوا حديثى عهد بكفر . .

تابعت عن كثب النقاش الحاد الذى دار حول ذبائح أهل الكتاب وغيرهم من الأمم ؛ وكان الناس يطلبون رأيى فأقول فى قلة اكتراث : من شاء أكلها مهما كانت طريقة ذبحها ، ومن شاء تركها ، واستعاض عنها بما يحب! . . وألح علىَّ بعض الإخوة أن أدلى برأيى فى القضية . . فلم أر بأسا من نقل وجهات النظر فيها مع تعليق لابد من إثباته . .

يقول الشيخ عبدالله بن زيد رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر : «كل ذبيحة من حيوان ، أو دجاج تجلب إلى الناس وهى مجهولة ، لا يعلم من ذبحها ولا كيف ذبحها ، فإنها تندرج فى عموم الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنهم قالوا : يارسول الله إن قوما حديثى عهد بجاهلية يأتوننا باللحم ، لا ندرى! ذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال : «**سموا الله أنتم وكلوا**» . .

وقد أباح القرآن ذبائح أهل الكتاب بدون قيد ولا شرط ، وما سكت القرآن عن تحريمه فهو حلال لقول رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم، غير نسيان، فلا تبحثوا عنها**» . .
قد يقال : إننا نعلم بيقين أن من أهل الكتاب من يذبح باسم الصليب ، أو من يخنق الطيور ، أو من يهوى بثقل على أم رأس الحيوان فيقتله ، فكيف نطعم شيئًا من ذلك؟ . .

قلت للسائل : هذا بحث قديم ، وقد اختلف الفقهاء فيه ، فمنهم من أدرج هذه الصور المحكية تحت عنوان «ما أهل لغير الله به» أو تحت عنوان (المنخنقة) أو تحت عنوان «الموقوذة» . . واستثناها من ذبائح أهل الكتاب المباحة . . ومن الفقهاء من جعلها من ذبائح أهل الكتاب المباحة بالنص ، واستثناها من المحرمات السابقة ، وقال : الله أعلم ـ إذ أباح أطعمتهم ـ ما يقولون وما يفعلون . . من هؤلاء الفقهاء مالك رحمه الله فقد جاء فى «المدونة» أنه سئل عما ذبحوه للكنيسة أو غيرها ، فقال أكره ذلك ولا أحرمه!

إن الله أباح لنا ذبائحهم وقد علم ما يفعلونه . وقال القاضى ابن العربى المالكى فى كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ** ﴾[1] . . قال : وسئلت عن النصرانى يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها هل يجوز أن نأكل معه منها ؟ فقلت : نعم كلوا منها ، فإنها طعام أحبارهم ورهبانهم ، وإن لم تكن هذه الطريقة ذكاة عندنا . . ولكن الله أباح لنا طعامهم مطلقاً» . .

الخلاف الفقهى قديم كما نرى ، والأساس الشرعى لكل مذهب قائم ، من شاء تبع هذا فأكل ولا حرج ومن شاء تبع هذا فامتنع ولا حرج . . ولا أشتغل بمزيد من عرض الأدلة المتقابلة لا تأييداً ولا تنفيذاً ، فوراء هذه القضية أمر آخر يتصل بالسلوك الإسلامى العام ، أو يتصل بحاضر المسلمين ومستقبلهم لماذا يستورد المسلمون هذه الذبائح من أنعام وطيور ؟ . . لماذا عجزوا عن تنميتها وتكثيرها فى بلادهم؟ هل تربية الأبقار والدجاج تحتاج إلى أخصائيين فى علوم الذرة؟ وعندما تصاب قدرات المسلمين بالشلل فى مجال الثروة الزراعية والحيوانية فهل ينتظر لهم تفوق أو نجاح فى الميادين الأخرى ، براً وبحراً وجواً؟ إن الحماس فى عالم الجدل مرض عفن إذا صحبه برود فى عالم الإنتاج . . وقد رأيت التدين التقليدى يتسم بهذه الخاصة المزعجة ، قصور فى فهم أو فى عرض وجهات النظر المختلفة ، ثم تراشق بالتهم ، وتبادل لسوء الظن . . فإذا تطلب الإيمان ضرورة اكتفاء الأمة بمواردها ، واستغنائها عن سواها تبخر الحماس ، وخلا الميدان . . لست من هواة التغلغل فى الفروع الفقهية ، فإن أصول العقيدة والأخلاق والتشريع تهمنى وتستغرق وقتى . وما أنظر فى الأمور الفرعية إلا بمقدار ما أجمع به الشمل وأمنع الفرقة وأقصى المتزمتين والمعلولين عن أماكن الصدارة . .

إن حاجة المسلمين إلى القمح لصنع الرغيف ، أو إلى الدواء لعلاج العلل ، أو إلى اللحوم ميتة أو حية شىء - فى نظرى يهدد عقائدهم ذاتها ، ويجعلهم يعيشون عالة على أهل الأرض . .

فهل نوجه قدرتنا على الكلام والاعتراض إلى عمل إيجابى؟ أم تبقى مهمة بعض المتدينين الطعن فى الدواء ؛ لأنه ذائب فى «الكحول» ورفض اللحم المستورد لأن ذكاءه موضع ريبة؟ . ثم ينتهى دورهم! . . إننى أقدر النية الحسنة لكل من شارك فى هذا البحث ، ولكن الطريق لما يمهد بعد لعمل جاد تتحرك به أمة كسول! .

---

(١) المائدة : ٥ .

٩٢. هل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟

لست بعيدًا عن هذا الميدان ، بل أحسبنى واحدًا من الكادحين فى جنباته . لقد تلقيت العلم على مجاهدين ذوى صلابة ، ثم قمت بتعليم شباب سبقونى سبقًا بعيدًا فى إحراز الرضوان الأعلى ، لأنهم ماتوا شهداء فى سبيل الله . .

إننى لمست بيدى صحوة الإسلام فى هذه الأيام ، وصافحت بحرارة وحب رجالاً يقاتلون عن بقايا الإسلام فى «الفلبين» على شواطئ الهادى ، ورجالاً آخرين يحرسون مواريث الإسلام على شواطئ الأطلسى . . وبين الشاطئين المتباعدين قامت مدارس تجاهد بالقلم وكتائب تجاهد بالسلاح ، تذود الغزوين الثقافى والعسكرى عن أراض فيحاء نام ساستها حينا من الدهر ، فدفعوا ثمن نومهم ذلا فادحا واستعمارًا فاضحًا . .

إن الصحوة الإسلامية حقيقة قائمة! ولكن الإعداد لسحقها وتبديدها حقيقة أبرز للعين وأرهب للنفس . .

والمستشرقون الأوربيون يعرفون طبيعة الإسلام ، ويرصدون تاريخه القديم والحديث بعينى ذئب جائع وتدبر قول المستشرق الألمانى «باول شمتز» فى كتابه «الإسلام قوة الغد العالمية» الذى صدر من نصف قرن تقريبًا : «إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوربا وهتاف يجوب آفاقها ، يدعوها إلى التجمع والتساند لمواجهة العملاق الذى بدأ يصحو» . .

ويقول : «إن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن! ولم تفلح الأحداث الكثيرة فى زعزعة ثقتهم به . . وإن الروح الإسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم . وستظل كذلك مادامت الشعوب الإسلامية قد ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام ، واعتقدت أنه الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة» . .

إن هذا القول القديم الجديد يكشف ما وراءه من إعداد لضرب الإسلام غيلة أو جهرة ، ويفرض علينا المزيد من الحذر واليقظة . .

والحق أن الصحوة الإسلامية المعاصرة تكتنفها أخطار هائلة ، يشارك فى صنعها مبشرون ومستشرقون وساسة وعسكريون وأدباء وإعلاميون ، وملاحدة وكتابيون ، ومصارحون ومداهنون وأناس غرباء وأناس من جلدتنا . .

ولست أخاف أولئك كلهم يوم يكون قادة الصحوة الإسلامية من معدن إسلامى صاف يجددون سيرة سلفنا الأول فيعملون بعقل مفتوح وقلوبهم ترنو إلى الله وحده . .

لقد كادت الدعوة الإسلامية تعلن إفلاسها منذ قرنين تقريبًا ، بل لقد تركت الميدان خاليا لشتى الملل والنحل تنشر الخرافة وتعلى راية الباطل . . ثم بدت تباشير صبح جديد وتيقظت الثقافة الإسلامية من سباتها تدافع بقوة وتمهد لغد أفضل . .

وأريد أن أقدم للصالحين الجدد بعض ما أفدت من تجارب حتى يتجنبوا النكسات ، وحتى لا يقدموا أرض الإسلام غنيمة باردة للمتربصين من كل لون . .

إننى أشعر بانزعاج حين أرى المجاهدين فى قطر ما يبدءون العمل من الصفر ، غير منتفعين بما حدث لإخوانهم فى قطر مجاور ، بل حين تبدأ جماعة ما العمل غير منتفعة بما وقع لزميلتها فى القطر نفسه من بضع سنين . . إنهم يلدغون من جحر واحد مرتين ، أو أكثر دون وعى . .

ماتقول فى مدير يبدأ العمل فى شركة مضطربة دون أن يدرس أسباب الاضطراب ومسالك المديرين من قبله ، وأسرار فشلهم أو توقفهم؟ ألا يستحق التأديب؟ . .

إن خسائر جسيمة أصابت الدعوة الإسلامية من هذه القيادات الذاهلة . .

ولا يقبل فى هذا المجال اعتذار بحسن النية ، ولا تنجوا الأمم المسترسلة وراء هذه القيادات ، وإذا كان الجهل بقوانين البشر لا ينجى من اللائمة ، فإن الجهل بسنن القدر أسوأ عقبى ، ومن هنا رأينا الحساب شديدًا للمنهزمين فى أحد! قيل لهم دون مواربة لما سألوا عن سر هزيمتهم ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾[1] .

ويوجد عاملون فى الحقل الإسلامى يظنون أنفسهم فوق المساءلة ، لعل ذلك ببركة الوضوء والصلاة! . .

والذى أراه أن القوم يعانون عللا نفسية ، وأنه لا بركة هنالك بل فوضى! . .

ولأترك هذا التعليق العابر إلى أخطاء لها جذور فى ماضينا الطويل . .

كان الأدباء قديمًا يلتزمون السجع فى مقالاتهم ، ومرت بالأدب العربى عصور احتبس فيها داخل هذه القيود اللفظية .

والتزام السجع يتم على حساب المعنى غالبا ، فلن تجد فكرًا عميقًا ولا أداء مناسبًا سهلاً ولا معالجة خصبة ثرة لمختلف القضايا والموضوعات ، بل إن السجعة قد تخلق

---

(١) آل عمران : ١٦٥ .

المعنى ، ومن الطرائف فى هذا أن أحد الولاة قال للقاضى : أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم! فقال الرجل المعزول : والله ما عزْلتنى ولكن عزلتنى القافية! . .

ولم يأخذ الأدب العربى طريقه صعدًا إلا بعد ما تخلص من القافية أو السجع . .

وما حدث فى ميدان الأدب حدث مثله فى ميدان الدين . فقد مرت بالمسلمين عصور طوال أصبح فيها فقه الفروع عمود الدين وسنامه وذروة أمره! أو أصبح البحث فى صور العبادات وأشكالها هو الشغل الشاغل للخاصة والعامة . .

وتصور الدهماء أن إتقان المراسم شارة الكمال وسلم الارتقاء ووسيلة القبول عند الله . .

وعلم الفقه جزء له مكانته فى الثقافة الإسلامية لكن مكانته تجىء بعد علوم العقيدة والأخلاق . .

وإتقان مذهب فقهى فى الفروع العملية شىء حسن ، ولكن هذا الاتفاق لا يغنى قليلا ولا كثيرًا عن مهاد الأخلاق والعقائد الذى لابد منه أولا وآخرا . .

ربما اختلف الفقهاء : أيقرأ المصلى وراء إمامه أم لا؟ بيد أنهم متفقون على أن الخشوع روح الصلاة ، وأن من فقد هذا الخشوع فقدت صلاته قيمتها ، سواء قرأ أم صمت . .

ومع ذلك فقد استفحل الغلو فى قيمة أفعال الصلاة استفحالاً مزق شمل الأمة ، فإذا الصلاة الواحدة تنعقد لها أربع جماعات فى الأزهر الشريف واحدة للأحناف ، وثانية للشافعية ، وثالثة للمالكية ورابعة للحنابلة ، لأن صلاة مقلد لا تصلح وراء مقلد آخر! . . وكان ذلك الانقسام يقع فى الحرم المكى نفسه حتى أدركت المسلمين رحمة الله ففضت هذه الجماعات كلها ، وصلى الكل وراء إمام واحد . .

إن توسيع المساحة التى يعمل فيها فقه الفروع تم على حساب تضييق المساحة التى تعمل فيها التربية الدينية ، وتتحول فيها العقيدة إلى قوى روحية وملكات نفسية . .

وتصور رجلا منح جنيها ليعيش به فاشترى بنصفه مياه غازية ومعدنية ، وبالنصف الباقى لديه سكرًا وشايًا ، ووجه مابقى بعدئذ للخبز واللحم والبقول والفواكه . . إلخ . . إن هذا رجل سيقتله فقر الدم يومًا . .

وقد لاحظت أن مصابنا شديد فى الأنشطة العقلية والخلقية بسبب هذا العوج . . وحسب كثير من المتدينين . . أن التشبث ببعض المراسم العبادية الثانوية يغطى هذا التصور وهيهات . .

وكنت أرجو أن تنقه الجماعات الإسلامية من هذا الاعتلال . . فساءنى أن بعضها غرق إلى الأذقان فى البحوث الفقهية وما تشعب عنها من خلاف وما بنى عليها من أوهام كبار . .

إن حكم تحريم الذهب على النساء كما يرى البعض يساوى - وقد يرجح - تحرير أفغانستان من الشيوعية! وضبط الفرجة المستحبة بين قدمى المصلى يكاد يبلغ مجلس الأمن! وتحليل الموسيقى يشبه الكفر أو دونه الكفر . .

لقد ذكرنى هذا الخلل الردىء بما كنت أقرأ فى كتب التاريخ . . قال الراوى : دخل فلان على الخليفة ، وتحدث معه بأغلظ القول . . قال : فضممت علىَّ ثيابى مخافة أن يصيبنى دمه! . .

إننى عجبت لهذه المخالفة ، مصرع رجل شجاع ، ويتم أولاده ليس هو المحذور . . المحذور أن تبتل ملابس الراوى بدم القتيل . . ألأن الدم نجس؟ أم لأن ثمن غسله باهظ؟ إن توارث هذا الفكر سقوط عقلى وخلقى معا ، وأهل هذا الفكر لا يصلحون لشىء فى دنيا الناس . .

إننى ميال إلى إغلاق باب الاجتهاد فى فقه العبادات ، وإبقاء حق الاختيار ، أو مايسمى بالاجتهاد الانتقائى ، نأخذ ما تدعو إليه الحاجة وندع ما عداه ، من الثروة الطائلة التى آلت إلينا . .

والذى يدفعنى إلى ذلك أن وجوه الرأى فى كثير من القضايا تكاد تستوعب الصور العقلية ، أو الشىء وضده معا ، خذ مثلا إمامة المرأة فى الصلاة ، يرفضها فقهاء مطلقا ويجيزها البعض مطلقا ، ويرى الشافعى جوازها للنساء خاصة . .

ولمس المرأة؟ ينقض الوضوء مطلقا ، ولا ينقضه بتة ، وقال مالك : النقض وعدمه مقرون بطلب اللذة من اللامس! .

وإمامة الفاسق؟ ردها بعض الفقهاء بإطلاق ، وأجازها قوم بإطلاق ، وفصل آخرون متسائلين : هل فسقه بتأويل أم بتبجح؟ هل فسقه قطعى؟ أم ظنى؟ ومع تغير الجواب يتغير الحكم . .

ليت شعرى ما نصنع نحن بعد ذلك إلا الموازنة والترجيح؟ وإذا انتهى أحد إلى رأى فهل له إلزام الآخرين به ومؤاخذتهم على تركه؟ لا . .

وقبل ذلك كله وبعده هل هذه الأحكام تسبق فى الترتيب إيحاءات العقيدة ، ومقررات الأخلاق ، وضوابط التربية؟ لا .

إن الذى يكره مسلما لأنه لا يضع يديه تحت رقبته فى الصلاة ، أو لأنه يقنت فى الفجر مثلا ، رجل منحرف ضعيف الخلق . .

وإتقانه للصلاة على النحو الذى يألف لا يمحو عنه هذه الوصمة فالخطأ الفقهى مأجور ، أما الخطأ الخلقى فهو إثم ، وهذه الأخطاء الخلقية من وراء الفتوق الرهيبة التى تسلل منها الغزو الاستعمارى وفتك بنا . .

أحسست غضبًا شديدًا وأنا أسمع مفتيا فى إحدى الإذاعات يجيب عن سؤال وجه إليه : هل يجوز إخراج زكاة الفطر نقودًا؟ قال المفتى : لا يجوز ، ومن أخرجها نقدًا وجب عليه أن يعيد إخراجها شعيرًا أو قمحًا ، واستتلى : إن هذا التصرف بدعة ، ومن أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه . .

وخيل إلىَّ من غضب المفتى أنه لو وجد أبا حنيفة لأمسك بخناقه وأخمد أنفاسه لأن هذا الإمام يرى إخراج الزكاة مما هو أنفع للفقراء نقدًا كان أم حبوبًا . .

وأغلب المسلمين يتبع هذا الرأى ، فلماذا نحرجهم؟! . . ولماذا نرى فهمنا هو وحده الدين؟ . . لم ضيق الأفق . . وقطع ما أمر الله به أن يوصل؟ . . إن المتوقعين فى نطاق الأحكام الفقهية المحدودة يسيئون أكثر مما يحسنون . .

وحدث فى إحدى الكليات أن أقبل العميد على جمع من الطلاب كانوا جلوسا على بعض مقاعد الحديقة وخف الكل إلى استقبال أستاذهم وقوفا ، إلا واحدًا ظل على كرسيه لم يتحرك ، زاعما أن ما فعل هو السنة ! . .

قلت : إن الرسول ﷺ قال للأوس لما جاء زعيمهم سعد بن معاذ : **قوموا إلى سيدكم!** والطلاب الذين قاموا مرحبين بعميدهم أقرب إلى الفطرة والسنة والأدب من هذا الطالب ، وهو يسىء إلى الإسلام بهذا المسلك .

قال لى أحدهم : إنه طالب محافظ يربى لحيته! قلت : تربية اللحية من سنن الفطرة ، وتربية النفس من أركان الإيمان ، وماذا عليه لو أحسن الشكل والموضوع؟ . .

إن الاهتمام بالشكل أول مراحل التقليد ، فالطفل عندما يرى أباه وهو يصلى يحفظ حركات جسمه ركوعا وسجودًا ، ويبدأ محاكاته فيها . . أما مشاعر الخشوع

ومعاني الكلمات فهو لا يراها ، ولا يحسن تقليدها ، لعله يبلغ ذلك مستقبلا بالدراسة والتجربة والمعاناة . .

والأم الطفلة هي التي تبرع في تقليد الشكل وتفصله فصلا تاما عما ارتبط به من معان ، فهي في ميدان الأدب تحسن السجع والجناس أكثر مما تعمق الفكرة وتسدد النظرة ، وهي في ميدان الدين تضحي بوحدة الأمة في سبيل إخفاء البسملة أو الجهر بها . .

وسلفنا الأول كان أرفع كثيرًا جداً من هذا المستوى ، ولذلك خدم رسالته وبلغ دعوته . .

هل من الصحوة الإسلامية أن يهمل البعض التفوق الصناعي مدنيّاً كان أو عسكرياً لانشغاله بحكم الصلاة في النعال ، وجواز دخول المساجد بها؟ هذا المسلك إغماء عقلي وهوس ديني ، ولا يوصف أبدا بالخير . .

ثم ـ أيصنع العقل الغربي السيارة ونشتريها نحن لنكتب عليها «عين الحسود فيها عود! . . أو كايدة الأعداء»! . .

إن أية يقظة إنسانية إنما تنهض بدءا وختاما على حدة العقل ، وسناء القلب ، والإسلام إنما أنهض العرب وحلق بهم في الأوج لأنه أنعش هذه الملكات الإنسانية وأطلقها تسعى ، والصحوة الإسلامية الحاضرة ينبغي أن تترسم الخطا الأولى لا أن تتبع خلوفا ظلموا دينهم وأنفسهم على سواء . .

هل نستقدم خبراء ليعلمونا نظافة البيوت والمدن؟! . . هل نستقدم خبراء ليعلمونا الهدوء والنظام والسير في الشوارع برتابة وكياسة؟! . . هل نستقدم خبراء ليعلمونا أن التزوير في أداء الشهادات وإجراء الانتخابات ضرب من الوثنية؟! . . هل نستقدم خبراء ليعلمونا كيف ندفع الكفاءات إلى الأمام ونرد التافهين إلى الوراء؟! . .

إن هناك أبجديات في الفطرة الإسلامية لا ندري لماذا ننساها؟! ولن تتم صحوة إلا عندما نفتتح بها أولا . .

قال لي صديق عالم في «الجيولوجيا» : إنني قلق الآن أمامنا عشرات السنين حتى نطوي مسافة التخلف الحضاري بيننا وبين من سبقونا في ميادين الذرة والفضاء والطاقة وغيرها! . . ودعم الحق ميئوس منه بالوسائل البدائية . .

قلت : إنني أومن بعون الله . . ثم استتبعت أقول لنفسي ولكل مهتم بأمر دينه : إن العون الأعلى يظفر به الصاحون بين السكارى! فلنجتهد في ترشيد صحوتنا المعاصرة حتى تؤتي جناها . .

٩٣. ما مكانة العمل والعلم فى الإسلام؟ وهل هما قاصران على العمل العبادى والعلم الدينى؟

الإسلام هو الوحى النازل على محمد ﷺ ليوجه به الحياة إلى ربها ، ويهدى الناس كافة إلى الصراط المستقيم . . أى إنه حقائق مقررة أولاً ثم أساليب متجددة فى البلاغ والعرض ، والحماية والدفاع . .

لنفرض أن صاحب فلسفة ما اقتنع بأن مالديه ينفع العالم . . إنه ابتداء يشرح ما عنده ويطبقه فى ذات نفسه ، ثم ينتقل إلى تفهيم الآخرين بكل وسائل الفهم ، ويحتاط ضد المعتدين والمعوقين بكل أسباب المقاومة . .

وقد مضى الإسلام على هذا النهج منذ بدأ مسيرته ، أو منذ استمع نبيه إلى صوت الوحى : ﴿ **اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[١] .

إن العلم هنا من شقين ، علم بحقائق الوحى ، وعلم بطرق غرسه ، وذود الأذى عنه! . .

فى الفلسفات المادية المعتادة يسير العلمان معًا سيرًا لايتسم بأى تناقض! . . فالشيوعية تسوى بين رجل الإعلام الذى يعرض مبادئها فى الصحف المحلية والهيئات الدولية ، وبين رجل الفضاء الذى يستكشف الكون ، ويستخدم الأقمار الصناعية فى الكر والفر والظفر فى حرب الكواكب! . .

كلا الرجلين يؤدى واجبه نحو مبدئه ، وكلا العلمين يعمل للآخر ويعانقه . . إننا نضرب هذا المثل ليعلم السذج من المسلمين أن تالى القرآن الكريم فى الإذاعة يعرض نوعًا من المعرفة الدينية ، وأن الذى يشرف على توجيه صاروخ فى الفضاء كى يدافع عن هذه المعرفة لا يقل مكانة عن القارئ المرتل ، وقد يكون ـ بصدق نيته ـ أولى بالله منه ! . .

---

(١) العلق : ١ ـ ٥ .

إنه هو الآخر يمثل علما لابد منه ، مايحيا العلم الأول إلا به ، فالإيمان أس والجهاد حارس .

والواقع أن الثقافة الإسلامية منذ نشأتها تشعبت أصولها وفروعها ، وتشعب العمل الذى يقوم به المسلمون فرادى وجماعات ، وليس فى تاريخ هذه الثقافة علم دينى بعيد عن الحياة ، وعلم مدنى بعيد عن الدين ، ولم يقع انقسام العلم إلى دينى ومدنى إلا فى عصور السقوط والاضمحلال . .

وبديه أن تكون علوم الشريعة أول مظاهر الحركة العلمية فى الإسلام ، فنشأت علوم القرآن والسنة والفقه والأخلاق والتربية ، ولا يجرؤ أحد على إنكار ما فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من خصوبة فكرية ، ومنابع غزيرة للفكر والوجدان والسلوك ، إنهما مهاد جليل لحضارة إنسانية ذكية رحبة . .

ثم صاحب ذلك ميلاد العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع ، وازدهر الأدب والبحث فى فلسفة اللغة وأسرار البلاغة وألفت القواميس ، وأصبحت الدراسات الأدبية واللغوية جزءا أصيلا من عمل المعاهد الدينية . .

ونشطت الدراسة الفلسفية ـ التى تحولت فى عصرنا إلى علوم إنسانية ـ فلم تبق فى أرض الله أثارة من معرفة إلا استقدمها العرب ، وتوفروا على فهمها وتقويم مسارها . .

ومع نضج الفكر الإسلامى ظهرت علوم الكون والحياة مستهدية بمنطق الملاحظة والتجربة ـ وهو منطق قرآنى المنبت ـ فكانت علوم الرياضة من حساب وجبر ، وعلوم الطبيعة والكيمياء ، والفلك! . .

ويكاد المنصفون من مؤرخى الحضارة يجمعون على أن المسلمين هم أولو الفضل على النهضة الأوربية ، وأنهم السبب المباشر فى عصر الإحياء . .

وقد كان من وراء الانتصارات العسكرية الإسلامية ـ إلى ما قبل بضعة قرون ـ تفوق علمى وصناعى ، هو الذى أعان على فتح «القسطنطينية» وحصار «فينا» ووقف الزحف الصليبى .

ويرى المحققون أن الحرب التى نشبت بين العلم والدين فى أوربا ، قد أشعلتها الكنيسة عن عمد لأنها رأت أن الاتجاه العلمى المبتكر الناشط هو أثر الزحف الإسلامى الناجح ، وأن العلماء الباحثين هم ـ طابور ـ خامس للجهاد الإسلامى القديم .

بيد أن هذا كله تلاشى مع خمول المسلمين الأخير ، وانطفاء جذوتهم ، وانتشار الجهل العام فى ربوعهم ، وفهم كثير منهم أن العلم لا يتجاوز دراسة الوضوء والصلاة والمواريث! وأن ما وراء ذلك من أدب وفن وكشف وذكاء نوع من الفضول .

وقد دفعوا ثمن ذلك الخطأ سوادا صبغ الوجوه وأخزى النفوس ، وجعل بلادهم بين الأطلسى والهادى مسرحًا لاستعمار أنانى ظلوم ، أكل دينهم ودنياهم على سواء . .

ومن الغرائب أن بعض الفتية المشتغلين بالدين لايزالون صرعى هذا الغلط الفاحش ، وأن المنتسبين منهم إلى كليات عملية أو مدنية يصدفون عن الدراسات المكتوبة عليهم ويقولون : ندرس علوم الدين . .

ويحكم! وهل يقوم الدين إلا بالعلوم التى فيها تزهدون؟ .

وكما لا يقوم إلا بها ، فهو ما يحسن فهمه إلا فى ضوئها .

من هؤلاء الفتية من أمضى عدة سنوات فى كليات الهندسة أو التجارة أو غيرها ، ورأى أن يضحى بالسنوات التى قضاها ويلتحق بإحدى الجامعات الإسلامية . .

وأقتطف هذه الفقرات من رسالة كتبها لى أحدهم يقول فيها : « . . يؤلمنى ألما شديدًا ، ويعتصر قلبى حزنًا تعدد الأهواء ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه! وقد دعوت الله أن يلهمنى الحق ويهدينى الطريق القويم ويوفقنى إلى الالتحاق بالجامعة الإسلامية فقد علمت من قراءتى للإمام الشافعى «أن العلم ما كان قال حدثنا ، وأخبرنا ، وغير ذلك وساوس شياطين! ولذلك فإنى أرغب فى التعلم الدينى المنهجى! والله يوفقك لمساعدتى» .

وقد رق قلبى لصاحب الرسالة ، وحاولت إلحاقه بكلية الشريعة فى دولة قطر ، ولكن التعليمات القانونية لم تسمح ! . .

ولابد من وعى الكلمة المنسوبة للإمام الشافعى ـ إن صحت ـ فالمراد منها أن شئون العبادات لا مجال فيها للآراء الشخصية ، وإنما تأخذ العبادات من النقول الثابتة عن المعصوم . .

وقضايا العبادات قطرة من بحر فى سلوك المسلمين وشئونهم العلمية ، ولا دخل للروايات فى موضوعات العلوم الأخرى . .

وقد تأملت فى سيرة نفر من خريجى الجامعات الإسلامية فكدت أيأس من جدواها ، هذا رجل يحمل حملة شعواء على الأضرحة ، قال لى أحد مستمعيه : لكن لا توجد فى هذا البلد أضرحة . . قلت : كلام سمعه لايعرف غيره فأفرغه بيننا . .

وفى افتتاح مسجد بباريس ، وفى أثناء التقاط صور تذكارية للحفل قام واحد من هؤلاء فى حالة تشنج ، يذكر أن التصوير الشمسى حرام! . .

فقال له أحد الحضور : ذلك رأيك! وما أكثر الفقهاء الذين يخالفونك ، إنك توقف سير الدعوة الإسلامية فى باريس بهذا التعصب الضيق لرأى ما ، فهل تريد التضحية بالدين كله من أجل وجهة نظر لك أو لأناس قاصرين خلفك؟ . .

قلت فى نفسى : ما أتعس حظ الإسلام ، إذا كان المتحدثون باسمه لا يعرفون العلم الخادم له أو المبين عنه . . إلا بعض المرويات ، وبعض الأفهام . .

عندما عرض عفريت من الجن على سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل أن يقوم من مقامه . . ﴿ **قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي** ﴾[1] .

ما أحوج المسلمين إلى رجال أوتوا علم هذا الكتاب . . أم أن هؤلاء الرجال خشوا سوء الاستقبال عندنا ، فحطوا رحالهم فى أوربا وأمريكا ؟ . .

ليس للعلم ولا للعمل صورة واحدة صالحة ، أو ميدان واحد مقبول . . فإن الله أمر المسلمين أن يفعلوا الخير ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[2] وكلفهم مع فعله أن يدعوا الآخرين إليه ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ﴾[3] فهل للخير المطلوب شكل واحد؟ لايرى إلا فى الصلاة والصيام؟ . .

إن صنوف الشر لا تحصى ، وصنوف الخير لا تحصى! وما يحشده البشر لتحصيل الخير أو الشر لا يحصى ، وللوسائل حكم الغايات . .

والحق أن العمل الصالح ـ الذى هو صنو الإيمان ـ هو كل سلوك يترجم عن نية حسنة وغاية شريفة ، وقد يكون فلاحة أو صناعة أو إدارة ، وقد يكون سفرًا أو إقامة ، وقد يكون قتالاً أو سلامًا . . إنه مسلك غير محدود لباعث واحد هو حب الخير ، وطلب الإصلاح . .

---

(١) النمل : ٤٠ . (٢) الحج : ٧٧ . (٣) آل عمران : ١٠٤ .

﴿ ... فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾(١) .

وقد سمى القرآن الكريم تجويد الصناعات الحربية ـ لدعم الحق بداهة ـ سماها عملا صالحًا ، فقال عن نبى الله داود : ﴿ ..وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٢) .

وجعل كل تعب يعانيه المجاهدون ، وكل بذل يتكلفونه عملاً صالحًا ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٣) .

وما يذكره القرآن الكريم ليس إلا نماذج وأمثلة . . ولقد اعتبر الرسول الصلة الجنسية بين الرجل وامرأته عملاً صالحًا يثاب عليه لأنها حصانة من الإثم ، ووقاية من الشرود . .

إن كل علم تسمو به الإنسانية ، وكل عمل تزكو به هو من صميم الدين ، ترجح به الموازين ، وترتفع به الدرجات ، فى الدنيا والآخرة .

---

(١) الأنعام : ٤٨ ، ٤٩ .   (٢) سبأ : ١٠ ، ١١ .   (٣) التوبة : ١٢٠ .

٩٤. لماذا لم يحرم الإسلام الرق كما حرم الخمر والربا؟ وما موقفه الحقيقى من هذه القضية؟ وهل يجوز للمسلمين فى حروبهم مع أعدائهم أن يعدوا أسرى الحرب رقيقًا؟

فى مطالع البعثة المحمدية كان الرقيق واقعًا غير مؤلم ولا مستغرب ولا منكور . . وكانت جماهير الأرقاء تزحم المشارق والمغارب لا يأبه لهم أحد ولا يفكر فى إنقاذهم مصلح . .

فى أرجاء الدولة الرومانية النصرانية كان العبيد يخدمون فى صمت ، وربما قدم بعضهم طعامًا للوحوش فى بعض المناسبات ، وكان اليهود - وفق تعاليم التوراة - ينظمون أساليب الاسترقاق للعبرانيين وغير العبرانيين . .

ولم الأسى على الرقيق وحدهم؟ إن المنبوذين فى القارة الهندية كانوا أنجاسًا لا تعرف لهم حرمة ، ولقد وقع ابن لامرأة برهمية فى بئر ، وكان أحد المنبوذين يستطيع إنقاذه لو أذنت أمه! لكن الأم فضلت أن يموت ولدها ولا يعيش بعد ما لمسه منبوذ . .

وجاء فى الكتاب المقدس أن طعام النبيين لا يعطى للكلاب . . والنبيون هم بنو إسرائيل . . والكلاب هم الكنعانيون الذين كانوا يسكنون فلسطين قديمًا . .

فى هذا الجو القابض الظلوم كانت الإنسانية تعيش ، ما أنصفتها فلسفة اليونان التى تقر الاسترقاق بعقلها المفكر! ولا أنصفتها مواريث التدين التى احتضنتها الكهنة ، وأظلمت بها الأرض . .

حتى تكلم محمد ، وأصاخ الناس إلى ماجاء به فإذا هم يسمعون أن البشر كلهم إخوة بينهم نسب واحد ، وتسرى فى أوصالهم نفخة من روح الله ، وأنهم سواسية فى الحقوق والواجبات . . وأنهم خلقوا ليتعارفوا ويتحابوا ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[1] .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

وسمع الناس للمرة الأولى فى تاريخهم أن المسترقين يجب أن تفك قيودهم وتعتق رقابهم ، وأن العانين ينبغى أن يحرروا من الذل والجوع والهوان ، وأن العقبات دون هذا كله لابد من اقتحامها لمن يريد رضوان الله : ﴿ **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ** ﴾[1] .

وعلى المؤمنين أن يتجردوا لأداء هـذا الواجب ، فلا يحرروا الأسرى ليجعلوهم أتباعًا ، أو عبيد إحسان بعد ما كانوا عبيد سطوة كلا إنهم ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾[2] .

ولما جاء دور التشريع لنقل هذه المبادئ إلى قوانين ملزمة نظر الإسلام إلى مصادر الرق فألقاها كلها على النحو الآتى :

كان الرومانيون ومن قبلهم العبرانيون يحكمون بالعبودية على مقترفى بعض الجرائم . . ومن هذه الجرائم عند الرومان عجز المعسر عن الوفاء بالدين . . وقد رفض الإسلام هذه النظرة رفضًا حاسمًا ، ولم يسترق فى أية مخالفة ، بل رصد من الزكاة المفروضة سهمًا لازمًا لسداد ديون المعسرين ، وقال تعالى :

﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[3] .

وكان الخطف إلى القرن الماضى مصدرًا هائلاً للاستعباد ، وقد ظل الأوربيون يصطادون البشر بضعة قرون من غرب إفريقية ، فى ظروف تكتنفها الوحشية المطلقة ، وتم خطف عشرات الملايين وهلاك مثلهم فى أثناء الغارات التى كان يقوم بها قراصنتهم . .

وأبى الإسلام إباء شديدًا خطف الأحرار ، وهدم كل ما انبنى على هذا الخطف من آثار ، وجاء فى الحديث القدسى عن رب العزة قال الله تعالى :

---

(١) البلد : ١١ - ١٦ . (٢) الإنسان : ٨ ، ٩ . (٣) البقرة : ٢٨٠ .

«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته ـ غلبته ـ رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه الأجر» .

والمصدر الثالث للاسترقاق ـ وهو مصدر خطير ـ أسرى الحروب ، إن أولئك المنكودين الخزايا كانوا يواجهون مستقبلا غامضًا ، وقد يكون الاسترقاق أهون ما يتوقعون .

وفى الحرب العالمية الثانية لم تعرف مصاير الألوف المؤلفة من أسرى الروس لدى الألمان ، أو أسرى الألمان لدى الفرنسيين . .

فإن كان ذلك ما وقع أيام التحضر والارتقاء فما ظنك بما كان يقع قديمًا ؟ . .

على أية حال فإن الإسلام فى أول حرب خاضها خرج على الدنيا بمبادئ أزكى وأرق فى معاملة الأسرى ، فنزل على رسول الله ﷺ فى الأسرى بعد معركة بدر . . ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[(١)] .

والخيانة التى تشير إليها الآية موقف المشركين من قضية الحريات الدينية والإنسانية كلها ، فقد كان موقفًا غبيًا متعنتًا مليئًا بالكبرياء والقسوة . . أكان هذا موقف عبدة الأوثان وحدهم؟ . .

كلا ، فإن أهل الكتاب كانوا أخس وأظلم . .

يقول الله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ** ﴾[(٢)] .

ليكن! فليس لأحد أن يرغمهم على اتباع! لكنهم لم يكتفوا بهذا بل لجأوا إلى صد الاتباع وفتنة الضعفاء وقيل لهم : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[(٣)] .

---

(١) الأنفال : ٧٠ ، ٧١ . (٢) البقرة : ١٤٥ . (٣) آل عمران : ٩٩ .

ولو أن الكره للإسلام كان عواطف فرد أحمق ، أو سلوك نفر متعصبين لهان الخطب . . لقد تحول إلى حرب ساخنة يصلاها دين عده خصومه خارجًا على القانون ، ولم يروا الاعتراف به أبدًا . .

ولننظر إلى صدر تاريخنا القديم ، ولنتسائل : متى اعترفت الأديان الأخرى بحق الحياة للإسلام ، وحق أتباعه فى إقامة مجتمع له؟ . .

لا مجوس فارس ، ولا يهود المستعمرات المقامة فى جزيرة العرب ، ولا الرومان الذين اعتنقوا النصرانية ليجعلوا منها ذريعة استعمار أسود أكل الشام ومصر وغيرهما طول خمسة قرون .

ومع ما أحسه سلفنا من وحشة ونكير ، فقد خاضوا ضد أعدائهم حربًا عادلة ، وأمروا بكسر شوكتهم ومحق كبرهم حتى إذا قلموا أظافرهم وأذلوا طغيانهم قيل لهم : لكم أن تمنوا على الأسرى والمنهزمين ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** ﴾[1] .

وقد يفزع البعض لكلمة (ضرب الرقاب) بيد أن فزعه هذا يذهب عندما يعلم أن عربيًّا من أذناب الروم ، ومن ولاتهم شمال الجزيرة قبض على المسلم الذى جاء برسالة من لدى النبى ﷺ يدعو فيها إلى الإسلام وقال له : أنت حامل رسالة محمد؟ :

- نعم ، فأمر بضرب عنقه !! . .

كان حمل كتاب رقيق العبارة ، مقبول العرض جريمة تعالج بالقتل السريع . . بم يعامل هؤلاء الأذناب من سماسرة الاستعمار الرومانى المتعصب؟ . .

إنها الحرب ولا شىء غيرها . .

ثم قيل بعد ذلك للمقاتلين المسلمين ﴿ . . **إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** ﴾[2] .

المن أو الفداء! ليس هناك تصريح فى الآية باسترقاق أحد ، لم يعد الأسر منبعًا دائمًا لأسواق الرقيق ، كما كان ذلك معهودًا فى القرون الأولى . .

---

(١) محمد : ٤ .

(٢) محمد : ٤ .

وهنا نبحث : كيف يتم تنفيذ هذا المبدأ؟ . . هل يطلق المسلمون سراح الأسرى دون قيد أو شرط ليعودوا إلى مقاتلتهم مرة أخرى؟ . .

هل يتم هذا التحرير فى الوقت الذى يباع أبناؤهم فيه هنا وهناك؟ . .

إن معاملة الأسرى ليست تشريعًا محليّاً . يصدر من جانب واحد . . إنه تشريع تلتزم به أطراف متشابكة المصالح ، متعاونة على احترام قيم معينة . .

هل يجد المسلمون هذه المعانى عند خصومهم؟ كلا! فإن هؤلاء الخصوم من عبدة الأصنام ، أو من أتباع الكتب الأولى لايقرون للمسلمين بحق الوجود ، فكيف يسمحون لهم بحق البقاء وحرية التدين؟! . .

وعندما يوجد تفاهم دولى على «المن أو الفداء» فنحن أول من يهرع إلى الإسهام فيه ، وإنقاذ عهوده . . إن مبدأ المعاملة بالمثل له أثره العميق فى العلاقات والمعاملات الدولية ، وقد قلنا : إن الأمريكيين لو عرفوا أن اليابان تملك رادعًا نوويّاً ، ما فجروا قنابلهم الذرية فوق هيروشيما وناجازاكى!! . .

وإلى أن يتم تفاهم عالمى على أسلوب إنسانى فى معاملة الأسرى انفرد الإسلام بتعاليم تحنو على أولئك المنكوبين ، وتذكر بالأخوة الإنسانية وتوصى بالرحمة ، وتعاقب على الغلظة ، أو بعبارة موجزة : جفف منابع الرق جهد الطاقة ، نوع أسباب التحرر والانطلاق! فليس هناك أمر باسترقاق ، وإنما هناك أوامر بالإعتاق ، وقد بسطنا ذلك كله فى موطن آخر [1] .

قال لى شخص من المتأثرين بالاستعمار الثقافى : إن الحضارة الحديثة هى التى حررت النساء والأرقاء ، ولا ريب أنها انساقت إلى ذلك من مواريثها الدينية! . .

قلت له : إن الحضارة الحديثة مكنت ناسا لهم فطرة سليمة من خدمة البشرية مثل أبراهام لنكولن الذى قاد حربا شديدة لتحرير العبيد ، وقد لقى الرجل مصرعه بعد هذا البلاء ، كما لقى غاندى مصرعه على يد هندى متعصب لدينه! . .

وأصحاب الفطرة السليمة الذين جاهدوا فى سبيل هذه الغايات النبيلة كانوا يستوحون ضمائرهم وحدها . .

---

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة .

أين تجد المواريث الدينية فى تحرير النساء عندما تقرأ رسالة بولس الأول إلى أهل كورنتوسى ، الأصحاح الرابع عشر فقرة ٢٤ وما بعدها : «لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن ، بل يخضعن! . . كما يقول الناموس أيضا ، ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فيسألن رجالهن فى البيت ، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن فى كنيسة» . .

وأين تجد المواريث الدينية فى تحرير الأرقاء عندما تقرأ رسالة بولس إلى أهل أفسس «**أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة! فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كما يرضى الناس، بل كعبيد المسيح.. إلخ**»[١] .

إن رجالا من أصحاب القلوب الكبيرة هم الذين جاهدوا بشرف لتكسير القيود التى أنشأها التظالم البشرى على مر العصور . . والحقيقة أنه لا دين إذا طمست الفطرة وطغت الأثرة! . .

وللإسلام علامة مميزة يعرف بها ، ويلفت كل امرئ إليها ، تبدو فى قوله تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٢] .

ومن هنا حكمنا بأن التقاليد التى يتعارف الناس عليها يجب نبذها إذا خالفت الفطرة! . .

ويستحيل أن تكون هذه التقاليد دينا وإن استمسك بها بعض الكهان . .

(١) على هذا النص وغيره استقر الرق فى الغرب ، وقتل أحد المتدينين المتعصبين له «لنكولن» محرر العبيد . .
(٢) الروم : ٣٠ .

٩٥. ما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو إليها؟

هناك جوانب فى الحضارة الحديثة جديرة بالاحترام كله ، بل أعتقد أنها امتداد أو انطلاق من الفكر المتحرر الراشد الباحث عن الحق ، الحفى بالمعرفة ، المستغل لأثمن مواهب الإنسان . .

إن الوصول إلى اليقين فى قضية حسية أو عقلية ليس شيئًا رخيصًا ، إنه ثمرة غالية لأعلى مواهب البشر بل هو الاستجابة الوحيدة لقوله تعالى :

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾[1] .

وهو كذلك البعد المطلوب عن نهج المنحرفين والواهين والقاصرين الذين قيل فيهم : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[2] .

والحضارة الحديثة نجحت فى ميدان البحث المادى ، وتعمقت فى الدراسات الكونية كلها ، وهذا النجاح ـ فى رأيى ـ يجعلها أقرب إلى منطق القرآن الكريم ، وأدنى إلى منهجه ، فإن التفكر فى الكون أرضه وسمائه وما بينهما ، مطلب إلهى لا ريب فيه . .

والمسلمون يحملون أوزار التخلف فى هذا المجال ، وقد دفعوا ثمنه فادحًا ، وأرى أنه من عصيان الله ، والفسوق عن أمره الانشغال بالجدل العقيم ، وفلسفة ما وراء المادة ، وتشقيق الخلاف وتكثيره فى شئون يستوى فيها العلم والجهل . .

إن الحضارة الحديثة اكتشفت كثيرًا من قوى الكون وأسراره ولها الآن حصيلة كبيرة فى علوم الذرة والفضاء و «الإلكترونيات» و «الكمبيوتر» وقد نقلت آثار ذلك إلى تفوق مدنى وعسكرىٍّ فى البر والبحر والجو . .

ومع هذا السبق البعيد ، فإن الحضارة الحديثة لا تزال واقفة عند العصر الحجرى فى ضبط الغرائز ، وترويض الحيوان الرابض داخل الجسم البشرى ، وكبح الأثرة المسعورة ، وجعل المرء يحب غيره ويغار على حقوقه ، أو على الأقل يعدل مع غيره ، ويعترف له بحقوقه طوعًا لا كرهًا!! . .

---

(١) الإسراء : ٣٦ .   (٢) النجم : ٢٨ .

وقبل ذلك فشلت هذا الحضارة فى التعرف على رب العالمين ، وتأسيس علاقة صحيحة معه تقوم على توقيره وتقدير نعمته والشعور بعظمته والتسبيح بحمده والتعويل عليه فى الأزمات والاطمئنان إليه فى المخاوف .

إن الإنسان مهما قوى بالعلم لن يكون إلهًا ، وسيبقى ما عاش فقيرًا إلى سيده ، لا يحس طمأنينة إلا فى السجود بين يديه ، واستلهامه الرشد . .

لكن من أين تطرّق الخلل إلى هذه الحضارة حتى إنه ليهدد مستقبلها؟ . .

قد يكون الجواب : من غرور الماديين بما وصلوا إليه ، واستهانتهم بما قصروا فيه . . والغرور بالعلم داء قديم ، وقد حدثنا القرآن الكريم أن أمما عمرت هذه الأرض قبلنا ، وأقامت بها مدنيات فخمة ، وأنها انتشت بما تيسر لها من لذة وسخرت مما قدم من نصح ، فماذا كانت عقباها؟ ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾[1] .

والاعتزاز بالتقدم العلمى مرض مخوف ، بيد أنى لا أرد إليه وحده عوج هذه الحضارة ! . .

السبب الأول ناشئ ـ فيما أرى ـ من خيانة أهل الأديان لرسالات الله ، فالاسترخاء العقلى السيئ عند المسلمين ، والغش الممجوج عند إخوانهم أهل الكتاب ، من وراء هذا البلاء ! .

أهل الكتاب قدموا من عند أنفسهم تعاليم نسبوها إلى الله ، ضاق بها العقل ، وتبرمت بها الفطرة نشب العراك بين العلم والدين ، كانت النتائج المعروفة ، ألحد العلم وساء ظنه بالوحى كله . .

وأما المسلمون فقد أوغلوا فى البعد عن دينهم حتى أمسوا فى واد ودينهم فى واد آخر! . .

التفكير الذى هو فريضة عليهم حسب وصية الكتاب تحول إلى تقليد وجمود ، وإذا عرض له نشاط ففى ما وراء المادة لا فى المادة نفسها كما شكونا مرارًا .

ومفاخر الحياة الإسلامية الأولى تلاشت ، فإذا قال شوقى :

فالدين يسر، والخلافة بيعة ... الأمر شورى، والحقوق قضاء!

وجدت التاريخ فى أعصر شتى يؤكد أن الأمر استبداد ، والخلافة اغتصاب ، ويسر الشريعة رياء وتعقيد ، والحقوق دعاوى «من الناب والظفر برهانها»! . .

على حين ظهرت الحضارة الحديثة بأساليب ثقافية وإدارية أدنى إلى الفطرة والشورى والاختيار الحر وإن شابها ما لابسها من هوى جامح وإسراف كثير . .

وصلاح الحياة لا يتم بهدم الباطل ؛ لأن الباطل جدير بالزوال! كلا ، لابد أن يكون الحق تام الاستعداد ليحل محله ، ويؤدى عمله بقدرة أعظم وأشرف . .

---
(١) غافر ٨٣ .

وأعترف بأن المسلمين لم يستكملوا هذه الخصائص ، ولا هم اليوم أهل لتلك القيادة . .

الحضارة الحديثة نسيت الله كل النسيان ، ولم تأخذ أى أهبة للقائه ، إنها تعبد اليوم الحاضر ، وتجحد ماوراءه ، وتعبد الجسد وتغالى بمطالبه وحدها . .

ونحن باسم الإسلام نقاوم هذا الاتجاه الزائغ ، ونرفضه جملة وتفصيلا . .

أما الاقتدار العلمى ، وتسخيره لتنعيم الإنسان وتكريمه فنحن معجبون به ، كذلك نحن معجبون بالقدرة التنظيمية التى جعلت الإدارة فنًا رفيع المستوى ، وأبدعت أساليب لمنع الطغيان الفردى والهوان السياسى ، وإن كان الغربيون جعلوا هذه الثمار حكرا على الرجل الأبيض . .

ولا أستحى من أن أسائل نفسى وقومى : أين كنا حين استخرج الأوربيون النفط من أرضنا؟ ماذا كنا نصنع؟ وأية ثقافة كانت تملأ أدمغتنا؟ . .

أؤكد ، وأنا من علماء الدين ، أن الصحابة تجهل تسعة أعشار الفكر الدينى الذى شغلنا! ونمنا فيه وصحونا عليه! . .

وأؤكد أن نظم الحكم فى بلادنا كانت أشبه بنظم الحكم فى فارس والروم على عهد سلفنا الفاتح العادل الذكى . .

وأؤكد أن اللغة العربية فى الجاهلية الأولى كانت أضوأ وأنصع منها فى الأعصار النكدة الأخيرة . .

إن مجددى الإسلام بذلوا جهودًا جبارة ليعود إلينا الوعى الغائب! ومن عجب أن البعض الآن يفتح فمه لسبهم ، وينتقص أقدارهم ، إننا لم نستشف ـ بعد ـ من عللنا . .

وقد مضت حضارة الغرب فى طريقها لا يثنيها شىء ، غير أن الاستغراق فى الدنيا لا يحقق الخير لا للفرد ولا للمجتمع ، وقد كرع «أبو نواس» من اللذة حتى آخر قطرة ، ثم استيقظ من سكرته يقول :

إذا عرف الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق !.

وكذلك يفعل الخراب الروحى ، وخواء الإيمان بأوربا وأمريكا ، إن الجماهير تشعر بالقلق والضيق ، ولأثبت هنا كلمة للأديب الكبير الأستاذ أحمد بهجت كتبها وهو يزور «لندن» يصور أثر هذه الحضارة : قال : «عيون الناس هنا ملونة ، وبشرتهم كشمع مسقى بالدم ، وابتساماتهم حاضرة وجاهزة لكل نظرة وأى سؤال . . رغم ذلك ، ثمة طيف غامض من الكآبة يلوح وراء ألوان العيون والبشرة ، ويتبدى فى هذا الصمت الذى يغرقون فيه حين يركبون المترو أو الأتوبيس . .

هنا لاحد لجمال الناس ، ولكنه جمال يشبه جمال الجزر المنعزلة فى المحيط ، إن صفحة المياه الزرقاء تمتد بصمتها الفاجع وتحيط بالجزر من جميع الجهات . .

رغم العزلة المرشحة ينهض الجمال ، ويكتسب الجمال شحوبه من العزلة النفسية ، حتى لتعكس أغوار العيون قلقًا يبدو وسط يسر الحياة وسهولتها مثل حزن غير مفهوم فى عرس من أعراس الحياة . .

بالنسبة لكثير من الشرقيين تبدو لندن عاصمة مبهجة فى الصيف ، هى سوق عظيمة للمرح والمتعة والجمال والثياب واللهو والحرية . كيف تفسر إذن هذا البحث الذى قامت به إحدى شركات البحوث . وقالت نتائجه : إن مليون بريطانى يعانون من اكتئاب نفسى ، وإن من المحتمل أن يقدم ثلث هذا العدد على الانتحار بسبب الكآبة . . كيف تفسر أن معظم المصابين بالاكتئاب من النساء . .

استبعد البحث مشكلة البطالة كسبب رئيسى للكآبة . . وأشار إلى المشاكل الزوجية والمنزلية والإنسانية . . .

عاودت النظر فى وجوه الناس . .

أهؤلاء مكتئبون . .

إن النظرة السريعة تقول إن الناس تعيش وسط نعيم مقيم فى لندن . . كل شيء ميسر . . لا صوت للشوارع ولا صوت للناس ، وكل ما تريده موجود وحاضر ، هناك مكان فى الأتوبيس والمترو والتاكسى والقطار ، ليست فى الحياة اليومية معاناة كالحياة اليومية فى مدن العالم الثالث أو الشرق . .

إن المدنية الحديثة توفر للناس جهدهم الإنسانى وتقوم عنهم بأداء كثير مما كان يقتضى جهدًا بدنياً أو عضلياً . .

والخدمات أكثر من الحاجة إليها . والعرض أكثر من الطلب ، والتليفون لا يستعصى عليك ، ولا يتكلم معك فى الخط أحد . . لماذا يكتئب الناس إذن وحياتهم تمضى بهذه النعومة والكفاءة .

إن الحضارة الغربية تكشف هنا عن أحد أسرار الحياة . . إن للتخلف مشاكله وللتقدم مشاكله . .

وليست مشاكل التقدم بأخف فى الميزان من مشاكل التخلف ، هنا توفر الحياة للناس وقتًا يفكرون فيه فى حياتهم وهدف هذه الحياة ومصيرهم بعدها . .

وهنا يحس الناس بالوحدة القاسية رغم كل مبهجات العيش . .

إن الوضع الصحيح الوحيد للإنسان أن يكون تابعًا لله لا مستقلاً بنفسه ، وأن يسترشد بوحيه لا أن يغتر بفلسفته الخاصة . .

ما أضعف الإنسان إذا لم تسنده قوة ربه . . وما أشقاه حين يحرم بركته . .

٩٦. هل فى استطاعة الإسلام أن يقدم حلولا للمشكلات الكبرى التى تعانى منها الإنسانية اليوم؟

تقع المصائب والمشاكل عندما يفرط الإنسان فيما يجب عليه ، أو يستهين بما يمنع منه . . فحوادث الطرق تنشأ غالبًا من السرعة الزائدة عن الحد ، أو من التوقف المباغت ، أو من خروج المرء عن المسار المحدد له . .

ولو تبع الناس التعاليم الصادرة إليهم لوقاهم الله سيئات كثيرة ، ولكن ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾[١] .

ولسنا ننكر أن هناك أقدارًا قاهرة تعرض لنا بما نكره ، وتفاجئنا بما لا دخل لإرادتنا فيه وهذه المصائب والمشاكل لا نؤاخذ بوقوعها ، وإنما علينا أن نتصرف تجاهها بثبات وتسلم ، لا بجزع وتمرد فهى بعض بلاء الدنيا الذى نختبر به !! . .

ولكنى أستعرض مشكلات كبيرة فى عالمنا المعاصر ، فأجد أغلبها من صنع الناس . .

إنها تنشأ فى غياب الإيمان الصحيح ، والاستهداء بنور الله ، والاستشهاد بالعلامات الخضراء والحمراء التى تعصم من الزلل .

القلق الشديد محنة كامنة وراء الركض الوحشى طلبًا للرزق ، إن هؤلاء الراكضين قد يدوسون قواعد الحلال والحرام ، بل قد يدوسون العجزة والضعاف كى يصلوا قبل غيرهم . .

بم نفسر هذا السعار الذى ملأ الدنيا؟ لا تفسير له إلا الجهل بالله ، وبقيامه على الخلق وتدبيره للرزق . .

وأذكر هنا جملة من الحقائق الدينية غير خاشٍ من تأويل الجهلة لها وانحرافهم بها . .

لو كان للإنسان صديق نبيل الخلق حلو العشرة ، مأمون الوفاء لجعله واحته الظليلة فى صحراء هذه الحياة! أفتكون صلة المؤمن بربه أنزل من هذه الصلة؟ ربه الودود المجيد ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[٢] .

---

(١) الروم : ٤١ .   (٢) طه : ٨ .

إننا نحيا فى رحمته الواسعة ، ونعمته المبذولة ، وبركاته الهامية ، ولكن ذلك كله يشبه العافية التى قيل فى تبلد الشعور بها : **الصحة تاج على رءوس الأصحاء لايراه إلا المرضى** . .

إنه شىء مؤسف أن يقل إحساسنا بفضل الله الذى يغمرنا بالليل والنهار . . ثم يتضاعف جؤارنا بالشكوى إذا فقدنا بعض مانهوى! والغريب أننا نعتبر ما نفقده هو مصلحتنا المؤكدة ، أو الخير الذى حرمناه . . إن مواقفنا مع القدر تكرار لموقف موسى مع الخضر حين اعترض مايجهل عقباه . .

مع أن القصة ذكرت لتقول لنا : رب ضارة نافعة . . رب أمر أنكرنا بدايته وحمدنا نهايته ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾[١] .

هناك أبجديات للإيمان لو عرفناها لزالت مشكلة القلق والاكتئاب والتوتر التى تسود العالم . . وأرى أن الغرور البشرى أو إحساس الإنسان بأنه يقوم وحده من وراء تلك المشكلة . .

لقد خيل إلينا مع التقدم العلمى الجاف أننا مديرو هذا الكون ومالكو زمامه . .

وإن الإنسان يستطيع المضى وحده إلى هدفه دون صحبة من رعاية عليا ، أو مساندة من رب قدير . . وهذا هو الغباء المحض . .

إن المساحة التى تعمل فيها إرادتنا الحرة ضيقة جدًا ، حقًا هى موجود بيد أنها محكومة بظروف لا دخل لنا فيها مذ ولدنا إلى أن نموت ، ما أغبى السمكة التى تظن أنها صنعت مياه البحار والمحيطات ، وأنها صنعت الخياشيم التى تستخلص بها أنفاسها وسط الماء . .

الواقع أن الخطط التى تحكم حياة البشر خفضًا ورفعًا وضيقًا وسعة جزء من الخطط التى تحكم الفضاء وتقلب كواكبه بين شروق وغروب . .

مبتدؤنا ومنتهانا وما بين ذلك يشرف عليه ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[٢] . . ﴿ **قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ** ﴾[٣] . . ﴿ **وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[٤] .

---

(١) النساء : ١٩ .　(٢) الملك : ١ .　(٣) المؤمنون : ٨٨ .　(٤) القصص : ٨٨ .

فما معنى تجاهل هذا الواقع ، الانطلاق فى الدنيا دون وعى ودون غاية ؟ . .

الإيمان بالله وصفاته هو لاغير حل تلك المشكلة! والإسلام يعرف الناس بربهم على نحو رائع مقنع مشبع ، يغمر اللب والقلب بهداه ويجعل المرء إذا كرب فزع إلى الصلاة! . .

ثم هو ينظر إلى ما أصابه وما أخطأه عارفًا : من يدبر الأمر؟ فيقول : «**اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد**» .

وعند هذه الجملة الأخيرة نقف قليلاً . . فأصحاب الحظوظ الحسنة قد يكثرون أو يقلون فى هذه الدنيا ، غير أن مجرد وجودهم يثير الغيرة والتساؤل : لماذا أوتوا هذا الثراء أو هذا التقدم أو هذا الرجحان ؟ . .

ويؤكد الإسلام أن هذا الجد لايجدى أصحابه شيئًا ، ولا ينفعهم عند الله أبدا! إنه بعض ما يساءلون عنه يوم الحساب ، أو هو جزء من الاختبار الذى يكون للبعض بالجمع وللبعض بالطرح ، ولا امتياز هنالك! «**ورب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة**» وذلك من ثمرات الإيمان بيوم آخر . .

ومن المشكلات التى يشكو العالم منها الفقر المتوطن فى بيئات كثيرة ، وأحب أولاً أن أحدد المفاهيم حتى تنضبط الأحكام! أعرف موظفًا فى وزارة العدل يقوت أسرة كبيرة ، عرضت عليه يومًا مائة جنيه كى يدع أحد الخصوم يستولى على وثيقة تفيده فى ملف تحت يده! وأبى الموظف الشريف مع أنه كان يبيت طاويًا ليعشى أولاده ، وكان بحاجة إلى جنيه واحد لا إلى مائة . .

هذا الفقير وأمثاله هم الذين قال الدين عنهم : **إنهم سواد أهل الجنة** . .

وأعرف أن الزعيم محمد فريد فقد ما كان يملك من أرض فى سبيل أسفاره كى يعرض شكوى وطنه من الاحتلال الإنجليزى! هذا فقر يذكرنا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين ضحوا بما لديهم فى سبيل عقائدهم . .

وأعرف رؤساء كانوا يملكون القليل أو ما كانوا يملكون شيئًا! فلما ولوا الحكم فاضت أنهاره عليهم سمنا وعسلاً ، فأصحوا هم وأقرباؤهم وأصدقاؤهم ومن يلوذ بهم أصحاب جاه عريض ومال ممدود! . .

هؤلاء الأغنياء من سحت هم الذين قال الدين عنهم : إنهم جمهور النار ، وبئس القرار . .

لكن هناك فقرًا نشأ عن آفات عضوية فى الكيان الإنسانى والملكات التى زود بها أصلا ، وهو الفقر الذى ينتشر فى الأقطار المتخلفة ، أو فى أرجاء العالم الثالث . . إنه فقر تعود وصعلكة ، وهو فقر ينكره الدين ، ويعد أصحابه آثمين ، أو عجزة ملومين! . .

إن الله سبحانه يسر كل ما فى الأرض من خير للإنسان ، ومكنه من ارتقائه . . ولم يطلب منه بإزاء ذلك إلا أن يعرف حقه ويشكر فضله ، فإذا جاء امرؤ أو جاءت شعوب ، وتجاهلت هذا البذل ، ورأت أن تعيش عارية بدل أن تكتسى! أو جائعة بدل أن تطعم ، فهى شعوب مجرمة . .

وقد رأيت ناسًا ينتمون إلى الإسلام ـ وهو انتماء مريب ـ يشبهون الثعالب التى تأكل من فضلات الأسود ، تراهم أمام قوى الكون ، وأسراره حيرى ، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . .

إذا جاءهم الغيث شبعوا ، إذا هاجمهم الجفاف تضوروا وتسولوا . . لو وضعت مفاتيح الكنوز بين أيديهم لعجزوا عن إدارتها ، وبقوا وقوفًا أمام خزائنها المغلقة . . هؤلاء جديرون بالفقر يقينًا . . وعلاجهم يحتاج إلى تغيير نفوسهم . .

وإذا كان هؤلاء محنة فى الميدان الاقتصادى فهم كذلك محنة فى الميدان السياسى! . .

ذكرتهم وأنا أقرأ الكلمات التى كتبها أنصار زعيم المعارضة الفلبينى الذى قتل فى مطار «مانيلا» . . لقد وضعوا فوق رفاته هذه الجملة «**لا مكان للطغاة لو لم يكن هناك عبيد**» نعم ، إن أى فرعون لايوجد إلا حيث يكون الأوغاد والأذناب . .

والفقراء من هذا الصنف يمدون أكفهم فى الأزمات ، وباسم الإنسانية قد يضع الأقوياء فى أيديهم بعض ما يستبقى الحياة ، ولا عليهم! فتبقى أيديهم السفلى وأيدى الأقوياء هى العليا ، لكن إلى متى؟ . .

إن الحل لمشكلة الفقر هو العمل لا الاستجداء ، هو فهم قوله تعالى للناس :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[1] . .

وذلك يتطلب تغيير النفوس لتنتج بدل أن يكون قصاراها الاستهلاك . .

(١) الأعراف : ١٠ .

والمعاناة هي سلم الكمال ، ويعجبني قول أبي الطيب :

لولا المشقة ساد الناس كلهم　　الجود يفقر والإقدام قتال..

وشعوب العالم الثالث تحسب السعد والنحس طوالع فلكية! أو كما صور الأستاذ مصطفى أمين يحسب أحدهم أنه يجلس على كرسي في مقهى ، وكما يصفق بيديه طالبًا من الساقي «واحد شاي» يصفق طالبا «واحد حقوق إنسان» أو «واحد حريات شعوب» أو «واحد عدالة اجتماعية»! . .

ولندع مشكلة الفقر فطالما كتبنا فيها ، بل استفتحنا حياتنا الأدبية بالخوض في مآسيها . .

ولننظر نظرة خاطفة إلى مشكلة أخرى هي السلام! وهي مشكلة قد يؤدي تجاوزها إلى أن يفقد العالم حياته وحضارته كلتيهما . بعد ما أصبحت أدوات الفتك ذريعة إلى إبادة جماعية . .

والساسة الذين يتحدثون عن السلام لهم منطق عجيب! فبنو إسرائيل ينشدون السلام بعد أن يدمروا الوجود العربي في فلسطين ، ويضعوا الخطة لإقامة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى! . .

والروس ينشدون السلام بعد ابتلاع أفغانستان إلى جانب آسيا الإسلامية كلها ، واعتبار الدين خرافة لا معنى لبقائها . .

وجنوب إفريقيا تطلب السلام بعد إخماد أنفاس الزنوج وحرمانهم من منزلة البشر أو من مكانة الجنس الأبيض . . والأمريكيون يطلبون السلام بعد تأييد اليهود ودعم حقهم في بناء المستعمرات على الأرض العربية وقولهم : خلقت إسرائيل لتبقى . . إلخ . .

إن العالم أمام لون من النفاق والتبجح يستحيل أن يبقى معهما سلام . .

العدل أولا ثم المطالبة باحترامه ، والتسلح للذود عنه . .

ويستحيل أن يوجد سلام ؛ ما حكم الدنيا منطق الغابات . .

إن القرآن الكريم ناشد أهل الإيمان أن يحرصوا على السلام ، ويستريحوا إليه :
﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾(١) .

---

(١) البقرة : ٢٠٨ .

فماذا يحدث إن أعرضوا عن هذا النداء؟ ستمتلئ الأرض بالأحزان والخراب ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾[١] .

لقد قرأت قصصًا أليمة عما يصيب الرجال والنساء والأطفال فى أثناء الحروب من أسى وضياع يهتكان الأستار ، ويسترخصان العار! ورأيت صورًا قابضة مبكية للجثث على عرض الطريق أو تحت الأنقاض ، أمست رفاتا هامدًا وولت عنها بشاشة الحياة وآمالها العراض . .

إن الحرب شيء كريه حقا ، والويل للمجرمين الذين يشعلون نارها ويحتقرون آثارها . .

وفى الأديان السماوية كلها لم يأذن الله بحرب عدوان ، وإنما أذن فى حرب تحمى بها الحقوق وتصان الحقائق ، وتبقى فيها بيوت الله قائمة لعبادته وحده . .

وفى قراءة صحيحة يقول الله تعالى :

﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً** ﴾[٢] .

ورب البيت لا يطالب بالإستسلام للِّصِّ المغير إيثارًا للسلام ، وصاحب العقيدة لا يكلف بتركها تحت بريق السيوف . .

وإذا خلصت النيات يمكن إقامة مؤسسات عالمية للحفاظ على السلام ، بعد غسل النفوس من الأثرة والبغى ، وإشعارها بأنها أولاً وآخرا من الله بدأت وإليه تصير .

---

(١) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) الحج : ٤٠ .

٩٧. بم تفسر النكسات التى أصابت الأمة الإسلامية، بدءا من الخلاف الداخلى بين على ومعاوية حتى يومنا هذا؟

أجمع أولو الألباب من عدو وصديق على أن الإسلام عقائد وشرائع ، وعبادات ومعاملات ، وأخلاق ونظم وتراتيب إدارية وتقاليد اجتماعية . . وإنه يكلف أتباعه بتطويع الشئون العادية لخدمة ذلك كله . .

وكنا فى أثناء دراستنا الإسلامية نعرف الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامى ، وبين الإسلام والحكم الإسلامى . . الإسلام وحى معصوم لا ريب فيه ، أما الفكر الإسلامى فهو عمل الفكر البشرى فى فهمه ، والحكم الإسلامى هو عمل السلطة البشرية فى تنفيذه ، وكلاهما لا عصمة له . .

وعندما يخطئ مفكر فإن خطأه لا يبقى طويلا حتى يستدرك عليه مفكر آخر .

وعندما يخطئ حاكم فإن زلته لن تطول حتى يصوبها ناقد راشد . .

والأمة الإسلامية ـ بفضل الله ـ لاتجمع على خطأ ، وجهاز الدعوة بها حساس ، وهو عن طريق التعليم والأمر والنهى ينصف الحق . .

ولما كانت هذه الأمة حاملة الوحى الخاتم فإن القدر يؤدبها إذا استرخت أو فرطت حتى تلزم الصراط المستقيم ، ويتعهدها بالمجددين الذين يغارون على حقائق الوحى وسبل فقهه وأساليب حكمه . . قال تعالى :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾[1] .

ومن هذا التقديم يظهر أنه لا غرابة فى وجود أخطاء فى تاريخنا الثقافى والسياسى ، وإنما الغرابة فى التستر على هذه الأخطاء أو الاستمحاق فى معالجتها والتعفية على آثارها . .

وجمهور المسلمين يعلم أن سلفنا الأول شغله قتال الاستعمارين الرومى والمجوسى ، ولعله أشرف قتال عرفته الدنيا ، ولكنه يشعر بغضاضة وألم لما أعقب ذلك من قتال داخلى بين المسلمين أنفسهم كانت له آثار بعيدة المدى على حاضرهم ومستقبلهم . .

---

(١) الأعراف : ١٨١ .

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد أن على بن أبى طالب ـ الخليفة الرابع ـ كان إمام حق ، وأن معاوية بن أبى سفيان كان يمثل نفسه وعصبيته فى خروجه علَى عَلِىٍّ . .

وشاء الله أن يكسب معاوية هذه المعارك ، ومن ثم تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض فى بنى أمية . .

ومع أن هذا التحول كان هزيمة للحق ، وضربة موجعة للمثل العليا إلا أنه من الغلو المرفوض تضخيم نتائجه لما يأتى :

(أ) إن الخلفاء أو الملوك الذين ولوا أمور المسلمين بطريقة غير صحيحة أعلنوا أن ولاءهم للإسلام . . وأن التغير فى أشخاص الحاكمين لا يعنى التغير فى القوانين أو الأهداف الإسلامية ، ومن أجل ذلك استأنفوا الجهاد الخارجى ، كما تركوا للفقهاء حرية الحركة ، ما لم يمسوا سلطانهم فى الزعامة . .

(ب) إن العلم الدينى مضى فى طريقه يوسع الآفاق ويربى الجماهير ، ويقرر الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية ، أى إن الإسلام الشعبى مع ازوراره عن السلطة بقى قديرًا على الامتداد والتأثير . .

(جـ) مع أن الدولة كانت عربية ، تتعصب لجنسها فإن الجماهير والت تعاليم الإسلام وحدها ، وألقت قيادها فى أغلب العواصم لفقهاء ودعاة مربين من الأعاجم! . .

وأجدنى هنا مسوقًا لتوكيد حقيقة مهمة : إن الجنس العربى له خصائص رفيعة رشحته لظهور الإسلام فيه ، واختيار النبوة منه ، وهو إلى جانب ذلك جنس له نقائص منكورة مثل الاعتزاز بالنسب إلى حد السخف وازدراء الحرف من فلاحة وصناعة ، والحرص على الإمارة ولو بطريق اللف والخطف . .

وقد أفاد الإسلام من خصائصه ، وخبر من نقائصه ، ومن أجل ذلك نريد أن نضع فواصل بارزة بين التعاليم الإسلامية والتقاليد العربية ، فإن الأخيرة غلبت الأولى فى مجالات كثيرة .

إن أسرتين عربيتين احتكرتا فى ذراريهما مهام الخلافة العظمى بضعة قرون إلى أن سقط الإسلام بحكامه هؤلاء تحت وطأة التتار فى بغداد ، وتحت وطأة الصليبيين فى الأندلس . . بأى منطق وقع ذلك؟ . .

إن دينا عالمى الشرائع والشعائر لا يحتمل هذا السفه !

وجاء العثمانيون فقلدوا العرب ! ولماذا يكون عثمان التركى أقل من حرب أو هاشم المولودين فى بطحاء مكة؟ لقد بقيت هذه الغلطة حتى أنزلت لواء الخلافة عن الآستانة وحلت بالإسلام نكبة هائلة مهينة . .

وأرى أن الروح القبلية عند العرب كانت من وراء هذا الانحدار كله ، قديمه وحديثه . .

وعلى العرب أن يحترموا الإسلام ، وليس على تعاليم الإسلام أن تلين للتقاليد العربية .

والعرب - مع بعض الأمم القديمة - كانوا يؤخرون المرأة ، ويضيقون بالأنثى! كان الهنود يحكمون على الزوجة أن تنتحر بعد وفاة زوجها! وكان عرب كثيرون يئدون البنت بعد ولادتها . .

وجاء الإسلام فأعلن حربًا شعواء على هذه التقاليد الهمجية ، إلى أن رد للمرأة كرامتها ، وصان حقوقها المادية والمعنوية . .

لكن الاستهانة بالأنوثة بقيت كامنة فى النفوس ، تنشئ تقاليد وتمحو أخرى حتى كادت تعاليم الإسلام تطوى وتحل محلها التقاليد العربية الأولى . .

وظهر ذلك أول ما ظهر فى حرمان المرأة من التعاليم ، ومن حرمانها من غشيان المساجد ، والصلاة فى الجماعة ، وقد وازنت بين النصوص الواردة والشروح المصاحبة لها فرأيت النقائض المضحكة . .

جاء فى الصحاح عن أم عطية رضى الله عنها قالت : أمرنا رسول الله ﷺ فى الفطر والأضحى أن تخرج العواتق - الشواب البالغات - والحُيَّضُ ، وذوات الخدور - المكنونات فى الأستار - ولكن الحُيَّض يعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين! قلت : يارسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب! قال : لتلبسها أختها من جلبابها . . أى تستعير من إحدى المسلمات جلبا بًا وتخرج لتشهد الجماعة . .

قال صاحب التاج ، الجامع للأصول فى أحاديث الرسول : هذا كان فى سالف الزمان! . . أما الآن فلا يجوز خروجهن لما هن عليه من زيادة التبرج ، إلا العجائز إن كان لهن مكان خاص . .

وصاحب التاج غفر الله له يتابع فى هذا الحكم علماء السنة من قبله ، فإن شروحهن غالبًا لا تخرج عن هذا المعنى . .

والواقع أن أولئك الشراح يذهبون بعيدًا عن مراد الرسول ﷺ ، وتجرفهم التقاليد العربية ، فينسخون بها أحكام الشريعة ، ومقررات الدين . .

وفى حديث جابر - وهو فى منتهى الصحة - أن امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين ، استفهمت من الرسول عن بعض ما قال فى خطبة العيد . . والسفعاء الحمراء وزنًا ومعنى ، أو التى فى حمرة خدودها سمرة ! . .

وظاهر أن المرأة كانت سافرة الوجه دون حرج ، وهذا أمر يمارى فيه المتعصبون لبعض التقاليد الموروثة . . أما تعاليم الإسلام فموضع نظر ؛ لأنها تخالف ما ألغوا من تقاليد . .

ومن النكسات التى أصابت جماعة المسلمين ، وأوهنت قواهم من قديم ، انفصال الحكم عن العلم ، وسير كل منهما فى مجرى اختص به ، لقد كان الخلفاء الراشدون حكامًا وفقهاء معًا .

ولست أعنى بالفقه الاستبحار فى تفاصيل العبادات وفروع الأحكام كما يتصور الناس ، كلا . . كلا! . . إنما أعنى بالعلم إدراك الأصول والغايات العظمى لدين الله ، وإدراك ما يدعمها من حجج وما يشين غيرها من شبه ، والقدرة النفسية على الغرس والحصاد ، والكر والفر . .

إن المرء ليغوص فى بحار الحيرة عندما يرى كرادلة العالم النصرانى يختارون أدهاهم وأذكاهم وأجلدهم على خدمة الدين ، وعندما يرى معتنقى الشيوعية يختارون أقدرهم وأمهرهم وأشجعهم على خدمة المذهب! على حين يقود المسلمين على مر التاريخ رجل أعظم مؤهلاته أنه ينتمى إلى المأسوف على شبابه أمية بن حرب! أو الصحابى المعروف عباس بن عبد المطلب [1] أو ابن الأناضول عثمان بن هيان بن بيان! . .

إن أولئك الخلفاء لا ترشحهم مواهبهم الخاصة لمنصب ذى بال ، وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله إلا مايشجب هذا المسلك ، بيد أن تقاليد العرب اعوجت بتعاليم الإسلام كرها ودفعتها فى هذا المجرى .

ونشأ عن ذلك أن العلم بدأ يستوحش ، وقد كابر وقاوم واستمسك بحقه فى الحياة مستمدًا كفاحه من تعاليم الإسلام ، وما بقى له من كرامة بين الجماهير . .

لكن العلم ، وأعنى الدينى منه خاصة ، أخذ ينحدر ، وتقل وجاهته ، وانصرفت عنه كل الانصراف الطبقات الثرية ، أو المرشحة للوظائف العليا ، ولم يبق على الوفاء له إلا بعض المغامرين بأولادهم فى سبيل الله . . أو بعض الذين عز عليهم السير فى ميدان آخر من ميادين المعرفة فرضوا بما لا محيص عنه ، أو لا مفر منه . .

ومن انفصال العلم عن الحكم ورث المسلمون المعاصرون مشكلتين جديرتين بالنظر العميق الأولى : هجرة العقول الكبيرة إلى الغرب ، والأخرى : رداءة الأوعية الحاملة للفقه ، وطلبها للدنايا تحت أقدام المستبدين .

---

(١) نحن نحب نبينا من أعماق قلوبنا ، وهو عليه الصلاة والسلام الذى شرح لنا سنن الخلافة الراشدة فليس لأحد من أسرته أن يحبسها فى ذريته بضعة قرون .

٩٨. هل نجح الإسلام فى تحقيق أهدافه خلال تاريخه الطويل ؟

عندما قرأت هذا السؤال أسرعت بالقول : لماذا لا يوجه هذا السؤال إلى الدينين السابقين عليه من الناحية التاريخية؟ هل أحدهما أو كلاهما حقق أهدافه ، وفرض على العالم صبغته؟ . .

سكان العالم الآن أربعة مليارات ونصف تقريبًا ، فيهم مليار مسلم ، ومليار نصرانى ، ومليار وثنى ، والباقى شيوعيون! ذلكم هو الانتماء الظاهر الذى يمكن إحصاره . .

غير أنى أنظر فى الإجابة من ناحية أخرى ، أن الإسلام لا يمثل نفسه عندما يفشل فى سَوق الأحياء جميعًا تحت لوائه! إنه يمثل الأديان كلها فى الحقيقة ، فمعنى أنى مسلم أنى أؤمن بموسى كأحد أتباعه الذين عاصروه وأيدوه ، وأومن كذلك بعيسى كواحد من حوارييه الذين يحبونه وينصرونه! كل ما هنالك أنى لأضم إلى الإيمان بهذين الرجلين الصالحين! إيمانًا برجل آخر هو أخ لهما ومحيى لتعاليمهما ، رجل تلقى عن ربه هذه العبارة ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾[1] .

فإذا لم ينجح أتباع محمد فى بسط دعوته على الناس ، فمعنى ذلك فشل الدين كله والرسل جميعًا ! . .

هذا عندما يكون الرفض لحقائق الرسالة المعروضة! أما إذا كان الرفض لسوء خلق العارض وفقدانه الوعى الصحيح ، فإن اللوم أو التساؤل لا يوجه إلى الإسلام ، بل إلى الأمة التى أساءت البلاغ ، وشانت المبادئ التى تحملها! ويبدو أن ذلك هو المقصود من السؤال . .

وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال يجب أن يصاغ على هذا النحو : هل نجح المسلمون فى خدمة رسالتهم خلال القرون الأربعة عشر ، أم كان فشلهم أغلب؟ . .

ومع أنى شديد اللوم لأمتى ، دائم التقريع لها فإننى لا أستطيع أبدًا الزعم بأن

---

(١) فصلت : ٤٣ .

اليهود أو النصارى كانوا خيرًا منها حالاً ، ولا تخدعنى الهزائم السياسية المعاصرة عن تقرير الحقيقة . . فلا يزال المسلمون برغم جراحاتهم الخطيرة أولى بالله ، وأعرف برسالاته ، وأملك لأسباب العافية ، وأحق بالبقاء . .

وما قدموه للعالم ، وما ينتظر منهم تقديمه يرجح كفتهم ، ويعلى حجتهم . .

إن الإسلام انتقل بالحياة البشرية نقلة حاسمة فى عدة مجالات :

(أ) نقى عقيدة الوحدانية من كل شوائب الشرك .

(ب) رفض أى عنصر فى الإيمان يناقض العقل .

(جـ) أقر المساواة فى الحقوق والواجبات على اختلاف الألوان والأديان . .

(د) خفف من ويلات الحروب وحرم الدمار الشامل .

ومع ماتعرض له التاريخ الإسلامى من مد وجزر ، وذبول وازدهار ، فإن الأمة الإسلامية فرضت طابعها المتميز على الفكر البشرى ، وجعلت خصومها يراجعون أنفسهم ، ويجمدون بعض مواريثهم أو يتخلون عنها . .

كانت صورة الألوهية مفزعة فى كلمات بعض المتحدثين عن الله إذ يبدو رب العالمين وكأنه شخص حاسد ذاهل يخطئ ويندم ويجهل ويتراجع ، ويفتقر إلى من يرشده ويصحح له عمله . .

تأمل فى هذه العبارات : لما قرر الله الانتقام من بنى إسرائيل بعد عبادتهم للعجل قال موسى له : ارجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك! فندم الرب على الشر الذى قال : إنه يفعله بشعبه! . .

وفى مكان آخر : فندم الرب واغتاظ لما أغضبه بنوه وبناته . .

فندم الرب على أنه ملك «شاول» على إسرائيل ! .

الرب كجبار يبرز ، وكرجل قتال يثير غيرته ، ويهتف ، ويصرخ ويظفر على أعدائه . .

سطع دخان من أنفه ، ومن فيه نار آكلة جمر متقد ، طأطأ السموات والضباب تحت قدميه ، ركب على كروب وطار ، وخطف على أجنحة الرماح . . إلخ . .

وقد يعجب المرء عندما يرى أن الله أخرج آدم من الجنة غيرة منه أو خوفًا من مزاحمته له . .

والنص الوارد أنه حظر على آدم الأكل من شجرة المعرفة خشية أن يكون مثله . .

إن عقيدة الوحدانية والكمال المطلق لله سبحانه وتعالى كما عرضها المسلمون ، قهرت وبهرت وجعلت العالمين يستكينون إليها ويتجاهلون ما عداها أو يذكرونه بحياء وإغماض! . .

وهذا أثر إسلامى لا مثيل له . .

وقد غالى المسلمون بالحكم العقلى ، وقرروا أن ما يرفضه العقل يستحيل أن يكون دينا . . بل هو أهواء البشر . . وهذه النزعة الإسلامية شقت طريقها إلى مستقبل الإنسانية ، وتخاذلت أمامها الملل والنحل .

ويسوؤنا أن نتهم الحضارة الحديثة بأنها لاتزال تحترم التفرقة العنصرية ، وتتعامل مع الأجناس الملونة ، ومع معتنقى الإسلام خاصة بمشاعر الضغن والزراية! . .

إن القوانين ـ من الناحية النظرية ـ تلغى هذه التفرقة ، أما من الناحية العملية فالحيف ينزل بالضعاف من المسلمين والزنوج دون حرج ، وقد أصدرت هيئة الأمم المتحدة ٢٥٠ (مائتين وخمسين) قرارًا لمصلحة أهل فلسطين ، لم ينفذ منها قرار واحد! .

ولم يعرف المسلمون بتة حروب الإبادة الجماعية ، ولم يعرف العالم فاتحًا أرحم من العرب ، بل إن الأكراد والأتراك المسلمين كانوا أعف ألف مرة من الدول الأوربية الغابرة والحاضرة على سواء . .

وطيبة المسلمين إلى حد الغفلة المعيبة هى التى تجعلهم ينسون ما حل بآبائهم وإخوانهم فى أيام نحسات . .

لقد غزا «نابليون» مصر والشام فقتل فى الشام أربعة آلاف أسير بعد ما أمنهم على حياتهم . .

واستحر القتل بسكان مصر فى الوجهين البحرى والقبلى والعاصمة نفسها حتى اهتز عدد السكان ، ولايريد أن يذكر هذا أحد .

ويظهر أن اغتيال الأسرى على كثرتهم داء قديم ، فإن صلاح الدين الأيوبى أرسل إلى «ريتشارد» ملك إنجلترا ـ وكان على رأس حملة صليبية تقاتل المسلمين فى الشرق ـ أرسل إليه بفدية كبيرة ليفك قيود هؤلاء الأسرى فماذا حدث؟ . .

إليك ما كتبه «ستيفن رنسيمان» فى الجزء الثالث من «تاريخ الحروب الصليبية» بعد ما شرح مراوغات «ريتشاد» وتعنت مفاوضيه قال : أضحى «ريتشارد» حريصا على أن يغادر عكا وأن يزحف على بيت المقدس ، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له ثم انشرح صدره للخلاص منهم بعد ما دبر اعتذارًا رآه مقبولا ، قال : إن صلاح الدين نقض عهده معه ، ومن أجل ذلك فقد أمر بالإجهاز على ٢٧٠٠ ألفين وسبعمائة أسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا! . . قال المؤلف : « . . واشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة ، وحمدوا الله فى جزل وسرور . . حسبما يروى المدافعون عن ريتشارد ـ فقد هيأ لهم فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة أثناء الهجوم عليها ، ولقى زوجات الأسرى وأطفالهم مصارعهم إلى جوار رجالهم ! . .

ولم يبق الصليبيون إلا على بعض رجال يستفيدون منهم فى أعمال السخرة ، وبعض الأعيان ، أما الباقون فقد فنوا جميعًا ، وشهد المسلمون المرابطون فى أقرب المعاقل إلى عكا ماقد حدث فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم وأهليهم ، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام فقد عجزوا عن الوصول إليهم . .

ولما انتهت المذبحة غادر الإنجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة ، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على أصدقائهم الذين استشهدوا . .

لندع هذا المشهد الكئيب ، ولنترك دلالاته البينة ، ولننتقل مع «ستيفن رنسيمان» إلى مشهد آخر ذكره فى الجزء الثانى من كتابه بعد ما انتصر صلاح الدين فى حطين . . قال : «وقبل صلاح الدين أن يضع شروط الصلح ، فعرض بأن بوسع كل مسيحى أن يفتدى نفسه ، على أساس عشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينار للطفل ، وعندئذ أشار باليان إلى أن بالمدينة حوالى عشرين ألفًا من الفقراء ، ليس بوسعهم أن يؤدوا هذا المبلغ ، أفلا يجوز للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغًا إجماليا ، لافتدائهم ورضى صلاح الدين بأن يقبل مائة ألف دينار عن جميع العشرين ألفًا ، غير أن باليان أدرك أنه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم ، فتقرر إطلاق سراح سبعة آلاف مقابل دفع ثلاثين ألف دينار وبناء على أوامر باليان ، ألقى العسكر السلاح . وفى يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، ويوافق هذا التاريخ السابع والعشرين من رجب ، الذى

يجرى فيه الاحتفال بعيد الإسراء ، حين أسرى النبى إلى بيت المقدس ، ثم ارتقى إلى السماء . .

والواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه . إذ صار رجال الشرطة ، بناء على أوامر صلاح الدين ، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين . وفى تلك الأثناء حرص كل مسيحى على أن يلتمس المال اللازم لافتدائه . وأخذ باليان كل ما فى بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء ، وقدرها ثلاثون ألف دينار . ولم يخرج الاسبتارية والدواوية عن شىء من أموالهم إلا بصعوبة ، ولم يحفل البطريرك وهيئة الكنيسة إلا بأنفسهم ، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدى عشرة دنانير ، مقدار الفدية المطلوبة منه ، ويغادر المدينة ، وقد انحنت قامته لثقل مايحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات التى تحمل ما بحوزته من الطنافس والأوانى المصنوعة من المعادن النفيسة . وبفضل ماتبقى من منحة الملك هنرى الثانى ، تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء . وقد كان يصح أن ينجو من الاسترقاق ألوف عديدة من المسيحيين لو أن الاسبتارية والدواوية والكنيسة كانوا أكثر سخاء . ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين ، تألف الأول من أولئك الذين افتدوا أنفسهم ، أو تم افتداؤهم بفضل جهود باليان ، أما الطابور الثانى فشمل أولئك الذين لم يستطيعوا افتداء أنفسهم ، ولذا توجهوا إلى الأسر . ومن المناظر التى تدعو للأسى والحزن ، ما حدث من التفات العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير ، على سبيل المكافأة عن خدماته له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق العادل على الفور سراحهم . وإذا ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير ، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم ، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير ، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير . ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز . ولما أقبل نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن ، وقد امتلأت عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن ، بعد أن لقى أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر ، أجاب بأنه وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن .

وبذل الأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٌّ بحسب حالته . والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة فى الحملة الصليبية الأولى» . .

إن الأمة الإسلامية ـ برغم تعاسة الظروف التى ألمت بها ـ أرست قواعد خير كثير فى هذه الحياة ، وما يبقى لها بعد معادلات الحذف والإضافة يزينها ولا يشينها . .

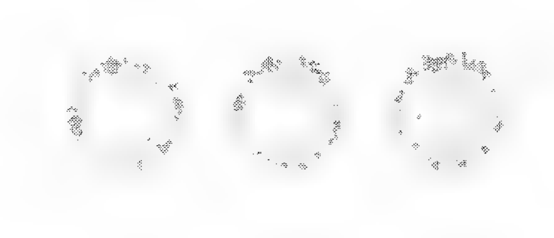
وأعرف أن خصومها أصفق وجوها وأقدر على فعل المناكر ودفنها فلا تعرف ، وأجرأ على تلمس العيوب للبرآء ، والإصرار عليها حتى تثبت . .

وفى عصرنا هذا أمر رجل دين أحمق فى غيانا بأمريكا الوسطى ألف شاب بالانتحار الجماعى ، فماتوا كلهم فى صمت! ولو فعل شيخ مسلم واحد فى المائة من هذه المأساة لدمغت الأمة الإسلامية بعار لاتقدر على الإفلات منه! ولنسب للإسلام كل شر ! . .

وما ننكر أن هناك منصفين صارحوا بفضل الأمة الإسلامية على العالم وآخر ماقرأنا لهؤلاء كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» لأستاذة ألمانية طاهرة الذمة . .

صحيح أن المسلمين اليوم فى أوضاع بالغة السوء! وصحيح أن فساد الحكم حقبا طويلة من وراء هذا الانحدار ، بيد أن الأمة الجريحة لاتزال أنبل من قاتليها ، ولاتزال ثروتها الروحية أجدر بالتقدير ، وأحق بالتقديم . .

إن الذكاء الأنانى فى أوربا وأمريكا سيجر الويل على أصحابه وقد يجره على العالم كله ، ما لم يرحمنا الله . .



٩٩. كيف تتصور مستقبل الإسلام فى عالم الغد؟

حاضر المسلمين يقبض الصدر ، وقد يبعث على التشاؤم! ولكنى واثق من أن هذه المحنة ستنجلى كما انجلت محن أخرى فى أيام مضت . .

على أن انجلاء المحن لايشبه انقشاع السحب ، نرقبه ونحن مكتوفو الأيدى . . كلا ، لابد من عمل جاد وسعى لاغب . . أو كما قلت فى موضع آخر : لابد أن يعتنق المسلمون الإسلام يقينا وخلقًا ونشاطًا وفكرًا . .

أما مع النقائض الموجودة فيستحيل أن يكسب المسلمون خيرًا . .

إن أعطابا نفسية وعقلية أصابت كيانهم بشلل لا تعرفه أمم أخرى ، وألحقت برسالتهم مهانة كبيرة . . أقول ذلك وأنا أقرأ كلمات للمهندس ماهر أباظة وزير الكهرباء جاء فيها : إن قطاع الطاقة ظل يبحث منذ خمس عشرة سنة عن سر صناعة مادة معينة فى العازلات الكهربائية دون جدوى فقد رفضت الشركات الأجنبية ـ نحو سبع شركات ـ أن تعطى أسرار هذه التكنولوجيا حتى تبقى المصدر الوحيد لها وحتى تبيعها وفق شروطها . .

قال الوزير : ثم تطوع العلماء الصينيون بإخبارنا أن المواد التى تصنع منها هذه العازلات موجودة فى تربتنا ، وأنهم سيرسلون خبراءهم ليرشدونا إليها فى بلادنا!! . .

علماء الصين درسوا طبيعة أرضنا فى البحر المتوسط إننى لم أدهش للخبر . . لأنى لما ذهبت إلى «نواكشوط» عاصمة موريتانيا عرفت أن المياه التى تغذى العاصمة تأتى من آبار جوفية اكتشفها الصينيون ، وقاموا بمد أنابيبها إلينا ، لقد عرفوا وهم على المحيط الهادئ خيرات أرضنا على المحيط الأطلسى . .

قلت لنفسى : إننى أعرض الدعوة الإسلامية كلامًا ، وهؤلاء الصينيون يعرضون الدعوة الشيوعية عملاً . . وخامرنى حزن عميق . .

ومضيت أتابع ما قرأته فى موضوع العازلات الكهربية ففوجئت بأمر آخر ، لقد تكلم عالم مصرى هو الدكتور عصام حسن يقول : إن مادة الكولين التى تنتج العوازل المطلوبة موجودة فى سيناء وفى كلابشة ، وإن إمكانات استخدامها قدمت

إلى الإدارة المصرية من سنين طويلة ، وهى إلى الآن حبيسة أدراج بعض الرؤساء!
قال : وإن العلماء الصينيين لم يعرفوا نبأ هذه المادة إلا من كتابات وبحوث العلماء المصريين التى نشروها فى الخارج !

لقد صدقت هذا التعليق ، وأدركت أن المحنة ليست جهلنا ، وإنما هى تبلد بعض الرؤساء أو هى ما أشرت إليه فى إجابة سابقة ، انفصال العلم عن الحكم فى أغلب البلاد الإسلامية .

فالأمر كما قيل :

إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة أو كنت تدرى فالمصيبة أعظم!

ويظهر أن هناك نوعين من الشلل الجزئى يقطع دورة الإحساس فى الكيان الإسلامى العام ، ويقعد الأمة عن أداء رسالتها الكبرى . . ذاك لو بقى لدينا شعور بأننا نحمل للعالم رسالة كبرى . .

إن الوهن الذى حل بالمسلمين دوَّخهم ، وجعل أبصارهم عند مواطئ أقدامهم .

ولكى نطمع فى استماع الناس إلينا يجب أن نقول ما يعقل! أو نعقل ماقيل لنا فى كتابنا ونكون نموذجًا حسنًا له . .

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقول بعض «العلماء» : الحاكم يمضى فى طريقه دون اكتراث بالشورى ؛ لأنها غير ملزمة له؟ هل تخدم الفرعونية بأفضل من هذا اللغو . .

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقال فى حكومته : إنها حكومة الحزب الواحد؟ . .

إن أقمار التجسس الأمريكية صورت الطائرة الكورية التى أسقطت قريبًا من قاعدة عسكرية روسية ، ولا يزال بعض علمائنا يحارب التصوير بضراوة ، ويراه وثنية! . .

وبعضهم حكم بأن وصول الأمريكيين إلى القمر خبر آحاد ، لا يفيد العلم ، وأن الأمر إشاعة . .

ولنترك هذا الهزل إلى آفة تخدش الفكر الدينى! إن مناقشة السند أو التمحيص النظرى للحكم المروى أساس الحكم فى القضايا المعروضة ، أما ملاحظة الآثار الاجتماعية عند ترجيح اجتهاد على اجتهاد فلا يلتفت إليها . .

ومن هنا استبعد رأى ابن تيمية فى رفض الطلاق البدعى ، ورفض الآثار المترتبة عليه . .

واستبعد رأى أبى حنيفة فى أن المسلم يقتل فى الذمى أو أن المرأة تباشر عقدها ، وكان العمدة عند المستبعدين مجرد النظر فى قواعد الاستدلال ، أما استقصاء الأبعاد الاجتماعية لهذه الأحكام الفرعية العملية فلم يرد على البال . .

ونحن لا نهون من قيمة الاستدلال فى القضايا الاجتهادية ، وإنما ندعو إلى احترام التقاليد المستقرة فى بيئات كثيرة مادام لا يصادمها نص ، كما نرفض التشبث باجتهاد ما إذا كان يعوق سير الدعوة الإسلامية ، فلا وزن لاجتهاد فرعى يعترض انتشار الأصول والأركان . .

وإذا رأينا أن الأوربيين يقبلون الإسلام لو سمحنا للمرأة بالقضاء فى الدماء والأغراض ، وولاية المناصب العامة فليدخلوا فى الإسلام! وليعلموا بمذهب ابن حزم! أليس ذلك خيرا لنا ولهم ؟ .

وقد أمسى الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة بعد ما اقتحمت دار الإسلام من أقطارها ، ومن أبجديات الجهاد العلم بكل ما أودع الله من قوى فى أرجاء البر والبحر والجو ، إن هذا العلم الضرورى يسبق علومًا كثيرة ظهرت أيام الترف والتفوق ، بل لقد أمست علوم اللغة العربية من فروض العين على المثقفين ، بعد ما تدحرجت هذه اللغة ، وأسقطت مكانتها عن عمد . .

ومن النفاق أو الجبن شغل المسلمين بنوافل علمية أو عملية قبل استكمال الفروض المهملة . .

بناء الأمة الإسلامية من جديد يفرض على الساسة والدعاة والفقهاء أن يمعنوا النظر ، ويطلبوا التفكير ، وأن يحاربوا بجهد متساو الغزو الثقافى الوافد من الخارج والانحرافات الكثيرة المتوارثة من الداخل . .

وللأخلاق قصة لايجوز إغفالها . . هناك أخلاق تنشأ من حسن معرفة الله ، أو من صدق عقيدة التوحيد ، أبحث عنها فى سلوك خاصة وعامة فلا أجدها . .

هل أستطيع وصف رجل يخاف الناس ولا يخاف الله ، ويسترضى الناس ولا يسترضى الله ، ويتوكل على الناس ولا يتوكل على الله ، هل أستطيع وصف هذا المخلوق بأنه مسلم؟!

وهناك جملة أخلاق تقوم على محو النفاق وتزكية السريرة وتنضبط بها الأعمال والأحوال ، نبه إليها النبى العظيم الذى قال : «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» ، إنه أحصى أمارات النفاق فى الكذب وخلف الوعد وخيانة الأمانة ونكث العهود والفجور فى الخصومة! ماذا يقول المسلم؟ . . إذا كانت مجتمعات أخرى أحرص منا على الصدق والأمانة والوفاء والسماحة؟ . .

ولقد رأيت نظافة القرى والمدن فى أم شتى ، ورأيت النظام الصارم يشيع بين مشاتها وركابها وألقيت نظرة خاطفة على بلادنا ثم شعرت بغصة . .

لا أدرى ماذا حدث لنا؟ إننا نموت ونميت ديننا معنا !

ورأيت عمالاً يكرهون الإتقان ، وموظفين يكرهون الخدمة العامة ، ورؤساء يشبعون مركبات النقص أو عقد الوضاعة وينظرون إلى الجماهير من أعلى . . وهم آلهم وعشيرتهم . .

إن قضايا الأخلاق أخطر من قضايا أخرى لاسيما والخلق عندنا يتركز على الإيمان بالله ، ولا يتركز على فلسفات بشرية أو مادية ، وذلك يعنى أن هدم الإسلام - وهو دين أكثر من تسعة أعشار العرب - لا ثمرة له إلا ضياع الأخلاق يقينا . .

وعندما يقول الله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ** ﴾[1] .

فلا تنتظر عدالة ، ولا شهادة نقية من شخص خرب القلب! والواقع أن الذين ينتقضون الإسلام ويعبثون بشعائره يهزون الأخلاق هزا ، وينشئون أجيالاً لا تصلح فى حرب ولا سلام . .

وليس بقائم بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خراباً!..

يجب أن تقوم للإسلام أمة تعمل به ، وتعطى صورة صادقة له . . ومن السفاهة تكليف العالم أن يدرس الإسلام مجرداً من سيرة معتنقيه . . وتحميله مسئولية فلسفية عن كفره وإيمانه بعد تلك الدراسة العجيبة . .

وأرى أن الصحوة الإسلامية المعاصرة مكلفة بتكوين هذه الأمة الجديدة ، وإنصاف رسالة الإسلام من هذا البلاء . .

---

(١) النساء : ١٣٥ .

ومع تمام هذا التكوين نعرض أنفسنا على ساكني القارات المعمورة ، واعتقادى أن النجاح سيكون حليفنا ، فإن لصاحب الحق مقالاً ، وللحقيقة سناؤها وإغراؤها ، وقد سئم الناس ما صحب الحضارة الحديثة من جفاف وإباحية ، ومن شره ووحشية ، ومن بعد عن الله وكفر بلقائه . .

وفى حقائق الإسلام ، وشعب الإيمان الجامعة الجليلة ما يغنى ويستحق كل حفاوة . .

وفى لقائى ببعض الكبار الذين أسلموا رأيت أن الجانب العاطفى من الإسلام هو الذى اجتذب الانتباه ، أو المنطق العقلى للقرآن الكريم ، أى أن القوم ينشدون ما ينقصهم . .

وهنا ألفت النظر إلى أن بالإسلام أصولا صلبة ، وفروعا مرنة ، وفيه أقوال وآراء نسبتها إلى الناس أقرب من نسبتها إلى رب الناس ، والدعاة الراشدون يعرفون واجبهم بإزاء هذا كله . .

وأخشى أن يذهب داعية ليطعن فى قانون السببية ويزعم أن النار لا تحرق بحرها ، وأن السكينة لا تقطع بحدها ، كما هو مقرر فى كتب الكلام عندنا . .

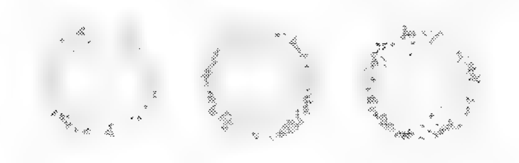
أو ليذهب آخر ليقول : لا تقيدوا الحاكم بالشورى ، فليس يجب عليه ذلك . .

أو يذهب آخر فيقول : لابد من ضرب النقاب على وجوه النساء وحبسهن فى البيوت أغلب العمر ، فلا تتعلم ولا تعبد ولا تمشى فى الأسواق . .

إن أصول الإسلام ومعاقد العبادات والأخلاق هى التى يدعى إليها ، والناس يتخيرون بعد مايعجبهم من تفاسير ووجهات نظر . .

وفى رأيى أن النموذج العلمى الذى يقدمه المسلمون هو الأساس الأول لنجاح الدعوة . .

ثم إن الدول الإسلامية الكثيرة يجب أن تتقارب وتوهى الحدود بينها ، ولا بأس أن يبدأ ذلك بأسواق مشتركة أو بتكوين اتحادات إقليمية كما تم بين دول الخليج ، ودول وادى النيل ، وما يقترح بين دول المغرب الكبير . . على أن يكون الهدف الأهم تجميع المسلمين كافة فى كيان واحد ، أو جسد روحه الإسلام .



١٠٠. إلى أى مدى يمكن أن نقتبس من هذه الحضارة المعاصرة؟

كان رجال التعليم والتربية فى اليابان أيقاظًا عندما اتصلت بلادهم بأوربا فى القرن الماضى ، أو قل : كان حراس التقاليد الموروثة صاحين عندما قررت اليابان الاستفادة من التفوق الصناعى الغربى ، فقد أعدوا لكل جديد يقتبس مكانه فوق أرضهم ، ومساحته المادية والأدبية التى لا يعدوها ، وهيمنوا ببصر حاد على الآثار المتوقعة حتى لاتفلت من أيديهم ، أو تتحرك بعيدًا عن خططهم المرسومة . .

ومع التزام هذا الخط الصارم بقيت الشخصية اليابانية محفوظة السمات ثابتة الملامح ، فانتقلت الصناعات الغربية إلى اليابان ، ولم يتحول اليابانيون إلى أوربيين فى عقائدهم أو لغتهم أو آدابهم وأخلاقهم . .

إنهم فعلوا ولم ينفعلوا وقادوا ولم ينقادوا . .

وكانت هناك أديان بينها فجوات ، البوذية من ناحية ، والشنتوية من ناحية أخرى . . والأتباع المخلصون تتقسمهم وجهات نظر شتى ، ومذاهب فقهية كثيرة ـ إن صح التعبير ـ بيد أن لونا من المعايشة السلمية فرض نفسه على الجميع فإذا اليابانيون كلهم دون حساسيات دينية يتعاونون على إنهاض بلدهم ورفع لوائه ، وتم لهم ما أرادوا . .

إن للنجاح الحقيقى أساسًا لا يتغير . . هو النفس الإنسانية ، فإذا استقر هذا المهاد لم يبق شىء ذو بال ، وقد كان محمد ﷺ أعرف إنسان بهذه الحقيقة ، فاتجهت جهوده كلها قبل أى شىء إلى داخل الإنسان تصوغه وتضبطه وتطمئن إلى قراره ومساره ، وهو يعرف أن هذا الإنسان سوف يفرض نفسه على بيئته يومًا عندما تنزاح العوائق من أمامه . .

ولم يحاول قط الاصطدام بالأسوار الخارجية قبل استكمال هذا الداخل المهم . . ومن ثم ترك الأصنام منصوبة حول الكعبة عشرين سنة ، لم يهشم واحدًا منها فى معركة طائشة ، بل الثابت فى سيرته أنه طاف فى عمرة فى السنة السابقة حول الكعبة والأصنام جاثمة حولها ، وفى الأوضاع التى كانت عليها من بدء الدعوة . .

أكان ذلك بقيا عليها ، أو توقيرًا لها؟ . . كلا . . لقد كان يعلم أن لها أجلا لا ريب فيه ، وأنها عن قريب أو بعيد ستتحول جذاذا . .

ومن الذى يقوم بهذا التحويل الحاسم؟ الرجال الذين استناروا من الداخل ، وتربوا على التوحيد الحق . .

لقد عرفوا أن الذباب أقوى من هذه الأصنام ، وأنها لا تثبت فى معركة معه . . ألم يتلوا قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[1] .

فليتربصوا بهذه الأصنام يومًا لا ريب فيه دون استعجال ، وليهتموا بداخلهم يتعهدونه فهو الوجود الآتى مع الغد . .

ويتساءل أناس : ما هذا التعهد الشاغل المهم؟ ونقول : هو تعهد الوعى ليكون صحيحًا ، والباطن ليكون نظيفًا ، والخلق ليكون عظيمًا ، والإخاء ليكون وثيقًا ، والهدف ليكون واضحًا . . فالأمم لا تبنى بالصور وإنما تبنى بالحقائق . .

إن المنافقين أحسن الناس للمراسم ، وقلوبهم هواء . . أما المؤمنون فإن نضج نفوسهم ، وزكاة سرائرهم ، هما سر عظمتهم ، وسر مآل الأمور إليهم . .

ولا يعرف فى تاريخ الهداة رجل مثل محمد ﷺ أحسن صوغ النفوس وإيقاظ ملكاتها وإدارتها بأعظم ما فيها من طاقة ، وجعلها تدفع ولا تندفع ، وتؤثر ولا تتأثر . .

فهل نحن الدعاة المنتمين إليه نفهم هذا المنهج ، ونلتزم منطقه؟؟ . . إن الموجهين اليابانيين كانوا أذكى منا وأقدر فى مواجهة المشاكل وهزيمة الصعاب . .

نظرت بحسرة إلى «الخلق الفردى» فى الإفادة من التقدم الصناعى العالمى ، ما هذا؟ هذا شاب يقود سيارة فارهة ، تنهب الأرض نهبا ، ينزل منها بأناقة وكبرياء ، ويرمق الشارع بنظرة استعلاء ، يشترى بعض السلع ثم يمتطى سيارته ويعود من حيث جاء . .

إنه مازاد من الناحية الإنسانية شيئًا عن الأيام التى كان سلفه يمشى فيها حافيًا أو منتعلاً . . وما تشرف به أمته ولا أسرته .

---

(١) الحج : ٧٣ .

وهذا عامل قادم من وادى النيل ماذا حمل إلى وطنه؟ «فيديو»! إن المسكين جمد عرق جبينه وارهاق أعصابه فى هذا الجهاز المسلى ، وسيحمله منتصب القامة والهامة لأنه أصبح به أرفع مستوى ، وما درى المسكين أنه بما يحمل نقص وما زاد . .

العرب فى الحضارة الحديثة شعوب مستهلكة تتنافس الدول الصناعية على إلهائها بالأدوات البراقة والمخترعات المريحة .

والدعاة لا يدرون كيف يستنفذون أمتهم المخروبة من هذه الأوضاع القاتلة ؛ لأنهم لايتجهون إلى داخل الإنسان المسلم ، يحركون ماتوقف من أجهزته ، وينيرون ما أظلم من مصابيحه . . إنهم يتحركون نحو الظاهر القريب أو تحته بقليل . .

إن قدرة أمة ما على الصدارة فى الأرض ، أو توريث أمة ما قيادة العالم كما يعبر القرآن الكريم ، لا يجىء بين عشية وضحاها ، ولا يتم بخصائص سهلة ، لا أن له صلاحيات معينة أومأ إليها الوحى فى قوله سبحانه :

﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾[1] . .

لا تظن المدى قريبًا بين ماقصه القرآن الكريم عن ذل بنى إسرائيل قديمًا ، وبين تمكينهم فى الأرض بعد ذلك . عندما توعد فرعون قوم موسى ، وجاء على لسانه . . ﴿ **سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾[2] . . قال موسى لقومه : ﴿ **اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[3] .

ومرت السنون ، وتغيرت الأوضاع ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾[4] إن ذلك كله لم يتم فى أيام قلائل ، إنه استغرق عشرات السنين ، حتى أمكن وفق سنن الله الاجتماعية أن يرزق العبيد أخلاق السيادة الحقيقية . .

والواقع أن العرب أيام البعثة تعهدتهم بالصقل والتهذيب يد صناع ، ومضت بهم فى طريق المجد نبوة ملهمة ، نبوة حولت الماء والطين إلى أزهار ورياحين . .

نعم إن الإسلام حول العرب إلى ربانيين بعد ما كانوا شياطين ، وجعلهم نماذج تحتذى فى ميادين العبادات والمعاملات ، فكانت قيادتهم خيرًا وبركة وكانت فتوحهم الفكرية والروحية أندى وأجدى من فتوحهم العسكرية الخارقة . .

---

(١) الأنبياء : ١٠٥ .   (٢) الأعراف : ١٢٧ .   (٣) الأعراف : ١٢٨ .   (٤) الأعراف : ١٣٧ .

وعندما سقطت القيادات القديمة من الفرس والروم لم يبكها أحد ، لم يتخلف عن سقوطها فراغ يحاول الآخرون ملأه! بل الذى حدث أن الشعوب تنفست الصعداء ، ورأت أن ما جد فى ربوعها أولى بالتقدير والاحترام ، أو أولى بالرعاية والحماية .

لكن عرب اليوم على غرار آخر ، ودعك من التخلف الصناعى والحضارى ، ولننظر إلى قضايا اجتماعية وأخلاقية هى من صميم حياتنا الداخلية . .

ما تقاليد الزواج عندنا؟ هناك أعراف متبعة أن قبيلة دون قبيلة . . وأن أسرة أعرق من أسرة . . وأن مكانة امرئ ما تنبع من نسبه . . وقد ساند هذا السلوك الجائر تفكير فقهى يؤكد أن المرأة من بنى أمية أو بنى هاشم لا يرقى إلى مستواها الرجل من عرق آخر . .

أليست هذه هى التفرقة العنصرية التى جاء الإسلام لمحوها؟ هل نستطيع تصدير هذا التفكير إلى العالم؟ وهل نكون صادقين مع الله عندما نزعم أن ذلك دينه؟ . . وهل يقبله أهل الأرض منا ؟ . .

وفى أقطار كثيرة رأيت الشباب يئن من غلاء المهور ، وأحسست أن العوائق هائلة دون الحلال وأن المغريات كثيرة نحو الحرام ، فهل هذا العجز فى علاج أهم الغرائز البشرية يعد نصرا إسلاميا ، وهل رسالة أمتنا الاجتماعية تصعيب الطيبات وتيسير الخبائث ، وهل يهش العالم لتقاليدنا تلك؟ . .

ولا أمضى فى سرد أمثلة لتعثر قضايانا الإجتماعية ، وإنما أمد البصر لقضايانا الخلقية التى لن نستورد لبحثها خبراء أجانب . .

شكا لى شاب ناشئ موهوب ، وعورة الطريق أمامه ، فقلت له يائسا : امض بمواهبك إلى الأمام دون انتظار عون من أحد . . بل توقع الكبد والصد لأن البيئات التى نعيش فيها لا ترحب بالموهوبين ، ولا تؤتى كل ذى فضل فضله . . لا كارهة ، أو مغلوبة . .

أغلب الناس يعيش داخل قوقعة من نفسه ومآربه ، وقلما يلتفت إلى الآخرين ليسدى عونا ، أو يقدم يدا . .

والطريقة التى يدرسون بها الدين لا تعين على زكاة النفس وسنائها ، فالأجرب عندما يرتدى ثوبا غاليًا جميلاً قد يستر علته حينا ، بيد أن ذلك لا يشفى سقامه . هكذا نرى الذين يؤدون مراسم العبادات ، ولا يهذبون أنفسهم . .

الفارق بين الإنسان والحيوان أن الحيوان يتحرك بدوافع حاجاته الخاصة ولا يحس إلا ذاته! أما الإنسان فالمفروض أنه يحيا فى مجتمع له ضوابطه وآدابه ،

وعلى المرء أن يحس بنفسه وبغيره معًا ، والصورة الدنيا للسلوك البشرى تظهر فى أفعال المجرمين الذين لا يهتمون إلا بما يشتهون ، أما صور الرقى المنشود فتتضح كلما اختفت الأنانية ، ونما الإحساس بالغير ، والتقدير لحقوقه . .

وقد أقام الإسلام شعار «فى سبيل الله» ليخلع الإنسان من أثرته ، ويدفعه إلى ربه! فالإنفاق ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، والجهاد ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، والسعى فى هذه الدنيا ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، بل المحيا والممات جميعًا فى سبيل الله . .

وهذا الشعار يعنى فى النشاط العام أمرين : ابتغاء وجه الله ، وتحقيق المصلحة العامة ، وفقهاؤنا يرون أن حق الجماعة داخل فى كل ما هو لله ، إذ الإسلام يمزج بين الدين والدولة ، والعبادات والمعاملات . .

والذى حدث فى هذا العصر أن المقاييس الأخلاقية فى الغرب غالت فى حق المجتمع ، وقهرت به النوازع الشخصية ، وجعلت «المواطن» يرعى وطنه ، ومصلحة قومه ورفعة أمته . . إلى آخره ، وضبطت بذلك أنانيته الخاصة . .

أما المنتمون إلى الدين فإن شعار فى سبيل الله «نسى ، أو تنوسى ، فى مجال التربية»! . . وترك سرطان الأنانية يمتد ويتوغل ، فماذا كانت النتيجة؟ . . فرقة مستغربة بين مجاهدى أفغانستان ، وبين محررى فلسطين! وسيطرت المآرب على أغلب الأنشطة العامة . . فإذا الشخص الذى يعمل لوطنه فى أوربا أيقظ ضميرًا من مثيله الذى ينتمى إلى الدين ولا يفكر فى سبيل الله ، وإنما يفكر فى تنمية ثروته أو دعم مكانته . .

إن المبدأ الإسلامى الأول فى التربية وهو : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾[1] لا يتحقق بالدعوى ولا بالصياح ، وإنما يتحقق بتطبيق عميق حاسم فى شئون الحياة ، وبين جميع الطوائف . .

إن «ديجول» ولى نعمة فرنسا الحديثة دفن دون! : الأدغال فى قريته ، وامرأته الفاضلة تعيش بين جدران ملجأ يرعى شيخوختها . . على حين نرى من خانوا أمتهم أو غشوها يدفنون وسط أحفال مائجة ، وتوضع فى أفواه أسرهم ملاعق الذهب ! فهل هذه مثاليات الإسلام كما نراها؟ وهل تنتصر الدعوة الإسلامية بهذا التفاوت الصارخ؟ . .

---

(١) الشمس : ٩ .

إن الطيبة أو التقوى أو القدرة على ميز الخبيث من الطيب وإيثار الحسن على القبيح ، كانت المشاعر التى برز بها سلفنا الأولون بل آباؤنا الأقربون . . ولقد عرفت فلاحى قريتنا وأنا صغير ينامون مبكرين بعد صلاة العشاء ، ويستيقظون مع الفجر ، فيذهبون صوب حقولهم ، وقد تذهب إليهم زوجاتهم أو أولادهم بالغداء ، فما يعودون من مزارعهم إلا مع الغروب . . وكانت أراضيهم تدر السمن والعسل ، وبركات الله تنهمر عليهم بالغدو والآصال . .

والآن بعد السهر والسمر على شتى البرامج والنوم حتى الضحى ، وإضاعة الصلاة ، واتباع الغفلات ماذا نجنى؟ . .

والسؤال نفسه مع أهل الخليج ، لقد سمعت معمرين منهم يتحدثون عن الماضى بأسى وإعزاز معا! يقولون : كنا فقراء ، ولكن الرجولة والاستعفاف وتقوى الله كانت تسود الآفاق . . إن الغد مع الشهوات الواغدة الوافدة مر الثمر . .

أريد من أمتنا أن تقتبس من حضارة الغرب ما يوافق أو يتواءم مع فطرة الله فى مواريثنا . .

ثم ماذا على الدعاة والمربين لو درسوا الأساليب التى اتبعها اليابانيون فى الاستفادة من هذه الحضارة؟ . .

ثم إن هناك خللا فى التركيب الإنسانى لأمتنا طرأ عليها مع ترادف العلل السياسية والاجتماعية ، جعل المنطق العلمى يتقهقر ، وتحل محله الأوهام ، وجعل الاكتمال النفسى يضعف وتسد فراغه بعض الشعائر وصور الطاعات . .

وعلماؤنا الكبار لم تخدعهم هذه النقائض ، ولذلك رفض ابن القيم من الغنى البخيل أن يكثر الذكر ويطيل الصيام ، فعبادته الأولى العطاء! كما رفض من الداعية الجبان أن يثرثر بالأوراد ، ويعتكف بعيدًا عن الناس فعبادته الأولى الأمر والنهى والنصح .

وفى عصرنا هذا لا يخفى ما تحتاج إليه أمتنا كى تنهض من عثرتها ، وما أيسر التوفيق بين التقدم الحضارى ومواريث الدين والخلق ، والوفاء بحقوق الله . .

الفهرس